التمهيد في علوم القرآن

العلامة محمد هادي معرفة

الجزء الرابع

دار التعارف للمطبوعات



العلامة محمد هادي معرفة

الجزء الرابع

دار التعارف للمطبوعات



اسم الكتاب : التمهيد في علوم القرآن

المؤلف : محمد هادي معرفة

الطبع : قام بطبعه الوجيه المهندس وحيد خاكى – قم المقدسة

الناشر : دار التعارف للمطبوعات

السنة : ١٤٣٢ هـ - ٢٠١١ م

دار التعارف للمطبوعات

العنوان: بيروت - حارة حريك - شارع دكاش - بناية الحسنين

ت: ٠٠٩٦١١٢٧١٩٠٧ - ٠٠٩٦١٣٨٢٣٦٢٠

المستودع: حارة حريك - خلف كنيسة مار يوسف - بناية دار الزهراء

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى محمد وآله الطاهرين.

فهرس مواضيع الكتاب

الإهداء

إليك يا ولدي ويا فلذة كبدي، بل وكلّ أملي في الحياة ومُرتجايَ في مسيرة الوجود...

إليك أُهدي هذه البقيّة من ثمرات هذا المجهود.. فقد فُزْتَ بدرجة الشّهادة في غُضُون فوزك برفيع منزلة العلم والكمال.. فَجَمعت بين الفضيلتين وحُزْتَ قَصَبَ السبق في كلا المضمارين.. واستوجبت لنفسك الهناء بهذا المتواضع من الحباء...

إنّك عِشْتَ ـ عيشتك القصيرة ـ في سعادة واستشهدت في كرامة، وفزت فوزاً عظيماً...

إنّك رغم جهودك المتواصلة في طلب العلم، واجتهادك الملحّ في اقتناء شرف الكمال، اخترت الجهاد في سبيل الله وإعلاء كلمة الله في الأرض.. حيث رأيت ضرورة القيام بواجب الدفاع عن حريم الإسلام والذبّ عن كرامة القرآن... فكان حظّك الأوفى ونصيبك الأوفر من عند الله تعالى، هو الفوز بدرجة الشهادة، فضيلة ما فوقها فضيلة.. فهنيئاً لك من سعادة أبديّة وشرفٍ تليد، حباك الله به عن إرادتك واختيارك وهو فوز عظيم..

والدك

قطفة من حياة راحلنا الشهيد

ورأينا من المناسب أن نذكر لمحة مختصرة عن حياة شهيدنا الغالي سائلين الله جلّ شأنه أن يحشره وإيّانا مع الأئمّة الطّاهرين.

وُلد شهيدنا الغالي في كربلاء المقدّسة (ليلة الاثنين ثاني عشر ربيع الأغرّ سنة ألف وثلاثمائة وستّ وثمانين هجرية قمرية = ١٣٤٤/٤/٢٠ هـش) واستشهد في واقعة كربلاء الخامسة في جزيرة «بوارين» (شلمچة ـ خوزستان) (في العشرين من جمادى الأُولى سنة ١٤٠٧ = ١٣٦٥/١١/١ هـش) وهو من غريب المناسبة بين موضع الولادة ويوم الاستشهاد..!

قضى أيّام طفولته في النجف الأشرف حتّى عام هجرتنا الكبرى إلى مدينة قم المقدسة (سنة ١٣٥٠ هـش) فهناك كانت دراسته الابتدائيّة والثانويّة والإحراز على شهادة «دبلوم» ليحوز بعده على قبوليّة الدخول في عدّة جامعات في طهران وغيرها، غير أنّه رفض سوى الالتحاق بالحوزة العلميّة ومواصلة دروسها الدينية عن فهم غريب، وكان موفّقاً مرضيّاً في جميع هذه المراحل.. مضافاً إلى عدم تغافله عن كسب الأخلاق الفاضلة وتهذيب النفس بما بلغ به مرتبة قَلّ من كان يوجد على مثل سنّه المبكّر في مثل تلكم الفضائل والآداب والسلوك بما جعله محبّباً محموداً في أهله وذويه وفي جميع الأوساط التي كان يتراودها، أضف إلى ذلك شدّة محافظته على شعائر الدين ومباني الشريعة، وعلاقته الوثيقة بعرى الإسلام، من ذلك علقته الوفيرة بأُصول النهضة المباركة التي قام بها سيدنا الإمام الكبير الإمام الخميني ﷺ..

وما أن قامت الحرب الشعواء المفروضة على جمهوريّتنا الفتيّة، أغارتها أيادي الاستعمار الكافر المتمثّلة في سفلة العرب الأدنين!.. إلّا وسرعان ما تطوّع شهيدنا في الالتحاق بالجيش الشعبي الباسل المقاوم ضدّ جنود إبليس... وكانت العمليّات الدفاعيّة التي كان يقوم بها جنود الإسلام حينذاك تُسمّى بوقائع كربلاء تحت أرقام متسلسلة، وكانت النجدة تتلاحقها من أبناء الإسلام الغيارى بقيادة إمام الأُمّة العظيم.. من جملتها

واقعة كربلاء الرابعة ثمّ الخامسة بجزيرة «بُوارين ـ شَلَمْچة» التي التحق بها شهيدنا عن سابقة تدريب واستعداد للجهاد.. وقد كان الموقف حرجاً آنذاك، ومن ثمّ ترك مواصلة دروسه الحوزويّة في بحبوحة نشاطها المتداوم، لمّا أن أحسّ بغربة الإسلام واستنجاده بأبنائه الغيارى تجاه هجمات العدوّ اللدود. وعندما استجازني ـ وكانت إجازتي على الفور ـ ذكّرته التروّي في الأمر ريثما يكون ذهابه إلى الجهاد عن فكر ورويّة وانتداب حرٍّ لا يشوبه كدر الهوسات لا سيّما وهو جاهد في تحصيل العلوم الإسلامية الذي لا يقلّ عزّة عن عزّة القتال في سبيل الله، وقد كنت آمل في وجوده، وبفضل نبوغه، تصاعداً في مدارج الكمال العلمي الفائق.. لكنّه رغم ذلك كلّه رجّح نصرة الدين من هذا السبيل لضرورة الموقف، وقال إنّي ذاهب إلى ربّي سيهدين.. فباركته على رأيه وعلى اختياره الذي كان عن بصيرة وفكر واستعداد..

وقد كان حينما ذهب إلى الجهاد قد بلغ مرتبة سامية من العلوم الإسلامية، من جملتها علوم القرآن التي كنت أُباشر تدريسها في الحوزة، وكان يشترك في محاضراتي عن استعداد وأهليّة كنت أُباهي به وأرجو له الكمال البالغ.. الأمر الذي دعا بي أن أهدي إلى روحه الطيّبة هذه البقيّة من موسوعتي في علوم القرآن وأرجو من الله أن يجعلها موضع ترويح لخاطره العاطر تحت ظلّه الوارف بفضله وكرمه...

وينبؤك عن كماله النفسي وعرفانه البالغ بمواضع الإسلام في الحركة والجهاد، تلك وصيّته المباركة وقد كتبها ليلة ذهابه إلى جبهة القتال.. (٤/ج١/١٤٠٧ق = ١٥/١٠/١٣٦٥ش) جاء فيها ـ بعد البسملة ـ:

.. «يا أيُّها الَّذينَ آمَنوا مالَكُمْ إذا قيلَ لَكُمُ انْفِروا في سَبيلِ الله اثّاقَلْتُم إلى الْأَرْضِ. أَرَضيتُمْ بِالْحَياةِ الدُّنْيا مِنَ الآخِرَةِ. فَما مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا في الْآخِرَةِ إلّا قَليلٌ. إلّا تَنْفِروا يُعَذِّبْكُمْ عَذاباً أليماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرّوهُ شَيْئاً وَالله عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدير».[1]

قال علي عليه السلام: إنّ الجهاد باب من أبواب الجنّة فتحه الله لخاصّة أوليائه، وهو لباس

---

١ ـ التوبة ٩: ٣٨-٣٩.

النقوىٰ ودرع الله الحصينة وجُنّته الوثيقة..

هذا يوم يمتحن الله فيه قلوبنا نحن المسلمين ولا سيّما الموالين لأهل البيت عليهم السلام وكان شعارنا: يا ليتنا كنّا معكم. آسفين على مصائبهم السالفة..

الإنسان عندما يستمع إلى قولة الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام مؤنّباً لأصحابه تقاعسهم عن القتال: «يا أشباه الرجال ولا رجال، لوددت أنّي لم أركم.. قاتلكم الله لقد ملأتم قلبي قيحاً..».. ليحقّ أن يموت دون أن يشمله عموم هذا التأنيب!

نعم إنّما تتحقّق مباني الإسلام الركينة بأمرين: قيادة حكيمة، ووجود أعوان مخلصين. وقد كان الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام يُعوزه الأمر الثاني، فكان مآل الأمر ما كان...

والآن وهذا إمامنا القائد، الذي وقف نفسه على حراسة الإسلام، وكان موفّقاً مؤيّداً بعناية مولانا الإمام الحجة المنتظر عجّل‌الله فرجه.. يجب تلبية ندائه والقيام بأوامره في الدفاع عن حريم الإسلام.. وإلّا فقد شملنا ذلك التأنيب العنيف الذي تأسّف عليه الإمام مولانا أميرالمؤمنين عليه السلام..

فلو كنتَ موالياً للإمام أميرالمؤمنين، فالواجب هو سلوك الطريقة التي رسمها لنا، وليس الآن سوى الجهاد في سبيل الله..

لوكنّا نتدبّر قليلاً لرأينا منذ واقعة الطفّ لم تحن الفرصة للمسلمين أن يجاهدوا في سبيل الله حقّ جهاده، وقد حُرموا هذا الفيض الفائض بالبركات.. والآن وقد فتح الله هذا الباب أمامنا.. وعلينا انتهاز هذه الفرصة السانحة والاستفاضة من فيوضها.. فلو رزقنا الشهادة في هذا السبيل فهو الفوز العظيم.. والبشارة الكبرى: أن فتح الله لنا باب الجهاد وجعلنا من خاصّة أوليائه.. وإلّا فالّذي يبقىٰ بعده نحن وهذه الحياة الدنيا والجدال العنيف القائم على زخارفها.. فهل نتوفّق في مبارزات هذه الحياة.. وهل نتخلّص من براثن إبليس.. وهل نصبح من عباد الله المخلصين.. وهل لا يكون المخلصون على خطر عظيم؟! ما الذي يضمن لنا النجاح والفوز في هذه الحياة عند ذاك؟!

وعليه.. فإنّي قد اخترتُ سبيل الجهاد عن قلب واع مطمئنّ، بل هي الوظيفة الشرعية

قُمتُ بها عن واجب ديني لا محيص عنه.. وأرجو منه تعالى التوفيق بعنايته، وأن يرزقني صلاح الجهاد والشهادة في سبيله، عسى أن أكون بإهداء هذه المزجاة من دمي قد رويت شجر الإسلام وبذلك كنت قد أدركت السعادة الأبديّة إن شاء الله...».

قلت: وقد استجاب الله دعاءه ورزقه الشهادة إذ وجده أهلاً لذلك وصالحاً للنيل إلى درجات القدس عند ربّه فهنيئاً له من سعادة أبديّة كانت أُمنيّته في الحياة.. اللّهمّ اجعله لنا شافعاً مشفّعاً وارزقه المقام المحمود، في زمرة أوليائه محمد وآله الطيّبين..

❊ ❊ ❊

وقد رثاه الشعراء والأُدباء في حفلات تأبينيّة كانت ولا تزال تقام لذكراه سنويّاً.. وممّن رثاه في قصيدة عصماء وأرّخ شهادته في أُخرى هو الشاعر المجيد المفوَّه الشيخ محمدباقر الإيرواني المعروف بإجادة القريض وحسن الإلقاء، قال فيها ـ وكان الحفل منعقداً في الأيّام الفاطمية ـ:

يا آل معرفةٍ لمعرفتي بكم ... في كلّ يوم حبّكم يتجدّد
جئنا لتقديم التعازي عندكم ... بمصاب فاطم للعزاء نردّد
ثمّ التعازي في مصاب شهيدكم ... وعليّ معرفةٍ شهيد أسعد
عشق الشهادة والشهادة سُلَّمٌ ... يرقى الشهيد إلى الخلود ويصعد
وكرامة الشهداء عنوان به ... شرف السعادة والسعادة تشهد
يا آل معرفةٍ عرفنا مجدكم ... برجالكم والكلّ منكم أمجد

...............الخ..

وفي قصيدة أُخرى جاءت مادة التاريخ هكذا:

أرّخت: (من ألم الفراق مناديا ... سعد الشهيد عليّ نجل الهادي)

٩٠ + ٧١ + ٤١٢ + ١٠٦ ... ١٣٤ + ٣٥٠ + ١١٠ + ٨٣ + ٥١

= (١٤٠٧) هق

المقدمة

وبعد، فإنّ مسألة «الإعجاز القرآني» كانت ولا تزال تشكّل الأهمّ من مسائل أُصول العقيدة التي بُنيت عليها رواسيها ودارت عليها رحى الإسلام، فكان جديراً بمن حاول التحقيق من مباني الشريعة، والبحث عن أُسسها الأُولى القويمة، أن يدرس من جوانب المسألة ويمعن النظر فيها إمعاناً، بعد أن لم تكن المسألة تقليديّة ولا تغني المتابعة العمياء من غير معرفة أو علم يقين.

أمّا عرب الجاهلية الأُولى فقد كانت تدرك جانب هذا الإعجاز البيانيّ، بحسّها البدائيّ المُرهَف وذوقها الفطريّ السليم في سهولة ويسر، إذ كان القرآن نزل بلغتهم وعلى أساليب كلامهم، سوى كونه في مرتبة عُليا وعلى درجة أرقى، كانوا يُدركونه فهماً ولا يكاد يبلغونه في مثله أداءً وتعبيراً.

كان عصر نزول القرآن أزهى عصور البيان العربي، وقد بلغت العرب من العناية بلغتها والإشادة بمبانيها، مبلغ الكمال بما لم تبلغه في أيّ عصر من العصور.

كانت لهم أندية وأسواق[1] يجتمع إليها فصحاؤهم، خطباءً وشعراءً، يعرضون فيها

---

١ ـ كانت على مقربة الطائف سوق تجتمع إليها العرب في الأشهر الحرم ـ حيث الأمان الموقّت ـ فينصبون خيامهم بين نخيله في مكان يسمّى بعكاظ وكانت العرب تقصدها في طريقها إلى الحجّ، فيجتمعون منه في مكان يقال له ←

أنفس بضائعهم وأجود صنائعهم، ألا وهي بضاعة الكلام وصناعة الشعر والبيان. كانوا يتبارون فيها، وينقدون ويتفاخرون، ويتنافسون فيها أشدّ التنافس

... حتى إذا ظهرت فيهم الدعوة ونزل القرآن.. فما أن تليت عليهم آياته إلّا والأسواق قد تعطّلت والأندية قد انفضّت، وقد خلت الديار إلّا من رنّة صوت القرآن. وقد زحفهم ببراعته وهزمهم بصولته، فلم يستطيعوا مباراته ولم يقدروا على مجاراته، ففضّلوا الفرار على القرار واستغشوا على رؤوسهم ثوب العار. ذلك على أنّه لم يسدّ عليهم باب المعارضة، ولم يمانعهم التنافس فيه، صارخاً ومتحدّياً لهم أفراداً وجماعات: لو يأتوا بحديث مثله!

وقد عرض عليهم هذا التحدّي الصارخ في جرأة خارقة وصراحة بالغة، مكرّراً عليهم ومتهكّماً بهم: أنّهم أعجز من أن تقوم قائمتهم تجاه صوت القرآن المدوّي المدهش، وقد تنازل معهم إلى الأخفّ فالأخفّ، امتهاناً بشأنهم وتبييناً لموقف عجزهم وضعف مقدرتهم:

أوّلاً: «فَلْيأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِه».[1] ثانياً: «فأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ».[2] ثالثاً: «فَأْتُوا بِسُورَةٍ

← «الابتداء» وقد اتخذتها العرب سوقاً بعد عام الفيل بخمس عشرة سنة. أي قبل مبعث النبيّ ﷺ بخمس وعشرين عاماً (سنة ٥٤٠ للميلاد) وكانت وفود العرب تتوافد إليها من كلّ صوب. وزادت قريش بواعث الاجتماع إليها أنّهم جعلوها مسرحاً للأدب والشعر، تتسابق فيه القبائل لإظهار نوابغها من شعراء وخطباء، فيتناشدون ويتفاخرون وكانوا يعرضون فيها نخب قصائدهم على نقدة القريض والكلام، ويكون لذلك احتفال حاشد يشهده جماهير العرب، فتشيع قصائدهم ويترنّم بها الركبان في كلّ صقع. وبقيت سوق عكاظ بعد الإسلام معرضاً يتبادل فيه السلع، حتى نهبها الخوارج الحروريّة حين خرجوا بمكة مع المختار بن عوف سنة (١٢٩).

وكانت لهم أسواق أُخر تبلغ العشرة كانت تقام في فواصل معيّنة من السنة في أُمكنة متعدّدة، وكانت تحت خفارات منتظمة في حمايات معيّنة. ذكر تفصيلها اليعقوبي في تاريخه، ج ١، ص ٢٣٩.

وكانت لهم أيضاً مجالس يجتمعون فيها لمناشدة الأشعار ومبادلة الأخبار والبحث عن بعض شؤونهم العامة. وكانوا يسمّون تلك المجالس «الأندية» ومنها نادي قريش ودار الندوة بجوار الكعبة. وكان لكلّ بيت من بيوت الأشراف فناء بين يديه للاجتماع، ولكلّ قوم مجتمع عامّ في المضارب. على أنّهم كانوا حيثما اجتمعوا تناشدوا وتفاخروا وتبادلوا سلع الكلام وصناعات القريض والبيان. انظر: تاريخ الآداب العربية، ج ١، ص ١٩٥، وتاريخ التمدّن الإسلامي، ج ١، ص ٣٧ كلاهما لجرجي زيدان. ودائرة المعارف لفريد وجدي، ج ٦، ص ٥٣٥.

١ ـ الطور ٥٢: ٣٤.

٢ ـ هود ١١: ١٣. بناءً على نزول سورة هود قبل سورة يونس، كما نبّهنا مسبقاً في الجزء الأول من التمهيد. إذ ليس لتسلسل ترتيب النزول دليل قاطع على المشهور، ولعلّه فيه بعض التقديم والتأخير كما هنا.

مِثْلِهِ»،[١] وأخيراً أجهز عليهم بحكمه الباتّ: «فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النّارَ الَّتي وَقُودُهَا النّاسُ وَالْحِجارة»[٢] فقد أنذرهم بالنار وساوى بينهم وبين الأحجار!

هذا.. ولم يكن العرب يومذاك أهل كسل وملل في الكلام والخصام، وقد تربّوا في أحصان الخصومة وكانوا أهل لدد وجدل، كما وصفهم تعالى: «وتُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدّاً»،[٣] وقال: «ما ضَرَبُوهُ لَكَ إلّا جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُون».[٤] فلوكانت فيهم قدرة على المعارضة أو لسان لم يخرسه العجز والعيّ، لما صمتوا على ذلّ العار أو سكتوا على شنار الصّغار، وقد أصاب منهم موضع عزّهم ومحلّ فخارهم، وهزمهم بذات سلاحهم، ولم تكن الهزيمة الشنعاء إلّا لأنّهم وجدوا من أنفسهم ضآلة وحقارة، تجاه عظمة القرآن وهيمنته وكبريائه، «فَمَا اسْطاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ ومَا اسْتطاعُوا لَهُ نَقْباً»[٥].

هذا الوليد بن المغيرة المخزومي ـ كبير قريش ورائدهم وقائدهم ـ استأمروه بشأن هذا الكلام الذي جاء به نبيّ الإسلام ﷺ فلم يستطع سوى الاعتراف بأنّه فوق مقدور البشر: «فوالله ما هو بشعر ولا بسحر ولا بهذي جنون، وإنّ قوله من كلام الله...»[٦] وهو القائل: «و والله إنّ لقوله الذي يقول لحلاوة، وإنّ عليه لطلاوة، وإنّه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله. وإنّه ليعلو وما يُعلى».[٧] وهذا إنذار من رأس الكفر بأنّ الغلب سوف يكون مع القرآن!

وقد حاولوا الممانعة دون صيته والحؤول دون شياعه، وقالوا: «لا تَسْمَعوا لِهذَا القُرآنِ وَالْغَوْا فيهِ لَعَلَّكُم تَغْلِبُونَ».[٨] وكانوا يستغشون ثيابهم ويضعون أصابعهم في آذانهم

---

١ ـ يونس ١٠: ٣٨.
٢ ـ البقرة ٢: ٢٤.
٣ ـ مريم ١٩: ٩٧.
٤ ـ الزخرف ٤٣: ٥٨.
٥ ـ الكهف ١٨: ٩٧. إنّهم حاولوا معارضته ومقابلة فصيح كلامه، غير أنّ الحظّ لم يساعدهم ولم يرافقهم التوفيق. فقد أعوزتهم الكفاءة وتقاعست عنه هممهم لمّا رأوا شموخ طوده الرفيع. قال ابن رشيق في العمدة، ج ١، ص ٢١١: «ولمّا أرادت قريش معارضة القرآن عكف فصحاؤهم الذين تعاطوا ذلك، على لباب البرّ وسلاف الخمر ولحوم الضأن والخلوة إلى أن بلغوا مجهودهم، فلمّا سمعوا قول الله عزّوجلّ: «وَقيلَ يا أَرْضُ ابْلَعي ماءَكِ ويا سَماءُ أَقْلِعي. وَغيضَ الماءُ. وَقُضيَ الأَمْرُ. وَاسْتَوَتْ عَلَى الجُوديِّ. وَقيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظّالِمينَ» هود ١١: ٤٤. يئسوا ممّا طمعوا فيه، وعلموا أنّه ليس بكلام مخلوق». وراجع: مجمع البيان، ج ٥، ص ١٦٥.
٦ ـ جامع البيان للطبري، ج ٢٩، ص ٩٨.
٧ ـ مستدرك الحاكم، ج ٢، ص ٥٠٧.
٨ ـ فصّلت ٤١: ٢٦.

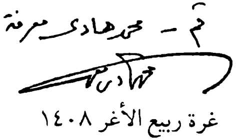
خشية سماعه، أو يحشون مسامع الوفود بالخرق والكراسف لئلّا يستمعوا إلى حديثه، لماذا؟ إنّهم أدركوا هيمنته ولمسوا من واقعه الناصع، فهابوه وخافوا سطوته، فقد أعجزتهم مقابلته بالكلام وألجأتهم أخيراً إلى ركوب الصعب من مطايا الحتوف بمقارعة الأسنّة والسيوف. لكن «وَيُحِقُّ اللهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ».[1]

والآية الأغرب، والمعجزة الأعجب، ذلك حكمه الباتّ على أنّهم لن يأتوا بمثله «وَلَنْ تَفْعَلُوا» أبداً. إنّه إعجاز في صراحة وجرأة يفوق سائر الإعجاز، وإخبار عن غيب محتّم، لا يصدر إلّا عن علّام الغيوب، ولا يجرأ على النطق به أحد من البشر مهما أُوتي من علم وقدرة وهيمنة.

بل وحكمه العام الشامل لكافّة طبقات الأُمم عبر الخلود، لا يستطيعون جميعاً أن يأتوا بمثله «وَلَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً».[2]

وهذه ركب البشرية وفيهم الجفاة والعتاة ممّن مارسوا لغة الضاد، قد أخرسوا جميعاً عن معارضته وإمكان مقابلته، وليس عن رحمة ولين عريكة، وإنّما هو عجز وعيّ وضعف، صار دليلاً على إعجازه وبرهاناً على خلوده!

وقد بحث العلماء قديماً وفي العصر القريب، عن سرّ هذا الإعجاز وعن سبب خلوده، وحاولوا قصارى جهدهم لكشف النقاب عن وجهه ولمس أعتابه، فكانت أبحاثاً جللاً وآراء ونظرات قيّمة، سجّلتها صحائف التاريخ في سطور مضيئة وكلمات مشرقة، كان تراثنا الثمين في هذا المضمار ورصيدنا الوفير في هذا العرض (أحسن الله جزاءهم). ونحن إذ نسير على منهجهم لا نألو جهداً في سبر أغواره والتحقيق من مبانيه، جرياً مع التطوّر في الأفكار والأنظار، عساه أن يكون خدمة صالحة لمباني الدين القويم والترويج من شريعة سيّد المرسلين، عليه وعلى آله الأطيبين صلوات ربّ العالمين.



غرة ربيع الأغر ١٤٠٨

الإعجاز القرآني

الإعجاز في مفهومه

الإعجاز: مصدر مزيد فيه من «عجز» إذا لم يستطع أمراً، ضدّ «قدر» إذا تمكّن منه. يقال: أعجزه الأمر، إذا حاول القيام به فلم تسعه قدرته، وأعجزتُ فلاناً: إذا وجدتَه عاجزاً أو جعلتَه عاجزاً.

والمُعجزة ـ في مصطلحهم ـ تطلق على كلّ أمر خارق للعادة، إذا قرن بالتحدّي وسلم عن المعارضة، يظهره الله على يد أنبيائه ليكون دليلاً على صدق رسالتهم.

وهي تتنوّع حسب تنوّع الأمم المرسل إليهم في المواهب والمعطيات، فتتناسب مع مستوى رقيّهم في مدارج الكمال، فمن غليظ شديد إلىٰ رقيق مرهف، ومن قريب مشهود إلى دقيق بعيد الآفاق. وهكذا كلّما تقادمت الأُمم في الثقافة والحضارة فإنّ المعاجز المعروضة عليهم من قِبَل الأنبياء عليهم السلام ترقّ وتلطف. وكانت آخر المعاجز رقّة ولطفاً هي أرقاها نمطاً وأعلاها أُسلوباً، ألا وهي معجزة الإسلام الخالدة، عرضت على البشريّة جمعاء مع الأبد، مهما ارتقت وتصاعدت في آفاق الكمال، الأمر الذي يتناسب مع خلود شريعة الإسلام.

ولقد صعب على العرب ـ يومذاك وهم على البداوة الأُولى ـ تحمّل عبء القرآن

الثقيل، فلم يطيقوه. ومن ثمّ تمنّوا لو يُبدَّل إلى قرآن غير هذا، ومعجزة أُخرى لا تكون من قبيل الكلام: «قالَ الَّذينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هٰذا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ ما يَكُونُ لي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقاءِ نَفْسي إنْ أَتَّبِعُ إلّا ما يُوحى إلَيَّ».[١] إنّها لم تكن معجزة للعرب فقط، وإنّما هي معجزة للبشرية عبر الخلود، لكن أنّى لأُمّة جهلاء أن تلمس تلك الحقيقة وأن تُدرك تلك الواقعيّة سوىٰ أنّها اقترحت عن سفه: أن يفجّر لهم من الأرض ينبوعاً، أو تكون له جنّة من نخيل وعنب ويفجّر الأنهار خلالها تفجيراً، أو يسقط السماء عليهم كسفاً، أو يأتي بالله والملائكة قبيلاً، أو يكون لهبيت من زخرف و يرقى في السماء، ولا يؤمنوا لرقيّه حتّى ينزل عليهم كتاباً يقرؤونه... وقد عجب النبيّ ﷺ من مقترحهم ذلك التافه الساقط، ممّا يتناسب ومستواهم الجاهلي، ومن ثمّ رفض اقتراحهم ذاك «قُلْ سُبْحانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إلّا بَشَراً رَسُولاً».[٢] أي ليس هذا من شأنكم وإنّما هي حكمة بالغة يعلمها الحكيم الخبير.

قال الراغب الإصفهاني: المعجزات التي أتى بها الأنبياء عليهم السلام ضربان: حسّي وعقلي:

فالحسّي: مايدرك بالبصر، كناقة صالح، وطوفان نوح، ونار إبراهيم وعصا موسى عليهم السلام.

والعقلي: ما يدرك بالبصيرة، كالإخبار عن الغيب تعريضاً وتصريحاً، والإتيان بحقائق العلوم التي حصلت عن غير تعلّم.

فأمّا الحسي: فيشترك في إدراكه العامّة والخاصّة، وهو أوقع عند طبقات العامّة، وآخذ بمجامع قلوبهم، وأسرع لإدراكهم، إلّا أنّه لايكاد يفرق بين ما يكون معجزة في الحقيقة، وبين ما يكون كهانة أو شعبذة أو سحراً، أو سبباً اتفاقياً، أو مواطأة، أو احتيالاً هندسياً، أو تمويهاً وافتعالاً إلّا ذو سعة في العلوم التي يعرف بها هذه الأشياء.

وأمّا العقلي: فيختصّ بإدراكه كملة الخواصّ من ذي العقول الراجحة، والأفهام الثاقبة، والروية المتناهية، الذين يغنيهم، إدراك الحق.

وجعل تعالى أكثر معجزات بني إسرائيل حسيّاً لبلادتهم، وقلّة بصيرتهم، وأكثر

---

١ ـ يونس ١٠: ١٥.
٢ ـ الإسراء ١٧: ٩٣.

معجزات هذه الأُمّة عقلياً لذكائهم وكمال أفهامهم التي صاروا بها كالأنبياء. ولذلك قال ﷺ:

«كادت أُمّتي تكون أنبياء».[١]

ولأنّ هذه الشريعة لمّا كانت باقية على وجه الدهر غير معرّضة للنسخ، وكانت العقليات باقية غير متبدّلة جعل أكثر معجزاتها مثلها باقية. وما أتىٰ به النبي ﷺ من معجزاته الحسيّة، كتسبيح الحصا في يده، ومكالمة الذئب له، ومجيء الشجرة إليه، فقد حواها وأحصاها أصحاب الحديث.

وأمّا العقليات: فمن تفكّر فيما أورده ﷺ من الحكم التي قصرت عن بعضها أفهام حكماء الأُمم بأوجز عبارة اطلع على أشياء عجيبة.

وممّا خصّه الله تعالىٰ به من المعجزات القرآن: وهو آية حسيّة عقليّة صامتة ناطقة باقية على الدهر مبثوثة في الأرض، ولذلك قال تعالى: «**وَقالوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آياتٌ مِن رَبِّهِ قُلْ إنَّما الآياتُ عِنْدَ اللهِ وإنَّما أنا نَذيرٌ مُبينٌ. أوَ لَم يَكْفِهِمْ أنّا أنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ يُتْلىٰ عَلَيْهِم**»[٢] ودعاهم ليلاً ونهاراً مع كونهم أُولي بسطة في البيان إلى معارضته، بنحو قوله: «**وَإنْ كُنْتُمْ في رَيْبٍ مِمّا نَزَّلْنا عَلىٰ عَبْدِنا فَأتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِه. وادْعُوا شُهَداءَكُمْ مِنْ دُونِ الله**»[٣] وفي موضع آخر: «**وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُون الله إنْ كُنْتُمْ صادِقِين**»[٤] وقال: «**قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإنْسُ وَالجِنُّ عَلىٰ أنْ يَأتُوا بِمِثْلِ هٰذَا الْقُرْآنِ لا يأتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كان بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهيراً**».[٥]

فجعل عجزهم علماً للرسالة، فلو قدروا ما أقصروا، إذ قد بذلوا أرواحهم في إطفاء نوره وتوهين أمره، فلمّا رأيناهم تارة يقولون: «**لا تَسْمَعُوا لِهٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فيهِ**»[٦] وتارة يقولون: «**لَوْ نَشاءُ لَقُلْنا مِثْلَ هٰذا**»،[٧] وتارة يصفونه بأنّه «**أساطيرُ الأوّلين**»[٨] وتارة يقولون:

---

١ ـ مسند أحمد، ج ١، ص ٢٩٦.

٢ ـ العنكبوت ٢٩: ٥٠-٥١.

٣ ـ البقرة ٢: ٢٣.

٤ ـ يونس ١٠: ٣٨.

٥ ـ الإسراء ١٧: ٨٨.

٦ ـ فصّلت ٤١: ٢٦.

٧ ـ الأنفال ٨: ٣١.

٨ ـ النحل ١٦: ٢٤.

«لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً واحِدَةً»[١] وتارة يقولون: «إئْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هٰذا أوْ بَدِّلْهُ»[٢] كلّ ذلك عجزاً عن الإتيان بمثله، علمنا قصورهم عنه، ومحال أن يقال: إنّه عورض فلم ينقل فالنفوس مهتزّة لنقل مادقّ وجلّ. وقد رأينا كتباً كثيرة صنّفت في الطعن على الإسلام قد نقلت وتدوولت.[٣]

❊ ❊ ❊

ويمتاز القرآن على سائر المعاجز بأنّه يضمّ إلىٰ جانب كونه معجزاً جانب كونه كتاب تشريع، فقد قُرن التشريع بإعجاز و وُحّد بينهما، فكانت دعوة يرافقها شهادة من ذاتها، دلّ على ذاته بذاته.

قال العلامة ابن‌خلدون: اعلم أنّ أعظم المعجزات وأشرفها وأوضحها دلالة القرآن الكريم المنزل على نبيّنا محمّد صلى الله عليه وآله.. فإنّ الخوارق في الغالب تقع مغايرة للوحي الذي يتلقّاه النبيّ ويأتي بالمعجزة شاهدة بصدقه، والقرآن هو بنفسه الوحي المدّعى، وهو الخارق المعجز فشاهده في عينه ولا يفتقر إلىٰ دليل مغاير له كسائر المعجزات مع الوحي، فهو أوضح دلالة، لاتّحاد الدليل والمدلول فيه.

قال: وهذا معنى قوله صلى الله عليه وآله: «ما من نبيّ من الأنبياء إلّا وأُوتي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنّما كان الذي أُوتيتُه وحياً أُوحي إليّ، فأنا أرجوا أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة». يشير إلى أنّ المعجزة متى كانت بهذه المثابة في الوضوح وقوّة الدلالة، وهو كونها نفس الوحي، كان الصدق لها أكثر لوضوحها، فكثر المصدّق المؤمن وهو التابع والاُمّة.[٤]

❊ ❊ ❊

وقال الجاحظ: بعث الله محمّداً صلى الله عليه وآله أكثر ما كانت العرب شاعراً وخطيباً، وأحكم ما كانت لغة، وأشدّ ما كانت عدّة، فدعا أقصاها وأدناها إلى توحيد الله وتصديق رسالته، فدعاهم بالحجّة، فلمّا قطع العذر وأزال الشبهة وصار الذي يمنعهم من الإقرار، الهوى

---

١ ـ الفرقان ٢٥: ٣٢.
٢ ـ يونس ١٠: ١٥.
٣ ـ عن مقدّمته على التفسير، ص ١٠٢-١٠٤.
٤ ـ المقدّمة (السادسة)، ص ٩٥.

والحميّة دون الجهل والحيرة، حملهم على حظّهم بالسيف، فنصب لهم الحرب ونصبوا، وقتل من عليّهم وأعلامهم وأعمامهم وبني أعمامهم، وهو في ذلك يحتجّ عليهم بالقرآن، ويدعوهم صباحاً ومساءً إلى أن يعارضوه إن كان كاذباً، بسورة واحدة، أو بآيات يسيرة، فكلّما ازداد تحدّياً لهم بها، وتقريعاً لعجزهم عنها، تكشّف من نقصهم ما كان مستوراً، وظهر منه ما كان خفيّاً، فحين لم يجدوا حيلة ولا حجّة قالوا له: أنت تعرف من أخبار الأُمم مالا نعرف، فلذلك يمكنك مالا يمكننا. قال: فهاتوها مفتريات، فلم يَرُمْ ذلك خطيب ولا طمع فيه شاعر، ولو طمع فيه لتكلّفه، ولو تكلّفه لظهر ذلك، ولو ظهر لوجد من يستجيده ويحامي عليه ويكابر فيه ويزعم أنّه قد عارض وقابل وناقض، فدلّ ذلك العاقل على عجز القوم، مع كثرة كلامهم، واستجابة لغتهم، وسهولة ذلك عليهم، وكثرة شعرائهم وكثرة من هجاه منهم وعارض شعراء أصحابه وخطباء أُمّته، لأنّ سورة واحدة وآيات يسيرة كانت أنقض لقوله، وأفسد لأمره وأبلغ في تكذيبه، وأسرع في تفريق أتباعه من بذل النفوس، والخروج من الأوطان وإنفاق الأموال.

وهذا من جليل التدبير الذي لا يخفى على من هو دون قريش والعرب في الرأي والعقل بطبقات، ولهم القصيد العجيب، والرجز الفاخر، والخطب الطوال البليغة والقصار الموجزة، ولهم الأسجاع والمزدوج واللفظ المنثور، ثمّ تحدّى به أقصاهم بعد أن أظهر عجز أدناهم، فمحال ـ أكرمك الله ـ أن يجتمع هؤلاء كلّهم على الغلط في الأمر الظاهر، والخطأ المكشوف البيّن مع التقريع بالنقص، والتوقيف على العجز، وهم أشدّ الخلق أنفة، وأكثرهم مفاخرة، والكلام سيّد عملهم، وقد احتاجوا إليه، والحاجة تبعث على الحيلة في الأمر الغامض، فكيف بالظاهر الجليل المنفعة، وكما أنّه محال أن يطبقوا ثلاثاً وعشرين سنة (مدّة رسالته ﷺ) على الغلط في الأمر الجليل المنفعة فكذلك محال أن يتركوه وهم يعرفون ويجدون السبيل إليه، وهم يبذلون أكثر منه.[1]

---

١ ـ الإتقان، ج ٤، ص ٥-٦. وله كلام تفصيلي آخر في إثبات إعجاز القرآن، ذكره في رسالته (حجج النبوّة)، ص ١٤٤ فما بعدها. وقد نقله صاحب الإعجاز في دراسات السابقين، ص ١٥٨-١٦٢.

الإعجاز ضرورة دفاعيّة

الإعجاز ضرورة، ولكنّها دفاعيّة وليست ضرورة دعائيّة!

أمّا أنّ المعجزة ضرورة، فلأنّ الدعوة لمّا كانت مستندة إلى الغيب، وهو وحي السماء، فلابدّ أن يدعمها آية تجانسها، تنفي كلّ احتمال خلاف، وتدحض شُبَه المعارضين!

وأمّا أنّها ضرورة دفاعيّة وليست دعائيّة، فلأنّ رسالة الأنبياء جميعاً، على وضح من الحقّ الصريح، لا غُبار عليها ولا كانت حاجة إلى إقامة برهان. «لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ».[1] «لَقَدْ جاءَتْ رُسُلُ رَبِّنا بِالْحَقِّ».[2]

كانت دعوة الأنبياء تهدف إلى إيقاظ الفطرة وإثارة دفائن العقول،[3] دعوة إلى ما يتجاوب مع الفطرة السليمة وتتجاذبه العقول الرشيدة! فلا حاجة إلى إقامة برهانٍ على وضح النور المبين. «فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ».[4] أي فلتكن على ثقة من أمرك، فإنّ لديك الحقّ ساطعاً كالشمس اللائحة، تسطو بأنوارها على الآفاق!

والحقّ لا يلتبس بالباطل أبداً! تلك سنّة الله جرت في الخلق، كما قال الإمام الصادق عليه السلام قال: «ولو لم يُجعل هذا هكذا ما عُرف حقّ من باطل».[5] أي: الحقّ بذاته واضح، والباطل بنفسه فاضح. وهو أمر فطريٌّ مجبول عليه الناس في فطرتهم الأُولى... ولو لم يكن تمييز الحقّ عن الباطل فطريّاً ـ في بداهة العقول ـ لم يكن هناك معيار آخر لهذا التمييز، إذ أيّ معيار يجعل مقياساً لتمييز الحقّ غير الحقّ نفسه؟!

قال الصادق عليه السلام: «كلّ قوم يعملون على ريبةٍ من أمرهم، ومشكلةٍ من رأيهم، وزارئ

---

١ ـ الرعد ١٣: ١٤.
٢ ـ الأعراف ٧: ٤٣.
٣ ـ راجع: نهج البلاغة، الخطبة ١.
٤ ـ النمل ٢٧: ٧٩.
٥ ـ روى البرقي بإسناده إلى ابن أبي يعفور عن أبي‌عبدالله عليه السلام قال: «أبى الله أن يعرّف باطلاً حقّاً، أبى الله أن يجعل الحقّ في قلب المؤمن باطلاً لا شكّ فيه، وأبى الله أن يجعل الباطل في قلب الكافر المخالف حقّاً لا شكّ فيه. ولو لم يجعل هذا هكذا ما عُرف حقّ من باطل». وفي حديث آخر: «ليس من باطل يقوم بإزاء الحقّ إلّا غلب الحقُّ الباطل. وذلك قوله تعالى: «بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْباطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذا هُوَ زاهِقٌ». الأنبياء ٢١: ١٨. راجع: كتاب المحاسن ـ مصابيح الظلم، ج ١، ص ٤٣٢، برقم ٩٩٨ و ٩٩٩.

منهم على من سواهم. وقد تبيّن الحقّ من ذلك، بمقايسة العدل عند ذوي الألباب». [١] أي الفئات المحايدة للحقّ، ليسوا على طمأنينة من أمرهم، بل في ريبهم يتردّدون. فهناك زارئ ـ أي عاتب ـ منهم عليهم، حيث وميض النور لا يبقى منطفئاً أبداً.

ومن ثَمَّ لاترىٰ الدعوة في سبيل رسالتها مشكلةً مع العلماء وأصحاب العقول النبهاء، إنّما مشكلتها مع الجهلة السفهاء «وَيَرَى الّذينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الّذي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ، وَيَهْدي إِلىٰ صِراطِ الْعَزيزِ الْحَميد». [٢] «وَلِيَعْلَمَ الّذينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ». [٣]

ولم يشهد التاريخ أنّ نبهاء الأُمم طالبوا أنبياءهم البرهان علىٰ صحّة دعواهم، كسلمان وأبي‌ذرّ والمقداد. نعم كانت السفلة الأدناس هم الّذين عارضوا رسلهم وطلبوا منهم البيّنات، وبعدُ لم ينتهوا عن سفههم على كلّ حال. «وَقالُوا لَوْلا يَأْتينا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّه» [٤] «وَجَحَدُوا بِها واسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وعُلُوّاً». [٥] «لَقَدْ جِئْناكم بِالْحَقِّ ولٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كارِهون». [٦] أي كان جحودهم وارتيابهم في الحقّ ناشئاً عن كراهيّته لا عن نكرانه واقعاً. [٧]

نعم كانت مطالبة المعجزة أو إبداؤها، بعد مواجهة النكران أو إبداء الارتياب من قبل الملأ والسادة من أهل الترف، لا العامّة وأصحاب العقول الراجحة.

فكما أنّ السيف لعب دور الدفاع عن كيان الإسلام في منابذة هجمات العدوّ عسكريّاً، كذلك الآية المعجزة دافعت عن حريم الإسلام ونابذت هجمات العدوّ فكريّاً.

وهذا هو القرآن يتحدّى بإعجازه أُولئك المرتابين «وإِنْ كُنْتُمْ في رَيْبٍ مِمّا نَزَّلْنا عَلىٰ عَبْدِنا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِه». [٨] وهكذا سائر آيات التحدّي موجّهة إلى الذين ارتابوا أو

---

١ ـ المصدر، برقم ١٠٠٠/٢/٤٠٢.

٢ ـ سبأ ٣٤: ٦.

٣ ـ الحج ٢٢: ٥٤.

٤ ـ طه ٢٠: ١٣٣.

٥ ـ النمل ٢٧: ١٤.

٦ ـ الزخرف ٤٣: 78.

٧ ـ راجع في ذلك محاورة دارت بين موسى وفرعون ذكرها القرآن في ظرافة بيان. الشعراء ٢٦: ١٦ فما بعد والأعراف ٧: ١٠٣-١١٠.

٨ ـ البقرة ٢: ٢٣.

أبدوا ارتيابهم ـ ظاهريّاً ـ في صحّة الدعوة.[١]

التحدّي في خطوات

لقد تحدّى القرآن عامّة العرب، مذ نشأ بين ظهرانيهم، وهم لمسوه بأناملهم فوجدوه صعباً على سهولته وممتنعاً على يسره، فحاولوا معارضته ولكن لا بالكلام، لعجزهم عنه، بل بمقارعة السيوف وبذل الأموال والنفوس، دليلاً على فشلهم عن مقابلته بالبيان.

وربّما كانوا بادئ ذي بدء استقلّوا من شأنه، حيث قالوا: «لَوْ نَشاءُ لَقُلْنا مِثْلَ هٰذا إنْ هَذا إلّا أساطيرُ الْأَوّلينَ»[٢] وقالوا: «إنْ هٰذا إلّا قَوْلُ الْبَشَر».[٣] وقالوا: «إنَّما يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ»[٤] وقالوا: «ما أَنْزَلَ اللهُ عَلىٰ بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ»[٥] إلىٰ أمثالها من تعابير تنمّ عن سخف أوهامهم. لكن سرعان ماتراجعت العرب على أعقابها، فانقلبوا صاغرين، وقد ملكتهم روعة هذا الكلام وطغت عليهم سطوته، متهكّماً بموقفهم هذا الفاشل، ومتحدّياً في مواضع.

«أمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لايُؤْمِنُون. فَلْيَأْتُوا بِحَديثٍ مِثْلِهِ إنْ كانُوا صادِقينَ».[٦] وحدّد لهم لو يأتوا بعشر سور مثله مفتريات فيما كانوا يزعمون «أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَياتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إنْ كُنْتُمْ صادِقينَ فإنْ لَمْ يَسْتَجيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ الله».[٧]

وتصاغراً من شأنهم تنازل أنْ لو استطاعوا أن يأتوا بسورة واحدة من مثله: «أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إنْ كُنْتُمْ صادِقينَ. بَلْ كَذَّبُوا بِما لَمْ يُحيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمّا يَأْتِهِمْ تَأْويلُهُ كَذٰلِكَ كَذَّبَ الَّذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ».[٨]

وأخيراً حكم عليهم حكمه الباتّ «فإن لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا»[٩] أن ليس باستطاعتهم

---

١ ـ راجع: طه ٢٠: ١٣٣؛ هود ١١: ١٣؛ يونس ١٠: ٣٨؛ الأنفال ٨: ٣١ و غيرهنّ.
٢ ـ الأنفال ٨: ٣١.
٣ ـ المدّثّر ٧٤: ٢٥.
٤ ـ النحل ١٦: ١٠٣.
٥ ـ الأنعام ٦: ٩١.
٦ ـ الطور ٥٢: ٣٣-٣٤.
٧ ـ هود ١١: ١٣-١٤.
٨ ـ يونس ١٠: ٣٨-٣٩.
٩ ـ البقرة ٢: ٢٤.

ذلك مهما حاولوه وأعدّوا له من حول وقوّة، لأنّه كلام يفوق كلام البشر كافّة.

والآن وقد حان إعلان التحدّي بصورته العامّة، متوجّهاً به إلى البشريّة جمعاء، تحدّياً مستمرّاً عبر الأجيال: «قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هٰذا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً».[1]

❊ ❊ ❊

وهل وقع التحدّي بجميع وجوه الإعجاز، أم كان يخصّ جانب فصاحته وبلاغته وبديع نظمه وعجيب أُسلوبه فحسب؟

ولعلّه يختلف حسب اختلاف الخطاب. فحيث كان التحدّي متوجّهاً إلى العرب خاصة، ولا سيّما ذلك العهد، الذي كانت مهنة العرب فيه خاصّة بجانب البيان وطلاقة اللسان. فلا جرم كان التحدّي حينذاك أيضاً خاصّاً بهذا الجانب في ظاهر الخطاب.

أمّا وبعد أن توجّه النداء العامّ إلى كافة البشريّة على الإطلاق، فإنّه لابدّ أن يقع التحدّي بمجموعة وجوه الإعجاز من حيث المجموع. حيث اختلاف الاستعدادات والقابليّات. والقرآن معجزة الإسلام، لجميع الأدوار وعامّة الأجيال، ولمختلف طبقات الناس، في الفنون والمعارف، والعلوم والثقافات.

التحدّي في شموله

وهذا التحدّي في عمومه يشمل كلّ الأُمم وكلّ أدوار التأريخ، سواء العرب وغيرهم، وسواء من كان في عهد الرسالة أم في عهود متأخّرة حتّى الأبد. اللفظ عامّ والخطاب شامل[2] ولأنّ التحدّي لم يكن في تعبيره اللفظي فقط ليخصّ لغة العرب، وإنّما هو بمجموعته من كيفيّة الأداء والبيان والمحتوى جميعاً. كما أنّه لم يخصّ جانب فصاحته

---

١ ـ الإسراء ١٧: ٨٨.

٢ ـ وبتعبير اصطلاحي أُصولي: أنّ هذا الخطاب يضمّ إلى جانب عمومه الأفرادي إطلاقاً أحوالياً وإطلاقاً زمانياً معاً. إذن فللخطاب شمول من النواحي الثلاث: الأفراد الموجودين والأقوام الذين يأتون من بعد. وأيّاً كانت حالتهم وعلى أيّ صفةٍ كانوا...

فحسب، ليكون مقصوراً على العهد الأوّل، حيث العرب في ازدهار الفصاحة والأدب. على أنّ الفصاحة والبلاغة لم تختصّ بلغة دون أُخرى ولا بأُمّة دون غيرها.

لكن هناك من حاول اختصاص التحدّي بالعهد الأوّل وإن كان الإعجاز باقياً مع الخلود زعماً بأنّ عجز ذلك الدور يكفي دليلاً على كونه معجزاً أبداً. هكذا زعمت الكاتبة بنت الشاطىء، قالت: مناط التحدّي هو عجز بلغاء العرب في عصر المبعث، وأمّا حجة إعجازه فلا تخصّ عصراً دون عصر وتعمّ العرب والعجم، وكان عجز البلغاء من العصر الأوّل وهم أصل الفصاحة برهاناً فاصلاً في قضية التحدّي...[1]

قلت: ولعلّها في ذهابها هذا المذهب، خشيت أن لو قلنا بأنّ التحدّي قائم ولا يزال، أن سوف ينبري نائرة الكفر والإلحاد، ممّن لا يقلّ عددهم في الناطقين بالضاد، فيأتي بحديث مثله، وبذلك ينقض أكبر دعامة من دعائم الإسلام!

لكنّها فلتطمئنّ أنّ هذا لن يقع ولن يكون، لأنّ القرآن وُضع على أُسلوب لايدانيه كلام بشر البتة، ولن يتمكّن أحد أن يجاريه لا تعبيراً وأداءً ولا سبكاً وأُسلوباً، مادام الإعجاز قائماً بمجموعة اللفظ والمعنى، رفعة وشموخ في المحتوى، وجمال وبهاء في اللفظ والتعبير، فأيّ متكلّم أو ناطق يمكنه الإتيان بهكذا مطالب رفيعة، لم تسبق لها سابقة في البشريّة وفي هكذا قالب جميل! اللهمّ إلّا أن يفضح نفسه.

وفي التأريخ عِبَرٌ تؤثر عن أُناس حاولوا معارضة القرآن، لكنّهم أتوا بكلام لا يشبه القرآن ولا يشبه كلام أنفسهم، بل نزلوا إلى ضرب من السخف والتفاهة، بادٍ عواره، باقٍ عاره وشناره، فمن حدّثته نفسه أن يعيد هذه التجربة، فلينظر في تلك العبر، ومن لم يستحِ فليصنع ما شاء.

وتلك شهادات من أهل صناعة الأدب، اعترفوا ـ عبر العصور ـ بأنّ القرآن فذّ في أُسلوبه لا يمكن لأحد من الناس أن يقاربه فضلاً عن أن يماثله.

قال الدكتور عبدالله درّاز: من كانت عنده شبهة، زاعماً أنّ في النّاس من يقدر على

---

١ ـ الإعجاز البياني، ص ٦٥-٦٧.

الإتيان بمثله، فليرجع إلى أُدباء عصره، وليسألهم: هل يقدر أحد منهم على أن يأتي بمثله؟ فإن قالوا: نعم، لونشاء لقلنا مثل هذا، فليقل لهم: هاتوا برهانكم. وإن قالوا: لا طاقة لنا به. فليقل لهم: أيّ شيء أكبر شهادة على الإعجاز من الشهادة على العجز؟ ثمّ ليرجع إلى التأريخ فليسأله ما بال القرون الأُولىٰ؟ ينبّئك التأريخ أنّ أحداً لم يرفع رأسه أمام القرآن الكريم، وأنّ بضعة النفر الذين أنغضوا رؤوسهم إليه، باؤوا بالخزي والهوان، وسحب الدهر على آثارهم ذيل النسيان.[١]

التحدّي بفضيلة الكلام

قد يقول قائل: إنّ صناعة البيان ليست في النّاس بدرجة واحدة، وهي تختلف حسب اختلاف القرائح والمُعطَيات، ولكلّ إنسان مواهبه ومعطياته. وكلّ متكلّم أو كاتب إنّما يضع في بيانه قطعة من عقله ومواهبه، ومن ثمّ يختلف الناس في طرق التعبير والأداء، ولا يمكن أن يتشابه اثنان في منطقهما وفي تعبيرهما، اللهمّ إلّا إذا كان عن تقليد باهت.

إذن فكيف جاز تحدّي الناس لو يأتوا بحديث في مثل القرآن، وهم عاجزون أن يأتوا بمثل كلام بعضهم؟!

لكن غير خفيّ أنّ لشرف الكلام وضعته مقاييس، بها يعرف ارتفاع شأن الكلام وانحطاطه وقد فصّلها علماء البيان، وبها تتفاوت درجات الكلام ويقع بها التفاضل بين أنحائه من رفيع أو وضيع، نعم وإن كانت القرائح والمعطيات هي المادّة الأُولى لهذا التفاوت، ولا نماري أن يكون كلام كّل متكلّم هي وليدة فطرته وحصيلة مواهبه ومعطياته بحيث لا يمكن مشاركة أيّ أحد فيما تمليه عليه ذهنيّته الخاصّة، لكن ذلك لا يوهن حجّتنا في التحدّي بالقرآن، لأنّا لا نطالبهم أن يأتوا بمثل صورته الكلاميّة، كلّا، وإنّما نطلب كلاماً ـ أيّاً كان نمطه وأُسلوبه ـ بحيث إذا قيس مع القرآن، بمقياس الفضيلة البيانيّة، حاذاه أو قاربه، على شاكلة مايقاس كلمات البلغاء بعضهم مع بعض، وهذا هو القدر الذي

---

١ ـ النبأ العظيم، ص ٧٥.

يتنافس فيه الأُدباء، ويتماثلون أو يتقاربون، لا شيء سواه.

وقد أشار السكّاكي إلى طرف من تلك المقاييس التي هي المعيار لارتفاع شأن الكلام وانحطاطه، قال ـ بعد أن ذكر أنّ مقامات الكلام متفاوتة، ولكلّ كلمة مع صاحبتها مقام، ولكلّ حدّ ينتهي إليه الكلام مقام ـ: وارتفاع شأن الكلام في باب الحسن والقبول وانحطاطه في ذلك، بحسب مصادفة الكلام لما يليق به.

قال: فحسن الكلام تحلّيه بشيء من هذه المناسبات والاعتبارات بحسب المقتضى، ضعفاً وقوّة على وجه من الوجوه (التّي يفصّلها في فنّي المعاني والبيان).

ويقول: ـ بعد ذلك ـ: وإذ قد تقرّر أنّ مدار حسن الكلام وقبحه على انطباق تركيبه على مقتضى الحال والاعتبار المناسب، وعلى لا انطباقه، وجب عليك ـ أيّها الحريص على ازدياد فضلك، المنتصب لاقتداح زناد عقلك، المتفحّص عن تفاصيل المزايا التي بها يقع التفاضل، وينعقد بين البلغاء في شأنها التسابق والتناضل ـ أن ترجع إلى فكرك الصائب، وذهنك الثاقب، وخاطرك اليقظان، وانتباهك العجيب الشأن، ناظراً بنور عقلك، وعين بصيرتك، في التصفّح لمقتضيات الأحوال، في إيراد المسند إليه على كيفيّات مختلفة، وصور متنافية، حتّى يتأتّى بروزه عندك لكلّ منزلة في معرضها، فهو الرهان الذي يجرّب به الجياد، والنضال الذي يعرف به الأيدي الشداد فتعرف أيّما حال يقتضي كذا... وأيّما حال يقتضي خلافه... الخ.[1]

وعليه فتزداد قوّة الكلام وصلابته وكذا روعة البيان وصولته، كلّما ازدادت العناية بجوانبه اللفظية والمعنويّة من الاعتبارات المناسبة، ورعاية مقتضيات الأحوال والأوضاع، وملاحظة مستدعيات المقامات المتفاوتة، على ما فصّله القوم. وقلّ من يتوفّق لذلك بالنحو الأتمّ أو الأفضل، بل الأكثر، مادام الإنسان حليف النسيان. أمّا بلوغ الأقصى والكمال الأوفى، الذي حدّ الإعجاز، فهو خاصّ بذي الجلال المحيط بكلّ الأحوال.

---

١ ـ مفتاح العلوم، ص ٨٠-٨١ و ٨٤.

وفي ذلك يقول السكّاكي: «البلاغة تتزايد إلى أن تبلغ حدّ الإعجاز، وهو الطرف الأعلى وما يقرب منه».[١] ومنه أخذ الخطيب القزويني: «وللبلاغة في الكلام طرفان، أعلى وهو حدّ الإعجاز وما يقرب منه. وأسفل وهو ما إذا غيّر الكلام إلى مادونه التحق عند البلغاء بأصوات الحيوانات».[٢]

إذن فالطرف الأعلى ومايقرب منه، كلاهما حدّ الإعجاز، على ما حدّده السكّاكي، وبذلك يكون اختلاف مراتب آيات القرآن في الفصاحة والبيان، كلّه داخلاً في حدّ الإعجاز الّذي لا يبلغه البشر. وهذا هو الصحيح، على ما سنبيّن.

وبعد، فالمتلخّص من هذا البيان: أنّ التفاضل بين كلامين أو التماثل بينهما إنّما يتحقّق بهذه الاعتبارات ـ التي هي مقاييس لدرجة فضيلة الكلام ـ وهي من قبيل المعنى أكثر من كونها من قبيل اللفظ، فليس المقصود بالتحدّي، المعارضة في التشاكل اللفظي والتماثل في صورة الكلام فحسب، كما حسبه مسيلمة الكذّاب ومن حذا حذوه من أغبياء القوم.

سرّ الإعجاز

وجوه الإعجاز في مختلف الآراء والنظرات

اختلفت أنظار العلماء في وجه إعجاز القرآن، بين من أنهاه إلى عدّة وجوه ومن اقتصر على وجه واحد، ولا يزال البحث مستمرّاً عن هذا السرّ الذي هو دليل الإسلام:

١ ـ ذهب أرباب الأدب والبيان إلى أنّها الفصاحة البالغة والبلاغة الفائقة، إن في بديع نظمه أو في عجيب رصفه، الذي لم يسبق له نظير ولن يخلفه بديل...

قد نُضّدت عباراته نضداً مؤتلفاً، ونظّمت فرائده نظماً متلائماً، وُضعت كلّ لفظة منه في موضعها اللائق بها، ورصفت كلّ كلمة منه إلى كلمات تناسبها وتوائمها، وضعاً دقيقاً ورصفاً تامّاً، يجمع بين أناقة التعبير وسلاسة البيان، وجزالة اللفظ وفخامة الكلام، حلواً

---

١ ـ المصدر، ص ١٩٦-١٩٩.

٢ ـ المطوّل للتفتازاني، ص ٣١ (ط استنبول).

رشيقاً وعذباً سائغاً، يستلذّه الذّوق ويستطيبه الطبع... ممّا يستشفّ عن إحاطة واسعة ومعرفة كاملة بأوضاع اللّغة ومزايا الألفاظ والكلمات والتعابير... ويقصر دونه طوق البشر المحدود!

قالوا في دقّة هذا الرصف والنضد: لو انتزعت منه لفظة ثمّ أُدير بها لغة العرب كلّها على أن يوجد لها نظير في موضعها الخاصّ، لم توجد البتة...

٢ ـ وزادوا: جانب أُسلوبه البديع وسبكه الجديد على العرب، لا هو شعر كشعرهم، ولا هو نثر كنثرهم، ولا فيه تكلّف السجع ولا رطانة أهل الكهانة. فهو في سبكه بديع، لكنّه ليس بغريب: قد جَمَعَ مزايا أنواع الكلام: فيه أناقة الشعر، وطلاقة النثر، وجزالة السجع الرصين، في حلاوة وطلاوة وزهوٍ وجمال: إنّ له لحلاوة، وإنّ عليه لطلاوة... وإنّه يعلو وما يُعلى. كلام قاله عظيم العرب وفريدها الوليد...

أو كما قال الراغب: القرآن حاوٍ لمحاسن أنواع الكلام بنظم ليس هو نظم شيء منها.

٣ ـ وتوسّع المُحْدَثون في البحث وراء نظامه الصوتي العجيب:

أنغام وألحان تبهر العقول وتُذهل النفوس، نظّمت كلماته على أنظمة صوتية دقيقة، ورصفت ألفاظه وعباراته على ترصيفات موسيقيّة رقيقة، متناسبات الأجراس، متناسقات التواقيع، في تقاسيم وتراكيب سهلة سلسة، عذبة سائغة، ذات رنّة وجذبة شعريّة عجيبة، واستهواء سحريّ غريب!

٤ ـ وأضاف المحقّقون جانب اشتماله على معارف سامية وتعاليم راقية تنبئك عن لطيف سرّ الخليقة، وبديع فلسفة الوجود، في جلال وجمال وعظمة وكبرياء، بما يترفّع كثيراً عمّا راجت في تعاليم مصطنعة ذلك العهد، سواءٌ في أوساط أهل الكتاب أم الوثنيّين.

٥ ـ وهكذا تشريعاته جائت حكيمة ومتينة، متوافقة مع الفطرة ومتوائمة مع العقل السليم... في طهارة وقداسة وسعة وشمول، كانت جامعة كاملة كافلة لإسعاد الحياة في النشأتين.

٦ ـ وكانت براهينه ساطعة ودلائله ناصعة، واضحة ولائحة، قامت على صدق

الدعوة وإثبات الرسالة... في بيان رصين ومنطقٍ رزين وفصل خطاب.

٧ ـ واشتمالُه على أنباء غيبيّة، إمّا سالفة كانت محرّفة سقيمة، فجاءت محرّرة سليمة في القرآن الكريم، أو إخبار عمّا يأتي، تحقّق صدقها بعد فترة قصيرة أو طويلة، كانت شاهدة صدق على صدق الرسالة.

٨ ـ إلى جنب إشارات علميّة، عابرة، إلى أسرار من هذا الكون الفسيح. وإلماعات خاطفة إلى حقائق من خفايا الوجود، ممّا لا تكاد تبلغه معرفة الإنسان العائش يومذاك.

٩ ـ وأخيراً استقامته في البيان، وسلامته من أيّ تناقض أو اختلاف، في طول نزوله، وكثرة تكراره لسرد حوادث الماضين، كلّ مشتمل على مزيّة ذات حكمة لاتوجد في أُختها. وكذا خلوّه عن الأباطيل وعمّا لا طائل تحتها.

تلك روائع آراء نتجتها أنظار الأُدباء، وبدائع أسرار وصلت إليها أفكار العلماء، كانت من وجوه إعجاز القرآن ومزاياه الوسيمة، سوف نسرد عليك تفاصيلها في مجالها الآتي إن شاء الله.

١٠ ـ لكن هناك وجه آخر يجعل من الإعجاز أمراً خارجيّاً عن جوهر القرآن بعيداً عن ذاته، وإنّما هو لعجز أحدثه الله في أنفس العرب والناس جميعاً، ومنعهم دون القيام بمعارضته قهراً عليهم. وهو القول بالصرفة، الذي عليه بعض المتكلّمين الأوائل ومن لفّ لفّهم من الكتّاب الأُدباء.

وسنتعرّض لتفنيده وتزييفه على منصّة البحث والاختبار، بعونه تعالى.

وبعد، فإليك تفصيل آراء ونظرات حول إعجاز القرآن، من القدماء والمحدثين، لها قيمتها في عالم الاعتبار.

آراء ونظرات عن إعجاز القرآن

أوّلاً: في دراسات السابقين

هناك للعلماء ـ سلفاً وخلفاً ـ بحوث ودراسات وافية حول مسألة إعجاز القرآن، منذ مطالع القرون الأُولىٰ فإلى هذا الدور، ولهم كلمات ومقالات ضافية عن وجه هذا الإعجاز المتحدّى به من أوّل يومه، ولا يزال مستمرّاً عبر الخلود. ولهذه الأبحاث والدراسات قيمتها و وزنها العلمي النظري في كلّ عصر وفي كلّ دور، وأنّ الفضل يرجع إلى الأسبق ممّن فتح هذا الباب وأسّس أساس هذا البنيان، فكان من يأتي من بعد، إنّما يجري على منواله ويضرب على ذات وتره، مهما تغيّر اللون أو تنوّع الأُسلوب... ونحن نقدّم من آراء من سلف الأهمّ منها فالأهمّ، ثمّ نعقّبها بطرف من آراء المتأخّرين ومن قاربنا عصره، ولنبدأ بأهل الأدب والبلاغة:

١ ـ رأي أبي سليمان الخطّابي

هو أبوسليمان حمد بن محمّد بن إبراهيم الخطّابي البُستي[١] (٣١٧-٣٨٨) أديب لغويّ

---

١ ـ ينتهي نسبه إلى زيد أخي عمر بن الخطّاب. قال السمعاني: إمام فاضل كبير الشأن، جليل القدر، صاحب التصانيف ←

وفقيه محدّث. له كتب قيّمة منها في القرآن: كتاب معالم التنزيل ورسالة في إعجاز القرآن، هي على صغر حجمها كبيرة الفائدة.

يُعْتَبَر الخطّابي أسبق علماء المسلمين إلى البحث عن إعجاز القرآن، بحثاً فنّيّاً منظّماً في ضوء قواعد اللغة والأدب السامي.[1]

يُقرّر الخطّابي أنّ الناس قديماً وحديثاً ذهبوا في الموضوع كلّ مذهب من القول ولم يصدروا عن ريٍّ. ويناقش فكرة الصرفة، وفكرة تضمّن القرآن للأخبار المستقبلة، ولا يرتضيها شرحاً لأسرار الإعجاز، ثمّ ينتقل إلى موضوع البلاغة، ويعيب على القائلين بها اعتمادهم على التقليد وعدم تحقيقهم، وقصور كلامهم عن الإقناع. ويعالج هو الموضوع على طريقته، فيذكر للكلام المحمود أقساماً ثلاثة: أعلىٰ هو أرفع و أوسط هو أقصد و أدنى هو أقرب. ويقرّر أنّ بلاغات القرآن قد أخذت من كلّ قسم من هذه حصّة ومن كلّ نوع شعبة، فانتظم لها بامتزاج هذه الأوصاف نمط من الكلام يجمع بين صفتي الضخامة والعذوبة. وهما على الانفراد في نعوتهما كالمتضادّين، لذلك كان اجتماعهما في نظم القرآن فضيلة خُصّ بها، يسرّها اللطيف الخبير، لتكون آية بيّنة لنبيّه. وإنّما تعذّر على

← الحسنة مثل أعلام الحديث في شرح البخاري، ومعالم السنن، وغريب الحديث، والعزلة وغيرها. سمع ابن‌الأعرابي بمكة وابن‌داسة التمّار بالبصرة والصفّار ببغداد وغيرهم. روى عنه الحاكم والفارسي وجماعة. ذكره الحاكم في التاريخ فقال: الفقيه الأديب البُستي أقام عندنا بنيسابور سنين وحدّث بها وكثرت الفوائد من علومه. أنساب الأشراف، ج ٢، ص ٣٨٠.

و البستي نسبة إلى «بُست» من بلاد كابل بين هراة وغزنة نشأ بها ورجع إليها وأقام بقيّة حياته فيها وبها توفّى.

١ ـ لكن ذكر ابن‌النديم لمحمد بن‌زيد الواسطي (ت ٣٠٧) كتاباً في إعجاز القرآن. وهو من جلّة المتكلّمين وكبارهم صاحب كتاب «الإمامة». الفهرست ص ٦٣ و ص ٢٥٦. وراجع: الذريعة إلى تصانيف الشيعة للطهراني، ج ٢، ص ٢٣٢، برقم ٩١٧.

وتقدّم في مقدّمة الجزء الأوّل من التمهيد: أنّ لأبي عمرو الباهلي (المتوفى سنة ٣٠٠) رسالة في إعجاز القرآن، وكان أوّل من بحث في هذا الموضوع وكانت رسالته أُولى رسالة ظهرت في الوجود بهذا العنوان!

غير أنّ الذي وصل إلينا من كتب المتقدّمين في إعجاز القرآن هي رسالة الخطابي «البيان في إعجاز القرآن» وطبعت مع رسالتين أُخريين في الإعجاز إحداهما للرماني والأُخرى للشيخ عبدالقاهر الجرجاني، باسم ثَلاث رسائل في إعجاز القرآن. دارالمعارف بمصر: ١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٨م الطبعة الثانية.

البشر الإتيان بمثله، لأنّ علمهم لا يحيط بجيمع أسماء اللغة وأوضاعها. ولا تدرك أفهامهم جميع معاني الأشياء المحمولة على تلك الألفاظ، ولا تكمل معرفتهم لاستيفاء جمع النظوم التي بها ائتلافها وارتباطها بعضها ببعض.

وإنّما صار القرآن معجزاً، لأنّه جاء بأفصح الألفاظ، في أحسن نظوم التأليف، مضمّناً أصحّ المعاني. ومعلوم أنّ الإتيان بمثل هذه الأُمور والجمع بين أشتاتها حتى تنتظم وتتّسق، أمر تعجز عنه قوى البشر.

وعمود البلاغة التي تجمع لها هذه الصفات، هو وضع كلّ نوع من الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام، موضعه الأخصّ الأشكل به. ومن هنا كاع القوم وجبنوا عن معارضة القرآن، لما قد كان يؤودهم ويتصعّدهم منه.

ويفنّد الخطّابي بعض ما أورده المعترضون من شُبَه ضدّ أُسلوب القرآن.

ومن الطريف في رسالة الخطّابي ما أورده من تحليل بعض النصوص تحليلاً فنّيّاً جميلاً، يكشف فيه عن ذوق وبصر بمواطن الجمال في الكلام.

وقد أثبت في آخر رسالته وجهاً آخر للإعجاز ذهب عنه الناس ـ كما يقول ـ وذلك صنيع القرآن بالقلوب، وتأثيره في النفوس. ويلاحظ أنّ هذه الفكرة هي التي دار حولها بحث الشيخ عبدالقاهر الجرجاني في أسرار البلاغة، إذ اعتبر مصدر البلاغة في الكلام تأثيره في النفوس.

والرسالة قيّمة، فريدة في بابها، ولعلّه لم يعهد مثلها فيما غبر وحضر، ومن ثَمَّ اخترناها أُولى رسالة عالجت الموضوع بشكله الفنّي، ولله درّ مؤلّفها.

واستمع الآن إلى ما يقوله هو:

يقول: قد أكثر الناس الكلام في هذا الباب قديماً وحديثاً، وذهبوا فيه كلّ مذهب من القول وما وجدناهم بعد صدروا عن ريٍّ، وذلك لتعذّر معرفة وجه الإعجاز في القرآن، ومعرفة الأمر في الوقوف على كيفيّته. فأمّا أن يكون قد نقبت في النفوس نقبة[1] بكونه

---

١ ـ أي أُلقيت في النفوس إلقاء. وهو قول قريب من القول بالصرفة، ومن ثمّ رفضه.

معجزاً للخلق ممتنعاً عليهم الإتيان بمثله على حال، فلاموضع لها. والأمر في ذلك أبين من أن نحتاج إلى أن ندلّ عليه بأكثر من الوجود القائم المستمرّ على وجه الدهر، من لدن عصر نزوله إلى الزمان الراهن الذي نحن فيه. وذلك أنّ النبيّ ﷺ قد تحدّى العرب قاطبةً بأن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا عنه وانقطعوا دونه. وقد بقي ﷺ يطالبهم به مدّة عشرين سنة، مظهراً لهم النكير، زارياً على أديانهم، مسفّهاً آرائهم وأحلامهم، حتى نابذوه وناصبوه الحرب فهلكت فيه النفوس، وأُريقت المهج، وقطعت الأرحام، وذهبت الأموال...

... ولو كان ذلك في وسعهم وتحت أقدارهم لم يتكلّفوا هذه الأُمور الخطيرة، ولم يركبوا تلك الفواقر المبيرة[١] ولم يكونوا تركوا السهل الدمث من القول، إلى الحزن الوعر من الفعل.[٢]

هذا مالا يفعله عاقل ولا يختاره ذو لبّ. وقد كان قومه قريش خاصّة موصوفين برزانة الأحلام ووفارة العقول والألباب، وقد كان فيهم الخطباء المصاقع والشعراء المفلّقون[٣] وقد وصفهم الله تعالى في كتابه بالجدل واللدد، فقال سبحانه: «ما ضَرَبُوهُ لَكَ إلّا جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ».[٤] وقال سبحانه: «وتُنذِرَ بِهِ قَوْماً لُدّاً»[٥] فكيف كان يجوز ـ على قول العرب ومجرى العادة مع وقوع الحاجة ولزوم الضرورة ـ أن يغفلوه ولا يهتبلوا الفرصة فيه[٦] وأن يضربوا عنه صفحاً، ولا يجوزوا الفلح والظفر فيه، لولا عدم القدرة عليه والعجز المانع منه.

قال: وهذا ـ من وجوه ما قيل فيه ـ أبيَنُها دلالة وأيسرها مؤونة. وهو مقنع لمن تنازعه نفسه مطالعة كيفيّة وجه الإعجاز فيه.[٧]

---

١ ـ الفاقرة: الداهية. والإبارة: الإهلاك.

٢ ـ الدماثة: السهولة. يقال: أرض دمث أي ذلول، ضدّ الحزونة والوعورة.

٣ ـ المصقع: البليغ. وشاعر مفلّق ـ بزنة اسم الفاعل ـ مبدع.

٤ ـ الزخرف ٤٣: ٥٨. ٥ ـ مريم ١٩: ٩٧.

٦ ـ اهتبال الفرصة: اغتنامها.

٧ ـ أي وهذا أَيسر الوجوه لمن أراد الاقتناع النفسي ولو تقليداً وليس تحقيقاً.

ثمّ أخذ في بيان مذاهب أُخر في بيان وجه الإعجاز، قال: وذهب قوم إلى أنّ العلّة في إعجازه الصّرفة، أي صرف الهمم عن المعارضة، وإن كانت مقدوراً عليها، غير معجوز عنها، إلّا أنّ العائق من حيث كان أمراً خارجاً عن مجاري العادات، صار كسائر المعجزات... قال: وهذا أيضاً وجه قريب، إلّا أنّ دلالة الآية تشهد بخلافه، قال سبحانه: (قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هٰذا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً»[١] فأشار في ذلك إلى أمر طريقه التكلّف والاجتهاد، وسبيله التأهّب والاحتشاد. والمعنى في الصّرفة التي وصفوها لا يلائم هذه الصفة، فدلّ على أنّ المراد غيرها، والله أعلم.

❊ ❊ ❊

قال: وزعمت طائفة أنّ إعجازه إنّما هو فيما يتضمّنه من الأخبار عن الكوائن في مستقبل الزمان، نحو قوله سبحانه: «وهُم مِنْ بَعْد غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ في بِضْعِ سِنينَ»[٢] وكقوله سبحانه: «قُلْ لِلْمُخَلَّفينَ مِنَ الْأَعْرابِ سَتُدْعَوْنَ إِلىٰ قَوْمٍ أُوْلي بَأسٍ شَديدٍ»[٣] ونحوهما من الأخبار الّتي صدقت أقوالها مواقع أكوانها.. قلت: ولا يشكّ في أنّ هذا وما أشبهه من أخباره نوع من انواع إعجازه، ولكنّه ليس بالأمر العامّ الموجود في كلّ سورة من سور القرآن، وقد جعل سبحانه في صفة كلّ سورة أن تكون معجزة بنفسها، لا يقدر أحد من الخلق أن يأتي بمثلها، فقال: «فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ».[٤] من غير تعيين، فدلّ على أنّ المعنى فيه غير ماذهبوا إليه.

وزعم آخرون أنّ إعجازه من جهة البلاغة، وهم الأكثرون من علماء أهل النظر، وفي كيفيّتها يعرض لهم الإشكال، ويصعب عليهم منه الانفصال. ووجدت عامّة أهل هذه المقالة قد جروا في تسليم هذه الصفة القرآن على نوع من التقليد، وضرب من غلبة الظنّ دون التحقيق له وإحاطة العلم به. ولذلك صاروا إذا سئلوا عن تحديد هذه البلاغة التي

---

١ ـ الإسراء ١٧: ٨٨.
٢ ـ الروم ٣٠: ٣-٤.
٣ ـ الفتح ٤٨: ١٦.
٤ ـ البقرة ٢: ٢٣.

اختصّ بها القرآن الفائقة في وصفها سائر البلاغات، وعن المعنى الذي يتميّز به عن سائر أنواع الكلام الموصوف بالبلاغة، قالوا: إنّه لا يمكننا تصويره ولا تحديده بأمر ظاهر نعلم به مباينة القرآن غيره من الكلام. قالوا: قد يخفى سببه (سبب التفاضل بين كلامين) عند البحث، ويظهر أثره في النفس، حتى لا يلتبس على ذوي العلم والمعرفة به.

قالوا: وقد توجد لبعض الكلام عذوبة في السمع وهشاشة في النفس لا توجد مثلها لغيره منه، والكلامان معاً فصيحان، ثمّ لا يوقف لشيء من ذلك على علّة...

قلت: وهذا لا يقنع في مثل هذا العلم، ولا يشفي من داء الجهل به، وإنّما هو إشكال أُحيل به على إبهام.

وبذلك ينتهي إلى إبداء رأيه الأخير في وجه الإعجاز، قائلاً:

فأمّا من لم يرض من المعرفة بظاهر السمة دون البحث عن باطن العلّة، ولم يقنع في الأمر بأوائل البرهان حتى يستشهد لها دلائل الامتحان، فإنّه يقول: إنّ الذي يوجد لهذا الكلام من العذوبة في حسّ السامع، والهشاشة في نفسه، وما يتحلّى به من الرونق والبهجة، التي يباين بها سائر الكلام حتى يكون له هذا الصنيع في القلوب، والتأثير في النفوس، فتصطلح من أجله الألسن على أنّه كلام لا يشبهه كلام، وتحصر الأقوال عن معارضته، وتنقطع به الأطماع عنها، أمرٌ لابدّ له من سبب، بوجوده يجب له هذا الحكم، وبحصوله يستحقّ هذا الوصف.

قال: وقد استقرأنا أوصافه الخارجة عنه، وأسبابه النابتة منه، فلم نجد شيئاً منها يثبت على النظر، أو يستقيم في القياس، ويطرد على المعايير. فوجب أن يكون ذلك المعنى مطلوباً من ذاته، ومستقصى من جهة نفسه، فدلّ النظر وشاهد العبر على أنّ السبب له والعلّة فيه: أنّ أجناس الكلام مختلفة، ومراتبها في نسبة التبيان متفاوتة، ودرجاتها في البلاغة متباينة غير متساوية فمنها البليغ الرصين الجزل، ومنها الفصيح القريب السهل، ومنها الجائز الطلق الرسل.

وهذه أقسام الكلام الفاضل المحمود، دون الهجين المذموم، الذي لا يوجد في القرآن شيء منه البتة.

فالقسم الأوّل أعلى طبقات الكلام وأرفعه. والقسم الثاني أوسطه وأقصده. والقسم الثالث أدناه وأقربه، فحازت بلاغات القرآن من كلّ قسم من هذه الأقسام حصّةً، وأخذت من كلّ نوع من أنواعها شعبةً، فانتظم لها بامتزاج هذه الأوصاف نمط من الكلام يجمع صفتي الفخامة والعذوبة وهما على الانفراد في نعوتهما كالمتضادّين، لأنّ العذوبة نتاج السهولة، والجزالة والمتانة في الكلام تعالجان نوعاً من الوعورة، فكان اجتماع الأمرين في نظمه، مع نبوّ كلّ واحد منهما على الآخر فضيلة خصّ بها القرآن.

❊ ❊ ❊

قال: وإنّما تعذّر على البشر الإتيان بمثله لأُمور، منها: أنّ علمهم لا يحيط بجميع أسماء اللغة العربيّة وبألفاظها التي هي ظروف المعاني والحوامل لها، ولا تدرك أفهامهم جميع معاني الأشياء المحمولة على تلك الألفاظ، ولا تكمل معرفتهم لاستيفاء جميع وجوه النظوم التي بها يكون ائتلافها وارتباط بعضها ببعض، فيتوصّلوا باختيار الأفضل عن الأحسن من وجوهها، إلى أن يأتوا بكلام مثله.

.. وإنّما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة: لفظ حامل، ومعنى قائم به، ورباط لهما ناظم. وإذا تأمّلت القرآن وجدت هذه الأُمور منه في غاية الشرف والفضيلة، حتّى لاترى شيئاً من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه، ولاترى نظماً أحسن تأليفاً وأشدّ تلاؤماً وتشاكلاً من نظمه.

.. وأمّا المعاني فلا خفاء على ذي عقل، أنّها هي التي تشهد لها العقول بالتقدّم في أبوابها، والترقّي إلى أعلى درجات الفضل من نعوتها وصفاتها.

... وقد توجد هذه الفضائل الثلاث على التفرّق في أنواع الكلام، فأمّا أن توجد مجموعة في نوع منه، فلم توجد إلّا في كلام العليم القدير، الذي أحاط بكلّ شيء علماً، وأحصى كلّ شيء عدداً.

❊ ❊ ❊

قال: فتفهّم الآن واعلم أنّ القرآن إنّما صار معجزاً لأنّه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن

نظوم التأليف، مضمّناً أصحّ المعاني، من توحيد له عزّت قدرته، وتنزيه له في صفاته، ودعاء إلى طاعته، وبيان بمنهاج عبادته، من تحليل وتحريم و حظر وإباحةٍ، ومن وعظ وتقويم وأمر بمعروف ونهي عن منكر، وإرشاد إلى محاسن الأخلاق، وزجر عن مساوئها، واضعاً كلّ شيء منها موضعه الذي لا يرىٰ شيء أولى منه، ولا يرى في صورة العقل أمر أليق منه. مودعاً أخبار القرون الماضية وما نزل من مَثُلات الله بمن عصى وعاند منهم، منبئاً عن الكوائن المستقبلة في الأعصار الباقية من الزمان، جامعاً في ذلك بين الحجّة والمحتجّ له، والدليل والمدلول عليه، ليكون ذلك أوكد للزوم ما دعا إليه، وإنباء عن وجوب ما أمر به ونهى عنه.

.. ومعلوم أنّ الإتيان بمثل هذه الأُمور، والجمع بين شتاتها حتى تنتظم وتتّسق، أمر تعجز عنه قوى البشر، ولا تبلغه قدرهم، فانقطع الخلق دونه، وعجزوا عن معارضته بمثله أو مناقضته في شكله. ثمّ صار المعاندون له يقولون مرّة: إنّه شعر، لمّا رأوه كلاماً منظوماً، ومرّةً سحر، إذ رأوه معجوزاً عنه غير مقدور عليه، وقد كانوا يجدون له وقعاً في القلوب وقرعاً في النفوس، يريبهم ويحيّرهم فلم يتمالكوا أن يعترفوا به نوعاً من الاعتراف.

.. وكيفما كانت الحال ودارت القصّة، فقد حصل باعترافهم قولاً، وانقطاعهم عن معارضته فعلاً، أنّه معجز. وفي ذلك قيام الحجّة وثبوت المعجزة، والحمد لله.[١]

❊ ❊ ❊

وأضاف ـ قائلاً ـ: إعلم أنّ عمود هذه البلاغة التي تجمع لها هذه الصفات، هو وضع كلّ نوع من الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخصّ الأشكل به، الذي إذا أُبدل مكانه غيره جاء منه إمّا تبدّل المعنى الذي يكون منه فساد الكلام، وإمّا ذهاب الرونق الذي يكون معه سقوط البلاغة. ذلك أنّ في الكلام ألفاظاً متقاربة في المعاني، يحسب أكثر الناس أنّها متساوية في إفادة بيان مراد الخطاب، غير أنّ الأمر فيها وفي ترتيبها عند علماء أهل اللغة بخلاف ذلك، لأنّ لكلّ لفظة منها خاصّيّة تتميّز بها عن صاحبتها في بعض

---

١ ـ البيان في إعجاز القرآن للخطّابي، ص ٢١-٢٩.

معانيها، وإن كانا قد يشتركان في بعضها... ومن هنا تهيّب كثير من السلف تفسير القرآن، وتركوا القول فيه، حذراً أن يزلّوا فيذهبوا عن المراد، وإن كانوا علماء باللسان، فقهاء في الدين.

.. فإذ قد عرفت هذه الأُصول، تبيّنت أنّ القوم إنّما كاعوا[١] وجبنوا عن معارضة القرآن لما قد كان يؤودهم ويتصعّدهم منه، وقد كانوا بطباعهم يتبيّنون مواضع تلك الأُمور ويعرفون ما يلزمهم من شروطها ومن العهدة فيها، ويعلمون أنّهم لا يبلغون شأوها[٢] فتركوا المعارضة لعجزهم، وأقبلوا على المحاربة لجهلهم، فكان حظّهم ممّا فرّوا إليه حظّهم ممّا فزعوا منه، فغلبوا هناك وانقلبوا صاغرين، والحمد لله ربّ العالمين.[٣]

❊ ❊ ❊

وقال ـ في خاتمة الرسالة ـ: في إعجاز القرآن وجه آخر ذهب عنه الناس، فلا يكاد يعرفه إلّا الشاذّ من آحادهم، وذلك صنيعه بالقلوب وتأثيره في النفوس، فإنّك لا تسمع كلاماً غير القرآن منظوماً ولا منثوراً، إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذّة والحلاوة في الحال، ومن الروعة والمهابة في أُخرى ما يخلص منه إليه، تستبشر به النفوس وتنشرح له الصدور، حتى إذا أخذت حظّها منه عادت مرتاعة قد عراها الوجيب والقلق، وتغشّاها الخوف والفرق. تقشعرّ منه الجلود، وتنزعج له القلوب، يحول بين النفس وبين مضمراتها وعقائدها الراسخة فيها، فكم من عدوّ للرسول صلى الله عليه وآله من رجال العرب وفتّاكها أقبلوا يريدون اغتياله وقتله فسمعوا آيات من القرآن، فلم يلبثوا حين وقعت في مسامعهم أن يتحوّلوا عن رأيهم الأوّل، وأن يركنوا إلى مسالمته ويدخلوا في دينه، وصارت عداوتهم موالاةً، وكفرهم إيماناً.

بعث الملأ من قريش عتبة بن ربيعة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ليوافقوه على أُمور أرسلوه بها فقرأ عليه رسول الله صلى الله عليه وآله آيات من حم السجدة، فلمّا أقبل عتبة وأبصره الملأ من قريش،

---

١ ـ كاع عن الشيء: هابه وخاف عن مقابلته.

٢ ـ الشأو: الأمد، الغاية.

٣ ـ المصدر، ص ٢٩-٣٥.

قالوا: أقبل أبوالوليد بغير الوجه الذي ذهب به.[١]

ولمّا قرأ رسول الله صلى الله عليه وآله القرآن في الموسم على النفر الذين حضروه من الأنصار آمنوا به وعادوا إلى المدينة فأظهروا الدين بها، فلم يبق بيت من بيوت الأنصار إلّا وفيه قرآن.[٢]

وقد روي عن بعضهم أنّه قال: فتحت الأمصار بالسيوف وفتحت المدينة بالقرآن.

ولمّا سمعته الجنّ لم تتمالك أن قالت: «إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً. يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ».[٣]

ومصداق ما وصفناه في أمر القرآن في قوله تعالى: «لَوْ أَنْزَلْنَا هٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ».[٤]

وفي قوله: «اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللهِ».[٥]

وقال سبحانه: «أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ».[٦]

وقال سبحانه: «وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً».[٧]

وقال سبحانه: «وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ».[٨]

في آي ذوات عدد منه، وذلك لمن ألقى السمع وهو شهيد. وهو من عظيم آياته ودلائل معجزاته...[٩]

٢ ـ اختيار ابن عطيّة

ولأبي محمد عبدالحقّ بن غالب المحاربي الغرناطي، الفقيه المفسّر (ت ٥٤٢) اختيار

---

١ ـ سيرة ابن‌هشام، ج ١، ص ٣١٤.

٢ ـ المصدر، ج ٢، ص ٧٠.

٣ ـ الجنّ ٧٢: ١-٢.

٤ ـ الحشر ٥٩: ٢١.

٥ ـ الزمر ٣٩: ٢٣.

٦ ـ العنكبوت ٢٩: ٥١.

٧ ـ الأنفال ٨: ٢.

٨ ـ المائدة ٥: ٨٣.

٩ ـ بيان إعجاز القرآن، ص ٧٠-٧١.

يشبه اختيار أبي‌سليمان البُستي، ولعلّه اختزال منه، ذكره في مقدّمة تفسيره (المحرّر) ونقله الإمام بدرالدين الزركشي، مع تصرّف واختصار.

قال ابن‌عطيّة: إنّ الذي عليه الجمهور والحذّاق، وهو الصحيح في نفسه، أنّ التحدّي إنّما وقع بنظمه، وصحّة معانيه، وتوالي فصاحة ألفاظه. ووجه إعجازه أنّ الله قد أحاط بكلّ شيء علماً، وأحاط بالكلام كلّه علماً، فإذا ترتّبت اللفظة من القرآن علم ـ بإحاطته ـ أيّ لفظة تصلح أن تلي الأُولى، ويتبيّن المعنى دون المعنى، ثمّ كذلك من أوّل القرآن إلى آخره. والبشر معهم الجهل والنسيان والذهول، ومعلوم ضرورةً أنّ بشراً لم يكن قطّ محيطاً. فبهذا جاء نظم القرآن في الغاية القصوى من الفصاحة، وبهذا النظر يبطل قول من قال: إنّ العرب كان في قدرتها الإتيان بمثله، فلمّا جاءهم محمّد صلى الله عليه وآله صرفوا عن ذلك وعجزوا عنه! والصحيح أنّ الإتيان بمثل القرآن لم يكن قطّ في قدرة أحد من المخلوقين، ويظهر لك قصور البشر، في أنّ الفصيح منهم يصنع خطبة أو قصيدة يستفرغ فيها جهده، ثمّ لايزال ينقّحها حولاً كاملاً، ثمّ تعطى لآخر نظيره فيأخذها بقريحة خاصة فيبدّل فيها وينقّح، ثمّ لاتزال كذلك فيها مواضع للنظر والبدل. وكتاب الله سبحانه لو نزعت منه لفظة، ثمّ أُدير لسان العرب على لفظة في أن يوجد أحسن منها لم توجد، ونحن تتبيّن لنا البراعة في أكثره، ويخفى علينا وجهها في مواضع لقصورنا عن مرتبة العرب يومئذ في سلامة الذوق، وجودة القريحة، وميز الكلام.

قال: وقامت الحجّة على العالم بالعرب، إذ كانوا أرباب الفصاحة وفطنة المعارضة كما قامت الحجّة في معجزة عيسى بالأطبّاء، وفي معجزة موسى بالسحرة، فإنّ الله تعالى إنّما جعل معجزات الأنبياء بالوجه الشهير أبرع مايكون في زمن النبيّ الذي أراد إظهاره، فكان السحر في مدّة موسى قد انتهى إلى غايته، وكذلك الطبّ في زمن عيسى، والفصاحة في مدّة محمد صلى الله عليه وآله.[1]

---

١ ـ المحرّر الوجيز، المقدّمة، ج ١، ص ٥٢-٥٣. وراجع: الزركشي في البرهان، ج ٢، ص ٩٧.

٣ـ رأي عبدالقاهر الجرجاني

يرى الشيخ الإمام عبدالقاهر الجرجاني (ت ٤٧١) ـ و هو الواضع الأوّل لأُسس علمَي المعاني والبيان ـ أنّ إعجاز القرآن الذي تحدّى به العرب قائم بجانب فصاحته البالغة وبلاغته الخارقة، وبأُسلوب بيانه ذلك البديع، ممّا هو شأن نظم الكلام وتأليفه في ذلك التناسق والتلاؤم العجيب. الأمر الذي لايمسّ شيئاً من معاني القرآن وحِكَمه وتشريعاته، وهي كانت موجودة من ذي قبل في كتب السالفين، وقد أطلق لهم المعاني من أيّ نمط كانت.

وقد وضع كتابيه «أسرار البلاغة» و «دلائل الإعجاز» تمهيداً لبيان وجوه إعجاز القرآن لمن مارس أسرار هذا العلم. وثلّثهما برسالته «الشافية» التي خصّصها بالكلام حول إعجاز القرآن والإجابة على أسئلة دارت حول الموضوع.

قال ـ في مقدّمة كتابه دلائل الإعجاز، بعد أن أشاد بشأن النظم في الكلام وتأليفه وتنسيقه ـ: وإذا كان ذلك كذلك، فما جوابنا لخصم يقول لنا: إذا كانت هذه الأُمور وهذه الوجوه من التعلّق التي هي محصول النظم، موجودة على حقائقها وعلى الصّحة وكما ينبغي في منثور كلام العرب ومنظومه، ورأيناهم قد استعملوها وتصرّفوا فيها وكملوا بمعرفتها، وكانت حقائق لا تتبدّل ولا يختلف بها الحال، إذ لا يكون للاسم بكونه خبراً لمبتدأ أو صفة لموصوف أو حالاً لذي حال أو فاعلاً أو مفعولاً لفعل في كلام حقيقة هي خلاف حقيقته في كلام آخر..

.. فما هذا الإعجاز الذي تجدّد بالقرآن من عظيم المزيّة، وباهر الفضل، والعجيب من الوصف، حتى أعجز الخلق قاطبةً، وحتى قهر من البلغاء والفصحاء القُوى والقدر، وقيّد الخواطر والفكر، حتى خرست الشقاشق[١] وعدم نطق الناطق وحتى لم يجر لسان، ولم يبن بيان، ولم يساعد إمكان، ولم ينقدح لأحد منهم زند، ولم يمض له حدّ، وحتى أسال

---

١ ـ الشقاشق: جمع شقشقة ـ بكسر الشين ـ وهي لهاة البعير أو شيء كالرئة يخرجه البعير من فيه إذا هاج ويقال للفصيح: هدرت شقاشقه، يريدون الانطلاق في القول وقوّة البيان ويقال في مقابل ذلك: خرست شقاشقه.

الوادي عليهم عجزاً، وأخذ منافذ القول عليهم أخذاً؟

.. أيلزمنا أن نجيب هذا الخصم عن سؤاله، ونردّه عن ضلاله، وأن نطبّ لدائه، ونزيل الفساد عن رائه؟[1] فإن كان ذلك يلزمنا، فينبغي لكلّ ذي دين وعقل أن ينظر في الكتاب الذي وضعناه (يريد نفس كتاب دلائل الإعجاز) ويستقصي التأمّل لما أودعناه...[2]

وكرّ في الكتاب قائلاً: وإنّه كما يفضل النظم النظم، والتأليف التأليف، والنسج النسج، والصياغة الصياغة، ثمّ يعظم الفضل، وتكثر المزيّة، حتى يفوق الشيء نظيره، والمجانس له درجات كثيرة، وحتى تتفاوت القيم التفاوت الشديد، كذلك يفضل بعض الكلام بعضاً، ويتقدّم منه الشيء الشيء، ثمّ يزداد من فضله ذلك، ويترقّى منزلة فوق منزلة، ويعلو مرقباً بعد مرقب ويستأنف له غاية بعد غاية، حتى ينتهي إلى حيث تنقطع الأطماع، وتحسر الظنون، وتسقط القوى وتستوي الأقدام في العجز...[3]

ثمّ قال: واعلم أنّه لاسبيل إلى أن تعرف صحّة هذه الجملة حتى يبلغ القول غايته، وينتهي إلى آخر ما أردت جمعه لك، وتصويره في نفسك، وتقريره عندك. إلّا أنّ هاهنا نكتة، إن أنت تأمّلتها تأمّل المتثبّت، ونظرت فيها نظر المتأنّي، رجوت أن يحسن ظنّك، وأن تنشط للإصغاء إلى ما أورده عليك وهي: إنّا إذا سقنا دليل الإعجاز فقلنا: لولا أنّهم حين سمعوا القرآن، وحين تحدّوا إلى معارضته، سمعوا كلاماً لم يسمعوا قطّ مثله، وأنّهم قد رازوا أنفسهم[4] فأحسّوا بالعجز على أن يأتوا بما يوازيه أو يدانيه، أو يقع قريباً منه، لكان محالاً أن يدّعوا معارضته وقد تحدّوا إليه، وقرعوا فيه، وطولبوا به، وأن يتعرّضوا لشبا الأسنّة[5] ويقتحموا موارد الموت...

فقيل لنا: قد سمعنا ما قلتم، فخبّرونا عنهم، عمّا ذا عجزوا، أعَن معان من دقّة معانيه وحسنها وصحّتها في العقول؟ أم عن ألفاظ مثل ألفاظه؟.. فإن قلتم: عن الألفاظ، فماذا

---

١ ـ الراء: الرأي.

٢ ـ في مقدّمة دلائل الإعجاز. ص (ف ـ ص).

٣ ـ دلائل الإعجاز. ص ٢٥-٢٦.

٤ ـ يقال: راز الحجر: أي وزنه ليعرف ثقله. وراز الرجل: جرّب ما عنده ليختبره.

٥ ـ الشبا: جمع شبوة، وهي إبرة العقرب. وحدّ كلّ شيء.

أعجزهم من اللفظ، أم بهرهم منه؟..

فقلنا: أعجزتهم مزايا ظهرت لهم في نظمه، وخصائص صادفوها في سياق لفظه، وبدائع راعتهم من مبادئ آيه ومقاطعها، ومجاري ألفاظها ومواقعها، وفي مضرب كلّ مثل، ومساق كلّ خبر، وصورة كلّ عظة وتنبيه وإعلام، وتذكير وترغيب وترهيب، ومع كلّ حجّة وبرهان، وصفة وتبيان وبهرهم أنّهم تأمّلوه سورة سورة، وعشراً عشراً، وآية آية، فلم يجدوا في الجميع كلمة ينبو بها مكانها ولفظة ينكر شأنها، أو يرى أنّ غيرها أصلح هناك أو أشبه، أو أحرى وأخلق، بل وجدوا اتساقاً بهر العقول، وأعجز الجمهور، ونظاماً والتئاماً، وإتقاناً وإحكاماً، لم يدع في نفس بليغ منهم لو حكّ بيافوخه السماء[1] موضع طمع، حتى خرست الألسن عن أن تدّعي وتقول وخلدت القروم.[2] فلم تملك أن تصول...[3]

ويعقّب ذلك بأنّ هذه كانت دلائل إعجاز القرآن، ومزايا ظهرت في نظمه وسياقه، بهرت العرب الأوائل، فهل ينبغي للفتى الذكي العاقل أن يكون مقلّداً في ذلك، أم يكون باحثاً ومتتبّعاً كي يعلم ذلك بيقين؟

يقولون أقوالاً ولا يعلمونها ولو قيل هاتوا حقّقوا لم يحقّقوا[4]

ومن ثمّ وضع كتابه الحاضر (دلائل الإعجاز) ليدلّ الناشدين على ضالّتهم، ويضع يدهم على مواقع الإعجاز من القرآن، ويدعم مدّعاه في ذلك بالحجّة والبرهان. والرائد لا يكذب أهله. قال: وبذلك قد قطعت عذر المتهاون، ودللت على ما أضاع من حظّه، وهدايته لرشده...[5]

وقال في رسالته الشافية ـ: كيف يجوز أن يظهر في صميم العرب وفي مثل قريش ذوي الأنفس الأبيه والهمم العلية والأنفة والحمية من يدّعي النبوّة ويقول: وحجّتي أنّ الله قد أنزل عليّ كتاباً تعرفون ألفاظه وتفهمون معانيه، إلّا أنّكم لا تقدرون على أن تأتوا بمثله

---

١ ـ اليافوخ: مقدّمة الدماغ في الرأس وهو مثل يضرب لمن يستعلي ويتكبّر.

٢ ـ القرم ـ بالفتح ـ: الفحل إذا ترك عن الركوب والعمل. ٣ ـ دلائل الإعجاز، ص ٢٧-٢٨.

٤ ـ البيت لأبي الأسود الدؤلي. ٥ ـ المصدر، ص ٢٩.

ولا بعشر سوَر منه ولا بسورة واحدة، ولو جهدتم جهدكم واجتمع معكم الجنّ والإنس. ثمّ لا تدعوهم نفوسهم إلى أن يعارضوه ويبيّنوا سرفه في دعواه، لو كان ممكناً لهم، وقد بلغ بهم الغيظ من مقالته حدّاً تركوا معه أحلامهم وخرجوا عن طاعة عقولهم، حتى واجهوه بكلّ قبيح ولقوه بكلّ أذىً ومكروه ووقفوا له بكلّ طريق. وهل سمع قطّ بذي عقل استطاع أن يخرس خصمه بكلمة يجيبه بها، فيترك ذلك إلى أُمور ينسب معها إلى ضيق الذرع وأنّه مغلوب قد أعوَزته الحيلة وعزّ عليه المخلص، وهل مثل هذا إلّا مثل رجل عرض له خصم فادّعى عليه دعوى خطيرة وأقام على دعواه بيّنة، وكان عند المدّعى عليه ما يبطل تلك البيّنة أو يعارضها، فيترك إظهار ذلك ويضرب عنه الصفح جملة، ليصير الحال بينهما إلى جدال عنيف وإخطار بالمهج والنفوس... قال: هذه شهادة الأحوال، وأما شهادة الأقوال فكثيرة...[١]

ثمّ قال ـ في وجه التحدّي ـ: لم يكن التحدّي إلى أن يعبّروا عن معاني القرآن أنفسها وبأعيانها بلفظ يشبه لفظه ونظم يوازي نظمه، هذا تقدير باطل. فإنّ التحدّي كان إلى أن يجيؤوا، في أيّ معنى شاؤوا من المعاني، بنظم يبلغ نظم القرآن، في الشرف أو يقرب منه. يدلّ على ذلك قوله تعالى: «**قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ**»[٢] أي مثله في النظم، وليكن المعنى مفترىً لما قلتم. فلا إلى المعنى دعيتم، ولكن إلى النظم...[٣]

قال: ويجزم القول بأنّهم تحدّوا إلى أن يجيؤوا في أيّ معنى أرادوا مطلقاً غير مقيّد، وموسّعاً عليهم غير مضيّق، بما يشبه نظم القرآن أن يقرب من ذلك.[٤]

٤ ـ رأي السكاكي

يرى أبويعقوب، يوسف بن‌محمد بن‌علي السكاكي، صاحب مفتاح العلوم، (ت ٥٦٧) أنّ الإعجاز في القرآن أمر يمكن دركه ولا يمكن وصفه، والمدرك هو الذوق،

---

١ ـ الشافية، ص ١٢٠-١٢٢.
٢ ـ هود ١١: ١٣.
٣ ـ الشافية، ص ١٤١.
٤ ـ المصدر، ص ١٤٤.

الحاصل من ممارسة علمَي الفصاحة والبلاغة وطول خدمتهما لاغير. فقد جعل للبلاغة طرفين، أعلى وأسفل وبينهما مراتب لا تحصى. والدرجة السفلى هي التي إذا هبط الكلام عنها شيئاً التحق بأصوات الحيوانات، ثمّ تتزايد درجة درجة متصاعدة، حتى تبلغ قمّتها وهو حدّ الإعجاز، وهو الطرف الأعلى وما يقرب منه... فقد جعل من الدرجة القصوى وما يقرب منها كليهما من حدّ الإعجاز.

ثمّ قال بشأن الإعجاز: واعلم أنّ شأن الإعجاز عجيب، يدرك ولا يمكن وصفه، كاستقامة الوزن تدرك ولا يمكن وصفها، وكالملاحة. ومدرك الإعجاز ـ عندي ـ هو الذوق ليس إلّا، وطريق اكتساب الذوق طول خدمة هذين العِلمين (المعاني والبيان)...

ثمّ أخذ في تحديد البلاغة وإماطة اللثام عن وجوهها المحتجبة، وكذا الفصاحة بقسميها اللفظيّ والمعنويّ، وضرب لذلك مثلاً بآية «وَقيلَ يا أَرْضُ ابْلَعي مٰاءَكِ...»[١] وبيان جهاتها الأربع من جهتي المعاني والبيان، وهما مرجعا البلاغة، ومن جهتي الفصاحة المعنويّة واللفظيّة وأسهب في الكلام عن ذلك، وقال ـ أخيراً ـ: ولله درّ التنزيل، لا يتأمّل العالم آية من آياته، إلّا أدرك لطائف لاتسع الحصر.[٢]

وغرضه من ذلك: أنّ لحدّ الإعجاز ذروة لا يبلغها الوصف، ولكن يمكن فهمها إدراك سنامها، بسبب الإحاطة بأسرار هذين العلمين، فهي حقيقة تدرك ولا توصف.

٥ ـ رأي الراغب الإصفهاني

لأبي القاسم الحسين بن‌محمد المعروف بالراغب الإصفهاني (ت ٥٠٢) صاحب كتاب «المفردات» رأي في إعجاز القرآن يخصّه، أنّه يرى من الإعجاز قائماً بسبكه الخاصّ ونظمه البديع الذي لم يألفه العرب لحدّ ذاك، فلا هو نثر كنثرهم المعهود، لأنّ فيه الوزن والقافية وأجراس النغم. ولا هو شعر كشعرهم، لأنّه لم يجر مجرى سائر أشعار العرب ولا على أوزانها المعروفة وإن كانت له خاصّية الشعر، من التأثير في النفس بلحنه

---

١ ـ هود ١١: ٤٤، وسنذكرها في ج ٥.

٢ ـ مفتاح العلوم، ص ١٩٦-١٩٩.

الشعريّ النغميّ الغريب.

قال ـ بعد كلام له في وصف إعجاز القرآن قدّمناه آنفاً ـ:

وهذه الجملة المذكورة، وإن كانت دالّة على كون القرآن معجزاً، فليس بـ ع إلّا بتبيين فصلين:

أحدهما: أن يبيّن ما الذي هو معجز: اللفظ أم المعنى أم النظم؟ أم ثلاثتها؟ فإنّ كلّ كلام منظوم مشتمل على هذه الثلاثة.

والثاني: أنّ المعجز: هو ما كان نوعه غير داخل تحت الإمكان، كإحياء الموتى وإبداع الأجسام.

فأمّا ما كان نوعه مقدوراً، فمحلّه محلّ الأفضل وما كان من باب الأفضل في النوع فإنّه لايحسم نسبة مادونه إليه. وإن تباعدت النسبية حتّى صارت جزءاً من ألف. فإنّ النجّار الحاذق وإن لم يبلغ شأوه لايكون معجزاً إذا استطاع غيره جنسَ فِعْلِه، فنقول وبالله التوفيق:

إنّ الإعجاز في القرآن على وجهين: أحدهما: إعجاز متعلّق بفصاحته، والثاني: بصرف الناس عن معارضته.

فأمّا الإعجاز المتعلّق بالفصاحة، فليس يتعلّق ذلك بعنصره الذي هو اللفظ والمعنى، وذاك أنّ ألفاظه ألفاظهم، ولذلك قال تعالى: «قُرْآناً عَرَبِيّاً»[1] وقال: «الم ذٰلِكَ الْكِتٰابُ»[2] تنبيهاً أنّ هذا الكتاب مركّب من هذه الحروف التي هي مادّة الكلام.

ولا يتعلّق أيضاً بمعانيه، فإنّ كثيراً منها موجود في «الكتب المتقدّمة» ولذلك قال تعالى: «وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِين»[3] وقال: «أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ ما في الصُّحُفِ الْأُولىٰ».[4] وما هو معجز فيه من جهة المعنى، كالإخبار بالغيب، فإعجازه ليس يرجع إلى القرآن بما هو قرآن، بل هو لكونه خبراً بالغيب، وذلك سواء كونه بهذا النظم أو بغيره، وسواء كان مورداً

---

١ ـ يوسف ١٢: ٢.
٢ ـ البقرة ٢: ١ـ٢.
٣ ـ الشعراء ٢٦: ١٩٦.
٤ ـ طه ٢٠: ١٣٣.

بالفارسية أو بالعربية أو بلغة أُخرى، أو بإشارة أو بعبارة.

فإذا بالنظم المخصوص صار القرآن قرآناً، كما أنّه بالنظم المخصوص صار الشعر شعراً، والخطبة خطبة.

فالنظم صورة القرآن، واللفظ والمعنى عنصره، وباختلاف الصور يختلف حكم الشيء واسمه لا بعنصره، كالخاتم والقرط والخلخال اختلفت أحكامها وأسماؤها باختلاف صورها لا بعنصرها الذي هو الذهب والفضة فإذا ثبت هذا ثبت أن الإعجاز المختصّ بالقرآن متعلّق بالنظم المخصوص.

وبيان كونه معجزاً هو أن نبيّن نظم الكلام، ثمّ نبيّن أنّ هذا النظم مخالف لنظم سائره، فنقول: لتأليف الكلام خمس مراتب:

الأُولى: النظم: وهو ضمّ حروف التهجّي بعضها إلى بعض، حتى يتركّب منها الكلمات الثلاث: الاسم والفعل والحرف.

والثانية: أن يؤلّف بعض ذلك مع بعض حتى يتركّب منها الجمل المفيدة وهي النوع الذي يتداوله الناس جميعاً في مخاطباتهم، وقضاء حوائجهم، ويقال له: المنثور من الكلام.

والثالثة: أن يضمّ بعض ذلك إلىٰ بعض ضمّاً له مبادٍ ومقاطع، ومداخل ومخارج، ويقال له: المنظوم.

والرابعة: أن يجعل له في أواخر الكلام مع ذلك تسجيع، ويقال له: المسجّع.

والخامسة: أن يجعل له مع ذلك وزن مخصوص، ويقال له: الشعر. وقد انتهى.

وبالحقّ صار كذلك: فإنّ الكلام إمّا منثور فقط، أو مع النثر نظم، أو مع النظم سجع، أو مع السجع وزن.

والمنظوم: إمّا محاورة، ويقال له: الخطابة، أو مكاتبة، ويقال لها: الرسالة، وأنواع الكلام لاتخرج عن هذه الجملة. ولكلّ من ذلك نظم مخصوص.

والقرآن حاوٍ لمحاسن جميعه بنظم ليس هو نظم شيء منها بدلالة أنّه لايصحّ أن

يقال: القرآن رسالة، أو خطابة، أو شعر، كما يصحّ أن يقال: هو كلام، ومن قَرَع سمعه فصل بينه وبين سائر النظم. ولهذا قال تعالى: «وإنَّهُ لكِتابٌ عَزيزٌ. لا يَأْتيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ ولا مِنْ خَلْفِه»[١] تنبيهاً أنّ تأليفه ليس على هيأة نظم يتعاطاه البشر، فيمكن أن يزاد فيه كحال الكتب الأُخر.

فإن قيل: ولم لم يبلغ بنظم القرآن الوزن الذي هو الشعر، وقد علم أنّ للموزون من الكلام مرتبة أعلىٰ من مرتبة المنظوم غير الموزون، إذ كلّ موزون منظوم وليس كلّ منظوم موزوناً؟

قيل: إنّما جنّب القرآن نظم الشعر ووزنه لخاصّيّة في الشعر منافية للحكمة الإلهيّة، فإنّ القرآن هو مقرّ الصدق، ومعدن الحقّ. وقصوى الشاعر: تصوير الباطل في صورة الحقّ، وتجاوز الحدّ في المدح والذمّ دون استعمال الحقّ في تحرّي الصدق، حتى إنّ الشاعر لايقول الصدق ولا يتحرّى الحقّ إلّا بالعرض. ولهذا يقال: من كانت قوّته الخيالية فيه أكثر كان على قرض الشعر أقدر. ومن كانت قوّته العاقلة فيه أكثر كان في قرضة أقصر. ولأجل كون الشعر مقرّ الكذب، نزّه الله نبيّه صلى الله عليه وآله عنه لما كان مرشّحاً لصدق المقال، وواسطة بين الله وبين العباد، فقال تعالى: «وَما عَلَّمناهُ الشِّعْرَ وَما يَنْبَغي لَه»[٢] فنفى ابتغاءه له. وقال: «وَما هُوَ بِقَوْلِ شاعِرٍ»[٣] أي: ليس بقول كاذب. ولم يعن أنّ ذلك ليس بشعر فإنّ وزن الشعر أظهر من أن يشتبه عليهم حتى يحتاج إلى أن ينفي عنه. ولأجل شهرة الشعر بالكذب سمّى أصحاب البراهين، الأقيسة المؤدّية في أكثر الأمر إلى البطلان والكذب، شعرية، وما وقع في القرآن من ألفاظ متزّنة فذلك بحسب ما يقع في الكلام على سبيل العرض بالاتّفاق وقد تكلّم الناس فيه.

وأمّا الإعجاز المتعلّق بصرف الناس عن معارضته: فظاهر أيضاً إذا اعتبر، وذلك أنّه ما من صناعة ولا فعلة من الأفعال محمودة كانت أو مذمومة، إلّا وبينها وبين قوم

---

١ ـ فصّلت ٤١: ٤١-٤٢. ٢ ـ يس ٣٦: ٦٩.

٣ ـ الحاقّة ٦٩: ٤١.

مناسبات خفيّة، واتّفاقات إلهية بدلالة أنّ الواحد يؤثر حرفة من الحرف فينشرح صدره بملابستها، وتطيعه قواه في مزاولتها فيقبلها باتساع قلب، ويتعاطاها بانشراح صدر، وقد تضمّن ذلك قوله تعالى: «لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً ومِنْهَاجاً»[1] وقول النبيﷺ: «اعملوا فكلّ ميسّر لما خلق له».[2]

فلمّا رُئي أهل البلاغة والخطابة الذين يهيمون في كلّ واد من المعاني بسلاطة ألسنتهم، وقد دعا الله جماعتهم إلى معارضة القرآن، وعجزهم عن الإتيان بمثله، وليس تهتزّ غرائزهم البتة للتصدّي لمعارضته لم يخف على ذي لبّ أن صارفاً إلهياً يصرفهم عن ذلك. وأيّ إعجاز أعظم من أن تكون كافّة البلغاء مخيّرة في الظاهر أن يعارضوه، ومجبرة في الباطن عن ذلك. وما أليقهم بإنشاد ما قال أبو تمام:

فإنْ نكُ أُهْمِلْنا فَأَضْعِفْ بِسَعْينا وإنْ نَكُ أُجْبِرْنا فَفيمَ نُتَعْتِعُ

والله ولي التوفيق والعصمة.[3]

٦ ـ رأي الإمام الرازي

ولأبي عبدالله محمد بن عمر بن حسين فخرالدين الرازي (ت ٦٠٦) المفسّر المتكلّم الأُصولي الكبير، رأي في إعجاز القرآن طريف، وهو جمعه بين أُمور شتّى، كانت تستدعي هبوطاً في فصاحة الكلام، لو كان أحد من البشر حاول القيام بها أجمع، لولا أنّ القرآن كلام الله الخارق لمألوف الناس، فقد جمع بين أفنان الكلام، ومع ذلك فقد بلغ الغاية في الفصاحة، وتسنّم الذروة من البلاغة، وهذا أمر عجيب!

قال: اعلم أنّ كونه (القرآن) معجزاً يمكن بيانه من طريقين:

الأوّل أن يقال: إنّ هذا القرآن لايخلوا حاله من أحد وجوه ثلاثة: إمّا أن يكون مساوياً لسائر كلام الفصحاء، أو زائداً على سائر كلام الفصحاء بقدر لاينقض العادة، أو

---

١ ـ المائدة ٥: ٤٨.

٢ ـ مسند أحمد، ج ٤، ص ٦٧.

٣ ـ عن مقدّمته على التفسير، ص ١٠٤-١٠٩.

زائداً عليه بقدر ينقض. والقسمان الأوّلان باطلان فتعيّن الثالث.

وإنّما قلنا: إنّهما باطلان، لأنّه لو كان كذلك لكان من الواجب أن يأتوا بمثل سورة منه إمّا مجتمعين أو منفردين، فإن وقع التنازع وحصل الخوف من عدم القبول، فالشهود والحكّام يزيلون الشبهة، وذلك نهاية في الاحتجاج، لأنّهم كانوا في معرفة اللغة والاطّلاع على قوانين الفصاحة في الغاية، وكانوا في محبّة إبطال أمره في الغاية، حتّى بذلوا النفوس والأموال وارتكبوا ضروب المهالك والمحن، وكانوا في الحميّة والأنفة على حدّ لا يقبلون الحقّ فكيف الباطل. وكلّ ذلك يوجب الإتيان بما يقدح في قوله، والمعارضة أقوى القوادح. فلمّا لم يأتوا بها علمنا عجزهم عنها، فثبت أنّ القرآن لا يماثل قولهم، وأنّ التفاوت بينه وبين كلامهم ليس تفاوتاً معتاداً، فهو إذن تفاوت ناقض للعادة، فوجب أن يكون معجزاً.

.. واعلم أنّه قد اجتمع في القرآن وجوه كثيرة تقتضي نقصان فصاحته، ومع ذلك فإنّه في الفصاحة بلغ النهاية التي لا غاية لها وراءها فدلّ ذلك على كونه معجزاً.

أحدها: أنّ فصاحة العرب أكثرها في وصف مشاهدات، مثل وصف بعير أو فرس أو جارية أو ملك أو ضربة أو طعنة أو وصف حرب أو وصف غارة، وليس في القرآن من هذه الأشياء شيء فكان يجب أن لا تحصل فيه الألفاظ الفصيحة التي اتفقت العرب عليها في كلامهم.

وثانيها: أنّه تعالى راعىٰ فيه طريقة الصدق وتنزّه عن الكذب في جميعه، وكلّ شاعر ترك الكذب والتزم الصدق نزل شعره ولم يكن جيّداً، ألا ترى أنّ لبيد بن ربيعة وحسّان بن ثابت لمّا أسلما نزل شعرهما ولم يكن شعرهما الإسلاميّ في الجودة كشعرهما الجاهلي. وأنّ الله تعالى مع ما تنزّه عن الكذب والمجازفة جاء بالقرآن فصيحاً كما ترى.

وثالثها: أنّ الكلام الفصيح والشعر الفصيح، إنّما يتّفق في القصيدة في البيت والبيتين والباقي لا يكون كذلك. وليس كذلك القرآن، لأنّه كلّه فصيح بحيث يعجز الخلق عنه كما عجزوا عن جملته.

ورابعها: أنّ كلّ من قال شعراً فصيحاً في وصف شيء فإنّه إذا كرّره لم يكن كلامه الثاني في وصف ذلك الشيء بمنزلة كلامه الأوّل: وفي القرآن التكرار الكثير، ومع ذلك كلّ واحد منها في نهاية الفصاحة ولم يظهر التفاوت أصلاً.

وخامسها: أنّه اقتصر على إيجاب العبادات وتحريم القبائح والحثّ على مكارم الأخلاق وترك الدنيا واختيار الآخرة، وأمثالُ هذه الكلمات توجب تقليل الفصاحة.

وسادسها: أنّهم قالوا في شعر امرئ القيس: يحسن عند الطرب وذكر النساء وصفة الخيل. وشعر النابغة عند الخوف. وشعر الأعشى عند الطلب ووصف الخمر. وشعر زهير عند الرغبة والرجاء وبالجملة فكلّ شاعر يحسن كلامه في فنّ، فإنّه يضعف كلامه في غير ذلك الفنّ. أمّا القرآن فإنّه جاء فصيحاً في كلّ الفنون على غاية الفصاحة:

ألا ترى أنّه سبحانه وتعالى قال في الترغيب: «فَلاٰ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ»[١] وقال تعالى: «وَفيها ما تَشْتَهيهِ الأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ».[٢]

وقال في الترهيب: «أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جانِبَ الْبَرِّ».[٣]

وقال: «أَمْ أَمِنْتُم مَنْ فِي السَّماءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإذا هِيَ تَمُورُ. أَمْ أَمِنْتُم».[٤]

وقال: «وَخابَ كُلُّ جَبّارٍ عَنيدٍ -إلىٰ قوله- ويَأْتيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكان».[٥]

وقال في الزجر مالا يبلغه وهم البشر، وهو قوله: «فَكُلّاً أَخَذْنا بِذَنْبِهِ -إلى قوله- ومِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنا».[٦]

وقال في الوعظ ما لا مزيد عليه: «أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعناهُم سِنينَ».[٧]

وقال في الإلهيّات: «اللهُ يَعْلَمُ ما تَحْمِلُ كُلُّ أُنثىٰ وما تَغيضُ الأَرْحامُ وَما تَزْدادُ».[٨]

وسابعها: أنّ القرآن أصل العلوم كلّها، فعلم الكلام كلّه في القرآن، وعلم الفقه كلّه مأخوذ من القرآن، وكذلك علم أُصول الفقه وعلم النحو واللغة، وعلم الزهد في الدنيا

---

١ ـ السجدة ٣٢: ١٧.
٢ ـ الزخرف ٤٣: ٧١.
٣ ـ الإسراء ١٧: ٦٨.
٤ ـ الملك ٦٧: ١٦-١٧.
٥ ـ إبراهيم ١٤: ١٥-١٧.
٦ ـ العنكبوت ٢٩: ٤٠.
٧ ـ الشعراء ٢٦: ٢٠٥.
٨ ـ الرعد ١٣: ٨.

وأخبار الآخرة، واستعمال مكارم الأخلاق.

ومن تأمّل كتابنا في دلائل الإعجاز،[١] علم أنّ القرآن قد بلغ في جميع وجود الفصاحة إلى النهاية القصوى.

الطريق الثاني: أن نقول: إنّ القرآن لا يخلو إمّا أن يقال أنّه كان بالغاً في الفصاحة إلى حدّ الإعجاز، أو لم يكن كذلك، فإن كان الأوّل ثبت أنّه معجز. وإن كان الثاني كانت المعارضة على هذا التقدير ممكنة، فعدم إتيانهم بالمعارضة، مع كون المعارضة ممكنة، ومع توفّر دواعيهم على الإتيان بها، أمر خارق للعادة فكان ذلك معجزاً. فثبت أنّ القرآن معجز على جميع الوجوه.

وهذا الطريق عندنا أقرب إلى الصواب.[٢]

وكلامه هذا الأخير لعلّه ترجيح للقول بالصرفة!

٧ـ كلام القاضي عبدالجبّار

لقاضي القضاة عبدالجبار بن‌أحمد (له مكانته السامية في عالم الاعتزال، ت ٤١٥) كلام تحقيقي أُصولي حول إعجاز القرآن، بحث فيه بحثاً وافياً عن وجه هذا الإعجاز ومبلغ دلالته على نبوّة نبيّ الإسلام على مدى الزمان، اقتضبنا منه مايلي:

قال: فإن قيل: وما المعجز الذي ظهر على محمد؟ قلنا: معجزات كثيرة، من جملتها القرآن.

فإن قيل: وما وجه الإعجاز في القرآن؟ قلنا: هو أنّه تحدّى بمعارضة العرب، مع أنّهم كانوا هم الغاية في الفصاحة، والمشار إليهم في الطلاقة والذلاقة، وقرعهم بالعجز عن الإتيان بمثله، فلم يعارضوه وعدلوا عنه، لا لوجه سوى عجزهم عن الإتيان بمثله.

ولا يمكنك أن تعرف صحّة هذه الجملة إلّا إذا عرفت وجود محمدﷺ وأنّه قد ادعى

---

١ ـ المسمّى بـ«نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز» ط سنة ١٩٨٥م بيروت.

٢ ـ التفسير الكبير، ج ٢، ص ١١٥-١١٧، ذيل الآية رقم ٢٣ من سورة البقرة.

النبوّة، وظهر عليه القرآن، وسمع منه ولم يسمع من غيره، وأنّه تحدّى العرب بمعارضته وقرعهم بالعجز عن الإتيان بمثله فلم يأتوا به، لا لوجه سوى عجزهم وقصورهم عن الإتيان بمثله.

فمتى عرفت هذه الوجوه كلّها كنت عارفاً بنبوّة محمّد ﷺ.

أمّا وجوده، وادّعاء النبوّة، وإنّ القرآن ظهر عليه، وسمع منه ولم يسمعوا من غيره فمعلوم ضرورة، ولا مانع يمنع من حصول العلم بهذه الأشياء وما جانسها اضطراراً، فإنّ العلم بالملوك والبلدان وبكون المصنّفات منسوبة إلى مصنّفها ضرورة.

وأمّا تحدّيه العرب بمعارضة القرآن، وتقريعه إيّاهم بالعجز عن ذلك، ففي أصحابنا من جعل العلم به ضروريّاً، ومن جعله مكتسباً. ومن جعله مكتسباً قال: ليس المرجع بالتحدّي إلّا أن يعتقد أنّ له مزيّة على غيره بسبب ما معه، وهذا كان حال النبي ﷺ مع القوم، فكان يعتقد أنّه خير الناس لمكان ما جاء به من القرآن، فكيف يمكن إنكار أنّه لم يتحدّاهم بمعارضته ولم يقرعهم بالعجز عن الإتيان بمثله؟

وأيضاً فكتاب الله تعالى مشحون بآيات التحدّي، وهي مسموعة الآن والتحدّي قائم على وجه الدهر، وفي الفصحاء كثرة في هذه الأزمان، فيجب أن يأتوا بمثله. ومتى قالوا: أنّ الفصاحة تناقصت الآن كالشعر، قلنا: إن أمكن أن يقال ذلك في الشعر فلا يمكن في الفصاحة، ففي خطباء هذه الأزمنة من لا يداني كلامه كلام أفصح فصيح في ذلك الزمان. فهذا واصل بن عطاء ربّما تفي خطبة من خطبه بكثير من كلام فصحاء أُولئك العرب. وهذا أبو عثمان عمرو بن عبيد، ففصل من كلامه ربّما يزيد على كلام أبينهم كلاماً وأجزلهم لفظاً وأفصحهم لساناً، فكيف يصحّ ما ذكرتموه؟

وأمّا ترك العرب معارضة القرآن، وعدولهم عنه إلى المقاتلة، فظاهر أيضاً، فإنّهم حين أحسّوا من أنفسهم العجز عن الإتيان بمثل القرآن، تركوه إلى المقاتلة، وذلك يؤذن بعجزهم عن ذلك، وإلّا فالعاقل إذا أمكنه دفع خصومه بأيسر الأمرين لا يعدل عنه إلى أصعبهما.

فإن قيل: ومن أين أنّهم تركوا المعارضة ولم يعارضوه البتة؟ قيل له: إنّهم لوعارضوه لكان يجب أن ينقل إلينا معارضتهم، فإنّه لايجوز في حادثتين عظيمتين تحدثان معاً، وكان الداعي إلى نقل إحداهما كالداعي إلى نقل الأُخرى، أن تخصّ إحداهما بالنقل، بل الواجب أن تنقلا جميعاً أو لاتنقلا، فأمّا أن تنقل إحداهما دون الأُخرى فلا.

ولا يمكن إنكار ما قلناه من أنّ الداعي إلى نقل أحد الحادثين كالداعي إلى نقل الآخر، بل لو قيل: أنّ الداعي إلى نقل المعارضة أقوى لكان أولى، إذ المعارضة ممّا ينقلها المخالف والموافق. المخالف ينقله ليرى الناس أنّ فيه إبطال حجّة محمّد صلى الله عليه وآله والموافق ينقله ليتكلّم عليه ويبيّن أنّ ذلك ليس من المعارضة في شيء.

ويزيد ما ذكرنا وضوحاً، أنّهم نقلوا من المعارضات ما هي ركيكة كمعارضة مسيلمة وغيره، فلولا أنّ دواعيهم كانت متوفّرة إلى ذلك، كان لاينقل إلينا هذه المعارضة على ركّتها.

قال: وبعدُ، فإنّ المعارضة لوكانت لكانت هي الحجّة، ولكان القرآن هو الشبهة، والله تعالى لايجوز أن يسلّط علينا الشبهة على وجه لاسبيل لنا إلى حلّها، ويمكن من إخفاء الحجّة على حدّ لايمكن الظفر بها، بل كان يجب أن يقوي الدواعي إلى نقل المعارضة أن لو وقعت، فلمّا لم يفعل، دلّنا ذلك على أنّها لم تقع البتة، وأنّ ذلك تمنّ.

فإن قيل: إنّ ما ذكرتموه يبنى على أنّ العرب كانوا حريصين على إبطال أمره وتوهين شأنه، وكان لم يمكنهم إلّا بالمعارضة، ونحن لا نسلّم ذلك.

قيل له: إنَّ ذلك معلوم بالاضطرار، فمعلوم أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله ادعى منزلة رفيعة عليهم، وهم كانوا في غاية الأنفة والحميّة والإباء، فكيف لم يحرصوا والحال هذه على إبطال أمره ورفع حجّته أن لوقدروا!

فإن قيل: لعلّ القوم لم يعلموا طريقة المعارضة والحجاج، ولو علموا ذلك فلعلّهم لم يعلموا أنّ أمره يبطل بالمعارضة!

قيل له: أمّا الأوّل فلا يصحّ، لأنّ المعارضة كانت عادتهم، ولهذا لم يأت شاعر بقصيدة فيما بينهم إلّا وشاعر آخر يعارضه أو رام معارضته، وهذا معلوم من حال شعرائهم، نحو امرئ القيس وعلقمة وأشباههما.

وأمّا الثاني، فباطل أيضاً، لأنّ كلّ أحد يعلم أنّ خصمه إذا أتاه بأمر، وادعى لمكانه منزلة عظيمة عليه، وتحدّاه بمعارضته، فإنّه متى عارضه فقد أبطل دعواه، وهذا ممّا لا يخفى على الصبيان في مباراتهم بأمثال الطفرة وإشالة الحجر ونحوهما، فكيف على دهاة العرب!

فإن قيل: إنّهم أرادوا استئصاله بالمقاتلة. قلنا: لولا عجزهم عن المعارضة لما أرادوا استئصاله، لأنّهم لوقدروا على المعارضة كانت أسهل عليهم في استئصاله وإسقاطه من مكانه في العرب المكان الذي كان. ولايليق بالعاقل العدول عن الأمر السهل إلى الأمر الصعب، وقد كانت المعارضة التي كانت عندهم ـ بزعمهم ـ بمنزلة الأكل والشرب والقيام والقعود.

فإن قيل: لعلّهم إنّما قاموا بالمقاتلة دون المعارضة، لإبطال دعواه وحسم مادّته، إذ ربّما لاتنقطع مادّته بالمعارضة، وأنّ الخلاف يبقى، ويكون الناس بين رجلين: رجل له ورجل عليه، فتطول المنازعة ولا تنقطع.

قيل لهم: إنّ هذا لوكان صارفاً عن معارضة القرآن، فليكن صارفاً عن سائر المعارضات الشعريّة التي كانت متداولة عندهم، إذ يكون الناس بين متعصّب لهذا ومتعصّب لذاك، فليمسكوا عن المعارضة رأساً!

فإن قيل: لعلّهم أخطؤوا في العدول إلى المحاربة، كما أخطؤوا في عبادة الأصنام عن عبادة الله تعالى.

قيل له: إنّما أخطأتم أنتم في القياس، لأنّ ذلك أمر نظري يستدرك بطريقة الاستدلال والاستنباط، ممّا يمكن فيه الخطأ. وليس حال المعارضة كذلك، فإنّه ضروري لايتصوّر فيه الخطأ.

فإن قيل: إنّما تركوا المعارضة، لاشتمال القرآن على قصص كانوا يجهلون أمثالها.

قيل له: القرآن مشتمل على كثير من أنواع الكلام، فلو كانت المعارضة ممكنة لهم لأتوا بسائر أنواع الكلام وجعلوها معارضة للقرآن. على أنّه كان بإمكانهم أن يصنعوا من عندهم قصصاً ويكسونها من العبارات الجيّدة العظيمة أجزلة ما يقارب القرآن في الفصاحة ويدانيه فيلتبس الحال فيه.

وأيضاً فإنّ القرآن قد تحدّى اليهود أيضاً، وفيهم العلماء بالأخبار والعارفون بالأقاصيص كما أنّ العرب كانوا قد بعثوا إلى الفرس يطلبون منهم القصص، نحو قصّة رستم واسفنديار، وجمعوا من ذلك شيئاً كثيراً لكنّهم عجزوا في النهاية أن يجعلوه معارضة للقرآن.

فإن قيل: عجز العرب عن معارضته، لعلّه كان من جهة أنّ القرآن كان من كلام محمدﷺ وكان متقدّماً في الفصاحة على جميع العرب، ولهذا قال: «أنا أفصح العرب».

قيل له: ليس الأمر على ما ظننت، فإنّه يستحيل فيمن نشأ بين جماعة يتعاطون البلاغة ويتباهون بالفصاحة، أن يتعلّمها ويأخذها منهم، ثمّ يبلغ فيها حدّاً لايوجد في كلام واحد منهم، بل في كلام جماعتهم، فصل يساوي كلامه في الفصاحة أو يدانيه أو يقرب منه أو يشتبه الحال فيه!

فإن قيل: هب أنّ القرآن معجزة، وأنّ العرب علموا إعجازه، لعلمهم بأنّه قد تناهى في الفصاحة حدّاً. وأنتم فبأيّ طريق علمتم معناً فيه، يا معشر العجم!

قلنا: إنّ العلم بذلك على وجهين: أحدهما علم تفصيل، والآخر علم جملة، والعرب علموا ذلك على سبيل التفصيل، ونحن فقد علمناه على سبيل الجملة. وطريقته: هو أنّ محمّداًﷺ تحدّى العرب بمعارضته، فلم يمكنهم الإتيان بمثله فلولا كونه معجزاً دالاً على نبوّته، وإلّا لما كان ذلك كذلك.[1]

---

١ ـ شرح الأُصول الخمسة، للقاضي عبدالجبار، ص ٥٨٦-٥٩٤.

٨ ـ كلام الشيخ الطوسي

وللشيخ أبي جعفر محمد بن‌الحسن الطوسي، شيخ الطائفة (ت ٤٦٠) تحقيق مستوفٍ بشأن إعجاز القرآن، أورده في كتابه «الاقتصاد» الذي وضعه على أُسس علم الكلام وحقّق فيه أُصول العقيدة على مباني الإسلام نذكر منه ما ملخّصه:

قال: الاستدلال على صدق النبوّة بالقرآن يتمّ بعد بيان خمسة أُمور:

١ ـ إنّه ظهر بمكة وادعى النبوّة.

٢ ـ إنّه تحدّى العرب بهذا القرآن.

٣ ـ إنّه لم يعارضوه في وقت من الأوقات.

٤ ـ وكان ذلك لعجزهم عن المعارضة.

٥ ـ وإنّ هذا كان لتعذّر خرق العادة.

فإذا ثبت ذلك أجمع دلّ على أنّ القرآن معجز، سواء كان لفصاحته البالغة أم لأنّ الله صرفهم عن ذلك. وأيّ الأمرين ثبت ثبتت نبوّته عليه السلام.

أمّا ظهوره بمكة وادعاؤه النبوّة فضروري. وكذا ظهور القرآن على يده وتحدّيه للعرب أن يأتوا بمثله، لأنّه صريح القرآن في مواضع عديدة.

وأمّا أنّه لم يعارض فلأنّه لوكان عُورض لوجب أن يُنقل، ولو نُقِلَ لَعُلِمَ، لأنّ الدواعي متوفّرة إلى نقله، ولأنّ المعارض لو كان لكان هو الحجّة دون القرآن، ونقل الحجّة أولى من نقل الشبهة.

والذي يدعوا إلى المعارضة ـ لو أمكنت ـ ونَقْلِها هو طلب التخليص ممّا ألزموا به من ترك أديانهم ومفارقة عاداتهم وبطلان ما ألفوه من الرئاسات، ولذلك نقلوا كلام مسيلمة والأسود العَنَسي وطليحة مع ركاكته وسخافته وبعده عن دخول الشبهة فيه.

ولا يمكن دعوى الخوف من أنصاره وأتباعه، إذ لا موجب للخوف مع ضعف المسلمين بمكة وعلى فرضه فلا يمنع نقله استسراراً، أو في سائر البلاد النائية كالروم والحبشة وغيرهما، كما نقل هجاؤهم وسبّهم وكان أفحش وكان أدعى للخوف إن كان.

وإذا ثبت أنّهم لم يعارضوه، فإنّما لم يعارضوه للعجز، لأنّ كلّ فعل لم يقع مع توفّر الدواعي لفاعله وشدّة تداعيه عليه، قطعنا على أنّه لم يفعل للتعذّر. وقد توفّرت دواعي العرب إلى معارضته فلم يفعلوها، وقد تكلّفوا المشاقّ من أجله، فقد بذلوا النفوس والأموال وركبوا الحروب العظام ودخلوا الفتن، طلباً لإبطال أمره، فلو كانت المعارضة ممكنة لهم لما اختاروا الصعب على السهل، لأنّ العاقل لايترك الطريق السهل، ويسلك الطريق الوعر الذي لايبلغ معه الغرض، إلّا أن يختلّ عقله أو يسفه رأيه، والقوم لم يكونوا بهذه الصفة.

وليس لأحد أن يقول: إنّهم اعتقدوا أنّ الحرب أنجح من المعارضة فلذلك عدلوا إليها. وذلك أنّ النبيﷺ لم يدّع النبوّة فيهم بالغلبة والقهر، وإنّما ادّعى معارضة مثل القرآن، ولم يكن احتمال حرب إذ ذاك. ثمّ مع قيام الحرب كانوا في الأغلب مغلوبين مقهورين، فكان يجب أن يقوموا بالمعارضة، فإن انجعت وإلّا عدلوا إلى الحرب.

فإن قالوا: خافوا أن يلتبس الأمر فيظنّ قوم أنّه ليس مثله. قيل: قد حصل المطلوب، لأنّ الاختلاف حينذاك يوجب الشبهة، فكان أولى من الترك الذي يقوى معه شبهة العجز.

وليس لهم أن يقولوا: لم تتوفّر دواعيهم إلى ذلك. لأنّهم تحمّلوا المشاق، والعاقل لايتكلّف ذلك إذا لم تتوفّر دواعيه إلى إبطال دعوى خصمه.

فإن قالوا: إنّما لم يعارضوه، لأنّ في كلامهم ما هو مثله أو مقاربه. قلنا: هذا غير مسلّم. وعلى فرض التسليم فإن التحدّي وقع لعجزهم فيما يأتي، فلوكان في كلامهم مثله فهو أبلغ لعجزهم في تحقّق التحدّي بالعجز عن الإتيان بمثله في المستقبل.

فإن قيل: واطأه قوم من الفصحاء. قيل: هذا باطل، لأنّه كان ينبغي أن يعارضه من لم يواطئه، فإنّهم وإن كانوا أدون منهم في الفصاحة، كانوا يقدرون على ما يقاربه ـ على الفرض ـ لأنّ التفاوت بين الفصحاء لاينتهي إلى حدّ يخرق العادة. على أنّ الفصحاء المعروفين والبلغاء المشهورين في وقته، كلّهم كانوا منحرفين عنه، كالأعشى الكبير الذي في الطبقة الأُولى ومن أشبهه مات على كفره، وكعب بن زهير، أسلم في آخر الأمر، وهو

في الطبقة الثانية، وكان من أعدى الناس له ﷺ ولبيد بن ربيعة، والنابغة الجعدي من الطبقة الثالثة، أسلما بعد زمان طويل، ومع ذلك لم يحظيا في الإسلام بطائل. على أنّه لو كان لكان ينبغي أن يوافقوه على ذلك ويقولون له: الفصحاء المبرزون واطؤوك ووافقوك، فإنّ الفصحاء في كلّ زمان لايخفون على أهل الصناعة.

فإن قيل: لم لايكون النبيّ ﷺ وهو أفصح العرب، قد تأتّى منه القرآن، وتعذّر على غيره، أو تعمله في زمان طويل فلم يتمكّنوا من معارضته في زمان قصير؟

قيل: هذا لايتوجّه على من يقول بالصرفة، لأنّه يجعل صرف هممهم عن ذلك دليلاً على الإعجاز، ولو فرض تمكّنهم من المعارضة.

وأمّا من قال: إنّ جهة الإعجاز في الفصاحة والبيان، فإنّ كون النبيﷺ أفصح، لايمنع من أن يقارنوه أو يدانوه، كما هو المتعارف بينهم في المعارضة ومقارضة الشعر. على أنّ العرب لم يتفوّهوا بذلك ولم يقولوا له: أنت أفصحنا، فلذلك يتعذّر علينا ما يتأتّى منك. وأمّا احتمال التعمّل فباطل، لأنّه ﷺ عارضهم في مدّة طويلة أكثر من عشرين عاماً يتحدّاهم طول المدّة.

قال: وإذ قد ثبت أنّ القرآن معجز، لم يضرّنا أن لانعلم من أيّ جهة كان إعجازه. غير أنّا نومئ إلى جملة من الكلام فيه.

كان المرتضى علي بن الحسين الموسوي﵀ يختار أنّ جهة إعجازه الصّرفة وهي: أنّ الله تعالى سلب العرب العلوم التي كانت تتأتّى منهم بها الفصاحة التي هي مثل القرآن متى راموا المعارضة، ولو لم يسلبهم ذلك لكان يتأتّى منهم. وبذلك قال النظّام وأبوإسحاق النصيبي أخيراً.

وقال قوم: جهة الإعجاز الفصاحة المفرطة التي خرقت العادة من غير اعتبار النظم، ومنهم من اعتبر النظم والأُسلوب مع الفصاحة، وهو الأقوى.

وقال قوم: هو معجز لاختصاصه بأُسلوب مخصوص ليس في شيء من كلام العرب.

وقال قوم: تأليف القرآن ونظمه مستحيل من العباد، كاستحالة الجواهر والألوان.

وقال قوم: كان معجزاً لما فيه من العلم بالغائبات.

وقال آخرون: كان معجزاً لارتفاع الخلاف والتناقض فيه، مع جريان العادة بأنّه لايخلو كلام طويل من ذلك.

وأقوى الأقوال عندي قول من قال: إنّما كان معجزاً خارقاً للعادة لاختصاصه بالفصاحة المفرطة في هذا النظم المخصوص، دون الفصاحة بانفرادها، ودون النظم بانفراده، ودون الصرفة.

وإن كنت نصرت في شرح الجمل[1] القول بالصرفة، على ما كان يذهب إليه المرتضى ﷺ من حيث شرحت كتابه، فلم يحسن خلاف مذهبه.

قال: والذي يدلّ على ماقلناه واخترناه: أنّ التحدّي معروف بين العرب بعضهم بعضاً، ويعتبرون في التحدّي معارضة الكلام بمثله في نظمه ووصفه، لأنّهم لايعارضون الخطب بالشعر ولا الشعر بالخطب، والشعر لايعارضه أيضاً إلّا بما كان يوافقه في الوزن والرويّ والقافية، فلا يعارضون الطويل بالرجز، ولا الرجز بالكامل، ولا السريع بالمتقارب، وإنّما يعارضون جميع أوصافه.

فإذا كان كذلك، فقد ثبت أنَّ القرآن جمع الفصاحة المفرطة والنظم الذي ليس في كلام العرب مثله، فإذا عجزوا عن معارضته، فيجب أن يكون الاعتبار بهما.

فأمّا الذي يدلّ على اختصاصها بالفصاحة المفرطة، فهو أنّ كلّ عاقل عرف شيئاً من الفصاحة يعلم ذلك، وإنّما في القرآن من الفصاحة مايزيد على كلّ فصيح، وكيف لايكون كذلك وقد وجدنا الطبقة الأوّلة قد شهدوا بذلك وطربوا له، كالوليد بن‌المغيرة والأعشى الكبير وكعب بن‌زهير ولبيد بن‌ربيعة والنابغة الجعدي، ودخل كثير منهم في الإسلام ككعب والنابغة ولبيد، وهمّ الأعشى بالدخول في الإسلام فمنعه من ذلك أبوجهل وفزّعه، وقال: إنّه يحرّم عليك الأطيبين الزنا والخمر. فقال له: أمّا الزنا فلا حاجة لي فيه، لأنّي

---

١ ـ في كتابه (تمهيد الأُصول) شرحاً على القسم النظريّ من جمل العلم والعمل، وقد طبع أخيراً (١٣٦٢هش) في جامعة طهران، وسننقل كلامه عند التعرّض للقول بالصرفة.

كبرت، وأمّا الخمر فلا صبر لي عنه، وأنظر فأتته المنيّة واخترم دون الإسلام.

والوليد بن‌المغيرة تحيّر حين سمعه، فقال: سمعت الشعر وليس بشعر، والرجز وليس برجز، والخطب وليس بخطب، وليس له اختلاج الكهنة. فقالوا له: أنت شيخنا، فإذا قلت هذا ضعف قلوبنا، ففكّر وقال: قولوا: هو سحر، معاندةً وحسداً للنبيّ ﷺ فأنزل الله تعالى هذه الآية «إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ. فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّر ـ إلى قوله ـ إنْ هذا إلّا سِحْرٌ يُؤثَرُ».[1] فمن دفع فصاحة القرآن لم يكن في حيّز من يُكَلَّم!

وأمّا اختصاصه بالنظم فمعلوم ضرورة، لأنّه مدرك مسموع، وليس في شيء من كلام العرب ما يشبه نظمه، من خطبة أو شعر على اختلاف أنواعه وصفاته. فاجتماع الأمرين منه لايمكن دفعهما...[2]

٩ ـ كلام القطب الراوندي

وللمولى قطب‌الدين أبي‌الحسن سعيد بن‌هبة‌الله الراوندي (ت ٥٧٣) بحث مستوفىً عن إعجاز القرآن، أتى على جوانبه ببيان كافٍ شافٍ على أُسلوب الكلام القديم، أورده في الباب الثامن عشر من كتابه «الخرائج» الذي خصّصه بذكر المعجزات، وخصّ هذا الباب بأُمّ المعجزات القرآن العظيم. وقد أورده العلّامة المجلسي بطوله في موسوعته الكبرى «بحار الأنوار ـ كتاب القرآن»[3] حيث الوفاء والاستيفاء. وفيما يلي قبسات منه:

قال: اعلم أنّ كتاب الله المجيد ليس مصدّقاً لنبيّ الرحمة خاتم النّبيّين فقط، بل هو مصدّق لسائر الأنبياء والأوصياء قبله، وسائر الأوصياء بعده، جملة وتفصيلاً. وليس جملة الكتاب معجزة واحدة، بل هي معجزات لاتحصى، لأنّ أقصر سورة فيه إنّما هي الكوثر،[4] وفيها إعجاز من جهتين: أحدهما: أنّه قد تضمّن خبراً عن الغيب قطعاً قبل

---

١ ـ المدّثّر ٧٤: ١٨-٢٤.

٢ ـ الاقتصاد في أُصول الاعتقاد، ص ١٦٦-١٧٤.

٣ ـ بحارالأنوار، ج ٨٩، ص ١٢١-١٥٤.

٤ ـ ستوافيك رسالة الزمخشري في إعجاز سورة الكوثر بحثاً مستوفٍ كلياً عن إعجاز القرآن أوّلاً، وعن خصوص هذه السورة المباركة ثانياً..

وقوعه، فوقع كما أخبر عنه من غير خلف فيه، وهو قوله: «إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ»[١] لمّا قال قائلهم: أنّ محمداً رجل صنبور[٢] فإذا مات انقطع ذكره، ولا خلف له يبقى به ذكره، فعكس ذلك على قائله، وكان كذلك.

والثاني من طريق نظمه، لأنّه على قلّة عدد حروفه، وقصر آيه، يجمع نظماً بديعاً، وأمراً عجيباً، وبشارة للرسول، وتعبّداً للعبادات، بأقرب لفظ وأوجز بيان.

ثمّ أنّ السور الطوال متضمّنة للإعجاز من وجوه كثيرة نظماً وجزالة وخبراً عن الغيوب، فلذلك لايجوز أن يقال: إنّ القرآن معجز واحد ولا ألف معجز، ولا أضعافه فلذلك خطّأنا قول من قال: أنّ للمصطفىﷺ ألف معجز أو ألفي معجز، بل يزيد ذلك عند الإحصاء على الألوف.

❊ ❊ ❊

ثمّ الاستدلال في أنّ القرآن معجز، لايتمّ إلّا بعد بيان خمسة أشياء:

أحدها: ظهور محمّدﷺ وادعاؤه أنّه مبعوث إلى الخلق ورسول إليهم.

وثانيها: تحدّيه العرب بهذا القرآن الذي ظهر على يديه، وادّعاؤه أنّ الله أنزله عليه وخصّه به.

وثالثها: أنّ العرب مع طول المدّة لم يعارضوه.

ورابعها: أنّه لم يعارضوه للتعذّر والعجز.

وخامسها: أنّ هذا التعذّر خارق للعادة.

فإذا ثبت ذلك، فإمّا أن يكون القرآن نفسه معجزاً خارقاً للعادة بفصاحته، ولذلك لم يعارضوه، أو لأنّ الله صرفهم عن معارضته ولولا الصرف لعارضوه، وأيّ الأمرين ثبت صحّت نبوّتهﷺ لأنّ الله تعالى لايصدّق كاذباً، ولايخرق العادة لمبطل.

وأمّا ظهورهﷺ بمكة ودعاؤه إلى نفسه، فلا شبهة فيه، بل هو معلوم ضرورة لاينكره

---

١ ـ الكوثر ١٠٨: ٣.

٢ ـ الصنبور كعصفور ـ: النخلة المنفردة من النخيل، والتي دقّت من أسفلها وانجرد كَرَبُها وقلّ حملها، ثمّ كنّي عن الرجل الضعيف الذليل، بلا أهل ولا عقب ولا ناصر.

عاقل وظهور هذا القرآن على يده أيضاً معلوم ضرورة والشك في أحدهما كالشك في الآخر.

وأمّا الذي يدّل على أنّه ﷺ تحدّى بالقرآن، فهو أنّ معنى قولنا أنّه تحدّى، أنّه كان يدّعي أنّ الله تعالى خصّه بهذا القرآن وأنبأه به، وأنّ جبرئيل عليه السلام أتاه به، وذلك معلوم ضرورة، لا يمكن لأحد دفعه. وهذا غاية التحدّي، في المعنى.

وأمّا الكلام في أنّه لم يعارض فلأنّه لو عورض لوجب أن ينقل، ولو نقل لعُلِم، كما علم نفس القرآن. فلمّا لم يعلم، دلّ على أنّه لم يكن.

وإنّما قلنا: أنّ المعارضة لوكانت لوجب نقلها، لأنّ الدواعي متوفّرة على نقلها، ولأنّها ـ حينذاك ـ تكون الحجّة والقرآن شبهة، لوكانت، ونقل الحجّة أولى من نقل الشبهة.

وأمّا الذي نعلم به أنّ جهة انتفاء المعارضة التعذّر لاغير، فهو أنّ كلّ فعل ارتفع عن فاعله مع توفّر دواعيه إليه، علم أنّه ارتفع للتعذّر. ولهذا قلنا أنّ هذه الجواهر والأكوان ليست بمقدورنا. وخاصّة إذا علمنا أنّ الموانع المعقولة مرتفعة كلّها. فيجب أن نقطع على أنّ ذلك من جهة التعذّر لاغيره.

وإذا علمنا أنّ العرب تُحُدّوا بالقرآن فلم يعارضوه مع شدّة حاجتهم إلى المعارضة، علمنا أنّهم لم يعارضوه للتعذّر لاغير. وإذا ثبت كون القرآن معجزاً وأنّ معارضته تعذّرت لكونه خارقاً للعادة، ثبت بذلك نبوّته المطلوبة.

* * *

ثمّ إنّ القرآن معجز، لأنّه ﷺ تحدّى العرب بمثله، وهم النهاية في البلاغة، وتوفّرت دواعيهم إلى الإتيان بما تحدّاهم به، ولم يكن لهم صارف عنه ولا مانع منه، ولم يأتوا به. فعلمنا أنّهم عجزوا عن الإتيان بمثله.

وإنّما قلنا: أنّه ﷺ تحدّاهم به؛ لأنّ القرآن نفسه يتضمّن التحدّي كقوله تعالى: «فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ»،[1] معلوم أنّ العرب في زمانه وبعده كانوا يتبارون بالبلاغة ويفخرون

---

١ ـ البقرة ٢: ٢٣.

بالفصاحة، وكانت لهم مجامع يعرضون فيها شعرهم، وحضر زمانه من يعدّ في الطبقة الأُولى كالأعشى ولبيد وطرفة، وزمانه أوسط الأزمنة في استعمال المستأنس من كلام العرب، دون الغريب الوحشي الثقيل على اللسان، فصحّ أنّهم كانوا الغاية في الفصاحة.

وإنّما قلنا: اشتدّت دواعيهم إلى الإتيان بمثله، فإنّه تحدّاهم ثمّ قرّعهم بالعجز عنه بقوله تعالى: «قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هذَا الْقُرآن لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ولَوْ كانَ بَعْضهُم لِبَعْضٍ ظَهيراً»[1] وقوله تعالى: «فإنْ لمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا».[2]

فإن قيل: لعلّ صارفهم هو قلّة احتفالهم به أو بالقرآن، لانحطاطه في البلاغة! قلنا لاشبهة أنّه صلى الله عليه وآله كان من أوسطهم في النسب، وفي الخصال المحمودة حتّى سمّوه الأمين الصدوق، وكيف لايحتفلون به وهم كانوا يستعظمون القرآن حتّى شهروه بالسحر ومنعوا الناس من استماعه، لئلّا يأخذ بمجامع قلوب السامعين، فكيف يرغبون عن معارضته![3]

❊ ❊ ❊

وأمّا وجه إعجاز القرآن فقد اختلف المتكلّمون في جهة إعجازه على سبعة أوجه:

فأوّل ما ذكر من تلك الوجوه: ما اختاره المرتضى، وهو أنّ وجه الإعجاز في القرآن أنّ الله صرف العرب عن معارضته، وسلبهم العلم بكيفيّة نظمه وفصاحته، وقد كانوا لولا هذا الصرف قادرين على المعارضة متمكّنين منها.

والثاني: ما ذهب إليه الشيخ المفيد[4] وهو أنّه إنّما كان معجزاً من حيث اختصّ برتبة في الفصاحة خارقة للعادة. قال: لأنّ مراتب الفصاحة إنّما تتفاوت بحسب العلوم التي يفعلها الله في العباد، فلايمتنع أن يجري الله العادة بقدر من العلوم فيقع التمكين بها من مراتب في الفصاحة محصورة متناهية، ويكون مازاد على ذلك زيادة غير معتادة، معجزاً خارقاً للعادة.

---

١ ـ الإسراء ١٧: ٨٨. ٢ ـ البقرة ٢: ٢٤.

٣ ـ بحار الأنوار، ج ٨٩، ص ١٢١-١٢٥.

٤ ـ لعلّه في غير كتابه (أوائل المقالات) فقد ذهب فيه مذهب النظّام كما يأتي.

والثالث: وهو ما قال قوم: إنّ إعجازه من حيث كانت معانيه صحيحة مستمرّة على النظر وموافقة للعقل.

والرابع: أنّ جماعة جعلوه معجزاً من حيث زال عنه الاختلال والتناقض على وجه لم تجر العادة بمثله.

والخامس: أنّه يتضمّن الأخبار عن الغيوب.

والسادس: اختصاصه بنظم مخصوص مخالف للمعهود.

والسابع: ماذكره أكثر المعتزلة: أنّ تأليف القرآن ونظمه معجزان، لا لأنّه تعالى أعجز عنهما بمنع خلقه في العباد، وقد كان يجوز أن يرتفع فيقدر عليه، لكن محال وقوعه منهم كاستحالة إحداث الأجسام والألوان، وإبراء الأكمه والأبرص من غير دواء.

قال: ولو قلنا: إنّ هذه الوجوه السبعة كلّها وجوه إعجاز القرآن على وجه دون وجه، لكان حسناً.

❊ ❊ ❊

ثمّ أخذ في بيان الاستدلال على هذه الأوجه، حسبما ذكره القائلون بها:

قال: واستدلّ المرتضى؛ على أنّه تعالى صرفهم عن المعارضة، وأنّ العدول عنها كان لهذا، لا لأنّ فصاحة القرآن خرقت عادتهم، بأنّ الفضل بين الشيئين إذا كثر، لم تقف المعرفة بحالها على ذوي القرائح الذكيّة، بل يغني ظهور أمريهما عن الرؤية بينهما، وهذا كما لايحتاج إلى الفرق بين الخزّ والصوف إلى أحذق البزّازين، وإنّما يحتاج إلى التأمّل، الشديد التقارب الذي يشكل مثله. ونحن نعلم إنّا على مبلغ علمنا بالفصاحة، نفرّق بين شعر امرئ القيس وشعر غيره من المحدثين، ولا نحتاج في هذا الفرق إلى الرجوع إلى من هو الغاية في علم الفصاحة، بل نستغني معه عن الفكرة، وليس بين الفاضل والمفضول من أشعار هؤلاء وكلام هؤلاء قدر مابين الممكن والمعجز، والمعتاد والخارج عن العادة. وإذا استقرّ هذا، وكان الفرق بين سور المفصّل وبين أفصح قصائد العرب غير ظاهر لنا الظّهور الذي ذكرناه، ولعلّه إن كان ثمّ فرق فهو ممّا يقف عليه غيرنا ولا يبلغه علمنا، فقد دلّ على

أنّ القوم صرفوا عن المعارضة وأخذوا عن طريقها.

❊ ❊ ❊

قال: والأشبه بالحقّ والأقرب إلى الحجّة ـ بعد ذلك القول ـ قول من جعل وجه إعجاز القرآن خروجه عن العادة في الفصاحة، فيكون مازاد على المعتاد معجزاً، كما أنّه لمّا أجرى الله العادة في القدرة التي يمكن بها من ضروب أفعال الجوارح، كالطفو بالبحر وحمل الجبل، فإنّها إذا زادت على ما تأتي العادة، كانت لاحقة بالمعجزات، كذلك القول هاهنا.

ثمّ إنّ هؤلاء الّذين قالوا: إنّ جهة إعجاز القرآن الفصاحة المفرطة التي خرقت العادة صاروا صنفين:

منهم من اقتصر على ذلك ولم يعتبر النظم، ومنهم من اعتبر مع الفصاحة النظم المخصوص، وقال الفريقان: إذا ثبت أنّه خارق للعادة بفصاحته، دلّ على نبوّته...

وأمّا القول الثالث والرابع فكلاهما مأخوذ من قوله تعالى: «وَلَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ الله لَوَجَدُوا فيهِ اخْتِلافاً كَثيراً»[1] فحمل الأوّلون ذلك على المعنى، والآخرون على اللفظ. والآية مشتملة عليهما عامّة، ويجوز أن يكون كلا القولين معجزاً على بعض الوجوه، لارتفاع التناقض فيه، والاختلاف فيه، على وجه مخالف للعادة.

وأمّا من جعل جهة إعجازه ما تضمّنه من الإخبار عن الغيوب، فذلك لاشك أنّه معجز، لكن ليس هو الذي قصد به التحدّي، لأنّ كثيراً من القرآن خال من الإخبار بالغيب، والتحدّي وقع بسورة غير معيّنة.

❊ ❊ ❊

وأمّا الذين قالوا: إنّما كان معجزاً لاختصاصه بأُسلوب مخصوص، ليس بمعهود، فإنّ النظم دون الفصاحة لايجوز أن يكون جهة إعجاز القرآن على الإطلاق، لأنّ ذلك لايقع فيه التفاضل، وفي ذلك كفاية، لأنّ السابق إلى ذلك لابدّ أن يقع فيه مشاركة لمجرى العادة

---

١ ـ النساء ٤: ٨٢.

كما تبيّن.

وأمّا من قال: إنّ القرآن نظمه وتأليفه مستحيلان من العباد، كخلق الجواهر والألوان فقولهم به على الإطلاق باطل، لأنّ الحروف كلّها من مقدورنا، والكلام كلّه يتركّب من الحروف التي يقدر عليها كلّ متكلّم، وأمّا التأليف فإطلاقه مجاز في القرآن، لأنّ حقيقته في الأجسام، وإنّما يراد من القرآن حدوث بعضه في أثر بعض، فإن أُريد ذلك فهو إنّما يتعذّر لفقد العلم بالفصاحة وكيفيّة إيقاع الحروف، لا أنّ ذلك مستحيل، كما أنّ الشعر يتعذّر على العجم لعدم علمه بذلك، لا أنّه مستحيل منه من حيث القدرة، ومتى أُريد استحالة ذلك بما يرجع إلى فقد العلم فذلك خطأ في العبارة دون المعنى.[1]

وأمّا القائلون بأنّ إعجازه الفصاحة، قالوا: إنّ الله جعل معجزة كلّ نبيّ من جنس ما يتعاطاه قومه، فقد كان الغالب على قوم موسى عليه السلام السحر، فكانت معجزته العصا واليد البيضاء، فعرفوا أنّه فوق متعاطاهم فآمنوا. وكذلك كان الغالب في زمن عيسى عليه السلام الطبّ، فأظهر الله على يده إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، ممّا لا يناله الطبّ فآمنوا به. فهكذا لمّا كان زمن محمّد صلى الله عليه وآله الغالب على قومه الفصاحة والبلاغة حتّى كانوا لا يتفاخرون بشيء كتفاخرهم بها، جعل الله معجزته من ذلك القبيل، فأظهر على يديه هذا القرآن، وعلم الفصحاء منهم أنّ ذلك ليس من كلام البشر، فآمنوا به. ولهذا جاء المخصوصون فآمنوا برسول الله صلى الله عليه وآله كالأعشى مدح رسول الله صلى الله عليه وآله بقصيدة وأراد أن يؤمن، فدافعه قريش وجعلوا يحدّثونه بأسوأ ما يقدرون عليه، فلم يزالوا بالسعي حتّى صدّوه. وجاء لبيد وآمن برسول الله صلى الله عليه وآله وترك قيل الشعر تعظيماً لأمر القرآن...

قالوا: ومن خالفنا في هذا الباب يقول: إنّ المعجز قد يلتبس بالحيلة لكنّه إذا لم يكن طريق إلى الفصل بينهما، وهاهنا وجوه من الفصل، منها:

إنّ المعجز إنّما يظهر عند من يكون من أهل هذا الباب ويروّج عليهم، والحيلة إنّما تظهر عند العوام وتروّج على الجهّال.

---

١ ـ بحار الأنوار، ج ٨٩، ص ١٢٧-١٣٠.

فإن قيل: النبيّ ﷺ مبعوث إلى العرب والعجم، فإذا كان إعجاز القرآن من حيث الفصاحة، فإنّ العجم لا يمكنهم ذلك.

قلنا: الفصاحة ليست بمقصورة على لغة دون أُخرى. على أنّه يمكنهم أن يعرفوا ذلك على سبيل الجملة، إذا علموا أنّه تحدّى فصحاء العرب فأعجزهم، وفي ذلك كفاية.

❊ ❊ ❊

وأمّا القائلون بأنّ إعجازه بالفصاحة والنظم معا، قالوا: إنّا رأينا النبي ﷺ أرسل التحدّي إرسالاً وأطلقه إطلاقاً، والمتفاهم من الإطلاق هو التحدّي بهما معاً، لأنّ العادة عند العرب جارية في التحدّي باعتبار طريقة النظم مع الفصاحة، كما في تحدّي شعراء العرب وخطبائهم في الشعر والخطابة، ليس في الفصاحة فقط وإنّما هي مع نظمه العروضي وأُسلوبه الإيقاعي أيضاً. هذا هو المتبادر إلى الذهن حينذاك من التحدّي.

على أنّ التحدّي لو كان بمجرّد الفصاحة لوقعت المعارضة ببعض فصيح شعرهم أو بليغ كلامهم، إذ قد يخفى الفرق بين قصار السور وفصيح كلام العرب. فكان يجب أن يعارضوه، فإذ لم يفعلوا، فلأنّهم فهموا من التحدّي مجموع الفصاحة وطريقة النظم معاً، إذ لم يجتمعا لهم، واختصاص القرآن بنظم يخالف سائر ضروب الكلام المعروفة عند العرب.

وقد قال المرتضى: إنّ التحدّي وقع بالإتيان بمثله في فصاحته وطريقته في النظم، ولم يكن بأحد الأمرين، فلو وقعت المعارضة بشعر منظوم أو برجز منظوم أو بمنثور من الكلام ليس له طريقة القرآن في النظم، لم تكن واقعة موقعها، والصرفة على هذا إنّما كانت بأن يسلب الله كلّ من رام المعارضة، للعلوم التي يتأتّى معها مثل فصاحة القرآن وطريقته في النظم. ولهذا لا يصاب في كلام العرب ما يقارب القرآن في فصاحته ونظمه.

وأمّا القائلون بأنّ إعجاز القرآن بالنظم المخصوص، قالوا: وجدنا الكلام منظوماً ومنثوراً والمنظوم هو الشعر، وأكثر الناس لا يقدرون عليه، فجعل الله معجز نبيّه النمط الذي يقدر عليه كلّ أحد ولا يتعذّر نوعه في كلّهم، وهو الذي ليس بمنظوم، فيلزم حجّته الجميع.

قال: والذي يجب أن يعلم ـ في العلم بإعجاز القرآن ـ هو أن يعلم مباني الكلام وأسباب الفصاحة في ألفاظها، وكيفيّة ترتيبها، وتباين ألفاظها، وكيفية الفرق بين الفصيح والأفصح، والبليغ والأبلغ، وتعرف مقادير النظم والأوزان، وما به يبين المنظوم من المنثور وفواصل الكلام، ومقاطعه، ومبادئه، وأنواع مؤلّفه ومنظومه.

ثمّ ينظر فيما أتى به حتّى يعلم أنّه من أيّ نوع هو، وكيف فضّل على ما فضّل عليه من أنواع الكلام، حتّى يعلم أنّه من نظم مباين لسائر المنظوم، ونمط خارج من جملة ماكانوا اعتادوه فيما بينهم، من أنواع الخطب والرسائل والشعر والمنظوم والمنثور والرجز والمخمّس والمزدوج والعريض والقصير.

فإذا تأمّلت ذلك وتدبّرت مقاطعه ومفاتحه، وسهولة ألفاظه، واستجماع معانيه، وأنّ كلّ واحد منها لوغيّرت لم يمكن أن يؤتى بدلها بلفظة هي أوفق من تلك اللفظة، وأدلّ على المعنى منها، وأجمع للفوائد والزوائد منها.

وإذا كان كذلك، فعند تأمّل جميع ذلك، يتحقّق ما فيه من النظم اللائق، والمعاني الصحيحة التي لايكاد يوجد مثلها على نظم تلك العبارة، وإن اجتهد البليغ والخطيب.

❊ ❊ ❊

قال: وفي خواصّ نظم القرآن وجوه:

أوّلها: خروج نظمه عن صورة جميع أسباب المنظومات، ولولا نزول القرآن لم يقع في خلد فصيح سواها، وكذلك قال عتبة بن ربيعة لمّا اختاره قريش للمصير إلى النبيّ ﷺ، قرأ عليه حم السجدة، فلمّا انصرف قال: سمعت أنواع الكلام من العرب، فما شبّهته بشيء منها، إنّه ورد عليّ ما راعني. ونحوه ما حكى الله عن الجنّ. فلمّا عَدُمَ وجود شبيه القرآن من أنواع المنظوم، انقطعت أطماعهم عن معارضته.

والخاصّة الثانية: في الروعة التي له في قلوب السامعين، فمن كان مؤمناً يجد شوقاً إليه وانجذابا نحوه، وحكي أنّ نصرانيّاً مرّ برجل يقرأ القرآن فبكى فقيل له: ما أبكاك؟ قال: النظم.

والثالثة: أنّه لم يزل غضّاً طريّاً لايخلق ولا يملّ تاليه. والكتب المتقدّمة عارية عن رتبة النظم، وأهل الكتاب لايدّعون ذلك إليها.

والرابعة: أنّه في صورة كلام هو خطاب لرسوله تارة ولخلقه أُخرى.

والخامسة: مايوجد من جمعه بين الأضداد، فإنّ له صفتي الجزالة والعذوبة وهما كالمتضادّين.

والسادسة: ماوقع في أجزائه من امتزاج بعض أنواع الكلام ببعض، وعادة ناطقي البشر تقسيم معاني الكلام.

والسابعة: أنّ كلّ فضيلة من تأسيس اللغة في اللسان العربي هي موجودة في القرآن.

والثامنة: عدم وجود التفاضل بين بعض أجزائه من السور، كما في التوراة كلمات عشر تشتمل على الوصايا، يستحلفون بها لجلالة قدرها. وكذا في الإنجيل أربع صحف، ومحاميد ومسابيح يقرأونها في صلواتهم.

والتاسعة: وجود ما يحتاج العباد إلى علمه من أُصول دينهم وفروعه، من التنبيه على طرق العقليّات، وإقامة الحجج على الملاحدة والبراهمة والثنويّة، والمنكرة للبعث القائلين بالطبائع بأوجز كلام وأبلغه. ففيه من أنواع الإعراب والعربيّة، والمحكم والمتشابه، والحقيقة والمجاز، والناسخ والمنسوخ. وهو مهيمن على جميع الكتب المتقدّمة.

والعاشرة: وجود قوام النظم في أجزائه كلّها، حتّى لايظهر في شيء من ذلك تناقض ولا اختلاف، وله خواصّ سواها كثيرة.[1]

❊ ❊ ❊

قال: واعلم إنّه قد تضمّن القرآن ـ والأحاديث الصحيحة ـ الإخبار عن الغيوب الماضية والمستقبلة، فأمّا الماضية فكالإخبار عن أقاصيص الأوّلين والآخرين. من غير تعلّم من الكتب المتقدّمة، على ما ذكرنا.

---

١ ـ بحار الأنوار، ج ٨٩، ص ١٣١-١٣٩؛ والخرائج والجرائح متقطّعاً، ج ٣، ص ٩٧١-١١٠٦.

وأمّا المستقبلة فكالإخبار عمّا يكون من الكائنات، وكان كما أخبر عنها على الوجه الذي أخبر عنها على التفصيل، من غير تعلّق بما يستعان به على ذلك، من تلقين ملقّن وإرشاد مرشد، أو حكم بتقويم أو رجوع إلى حساب. كالكسوف والخسوف، ومن غير اعتماد على اصطرلاب وطالع، وذلك قوله تعالى: «لِيُظْهِرهُ عَلَى الدّيـنِ كُـلِّهِ وَلَـوْ كَـرِهَ المُشْرِكُونَ».[١]

وكقوله: «مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ. فِي بِضْعِ سِنِينَ».[٢]

وكقوله: «سَيُهزَمُ الْجَمْعُ ويُوَلُّونَ الدُّبُرَ».[٣]

وكقوله: «لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَو كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهيراً».[٤]

وكقوله: «فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا».[٥]

وكقوله: «وَعَدَكُمُ اللهُ مَغانِمَ كَثِيرَةً تَأخُذُونَها ـإلى قوله ـ قَدْ أحاطَ اللهُ بِها».[٦]

ونحو ذلك من الآيات، وكان كلّها كما قال.

❋ ❋ ❋

ووجه آخر، وهو ما في القرآن ـوالأحاديث ـ من الإخبار عن الضمائر:

كقوله: «إِذْ هَمَّت طائِفَتانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلا»،[٧] من غير أن ظهر منهم قول أو فعل بخلاف ذلك.

وكقوله: «وإذا جاؤُوك حَيَّوكَ بِما لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ».[٨]

وكقوله: «وإِذْ يَعِدُكُمُ الله إحْدَى الطّائفَتَيْنِ أَنَّها لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذاتِ الشَّوْكَـةِ تَكُونُ لَكُمْ»[٩] يخبرهم بما يريدون في أنفسهم وما يهمّون به.

وكعرضه تمنّي الموت على اليهود في قوله: «فَتَمَنَّوُا الْمَـوْتَ إنْ كُـنْتُمْ صـادِقِينَ وَلا

---

١ ـ التوبة ٩: ٣٣.

٢ ـ الروم ٣٠: ٣-٤.

٣ ـ القمر ٥٤: ٤٥.

٤ ـ الإسراء ١٧: ٨٨.

٥ ـ البقرة ٢: ٢٤.

٦ ـ الفتح ٤٨: ٢٠-٢١.

٧ ـ آل عمران ٣: ١٢٢.

٨ ـ المجادلة ٥٨: ٨.

٩ ـ الأنفال ٨: ٧.

يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ»[١] فعرفوا صدقه، فلم يجسر أحدهم أن يتمنّى الموت، لأنّه ﷺ قال لهم: إن تمنّيتم الموت متّم. فدلّ جميع ذلك على صدقه بإخباره عن الضمائر.[٢]

١٠ ـ كلام الزملكاني

ولكمال الدين عبدالواحد بن عبدالكريم الزملكاني (ت ٦٥١) كلام لطيف في وجه إعجاز القرآن، يرى أنّه من جهة سبكه ونظمه الخاصّ، من اعتدال مفرداته تركيباً وزنة، واعتلاء مركّباته معنىً. ولعلّه يقرب من اختيار المتأخّرين على ما سنذكر، أورده في صدر كتابه الذي وضعه للكشف عن إعجاز القرآن[٣] قال: لمّا كانت ترجمة هذا الكتاب مؤذنة بكونه كاشفاً عن إعجاز القرآن احتيج إلى بيان ذلك فنقول: «الأكثر على أنّ نظم القرآن معجز خلافاً للنظّام، فإنّه قال: إنّ الله سبحانه صرف العرب عن معارضته وسلب علومهم، إذ نثرهم ونظمهم لا يخفى ما فيه من الفوائد، ومن ثمّ قالوا: «**لَوْ نَشاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هٰذا إن هٰذا إلّا أساطيرُ الأَوّلين**».[٤] وهذا على حدّ ما جعل الله سلب زكريّا (عليه أفضل السلام) النطق ثلاثة أيّام من غير علّة آيةً، أو أنّهم لم يحيطوا به علماً على ما قال تعالى: «**بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ**».[٥]

وهذا خلف من القول، إذ لو كان كذلك لكان ينبغي أن يتعجّبوا من حالهم دونه، فإنّ من يضع يده على رأسه دون سائر الحاضرين يحبس الله أيديهم لا يعجب منه بل من حالهم. ولكان ينبغي أن يعارضوه بما قبل صرفهم عنه من كلامهم الفصيح، ولأنّ سلب قدرهم يجريهم مجرى الموتى فلا يجدي اجتماعهم قوّة وظهوراً على المعارضة، وهو مخالف لقوله تعالى: «**قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هٰذَا الْقُرآنِ لا يَأْتُونَ**

---

١ ـ الجمعة ٦٢: ٦-٧.

٢ ـ الخرائج والجرائح، ج ٣، ص ١٠٢٧-١٠٢٩؛ وراجع مختصره، ص ٢٦٧.

٣ ـ وكتابه هو: البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن. ذكر ذلك في ص ٥٣-٦١.

٤ ـ الأنفال ٨: ٣١.

٥ ـ يونس ١٠: ٣٩.

بِمِثْلِهِ».[١] وأمّا قصّة زكريّا فحجّة له فيما نحن بصدده، إذ الآية كانت في سلبه النطق لا في نطق غيره...

وإذا ثبت كونه معجزاً تعيّن أن يكشف عن جهة الإعجاز إذ لا يصحّ التحدّي بشيء مع جهل المخاطب بالجهة التي وقع بها التحدّي. ولو كان كذلك لأمكن كلّ أحد أن يتحدّى.

قال: فإذن إعجازه إمّا من جهة ذوات الكلم، أو عوارضه من الحركات، أو مدلوله، أو المجموع أو التأليف أو أمر خارج عن ذلك. والأوّل والثاني باطلان، إذ صغير العرب يمكنه ذلك. وأمّا المدلول فليس صنيع البشر ولا يقدرون على إظهار المعاني من غير ما يدلّ عليه. وأمّا المجموع فالكلام عليه كالكلام على ما سبق. وأمّا الخارجي فباطل إلّا على رأي النظّام، وقد عرف...

قال: فتعيّن أن يكون الإعجاز نشأ من جهة التأليف الخاصّ به لا مطلق التأليف، وذلك بأن اعتدلت مفرداته تركيباً وزنةً وعلت مركّباته معنىً. وهذا القسم الذي عقد له علم البيان، ومن ثمّ سلك من رسخ قدمه في الحماقة التأليف عند قصد المماثلة، من ذلك ما حكي عن مسيلمة أنّه قال: «الفيل ماالفيل، وما أدراك ماالفيل، له ذنب وثيل وخرطوم طويل». وحكي أنّ أعرابياً حضر صلاة جماعة فقدّم فقرأ في الأُولى ـ بعد الفاتحة ـ: ألا يا مهلك الفيل، ومن سار مع الفيل، وكيد القوم في تبّ وتضليل، بطير صبّه الله على الفيل أبابيل، ضحى من طين سجّيل، فصار القوم في قاع كعصف ثمّ مأكول. وقرأ في الثانية: قد أفلح من هينم في صلاته وأطعم المسكين من مخلاته واجتنب الرجس وفعلاته، بورك في بقره وشاتِهِ... ولم يشك الجمع في أنّ ما قرأه سورتان من القرآن.

فإن قلت: لم لايجوز أن يكون إعجازه نشأ من جهة مافيه من الأنباء السالفة واللاحقة ولم يكن ذلك شأن العرب...

قلت: قد ذهب إلى هذا المذهب قوم، لكن ليس الإعجاز منحصراً في ذلك، بل نظمه

---

١ ـ الإسراء ١٧: ٨٨.

المخصوص معجز على ماقال تعالى: «لا يَأتُونَ بِمِثْلِهِ»، والمراد النظم بدليل «فَأتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ» وليس في كلّ سورة إخبار بالغيب، دلّ على أنّ المراد نظمه.

فإن قلت: الضمير في «مثله» عائد إلى الله تعالى.

قلت: يضعّفه قوله تعالى: «قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ»[١] والسياق واحد.

فإن قلت: الواحد من العرب قد يؤلّف الخطبة أو القصيد ويعجز غيره عن مثلها، ولم يعد ذلك معجزاً، كما تراه من خطب علي عليه السلام وكلام قسّ وشعر امرئ القيس والأعشى وغيرهما من المتقدّمين والمتأخّرين. ولقد ألّف الناس كتباً في الفنون وصنّفوا خطباً اعترف بأنّها يتيمة دهر وفريدة عصر!

قلت: أين النبع من الغَرَب، والصبر من الضَرَب[٢] وهل يحتوي كتاب أو يشتمل خطاب على ما اشتمل عليه كتاب الله تعالى من سهولة لفظ وجزالته وبلاغة معنى وغرابته، وعجائب لا تنقضي وعرائس في نفائس الحلي تنجلي، ومن ثمّ قالوا: «إنّ له لحلاوة وأنّ عليه لطلاوة وأنّ أسفله لمعرق وأنّ أعلاه لمثمر». وعن ابن مسعود: «إذا وقعت في آل حم وقعت في روضات دمثات أتأنّق فيهنّ». أي أتتبّع محاسنهنّ. لم يقل ذلك من أجل أوزان الكلمات ولا من أجل إعرابها ولا من أجل الفواصل في أواخر الآيات، ولا من أجل التأليف فقط، بل ذلك راجع إلى دقّة النظم مع زيادة الفائدة.

هذا وأنّه لصادر على لسان من لم يمارس الخطّ والخطب وينافس في معرفة الدرّ من المخشلب.[٣] وإذا جعلت الكلمات اليسيرة من عيسى عليه السلام آية، مع أنّها الجارية من الأكابر عادة، فلئن تجعل الغايات الكثيرة والسورة الطويلة المشتملة على أصناف فنون الآداب والفصاحة والبلاغة التي يعجز عنهما الوصف ويكلّ دونهما حدّ الطرف، من رجل حاله ما سبق، أحرى وأولى.

---

١ ـ هود ١١: ١٣.

٢ ـ النبع: شجر للقسي والسهام ينبت في رؤوس الجبال. والغرب: نبت ضعيف ينبت على الأنهار. الصبر: عصارة شجرٍ مرّ. الضَرَب: العسل.

٣ ـ يقال: أراد الدرّ مخشلباً، وهو: خرز من محارة البحر وليس بدرّ.

وسأُوضّح لك ذلك بشيء من دقيق المسالك، منه فواتح السّور التي هي حروف هجاء وإذا نظرتها ببادي الرأي وجدتها ممّا يكاد يمجّه السمع ويقلّ به النّفع، مع أنّها من الحسن ترفل في أثواب الحبر ويقصر عنها دقيق النظر، وذلك من وجوه:

الأوّل: إنّها كالمهيّجة لمن سمعها من الفصحاء والموقظة للهمم الراقدة من البلغاء لطلب التساجل والأخذ في التفاضل. ألا تراها بمنزلة زمجرة الراعد قبل الماطر في الأعلام لتعي الأرض فضل الغمام وتحفظ ما أُفيض عليها من الأنعام وتخاف مواقع الانتقام بما فيه من العجمة التي لا تؤلّف الكلام.

وما هذا شأنه خليق بالنظر فيه والوقوف على معانيه بعد حفظ مغانيه. بل حكم الدواعي الجبليّة أن تبعث على ذلك اضطراراً لا اختياراً، لاسيّما وهي صادرة عن رجل عليه مهابة وجلالة قد قام مقام أُولي الرسالة وكشف ما هم عليه من الجهالة والضلالة وتواعدهم بأنّ الهلكات نازلة بهم لا محالة.

الثاني: التنبيه على أنّ تعداد هذه الحروف ممّن لم يمارس الخطّ ولم يعان النظر فيه، على ما قال تعالى: «وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتابٍ وَلاٰ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ»[١] متنزّل منزلة الأقاصيص عن الأُمم السالفة ممّن ليس له اطّلاع على ذلك.

الثالث: انحصارها في نصف أسماء حروف المعجم، لأنّها أربعة عشر حرفاً وهي: الألف واللام والميم والصاد والراء والكاف والهاء والياء والعين والطاء والسين والحاء والقاف والنون.

الرابع: مجيؤها في تسع وعشرين سورة بعدد الحروف.

الخامس: كما روعي تنصيفها باعتبار هجائها روعي تنصيفها باعتبار أجناسها، كالمجهورة، وهي ماعدا قولك: «ستشحثك خصفه» وهذه «المهموسة» والرخوة، وهي ماعدا قولك: «أجدك قطبت» وهي «الشديدة» وما بينهما، وهي قولك: «لم يرعونا» والمطبقة، وهي الضاد والظاء والصاد والطاء. والمنفتحة «وهي ماعداها». والمستعلية،

---

١ ـ العنكبوت ٢٩: ٤٨.

وهي ما في قوله: «ضغط خص قظ» والمنخفضة «وهي ماعداها». وحروف القلقلة وهي قولك: «قد طبج».

فإن قلت: هذه لايمكن تنصيفها. قلت: إذا كان الجنس حروفه مفردة فأسقط منه حرفاً كما سبق في حروف الهجاء ثمّ نصّفه فتجد نصفه الأخفّ والأكثر استعمالاً فيها.

ومن وقف على ذلك علم أنّ هذا القرآن ليس من كلام البشر وجزم بأنّه كلام خالق القوى والقدر. فإنّ المتبحّر في معرفة الحروف وتصرّف مخارجها الخفيف والثقيل وعدد أجناسها لايهتدي إلى هذا النظر الدقيق.

وممّا يشدّ من عضد ما ذكرناه أنّ الألف واللام والميم يكثرن في الفواتح ما لم يكثر غيرها من الحروف لكثرتها في الكلام. ولأنّ الهمزة من الرئة فهي من أعمق الحروف، واللام مخرجها من طرف اللسان ملصقة بصدر الغار الأعلى من الفم، فصوتها يملأ ماورائها من فضاء الفم. والميم مطبقة لأنّ مخرجها من الشفتين إذا أُطبقتا فرمز بهنّ إلى باقي الحروف... وكذلك لسائر الحروف الفواتح شأن ليس لغيرها.

قال: ووراء ذلك من الأسرار الإلهيّة مالا تستقلّ بفهمه البشريّة... ومن تدبّر بعض آيات الكتاب العزيز علم أنّ جوهره أصفى من الإبريز وأنّه المعجز الجامع للمعاني الجمّة في اللفظ الوجيز...

قال: وإن أردت مثالاً في ذلك فعليك بسورة الفاتحة فإنّها عنوان مقاصد القرآن وبه سمّيت أُمّ القرآن لجمعها مقاصده ولذلك جعلت مفتتحه وبه سمّيت الفاتحة والكافية.[١]

١١ ـ اختيار ابن ميثم

قال كمال الدين ميثم بن علي بن ميثم البحراني (٦٣٦-٦٩٩) شارح نهج البلاغة: اختلف المتكلّمون في سبب إعجاز القرآن، فذهب أكثر المعتزلة إلى أنّ سببه فصاحته البالغة. وذهب الجويني إلى أنّه الفصاحة والأُسلوب، ولذلك كان في شعر العرب وخطبهم

---

١ ـ البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن، ص ٥٣-٦١.

ما فصاحته كفصاحة القرآن دون أُسلوبه. وكان في كلامهم ما أُسلوبه كأُسلوبه دون فصاحته....

وذهب المرتضى ﷺ إلى أنّ الله صرف العرب عن معارضته. وهذا الصرف يحتمل:

١ ـ أن يكون لسلب قدرهم.

٢ ـ ويحتمل أن يكون لسلب دواعيهم.

٣ ـ ويحتمل أن يكون لسلب العلوم التي يتمكّنون بها من المعارضة.

ونقل عنه أنّه اختار هذا الاحتمال الأخير.

والحقّ أنّ وجه الإعجاز هو مجموع الأُمور الثلاثة، وهي الفصاحة البالغة، والأُسلوب، والاشتمال على العلوم الشريفة.

فأمّا كلام العرب فيوجد في بعضه الفصاحة البالغة، وأمّا الأُسلوب فنادر وممكن عند التكلّف، وقلّما يمكن اجتماعهما، لأنّ تكلّف الأُسلوب يذهب بالفصاحة.

وأمّا العلوم الشريفة الموجودة في القرآن فتعود إلى علم التوحيد، وعلم الأخلاق، و السياسات، وكيفيّة السلوك إلى الله، وعلم أحوال القرون الماضية. فربّما وجد في كلام بعض حكمائهم كقَسّ بن ساعدة ونحوه ممّن قرأ الكتب الإلهيّة السابقة، شيء من تلك العلوم، فيكون ذلك منه على سبيل النقل. ومع ذلك فلا يوجد معه أُسلوب القرآن وفصاحته.

والحاصل: أنّ كلامهم قد يوجد فيه ما يناسب بعض القرآن في الفصاحة، وهو في مناسبته له في الأُسلوب أبعد.

وأمّا في العلوم والمقاصد التي اشتملت عليها فأشدّ بعداً، فإنّ للقرآن باطناً وظاهراً كما قال ﷺ: إنّ للقرآن ظهراً وبطناً وحدّاً ومطلعاً، فيأخذ كلّ منه حسب فهمه واستعداده.

وفيه آيات كثيرة بشّرت وأنذرت بحوادث مستقبلة، وذلك ممّا لا يفي به القوّة البشريّة إلّا بتأييد ووحي إلهي، فتكون تلك ممتنعة في كلامهم، فضلاً أن يعبّروا عنها بما يناسب لفظ القرآن في فصاحته وأُسلوبه...[1]

---

١ ـ قواعد المرام في علم الكلام، ص ١٣٢-١٣٣.

١٢ ـ تحقيق الأمير العلوي

ولصاحب الطراز الأمير يحيى بن حمزة العلوي الزيدي (ت ٧٤٩) تحقيق مستوعب عن مسألة إعجاز القرآن وعن وجوهه المتنوّعة على أُسلوب أدبيّ كلاميّ لم يسبق لمثله نظير في مثل تحقيقه، والبحث عن مزايا المسألة وزواياها، بحثاً مستوفى مستقصى، فنقتطف منه ما يناسب المقام، ونؤجّل تمامه إلى سائر المباحث من فصول قادمة إن شاء الله.

إنّه رحمه الله وضع خاتمة كتابه (الطراز) لذكر التكميلات اللاحقة لفنون البديع ـ وهو الفنّ الثالث منها ـ وجعله على أربعة فصول: الأوّل: في فصاحة القرآن بالذات.

(وقد ألحقنا هذا الفصل بحقل الدلائل على الإعجاز في القسم الثاني الآتي من الكتاب) والذي نذكره هنا هو الفصل الثاني في كون القرآن معجزاً. وكذا الفصل الثالث في بيان وجوه إعجاز القرآن.

أمّا الفصل الرابع ـ في ردّ المطاعن على القرآن ـ فقد أجّلناه إلى مجاله المناسب الآتي. وإليك الآن الفصلين الثاني والثالث، قال:

الفصل الثاني: في بيان كون القرآن مُعجزاً

اعلم أنّ الكلام في هذا الفصل وإن كان خليقاً بإيراده في المباحث الكلاميّة والأسرار الإلهية، لكونه مختصّاً بها ومن أهم قواعدها، لما كان علامةً دالّةً على النُبُوَّة وتصديقاً لصاحب الشريعة حيث اختاره الله تعالى بياناً لمعجزته وعلَما دالاًّ على نبوّته وبُرْهاناً على صحّة رسالته، لكن لا يخفى تعلّقه بما نحنُ فيه تعلّقاً خاصّاً، والتصاقاً ظاهراً، فإنّ الأَخْلَق بالتحقيق أنّا إذا تكلّمنا على بلاغة غاية الإعجاز بتضمّنه لأفانين البلاغة، فالأحقُّ هو إيضاحُ ذلك، فنُظْهِرُ وجه إعجازه، وبيانَ وجه الإعجاز، وإبراز المَطاعِن التي للمُخالفين، والجواب عنها، والذي يُقْضى منه العَجب، هو حالُ علماء البيان، وأهل البراعة فيه عن آخرهم، وهو أنّهم أغفلوا ذكر هذه الأبواب في مصنّفاتهم بحيث أنّ واحداً منهم لم يذكره مع ما يظهرُ فيه من مزيد الاختصاص وعِظَم العُلْقَة، لأنّ ما ذكروه من تلك الأسرار

المعنويّة، واللطائف البيانيّة من البديع وغيره، إنّما كانت وُصْلَةً وَذَرِيعَةً إلى بيان السِّرِّ واللباب، والغرض المقصودُ عند ذوي الألباب، إنّما هو بيان لطائف الإعجاز، وإدراكُ دقائقه، واستنهاضُ عجائبه، فكيف ساغَ لهم تركها وأعرضوا عن ذكرها، وذكروا في آخر مصنّفاتهم ما هو بمعزل عنها، كذكر مخارج الحُروف وغيرها ممّا ليس مُهِمّا، وإنّما المُهِمّ ما ذكرناه، ثمّ لو عَذَرْنا مَن كان منهم ليس له حظّ في المباحث الكلاميّة، ولا كانت له قدَمٌ راسخة في العلوم الإلهية، وهم الأكثرُ منهم كالسّكاكي، وابن الأثير، وصاحب التبيان، وغيرهم ممّن برَّز في علوم البيان، وصَبَغ بها يَدَه، وبلغ فيها جَدَّه وجَهْده، فما بال مَن كان له فيها اليد الطولى، كابن الخطيب الرازي فإنّه أعرض عن ذلك في كتابه المصنّف في علم البيان فإنّه لم يتعرّض لهذه المباحث، ولا شمّ منها رائحة، ولكنّه ذكر في صدر كتاب النهاية كلاماً قليلاً في وجه الإعجاز لايَنقعُ من غُلّة، ولا ينفع من علّة، فإذا تمهّد هذا فاعلم أنّ الذي يدلّ على إعجاز القرآن مسلكان:

المسلك الأوّل منهما: من جهة التحدّي، وتقريرُه هو أنّه ﷺ تحدّى به العرب الذين هُم النهاية في الفصاحة والبلاغة، والغايةُ في الطلاقة والذّلاقَة، وهم قد عجزوا عن معارضته، وكلّما كان الأمر فيه كما ذكرناه فهو مُعْجِزٌ، وإنّما قلنا: إنّه ﷺ تَحدّاهمْ بالقرآن لما تَواتَرَ من النقل بذلك في القرآن، وقد نزَّلهم الله في التّحدّي على ثلاث مراتب:

الأُولى: بالقرآن كلّه، فقال تعالى: «قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هذَا الْقُرآنِ لا يأتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهيراً».[١]

الثانية: بعشْر سُوَرٍ منه كما قال تعالى: «أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَياتٍ».[٢]

الثالثة: بُسورةٍ واحدةٍ كما قال تعالى: «فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَداءَكُمْ مِنْ دُونِ الله» ثمّ قال بعد ذلك «فإنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا»[٣] فنفى القدرة لهم على ذلك بقضية

---

١ ـ الإسراء ١٧: ٨٨.
٢ ـ هود ١١: ١٣.
٣ ـ البقرة ٢: ٢٣-٢٤.

عامّة، وأمرٍ حَتْمٍ لا تردُّدَ فيه.

فدلّت هذه الآيات على التحدّي، مرّةً بالقرآن كلّه، ومرّةً بعشر سُوَر. ومرّة بسورة واحدة، وهذا هو النهاية في بلوغ التحدّي، وهذا كقول الرجل لغيره: هاتِ قوماً مثل قومي. هاتِ كنِصفهم، هاتِ كَرُبْعهم، هَاتِ كواحدٍ منهم.

وإنّما قلنا: إنّهم عجزوا عن معارضته لأنّ دواعيهم متوفّرةٌ على الإتيان بها، لأنّه ﷺ كلّف العرب تَرْكَ أديانهم، وحَطّ رئاستهم، وأوْجَب عليهم ما يُتْعِبُ أبدانهم، ويَنْقُصُ أموالَهم، وطالبَهُم بعداوة أصدقائهم، وصَداقَةِ أعدائهم، وخلع الأنداد والأصنام من بين أظهرهم، وكانت أحبَّ إليهم من أنفسهم، من أجل الدين، ولا شك أنَّ كلّ واحدٍ من هذه الأُمور ممّا يَشُقُّ على القلوب تحمّلهُ ولا سيّماً على العرب مع كثرة حميّتِهِم وعظيم أنفَتِهِمْ، ولا شكّ أنّ الإنسان إذا استنْزَلَ غيره عن رئاسته ودعاه إلى طاعته، فإنّ ذلك الغير يُحاولُ إبطال أمره بكلّ ما يَقْدر عليه ويجدُ إليه سبيلا.

ولمّا كانت معارضة القرآن بتقدير وقوعها مُبْطلةً لأمر الرسولﷺ علمنا لا محالة قطعا توفّرَ دواعي العرب عليها، وإنّما قلنا: إنّه ما كان لهم مانعٌ عنها لأنّهﷺ ما كان في أوّل أمره بحيث تَخاف قهره كلُّ العرب، بل هو الذي كان خائفاً منهم، وإنّما قلنا: إنّهم لم يُعارضوه لأنّهم لو أتوا بالمعارضة لكان اشتهارُها أحقّ من اشتهار القرآن لأنّ القرآن حينئذ يصير كالشبهة وتلك المعارضة كالحجّة، لأنّها هي المبطلة لأمره، ومتى كان الأمر كما قلناه وكانت الدواعي متوفّرةً على إبطال أُبّهَةَ المدّعى وإبطال رونقه، وإزالة بهائه، كان اشتهارُ المعارضة أولى من اشتهار الأصل، فلمّا لم تكن مشتهرة علمْنا لا محالَةَ بُطلانها، وأنّها ما كانت، وإنّما قلنا: إنّ كلّ من توفّرتْ دواعيه إلى الشيء ولم يُوجَدْ مانع منه، ثمّ لم يتمكّن من فعله، فإنّه يكون عاجزاً، لأنّه لامعنى للعجز إلّا ذاك، وبهذا الطريق نَعْرِف عجْزَنا عن كلّ مانعْجزُ عنه كخلق الصور والصفات، ويؤيّد ما ذكرناه من عجزهم ويوضّحه، أنّهم عدلوا عن المعارضة إلى تعريض النفس للقتل، مع أنّ المعارَضةَ عليهم كانت أسهل وما ذاك إلّا لمّا أحسُّوا به من العجز من أنفسهم عنها، فثبت بما ذكرناه كونُ

القرآن معجزاً، وتمام تقرير هذه الدلالة بإيراد الأسئلة الواردة عليها والانفصال عنها...

ثمّ جعل يورد أسئلة ثمانية للملاحدة حاولوا فيها إخفاء وجه الإعجاز في القرآن. وأجاب عن كلّ واحدة منها إجابة وافية على أُسلوب منهجي رتيب، أبدى خلالها جوانب لامعة من إعجاز القرآن، قد أجّلناها إلى بحث الدلائل على الإعجاز، فانتظر.

المسلك الثاني: في الدلالة على أنّ القرآن معجز من جهة العادة وتقريرُه أنّ الإتيان بمثل كلّ واحدة من سور القرآن، لا يخْلُو حالُه إمّا أن يكون معتاداً، أو غير معتاد، فإنْ كان معتاداً كان سكوتُ العرب مع فصاحتهم وشدّة عداوتهم للرسولﷺ ومع توفّر دواعيهم على إبطال أمره، والقدْح في دعواه بمبلَغ جَهْدهم وجدّهم، يكـون لا مـحالةَ مـن أَبْـهَرِ المعجزات، وأظهر البيّنات على عجزهم عن الإتيان بمثل سورة منه.

وأمّا إن لم يكن معتاداً، كان القرآن مُعْجزاً، لخروجه عن المألوف والمعتاد، فثبت بما ذكرناه أنّ القرآن سواء كان خارقاً للعادة أو لم يكن خارقاً، فإنّه يكون مُعْجزاً، وهذه نكتة شريفةٌ حاسِمةٌ لأكثر أسئلة المنكرين التي يوردونها على كونه خارقاً للعادة كما ترى.

الفصل الثالث: في بيان الوجه في إعجاز القرآن

اعلم أنّ الكلام في الوجه الذي لأجله كان القرآن معجزاً دقيقٌ، ومن ثمّ كثرت فيه الأقاويلُ واضطربت فيه المذاهب، وتفرّقوا على أنحاءٍ كثيرة، فنلذكّر ضبط المذاهب، ثمّ نُرْدفه بذكر ما تحتمله من الفساد، ثمّ نذكر على أَثَرِهِ المختارَ منها، فهذه مباحث ثلاثة:

المبحث الأوّل: في الإشارة إلى ضبط المذاهب في وجه الإعجاز فنقول: كون القرآن معجزاً ليس يخلو الحال فيه إمّا أن يكون لكونه فعلاً من المعتاد، أو لكـونه فـعلاً لغـير المعتاد، فالأوّل هو القول بالصِّرفَةِ، ومعنى ذلك أنّ الله تعالى صَرَف دواعيهم عن معارضة القرآن مع كونهم قادرين عليها، فالإعجازُ في الحقيقة إنّما هو بالصّرفة على قول هؤلاء، كما سنحقّق خلافهم في الردّ عليهم بمعونة الله تعالى، ونذكر من قال بهذه المقالة، وإن كان الوجه في إعجازه هو الفعل لغير المعتاد، فهو قسمان:

القسم الأوّل: أن يكون لأمر عائد إلى ألفاظه من غير دلالتها على المعاني، ثمّ هذا

يكون على وجهين:

أحدهما: أن يكون مشترطاً فيهم اجتماع الكلمات وتأليفها، وهذا هو قول من قال: الوجهُ في إعجازه هو اختصاصه بالأُسلوب المفارق لسائر الأساليب الشعرية والخَطابيّة، وغيرهما، فإنّه مختصّ بالفواصل والأسجاع، فمن أجل هذا جعلنا هذا الوجه مختصّاً بتأليف الكلمات.

وثانيهما: أن يكون إعجازُه لأمر راجع إلى مفردات الكلمات دون مؤلّفاتها، وهذا هو رأيُ من قال: إنّه إنّما صار معجزاً من أجل الفصاحة، وفسّر الفصاحة بالبراءة عن الثقل والسّلامة عن التعقيد، واختصاصه بالسلاسة في ألفاظه.

القسم الثاني: أن يكون إعجازُه إنّما كان لأجل الألفاظ باعتبار دلالتها على المعاني، وهذا هو قول من قال: إنّ القرآن إنّما كان معجزاً لأجل تضمّنه من الدلالة على المعنى، وهذا القسم يمكن تنزيلُه على أوجه ثلاثة:

الوجه الأوّل: أن تكون تلك الدلالةُ على جهة المُطابَقةِ وفيه مذاهبُ ثلاثة:

أوّلها: أن يكون لأمر حاصل في كلّ ألفاظه، وهذا هو قولُ من قال: إنّ وجه إعْجازه، هو سلامتهُ عن المناقضة في جميع ما تضمّنه.

وثانيها: أن يكون لأمر حاصلٍ في كلّ ألفاظه وأبعاضها، وهذا هو قول من قال: إنّ إعجازَه إنّما كان لما فيه من بيان الحقائق والأسرار، والدقائق ممّا يكون العقلُ مشتغلاً بدَرْكها، فإنّ العلماءَ مِنْ لُدُنْ عَصْرِ الصحابة(رضي الله عنهم) إلى يومنا هذا ما زالوا يستَنْهِضُون منه كلّ سرٍّ عجيب، ويستنبطون من ألفاظه كلّ معنى لطيف غريب، فهذا هو الوجه في إعجازه على رأي هؤلاء.

وثالثها: أن يكون وجه إعجازه لأمرٍ حاصلٍ في مجموع ألفاظه وأبعاضها، ممّا لا يستقلّ بدركه العقل، وهذا هو قول من قال: إنّ الوجه في إعجازه ما تضمّنه من الأُمور الغيبيّة، واللطائف الإلهيّة، التي لا يختصّ بها سوى علاّمِها، فهذه هي أقسامُ دلالة المطابقة، تكون على هذه الأوجه الثلاثة التي رمزنا إليها.

الوجه الثاني: أن تكون تلك الدلالة على جهة الالتزام، وهذا مذهبُ من يقول: إنّ القرآن إنّما كان معجزاً لبلاغته، وفسّر البلاغة باشتمال الكلام على وجوه الاستعارة، والتشبيه المضمر الأداة، والفصل، والوَصْل، والتقديم، والتأخير، والحذف، والإضْمار، والإطناب، والإيجاز، وغير ذلك من فنون البلاغة.

الوجه الثالث: أن تكون تلك الدلالةُ من جهة تضمّنه لما يتضمّنه من الأسرار المُودَعة تحت ألفاظه التي لاتزال على وجهِ الدّهر غضَّةً طَرِيَّة يجتليها كلُّ ناظر ويعلُو ذِروتها كلّ خرِّيتٍ ماهِر، فظهر بما لخّصناه من الحصر أنّ كون القرآن معجزاً، إمّا أن يكون للصّرْفة، أو للنظم، أو لسلامة ألفاظه من التعقيد، أو لخُلُوّه عن التناقض، أو لأجْل اشتماله على المعاني الدقيقة، أو لاشتماله على الإخبار بالعلوم الغيبية، أو لأجل الفصاحة والبلاغة، أو لما يتركّب من بعض هذه الوجوه أو من كلّها، كما فصّلناه من قبل، ونحنُ الآن نذكر كلّ واحد من هذه الأقسام كلّها، ونبطله سوى ما نختارُه منها والله الموفّق.

المبحث الثاني: في إبطال كلّ واحد من هذه الأقسام التي ذكرناها سوى ما نختار منها.

وجملة ما نذكره من ذلك مذاهب:

المذهب الأوّل منها: الصّرْفة، وهذا هو رأي أبي إسحاق النظّام، وأبي إسحاق النصيبي، من المعتزلة واختاره الشريف المرتضى من الإماميّة، واعلم أنّ قول أهل الصّرفة يمكن أن يكون له تفسيرات ثلاثة، لما فيه من الإجمال وكثرة الاحتمال كما سنوضّحه.

(ذكرنا التفاسير الثلاثة عند الكلام عن مذهب الصرفة).

ثمّ قال: وحاصل الأمر في هذه المقالة، أنّهم قادرون على إيجاد المعارضة للقرآن، إلّا أنّ الله تعالى منعَهم بما ذكرناه، قال: والذي غرَّ هؤلاء حتّى زعموا هذه المقالة، مايَروْنَ من الكلمات الرشيقة، والبلاغات الحسنة، والفصاحات المستحسنة، الجامعة لكلّ الأساليب البلاغيّة في كلام العرب الموافقة لما في القرآن، فزعم هؤلاء أنّ كلّ من قدر على ما ذكرناه من تلك الأساليب البديعة، لايقصر عن معارضته، خَلا ما عَرَض من منع الله إيّاهم بما ذكرناه من الموانع، والذي يدلّ على بطلان هذه المقالة براهين.

(نقلنا براهينه الثلاثة ضمن دلائل العلماء على دحض شبهة الصرفة).

المذهب الثاني: قول من زعم أنّ الوجه في إعجازه إنّما هو الأُسلوب. وتقريره أنّ أُسلوبه مخالف لسائر الأساليب الواقعة في الكلام، كأُسلوب الشعر، وأُسلوب الخُطَب والرسائل، فلمّا اختصّ بأُسلوب مخالف لهذه الأساليب، كان الوجه في إعجازه. وهذا فاسدٌ لأوجه:

أوّلها: أنّا نقول: ما تريدون بالأُسلوب الذي يكون وجهاً في الإعجاز، فإن عَنيْتُم به أُسلوباً أيَّ أُسلوب كان، فهو باطلٌ، فإنّه لو كان مطلقُ الأُسلوب معجزاً، لكان أُسلوب الشعر معجزاً، وهكذا أُسلوب الخطب والرسائل، يلزمُ كونه معجزاً، وإنْ عَنيْتُم أُسلُوباً خاصّاً، وهو ما اختصّ به من البلاغة والفصاحة، فليس إعجازُه من جهة الأُسلوب، وإنّما وجهُ إعجازه الفصاحة والبلاغة كما سنوضّحه من بعد هذا عند ذكر المختار، وإنْ عنَيْتم بالأُسلوب أمراً آخرَ غير ماذكرناه فمِنْ حقِّكم إبرازُه حتّى ننظُر فيه فنُظهر صحّته أو فساده.

وثانيها: أنّ الأُسلوب لا يمنعُ من الإتيان بأُسلوب مثله، فلوكان الأمرُ كما زعمتموه، جازت معارضةُ القرآن بمثله، لأنَّ الإتيان بأُسلوب يماثله سهلٌ ويسيرٌ على كلّ أحد.

وثالثها: أنّه لو كان الإعجاز إنّما كان من جهة الأُسلوب لكان ما يحكى عن «مُسَيلمَة» الكذّاب معجزاً وهو قوله: إنّا أعطيناك الْجَواهر، فصلِّ لربِّك وجاهر، وقوله: والطّاحِنات طَحْناً، والخابِزاتِ خبزاً، لأنّ ما هذا حالُه مختصّ بأُسلوب لا محالة، فكان يكون معجزاً، وأنّه محالٌ.

ومن وجهٍ رابعٍ وهو أنّه لو كان وجهُ إعجازه الأُسلوب، لما وقع التفاوت بين قوله تعالى، «ولَكُمْ في الْقِصاصِ حَياةٌ»[1] وبين قول الفصحاء من العرب «القَتْلُ أنفى للقتل» لأنّهما مستويان في الأُسلوب، فلمّا وقع التفاوت بينهما دلّ على بطلان هذه المقالة والله أعلم.

---

١ ـ البقرة ٢: ١٧٩.

المذهب الثالث: قول من زعم أنّ وجه إعجازه إنّما هو خلوُّه عن المناقضة، وهذا فاسدٌ لأوجه.

أمّا أوّلاً: فلأنّ الإجماع منعقدٌ على أنّ التحدّي واقع بكلّ واحدة من سور القرآن، وقد يوجد في كثير من الخطب والشعر والرسائل، ما يكون في مقدار سورة خالياً عن التناقض، فيلزم أن يكون معجزاً.

وأمّا ثانياً: فلأنّه لوكان الأمر كما قالوه في وجه الإعجاز، لم يكن تعجُّبُهم من أجْل فصاحته، وحسن نظمه، ولوجب أن يكون تعجُّبُهم من أجْل سلامته عمّا قالوه، فلمّا علمنا من حالهم خلاف ذلك بطَلَ ما زعموه.

وأمّا ثالثاً: فلأنّ السلامة عن المناقضة ليس خارقاً للعادات، فإنّه رُبّما أمكن كثيراً في سائر الأزمان، وإذاكان معتاداً لم يكن العلمُ بخلُوِّ القرآن عن المناقضة والاختلاف معجزاً، لِما كان معتاداً، ومن حقّ مايكون معجزاً أن يكون ناقضاً للعادة.

وأيضاً فإنّا نقول: جعلُكم الوجهَ في إعجازه خلوُّه عن المناقضة والاختلاف ليس عِلْماً ضروريّاً، بل لابدّ فيه من إقامة الدلالة، فيجب على مَنْ قال هذه المقالة تصحيحُها بالدلالة، لتكون، مقبولةً، وهم لم يفعلوا ذلك.

المذهب الرابع: قول من زعم أنّ الوجه في الإعجاز اشتمالُه على الأُمور الغيبيّة بخلاف غيره، وهذا فاسدٌ أيضاً لأمرين:

أمّا أوّلاً: فلأنّ الإجماع منعقدٌ على أنّ التحدّي واقعٌ بجيمع القرآن، والمعلومُ أنّ الحِكَمَ والآداب وسائر الأمثال ليس فيها شيء من الأُمور الغيبيّة، فكان يلزم على هذه المقالة أن لا يكون معجزاً وهو محال.

وأمّا ثانياً: فلأنّ ما قالوه يكون أعظم عذراً للعرب في عدم قدرتهم على معارضته، فكان من حقّهم أنْ يقولوا: إنّا متمكّنون من معارضة القرآن، ولكنّه اشتمل على مالا يمكنُنا معرفتهُ من الأُمور الغيبيّة. فلمّا لم يقولوا ذلك دلّ على بطلان هذه المقالة.

المذهب الخامس: قول من زعم أنّ الوجه في الإعجاز هو الفصاحة، وفسّر الفصاحة

بسلامةِ ألفاظه عن التعقيد الحاصل في مثل قول بعضهم:

وَقَبْرِ حَـرْبٍ بِـمَكانٍ قَـفْرُ   وَلَيْسَ قُرْبَ قَبْرِ حَرْبٍ قَبْرُ

وهذا فاسدٌ لأمرين:

أمّا أوّلاً: فلأنّ أكثر كلام الناس خالٍ عن التعقيد في الشعر، والخطب، والرسائل، فيلزم كونها معجزةً.

وأمّا ثانياً: فلأنّه لوكان الأمر كما زعموهُ لم يفترق الحالُ بين قوله تعالى: «وَمِنْ آياتِهِ الجَوارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلامِ. إنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَواكِدَ عَلى ظَهْرِهِ إنَّ في ذٰلِكَ لآياتٍ لِكُلِّ صَبّارٍ شَكُورٍ. أوْ يُوبِقْهُنَّ بِما كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ»[١] وبين قول من قال: وأعظمُ العلاماتِ الباهرة جَريُ السّفُن على الماء، فإمّا أن يريدَ هبوبَ الريح فتجري بها، أو يُريدَ سكونَ الريح فتَرْكُدَ على ظهْره، أو يُريد إهلاكُها بالإغراق بالماء لأنّ ما هذا حالهُ من المعارضة سالمٌ عن التعقيد، فكان يلزم أن يكون هذا الكلام معارضاً للآية، لاشتراكها في الخفّة والبَراءة عن الثقَل والتعقيد.

ومن وجهٍ ثالث: وهو أنّه كان يلزم أن لا يقعَ تفاوت بين قوله تعالى: «ولَكُمْ فِي القِصاصِ حَياةٌ»[٢] وبين قول العرب «القتلُ أنفى للقتل» لاشتراكهما جميعاً في السلامة عن الثقل وهذا فاسدٌ.

المذهب السادس: قول من زعم أنّ الوجه في الإعجاز إنّما هو اشتمالُه على الحقائق وتضمّنه للأسرار والدقائق التي لا تزال غَضَّةً طريَّةً على وجه الدهر، ما تَنالُ لها غايةٌ، ولا يوقف لها على نهاية، بخلاف غيره من الكلام، فإنّ ما هذا حالُه غيرُ حاصل فيه، فلهذا كان وجه إعجازه، وهذا فاسدٌ أيضاً لأمرين:

أمّا أوّلاً: فلأنّ الأصل في وجه الإعجاز أن يكون القرآن متميّزاً به لا يشاركه فيه غيره، وما ذكرتموه من هذه الخصلة فإنّها مشتركة، وبيانُه هو أنّا نرى بعض من صنّفَ كتاباً

---

١ ـ الشورى ٤٢: ٣٢-٣٤.

٢ ـ البقرة ٢: ١٧٩.

في العلوم الإسلامية واعتَنى في قَبْصه[1] واختصاره، فإنّ مَن بَعْدَه لا يزال يَجتني منه الفوائد في كلّ وقت ويستنبطها من ألفاظه وصرائحه كما نرى ذلك في الكتب الأُصولية والكتب الدينية والفقهيّة، وسائر علوم الإسلام، وإذا كان الأمر كما قلناه، وجب الحكم بإعجازها وهم لا يقولون به.

وأمّا ثانياً: فلأنّ قوله تعالى: «وَإِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ واحِدٌ»،[2] وقوله تعالى: «فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلٰهَ إِلّا اللهُ»،[3] وقوله تعالى: «قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ»[4] صريحة في إثبات الواحدانيّة لله تعالى بظاهرها وصريحها، وماعدا ذلك من المعاني لا يخلو حالُه إمّا أن يستقلّ العقلُ بدَرْكه أو لا يَسْتقلُّ بدركه، فإن استَقَلَّ بدَرْكه فقد أحاط به كغيره من سائر الكلام، فلا تفرقةَ بينه وبين غيره، وإن كان لا يَسْتَقلُّ العقل بدَرْكه، فذلك هو الأُمور الغيبيّة، وهي باطلة بما أسلفناه على من قال بها، فحصل من مجموع ماذكرناه هاهنا أنّه لا وجه لجعْل دلالته على الأسرار والمعاني وجهاً في إعجازه لأنّ غيره مشارك له في هذه الخصلة، وما وقعت فيه الشركة فلا وجه لاختصاصه وجعله وجهاً في كونه معجزاً.

المذهب السابع: قول من زعم أنّ الوجه في إعجازه هو البلاغة، وفسّر البلاغة باشتماله على وجوه الاستعارة، والتشبيه، والفصل، والوصل، والتقديم، والتأخير، والإضمار، والإظهار، إلى غير ذلك، وهؤلاء إن أرادوا بما ذكروه أنّه صار فصيحاً بالإضافة إلى ألفاظه، وبليغاً بالإضافة إلى معانيه، ومختصّاً بالنظم الباهر، فهذا جيِّدٌ لا غُبارَ عليه كما سنوضّحه عند ذكر المختار، وإن أرادوا أنّه بليغ بالإضافة إلى معانيه دون ألفاظه، فهو خطأ، فإنّه صار معجزاً باعتبار ألفاظه ومعانيه جميعاً، وغالبُ ظَنّي أنّ هذا المذهب يُحكى عن أبي عيسى الرماني.

المذهب الثامن: قول من زعم أنّ الوجه في إعجازه هو النظْمُ، وأراد أنّ نظمَه وتأليفه هو الوجهُ الذي تميّزَ به من بين سائر الكلام فهؤلاء أيضاً يُقال لهم: ماتريدون باختصاصه

---

[1] ...ي جمعه.

[2] ـ البقرة ٢: ١٦٣.

[3] ـ محمد ٤٧: ١٩.

[4] ـ الإخلاص ١١٢: ١.

بالنظم، فإن عَنَيْتُم به أنّ نَظمه هو المعجزُ من غير أن يكون بليغاً في معانيه، ولا فصيحاً في ألفاظه، فهو خطأ، فإنّ الإعجاز شاملٌ له بالإضافة إلى كلا الأمرين جميعاً، وإن عَنَيْتُمْ أنّه مختصٌّ بالبلاغة والفصاحة، خلا أنّ اختصاصه بالنظم أعجبُ وأدخَلُ، فلهذا كان الوجه في إعجازه فهذا خطأ، فإنّ مثل هذا لا يُدْرِكُ بالعقل، أعني تميُّزَه بحسن النظم عن حسن البلاغة والفصاحة، وأيضاً فإنَّ ماذكروه تحكُّمٌ لا مُستَنَد له عقلاً ولا نقلاً، وأيضاً فإنّا نقولُ: هلْ يكون النظمُ وجهاً في الإعجاز مع ضمّ البلاغة والفصاحة إليه، أو يكون وجهاً من دونهما، فإن قالوا بالأوّل فهو جَيِّدٌ، ولكنْ لِمَ قَصَرُوه على النظم وحْدَه ولم يضمّوهما إليه، وإن قالوا: إنّه يكون منفرداً بالإعجاز من دونهما، فهذا خطأ أيضاً، فإنّ نظم القرآن لو انفرد عن بلاغته وفصاحته لم يكن معجزاً بحال.

المذهب التاسع: مذهب من قال: إنّ وجهَ إعجازه إنّما هو مجموع هذه الأُمور كلّها، فلا قولَ من هذه الأقاويل إلّا هو مختصّ به، فلا جَرَم جعلنا الوجه في إعجازه مجموعها كلّها، وهذا فاسدٌ، فإنّا قد أبطلنا رأيَ أهل الصّرفة وزَيّفنا كلامهم، فلا وجه لعدّه من وجوه الإعجاز، وهكذا، فإنّا قد أبطلنا قول من زعم أنّ الوجه في إعجازه اشتماله على الإخبار بالأُمور الغيبيّة، وأبطلنا قول أهل الأُسلوب وغيره من سائر الأقاويل، فلايجوز أن تكون معدودة في وجوه الإعجاز، لأنّ الأُمور الباطلة لايجوزُ أن تكون عِلَلاً للأحكام الصحيحة، ومن وجهٍ ثانٍ وهو أنّ الفصاحة والبلاغة إذا كانتا حاصلتين فيه فهما كافيتان في الإعجاز، فلا وجه لعدّ غيرهما معهما.

المذهب العاشر: أن يكون الوجه في إعجازه إنّما هو ما تضمّنه من المزايا الظاهرة والبدائع الرائقة في الفواتح، والمقاصد، والخواتيم في كلّ سورة، وفي مبادئ الآيات، وفواصلها، وهذا هو الوجه السديدُ في وجه الإعجاز للقرآن كما سنوضّح القول فيه بمعونة الله تعالى. فهذا ما أردنا ذكره من المذاهب في الوجه الذي لأجله صار القرآن معجزاً للخلق كلّهم.

المبحث الثالث: في بيان المختار من هذه الأقاويل.

والذي نختاره في ذلك ما عوّل عليه الجهابذةُ من أهل هذه الصناعة الذين ضربوا فيها بالنصيب الوافر، واختصّوا بالقدح المعلّى والسّهم القامر، فإنّهم عوّلوا في ذلك على خواصّ ثلاثة هي الوجه في الإعجاز.

الخاصّة الأُولى: الفصاحة في ألفاظه على معنى أنّها بريئةٌ عن التعقيد، والثَقَل. خفيفةٌ على الألسنة تجري عليها كأنّها السلسال، رِقَّةً وَصَفاءً وعذوبة وحلاوة.

الخاصّة الثانية: البلاغة في المعاني بالإضافة إلى مَضْرِبِ كلّ مَثَلٍ، ومَساقِ كلّ قصّة، وخَبرٍ، وفي الأوامر والنواهي، وأنواع الوعيد، ومحاسن المواعظِ، وغير ذلك ممّا اشتملت عليه العلوم القرآنيّة، فإنّها مَسُوقة على أبْلغ سياق.

الخاصّة الثالثة: جودةُ النظم وحسن السياق، فإنّك تراه فيما ذكرناه من هذه العلوم منظوماً على أتمّ نظام وأحسنه وأكمله، فهذه هي الوجه في الإعجاز. والبرهانُ على ما ادّعيناه من ذلك هو أنّ الآيات التي يُذكر فيها التحدّي واردةٌ على جهة الإطلاق ليس فيها تَحدٍّ بجهةٍ دون جهةٍ، لأنّه لم يذكر فيها أنّه تحدّاهم، لا بالبلاغة، ولا بالفصاحة، ولا بجودة النظم والسياق، ولا بكونه مشتملاً على الأُمور الغيبيّة، ولا لاشتماله على الأسرار والدقائق، وتضمّنه المحاسن والعجائب، ولا أشار إلى شيء خاصٍّ يكون مقصداً للتحدّي، وإنّما قال: بمثله، وبسورة، وبعشر سُوَر على الإطلاق. ثمّ إنَّ العرب أيضاً ما استفهموه عمّا يريد بتحدّيهم في ذلك، ولا قالوا ما هو المطلوب في تحدِّينا، بل سكتوا عن ذلك، فوجب أن يكون سكوتُهم عن ذلك لاوجه له إلّا لما قد عُلم من اطراد العادات المقرّرة بين أظْهرهم أنّ الأمر في ذلك معلوم أنّه لايقع إلّا بما ذكرناه من البلاغة والفصاحة وجودة السياق والنظم، فإنّ المعلوم من حال الشعراء والخطباء وأهل الرسائل والكلام الواقع في الأنديةِ المشهودَة، والمحافل المجتمعة، أنّهم إذا تحدّى بعضُهم بعضاً في شعْر، أو خطبةٍ، أو رسالة فإنّه لا يتحدّاه إلّا بمجموع ما ذكرناه من هذه الأُمور الثلاثة ولم يُعَهَدْ قَطُّ في الأزمنة الماضية والآمادِ المتمادية، أنّ أحداً تحدّى أحداً منهم برقّةِ شعْره، ولا باشتماله على اُمور محجوبة، ولا بعدم التناقض فيها، وفي هذا دلالة كافيةٌ على أنَّ

تعويلهم في التحدّي إنّما هو على ما ذكرناه، فيجب حمل القرآن في الآيات المطلقة عليه. وفي ذلك حصولُ ما أردناه، وتمام تقرير هذه الدلالة بإيراد الأسئلة عليها والانفصال عنها.

السؤال الأوّل منها: قد زعمتم أنّ وجه إعجاز القرآن إنّما هو الفصاحة، والبلاغة، والنظم. وحاصلُ هذه الأُمور كلّها إمّا أن تكون راجعة إلى مفردات الكلم، أو تكون راجعة إلى مركّباتها. ولا شك أنّ العرب قادرون على المفردات لا محالة، ولا شك أنّ كلّ مَن قدَرَ على المفردات فهو قادرٌ على مركّباتها، فلو كان كما ذكرتمُوه لكان العرب قادرينَ على المعارضة، وهذا يدلُّ على أنّ وجه إعجازه ليس أمراً راجعاً إلى البلاغة، والفصاحة، والنظم، وهذا هو المطلوب.

وجوابه إنّما يكون بعد تمهيد قاعدة وهو أنّ التفاوتَ بين الكتابين في الجوْدَة والكتابة إنّما يكون من جهة العلم بإحكام التأليف بين الحروف وتنزيلها على أحسن هيئة في الإيقاع، فَمنْ كان منهما أجود علما بإحكام التأليف كانت كتابته أَعْجَب، ومن كان عادماً للعلم بما ذكرناه نقص إتّقانُ كتابته، فكلّ واحدٍ منهما قد أَحْرَزَ ما تحتاج إليه الكتابة من الآلات كالقلَم، والدَّواةِ، والقِرْطاس، واليدِ، وغير ذلك ممّا يكون شَرْطاً في الكتابة، ولم يتميّز أحدهما عن الآخر إلّا بما ذكرناه من العلم بإحكام التأليف، وهكذا حال أهل الحرف والصناعات، فإنّهم كلّهم متمكّنون من أُصول الصناعات وما تحتاج إليها، كالصناعة للذّهَبيّات والفضّيّات، والحياكَةِ للديباجِ، فإنَّ تفاوتهم إنّما يظهر في ما ذكرناه لا غيرُ، فإذا عرفت هذا فالعربُ لا محالة قادرون على مفردات هذه الكلم الموضوعة، وقادرون على حسن التأليف لهذه الكلمات، لكنّهم غير قادرين على كلّ تأليف، فإنّ من التآليف مالا زيادة عليه في الأعجاب، وهو المعْجِزُ، ومنه ما تنقص رُتْبَتهُ عن ذلك، وليس معجزاً، وعلى هذا يكون المعجزُ إنّما كان من جهة عدم العلم بإحكام تأليف هذه الكلمات، فقد ملكُوا القدرة على آحادها، وملكوا القدرة على نوع من تأليفها ممّا لم يكن معجزاً. فأمّا ما كان معجزاً من التأليف فلم يكونوا مالكين له، فحصل من مجموع

ماذكرناه، أنّ الإعجاز ليس إلّا تأليف هذه الكلمات على حدّ لاغاية فوقه. فإلى هذا يرجع الخلافُ، ويحصل التحقّق بأنّ عجزهم إنّما كان من جهة عدم العلم بهذا التأليف المخصوص في الكلام. لا يقال: فحاصل هذا الجواب أنّ الله تعالى لم يخلق فيهم العلم بإحكام التأليف الذي يحتاج إليه في كون الكلام معجزاً، وهذا قول بمقالة أهل الصّرفة، فإنّ حاصل مذهبهم هو أنّ الله تعالى سلَبَهم الداعي إلى معارضة القرآن، وأعْدم عنهم العلومَ التي لأجلها يقدرون على المعارضة، وأنتم قد زيّفتم هذه المقالةَ وأبطلتموها، فقد وقعتم فيما فررتم منه، لأنّا نقول هذا فاسدٌ فإنّا نقول إنّهم عادمون لهذه العلوم قبْلَ المُعْجز وبعْدَه، وأنّها غير حاصلة لهم في وقتٍ من الأوقات فلهذا استحال منهم معارضةُ القرآن كما قرّرناه من قبلُ، بخلاف مقالة أهل الصّرفة فإنّ عندهم أنّ علوم التأليف كانت حاصلة معهم قبلَ ظهور المُعْجز، لكن الله تعالى سلَبَهم إيّاها كما مرّ تقريره، فلهذا كان ما ذكرناه مخالفاً لما قالوه.

السؤال الثاني: لوكانت الفصاحة هي الوجه في كون القرآن معجزاً لَما كان فيه دلالة على صدق الرسولﷺ وقد تقرّر كونه دالّاً على صدقه، فيجب أن لا يكون الوجه في إعجازه هي الفصاحة، بل الصّرفة كما تقول أصحابها، أو وجْهٌ آخر غير الفصاحة، وإنّما قلنا: إنّه لوكان الوجه في إعجازه الفصاحة لَما كان فيه دلالةٌ على الصدق، فلأنّ الدلالة على الصدق إنّما تقع إذا كانت موجودةً من جهة الله تعالى إلّا أنّه تعالى ليس فاعلاً للفصاحة من جهة أنّ الفصاحة المَرْجعُ بها إلى خُلوص الكلام من التعقيد، والبلاغةُ ترجعُ إلى مطابقة الكلام وحسن تأليفه، وهذه كلّها مقدورةٌ لنا، ولهذا بطل أن يكون الإعجاز حاصلاً بها، فإذن لابدّ من أن يكون وجه الإعجاز متعلّقاً بقدرة الله تعالى، لأنّه هو المتولّي لصدق أنبيائه، فكلُّ ما كان من المعجزات لايُقَدَّرُ كونه من جهته، فإنّه لايكون فيه دلالة على صدق مَن ظهر عليه، وإنّما قلنا: إنّ فيه دلالةً على الصدق، وهذا ظاهر لايمكن إنكاره، فإنّ القرآن منْ أبْهَر الأدلّة على صدق صاحب الشريعةﷺ فلوكان وجهُ إعجازه هو الفصاحة لم يكن فيه دلالةٌ على الصدق، لأنّ الفصاحة والبلاغة المرجعُ بهما إلى انتظام

الكلام على وجه مخصوص لامزيد عليه، وما من وجهٍ من وجوه النظم إلّا وهو مقدورٌ للعباد بكلّ حال، وهذا يُبطل كونَه دالاً على صدقه، وقد تقرّر كونه دليلاً على الصدق، فبطل كون إعجازه هو الفصاحة.

وجوابه أنّا قد قرّرنا أنّ الوجه في إعجازه هو الفصاحة والبلاغة مع النظم بما لا مَطْمَع في إعادتِه.

قولُه لوكانت الفصاحة وجهاً في إعجازه لما كان له دلالة على الصدق، قلنا: هذا فاسدٌ فإنّ النظْم وإن كان مقدوراً لنا، لكنّه قد يقع على وجهٍ لا يمكنُ كونه مقدوراً لنا، ولهذا فإنّ العلْم مقدورٌ لنا، والفعلُ من جنس العلوم، وقد استحال كونها مقدورة للعباد، لِما كانت واقعة على وجه يستحيل وقوعه في حقّ العباد، فإنّ جنس الحركة مقدورٌ لنا، وحركة المرتعش وإن كانت من جنس الحركة، لكنّها لمّا وقعتْ على وجهٍ يتعذّرُ على العباد جاز الاستدلالُ بها على الله تعالى، فهكذا حال البلاغة، فإنّها وإن كانت من قبيل النظم والتأليف. وهو مقدور لنا، لكنّه لمّا وقع على وجهٍ يتعذّرُ تحصيلُه من جهتنا، كان دليلاً على الصدق من هذه الجهة، فحصل من مجموع ماذكرناه أنّ القرآن دالٌّ على صدق مَنْ ظهر على يده، وما ذاك إلّا لكونه مختصّاً بالوقوع من جهة الله تعالى مع كون جنسه من مقدور العباد، وفيه دلالة على صدْقه كما نقوله في سائر المعجزات الدالّة على صدقه، وإن لم يكن لها تعلقٌ بمقدور العباد، كإطعام الخلق الكثير من الطعام اليسير، ونبوع الماء من بين أصابعه، إلى غير ذلك من المعجزات الباهرة له ﷺ.

السؤال الثالث: هو أنّ الصحابة (رضي الله عنهم) لما اهتمّوا بجَمْع القرآن بعد الرسول ﷺ وكانوا يطلبون الآية والآيتين، ممّن كان يحفظها منهم، فإن كان الراوي مشهورَ العدالة قَبلُوها منه، وإنْ كان غير مشهور العدالة لم يقبلوها منه، وطلبوا على ذلك بَيِّنَةً فلو كان الوجه في إعجازه هو الفصاحة كما زعمتم، لكان متميّزاً عن سائر الكلام وكان لاوجه للسؤال، لِما يظهر من التمييز، وفي هذا دلالة على أنّ وجه إعجازه هو الصرفة، أو غيرها، دون الفصاحة.

وجوابه من وجهين:

أمّا أوّلاً: فلأنّا لا نسلّم أنّ الرسولﷺ تَوَفّاهُ الله تعالى ولم يكن القرآن مجموعاً، بل مامات عليه السلام إلّا بعد أن جَمَعه جبْريلُ، وهذه الرواية موضوعة مختلقةٌ لا نسَلّمها، ولهذا قال لمّا نَزَل صَدْرُ سورة بَراءَة: «أثبتوها في آخِرِ سُورَة الأنفال» فما قالوه منكَرٌ ضعيفٌ.

وأمّا ثانياً: فلأنّ الاختلافَ إنّما وقع في كتبِ القرآن وجمْعه في الدّفاتر، فأمّا جَمْعُه فممّا لم يقع فيه تردّد أنّه كان في أيّام الرّسولﷺ وإنّما كان مجموعاً في صدُور الرجال، فأمّا كَتْبه فلعلّه إنّما كان بعد الرسولﷺ ولهذا فإنّ المصاحف قد كانت كثُرت بعد الرسولﷺ فلمّا وقع فيها الخلافُ، فَعَلَ «عُثمانُ» في خلافته ما فَعَلَ مِنْ مَحوِها كلّها، وكَتْبِه مصحَفَه الذي كتَبَه.

السؤال الرابع: هو أنّ ابن مسعود ﷺ اشتبه عليه الفاتحة والمعوّذتان، هل هنّ من القرآن أو لا، فلو كان الوجه في الإعجاز هو الفصاحة لكان لا يلتبس عليه شيءٌ من ذلك.

وجوابه من وجهين:

أمّا أوّلاً: فلأنّ ابن مسعود لم يُنكر كونها نزلت من اللوح المحفوظ، وإنّ جبريل أتى بها من السماء، فهنّ قرآنٌ بهذه المعاني، وإنّما أنكَر كتبها في المصاحف وقال هنّ واردات على جهة التبرّك والاستعاذة، فلهذا كنّ قرآناً بما ذكرناه من المعاني، ولم يكنّ قرآناً لورودها لهذا المقصد الخاصّ، وهذا في التحقيق يؤولُ إلى العبادة.

والمقاصد المعنوية متفقٌ عليها كما ترى.

وأمّا ثانياً: فلأنّ هذا رَأيٌ لابن مسعود فلا يكون مقبولاً، والحقُّ في المسألة واحدٌ، فخطؤُه فيها كخطأ غيره ممّن خالَفَ دلالةً قاطعةً، ولنقتصر على هذا القدر من الأسئلة ففيه كفاية لغرضنا، واستقصاءُ الكلام على مثل هذه القاعدة إنّما يليق بالمباحث الكلاميّة والمقاصد الدينيّة، وإنْ نَفّس اللهُ لنا في المُهْلَة، وتراخَتْ مُدَّة الإمهال، ألّفْنا كتاباً نذكر فيه كيفيّة دلالة المعجز على صدق مَنْ ظهر على يده، ونُجيبُ فيه عن شكوك المخالفين

بمعونة الله تعالى، فالنيّة صادقة في ذلك إن شاء الله تعالى.[١]

١٣ ـ كلام السيد شبّر

ولخاتمة المحدّثين السيد عبدالله شبّر (ت ١٢٤٢) كلام مستوفٍ بوجوه إعجاز القرآن حسبما فصّله المحقّقون من علمائنا الإماميّة وورد في المأثور عن الأئمّة المعصومين عليهم السلام أورده في كتابه «حقّ اليقين في معرفة أُصول الدين». قال: قد وقع الخلاف بين العلماء في أنّ وجه إعجاز القرآن هل هو لأجل كونه في أعلى مراتب الفصاحة ومنتهى مرتبة البلاغة، بحيث لا يمكن الوصول إليه ولا يتصوّر الإتيان بمثله، أو من جهة صرف قلوب الخلائق عن الإتيان بمثله وإن كان ممكناً؟ وبالثاني قال السيد المرتضى رحمه الله والأكثر على الأوّل. والحقّ أنّ إعجاز القرآن لوجوه عديدة نذكر جملة منها:

١ ـ أنّه مع كونه مركّباً من الحروف الهجائية المفردة التي يقدر على تأليفها كلٌّ أحد، يعجز الخلق عن تركيب مثله بهذا التركيب العجيب والنمط الغريب.

٢ ـ من حيث امتيازه عن غيره مع اتّحاد اللغة، فإنّ كلّ كلام وإن كان في منتهى الفصاحة وغاية البلاغة إذا زيّن ورصّع بجواهر الآيات القرآنية وَجَدْتَ له امتيازاً تامّاً وفرقاً واضحاً يشعر به كلّ ذي شعور.

٣ ـ من جهة غرابة الأُسلوب وأُعجوبة النظم. فإنّ من تتبّع كتب الفصحاء وأشعار البلغاء وكلمات الحكماء، لا يجدها شبيهة بهذا النظم العجيب والأُسلوب الغريب والملاحة والفصاحة ويكفيك نسبة الكفّار له إلى السحر لأخذه بمجامع القلوب.

٤ ـ من حيث عدم الاختلاف فيه، **ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً**، فلا تجد فيه مع هذا الطول كلمة خالية من الفصاحة خارجة عن نظمه وأُسلوبه. وأفصح الفصحاء إذا تكلّم بكلام طويل تجد في كلامه أو أشعاره غاية الاختلاف في الجودة

١ ـ الطراز، ج ٣، ص ٣٦٧-٤١٣. وقد أوردنا كلامه بطوله، لاشتماله على فوائد جمّة جليلة أحببنا ثبتها وعرضها على القارئ الكريم.

والرداءة. وأيضاً لا اختلاف في معانيه ولا تناقض في مبانيه. ولو كان منتحلا ومفترى ـكما زعمه الكفّار ـ لكثر فيه التناقض والتضادّ، فإنّ الكاذب تخونه ذاكرته ويبدو عُواره.

٥ ـ من حيث اشتماله على كمال معرفة الله وذاته وصفاته وأسمائه ممّا تحيّر فيه عقول الحكماء والمتكلّمين.

٦ ـ من حيث اشتماله على الآداب الكريمة والشرائع القويمة والطريقة المستقيمة، في نظم البلاد وسياسة العباد في المعاش والمعاد.

٧ ـ من حيث اشتماله على إخباره بخفايا قصص الماضين ممّا لم يعلمه الخواصّ فكيف بالعوامّ. كما في الحديث عن أصحاب الكهف، وما دار بين موسى والخضر، وقصّة ذي‌القرنين وقصص إبراهيم ولوط ويوسف عليهم السلام.

٨ ـ من حيث اشتماله على الإخبار عن الضمائر وإبداء ما في الصدور، ممّا لا يطلع عليه إلّا علّام الغيوب. وهي كثيرة في القرآن بشأن الكفّار والمنافقين.

٩ ـ من حيث اشتماله على الإخبار بمستقبل الأيّام في مواطن كثيرة.

١٠ ـ من حيث أنّه لا يخلق على طول الزمان ولا يبلى على كثرة التكرار. كلّما تلوته أو تلي عليك وجدته غضّا طريّاً ممّا لا يوجد في غيره...[١]

١٤ ـ العلّامة هبةالدين

وسار على منهاجه وزاد عليه علّامة بغداد السيّد هبةالدين الشهرستاني (ت ١٣٨٦) في أثره الباقي «المعجزة الخالده».[٢] قال: إنّ أكبر ميزة في القرآن ـ وهي التي جعلته فوق المعجزات كلّها ـ هي أنّها مجموعة فصول ليست سوى صبابة أحرف عربيّة، من جنس كلمات العرب، بل ومن أيسر أعمال البشر.. وقد فاقت مع ذلك عبقريّة كلّ عبقريّ، ولم

---

١ ـ حقّ اليقين، ج ١، ص ١١٣-١١٤.

٢ ـ كان السبب في تقديم نظرة علّامتنا الشهرستاني إلى حقل آراء القدماء، هو اقتفاؤه لمذهب السلف أوّلاً، وامتداد نظرته لاختيار السيد شبّر وتكميلاً له في استقصاء وجوه الإعجاز ثانياً. فكان من المناسب إردافه معه في هذا المجال.

يخلق ربّ الإنسان للإنسان عملاً بعد الافتكار، أيسر لديه من الكلام.. وكلّما كان العمل البشريّ أيسر صدوراً وأكثر وجوداً، قلّ النبوغ فيه، وصعب افتراض الإعجاز والإعجاب منه. غير أنّ الفصول القرآنيّة على أنّها صبابة أحرف العرب ومن جنس أيسر أعمالهم، تجد العبقريّة فيها ظاهرة بأجلى المظاهر السامية على عبقريّة كلّ شاعر وساحر... وتراها على أعظم جانب من التأثير. مع أنّها كما أشار إليها القرآن عبارة عن «أ.ل.م.ك.هـ.ى.ع.ص..الخ» هي الأحرف العربية المبذولة. ولكن تأليف أمثال آية منها فوق وسع العرب والعجم.

وقد قيل ـ وهو الصحيح ـ: الناس كالناس والأيّام واحدة... فأصدق محكّ لمعرفة أحوال الأوّلين... هو مطالعة أحوال الآخرين، وقياس الماضي على الحال.

ونرى الناس في عهدنا مطبوعين على استحباب الشهرة والإثرة وطلب التفاضل والتفاخر... والشعب العربي المعاصر لنزول القرآن كان ولا شكّ منطويا على هذا الشعور تماماً... فلماذا لم يندفع إلى مباراته، ولم لم يعارضوه إن كانوا يرونه من كلام محمّد صلى الله عليه وآله وهو فرد منهم وتربّى مثلهم على تربة الحجاز الخصبة منبت الفصاحة والبلاغة؟!

ليت شعري، ممّ وبم أعجزت عبقريّةُ ذلك الفرد الُوفَهم المعتزّة بألوف، وكيف عجزتهم أسطرٌ وكلمات وحروف؟!

قال: للقرآن مزاياً جمّة هي ذات شأن كبير نذكر منها مايلي كرؤوس أقلام:

١ ـ فصاحة ألفاظه، الجامعة لكلّ شرائطها.

٢ ـ بلاغته: رعايته التامّة لمقتضى الحال والمقام.

٣ ـ سموّ المعنى وعلوّ المرمى واستهدافه الكمال الأسمى والجمال الأرقى.

٤ ـ أنباؤه الغيبيّة وأسراره العلميّة.

٥ ـ قوانينه الحكيمة وتشريعه القويم.

٦ ـ سلامته عن التعارض والتناقض والاختلاف.

٧ ـ طراوته مع كلّ زمان كلّما تُلي وأينما تُلي.

٨ ـ قوّة حججه وسلطان برهانه.

٩ ـ اشتماله على رموز مدهشة للفكر ومذهلة للعقول.

١٠ ـ جذبته الروحيّة وجذوته القدسيّة الملكوتيّة، ذات خلابة للألباب وسحر العقول وافتتان النفوس.

قال: هذه بعض مزايا القرآن ممّا هو من وجوه التفوّق والإعجاز...

أمّا أنا فقد وقع اختياري ـ بعد طول اختباري ـ على الوجه الأخير فيما عدّدناه، مع البلاغة الجامعة، فهما وجه الإعجاز المقصود من آيات التحدّي.

أجل إنّ جذّابته الروحيّة، الناشئة عن كونه كلام خالقنا الربّ الحكيم، محسوسة للشرقيّ والغربيّ، والعجميّ والعربيّ، لاينازعنا فيه أحد.

أمّا سائر وجوه الحسن والامتياز، فهي من آثار كونه كلام الله، ومؤثّرات معدّة في تكوين إعجازه، وجذباته الروحية... وحتّى أنّ جمهور العلماء، الذين عبّروا عن إعجاز القرآن ببلاغته، لعلّهم أرادوا ما أردنا: من جاذبيّته الروحيّة فوق جمال أُسلوبه وحسن نظمه وغريب سبكه وعجيب نضده...[١]

***

قال الأُستاذ الفكيكي: وممّن لاحظ هذه المزيّة العجيبة (الجذبة الروحيّة) أيضاً علّامة الزمان الشيخ محمّد الحسين كاشف الغطاء في كتابه «الدين والإسلام». والعلّامة الأُستاذ السيد رشيد رضا صاحب المنار في كتابه «الوحي المحمدي» ونابغة الأدب والبيان مصطفى صادق الرافعي في كتابه «إعجاز القرآن».[٢]

سنعرض نماذج من كلماتهم الرشيقة بهذا الشأن تباعاً إن شاء الله.

---

١ ـ نقلاً عن رسالته (المعجزة الخالدة)، ص ٨-٣٤ مع تصرّف واختصار.

٢ ـ مجلّة رسالة الإسلام الصادرة عن دار التقريب بالقاهرة لسنتها الثالثة، رمضان ١٣٧٠ هـ / يوليو ١٩٥١م: العدد الثالث، ص ٢٩٩.

ثانياً: الإعجاز في دراسات اللاحقين من علماء وكتّاب معاصرين

قد يقال: كم ترك الأوّل للآخر! وأُخرى يقال: ما ترك الأوّل للآخر. فإن كان في المثل الأوّل جزاف، فإنَّ في المثل الثاني مبالغة ظاهرة. نعم كـان الأوائـل قـد مـهّدوا السـبل لدراسات الآخرين وأسّسوا وأبدعوا وحازوا قصب السبق. وجاء اللاحـقون ليسـتمرّوا على أثرهم على الطريقة المعبّدة من ذي قبل، لكنّهم زادوا ونقّحوا وهذّبوا، وبذلك نضجت الأفكار وتوسّعت العقول واكتملت الآراء والأنظار.

أمّا الذي زاده الخلف على السلف في مسألة إعجاز القرآن، فهو الذي لمسـود مـن تناسق نظمه البديع وتناسب نغمه الرفيع، كانت لأجراس صوته الرصيف رنّة، ولألحـان موسيقاه اللطيف نسمة ونفحة قدسيّة ملكوتيّة ذات جذوة وجذبة، لايوجد لها مثيل في أيّ توقيع من تواقيع الموسيقى المعهودة ذات الأشكال والألوان المعروفة.

إنّه منتظم على أوزان لا كأوزان الشعر، وعلى قوافي السـجع وليس بسـجع، فـفيه خاصّيّة النظم وهو نثر، فهو كلام منظوم ومنثور في نفس الوقت، كما هو مسجّع ومـتقّى أيضاً في عين الحال. ومع ذلك فهو ليس بأحدها، وإنّما هو كلام فريد في نوعه وفذّ في أُسلوبه، إنّه كلام الله فوق كلام المخلوقين.

هذا هو الذي أحسّته أرباب الفنون وأصحاب الأذواق الظريفة بشأن القرآن الكريم، إذا تليت آياته على نهجها الأصيل، ذات روعة وخلابة، كما قال قائلهم: إنَّ له لحلاوة وإنَّ عليه لطلاوة.

١ ـ كتب سيد قطب في كتابه «التصوير الفني» فصلاً عن الإيقاع المـوسيقي فـي القرآن، وذكر أنّ الموسيقيّ المبدع الأُستاذ «محمد حسن الشجاعي» تفضّل بمراجـعته وضبط بعض المصطلحات الفنّية الموسيقيّة عليه... جاء فيه:

إنّ هذا الإيقاع متعدّد الأنواع، ويتناسق مع الجوّ، ويؤدّي وظيفه أساسيّة في البيان.

قال: ولمّا كانت هذه الموسيقى القرآنية إشعاعا للنظم الخاصّ في كلّ موضع، وتابعة

لقصر الفواصل وطولها، كما هي تابعة لانسجام الحروف في الكلمة المفردة، ولانسجام الألفاظ في الفاصلة الواحدة... فإنّنا نؤثر أن نتحدّث عن هذه الظواهر كلّها مجتمعة.

جاء في القرآن الكريم «وَما عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ وَما يَنْبَغي لَهُ إِنْ هُوَ إِلّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبينٌ».[1]

وجاء فيه حكاية عن كفّار العرب: «بَلِ افْتَراهُ بَلْ هُوَ شاعِرٌ».[2]

وصدق القرآن الكريم، فليس هذا النسق شعراً. ولكن العرب كذلك لم يكونوا مجانين ولا جاهلين بخصائص الشعر، يوم قالوا عن هذا النسق العالي: إنّه شعر!

لقد راع خيالهم بما فيه من تصوير بارع، وسحر وجدانهم بما فيه من منطق ساحر، وأخذ أسماعهم بما فيه من إيقاع جميل. وتلك خصائص الشعر الأساسية، إذا نحن أغفلنا القافية والتفاعيل.

على أنّ النسق القرآني قد جمع بين مزايا النثر والشعر جميعاً. فقد أعفى التعبير من قيود القافية الموحّدة والتفعيلات التامّة؛ فنال بذلك حرّية التعبير الكاملة عن جميع أغراضه العامّة. وأخذ في الوقت ذاته من خصائص الشعر، الموسيقى الداخلية، والفواصل المتقاربة في الوزن التي تغني عن التفاعيل؛ والتقفية التي تغني عن القوافي؛ وضمّ ذلك إلى الخصائص التي ذكرنا، فشأن النثر والنظم جميعاً.[3]

وحيثما تلا الإنسان القرآن أحسّ بذلك الإيقاع الداخلي في سياقه؛ يبرز بروزاً واضحاً في السور القصار، والفواصل السريعة، ومواضع التصوير والتشخيص بصفة عامّة؛ ويتوارى قليلاً أو كثيراً في السور الطوال، ولكنّه ـ على كلّ حال ـ ملحوظ دائماً في بناء النظم القرآني.[4]

وسنأتي على أمثلة ضربها لذلك في فصل قادم[5] إن شاء الله.

---

١ ـ يس ٣٦: ٦٩.   ٢ ـ الأنبياء ٢١: ٥.

٣ ـ يقول الدكتور طه حسين: إنّ القرآن ليس شعراً وليس نثراً. إنّما هو قرآن! ولسنا في حاجة إلى هذا اللعب بالعبارات، فالقرآن نثر متى احتكمنا للاصطلاحات العربيّة كما ينبغي. ولكنّه نوع ممتاز مبدع من النثر الفنّي الجميل المتفرّد.

٤ ـ التصوير الفنّي في القرآن، ص ٧٩-٨٠.

٥ ـ عند التعرّض لمزايا النظم القائم في القرآن وخصائصه العجيبة.

٢ ـ وقال الأُستاذ مصطفى محمود: «لقد اكتشفت منذ الطفولة دون أن أدري، حكاية الموسيقى الداخلية الباطنة في العبارة القرآنية. وهذا سرّ من أعمق الأسرار في التركيب القرآني... إنّه ليس بالشعر وبالنثر ولا بالكلام المسجوع... وإنّما هو معمار خاصّ من الألفاظ صفّت بطريقة تكشف عن الموسيقى الباطنة فيها.

وفرق كبير بين الموسيقى الباطنة والموسيقى الظاهرة.

وكمثل نأخذ بيتاً لشاعر مثل عمر بن أبي‌ربيعة، اشتهر بالموسيقى في شعره... البيت الذي ينشد فيه:

قال لي صاحبي ليعلم مابي   أتحبّ القتول أُخت الرباب؟

أنت تسمع وتطرب وتهتزّ على الموسيقى... ولكن الموسيقى هنا خارجية صنعها الشاعر بتشطير الكلام في أشطار متساوية ثمّ تقفيل كلّ عبارة تقفيلاً واحداً على الباء الممدودة.

الموسيقى تصل إلى أُذنك من خارج العبارة وليس من داخلها، من التقفيلات (القافية) ومن البحر والوزن.

أمّا حينما تتلو: «وَالضُّحىٰ. وَاللَّيْلِ إذا سَجىٰ...»[١] فأنت أمام شطرة واحدة... وهي بالتالي تخلو من التقفية والوزن والتشطير، ومع ذلك فالموسيقى تقطر من كلّ حرف فيها، من أين، وكيف؟

هذه هي الموسيقى الداخلية، والموسيقى الباطنة، سرّ من أسرار المعمار القرآني، لايشاركه فيه أيّ تركيب أدبي.

وكذلك حينما تقول: «الرَّحْمٰانُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوىٰ».[٢] وحينما تتلو كلمات زكريا لربّه: «قالَ رَبِّ إنّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُنْ بِدُعائِكَ رَبِّ شَقِيّاً».[٣] أو كلمة الله لموسى: «إنَّ السّاعَةَ آتِيَةٌ أَكادُ أُخْفيها لِتُجْزىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِما تَسْعىٰ».[٤] أو كلمته تعالى

---

١ ـ الضحى ٩٣: ١ـ٢.
٢ ـ طه ٢٠: ٥.
٣ ـ مريم ١٩: ٤.
٤ ـ طه ٢٠: ١٥.

ـ وهو يتوعّد المجرمين ـ: «إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لايَمُوتُ فيها وَلا يَحْيىٰ».[١]

كلّ عبارة بنيان موسيقي قائم بذاته ينبع فيه الموسيقى من داخل الكلمات ومن ورائها ومن بينها، بطريقة محيّرة لاتدري كيف تتم؟!

وحينما يروي القرآن حكاية موسى بذلك الأُسلوب السيمفوني المذهل:

«وَلَقَدْ أَوْحَيْنا إِلىٰ مُوسىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً لا تَخافُ دَرَكاً وَلا تَخْشىٰ، فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ ما غَشِيَهُمْ. وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَما هَدىٰ».[٢]

كلمات في غاية الرقّة مثل «يبسا» أو لاتخاف «دركاً» بمعنى لاتخاف إدراكاً. إنّ الكلمات لتذوب في يد خالقها وتصطفّ وتتراص في معمار ورصف موسيقيّ فريد، هو نسيج وحده بين كلّ ما كتب بالعربيّة سابقاً ولا حقاً لا شبه بينه وبين الشعر الجاهلي، ولا بينه وبين الشعر والنثر المتأخّر، ولا محاولة واحدة للتقليد حفظها لنا التأريخ، برغم كثرة الأعداء الذين أرادوا الكيد للقرآن.

في كلّ هذا الزحام تبرز العبارة القرآنية منفردة بخصائصها تماماً، وكأنّها ظاهرة بلا تبرير ولاتفسير، سوى أنّ لها مصدراً آخر غير ما نعرف.

اسمع هذا الإيقاع المنغّم الجميل:

«رَفيعُ الدَّرَجاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلىٰ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ».[٣] «فالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوىٰ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ ومُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيّ... فالِقُ الْإِصْباحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْباناً».[٤] «يَعْلَمُ خائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَما تُخْفِي الصُّدُور».[٥] «لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصار».[٦] «وَسِعَ رَبُّنا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً».[٧]

ثمّ هذه العبارة الجديدة في تكوينها وصياغتها... العميقة في معناها ودلالتها على

---

١ ـ طه ٢٠: ٧٤.
٢ ـ طه ٢٠: ٧٧-٧٩.
٣ ـ غافر ٤٠: ١٥.
٤ ـ الأنعام ٦: ٩٥-٩٦.
٥ ـ غافر ٤٠: ١٩.
٦ ـ الأنعام ٦: ١٠٣.
٧ ـ الأعراف ٧: ٨٩.

العجز عن إدراك كنه الخالق:

«عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ الْكَبيرُ الْمُتَعالِ».[١] «يُجادِلُونَ في اللهِ وَهُوَ شَديدُ الْمِحالِ».[٢]

ثمّ هذا الاستطراد في وصف القدرة الإلهيّة:

«وَعِنْدَهُ مَفاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُها إلّا هُوَ وَيَعْلَمُ ما في الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَما تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إلّا يَعْلَمُها وَلا حَبَّةٍ في ظُلُماتِ الْأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يابِسٍ إلّا في كِتابٍ مُبينٍ».[٣]

ولكن الموسيقى الباطنية ليست هي كلّ ما انفردت به العبارة القرآنية. وإنّما مع الموسيقى صفة أُخرى هي الجلال!

وفي العبارة البسيطة المقتضبة التي روى بها الله نهاية قصة الطوفان، تستطيع أن تلمس ذلك الشيء «الهائل» «الجليل» في الألفاظ:

«وَقيلَ يا أَرْضُ ابْلَعي ماءَكِ وَيا سَماءُ أَقْلِعي وَغيضَ الْماءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ».[٤]

تلك اللمسات الهائلة... كلّ لفظ له ثقل الجبال ووقع الرعود... تنزل فإذا كلّ شيء صمت.. سكون، هدوء، وقد كفّت الطبيعة عن الغضب ووصلت القصة إلى ختامها: «وَقيلَ يا أَرْضُ ابْلَعي ماءَكِ وَيا سَماءُ أَقْلِعي وَغيضَ الْماءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ».

إنّك لتشعر بشيء غير بشريّ تماماً في هذه الألفاظ الهائلة الجليلة المنحوتة من صخر صوان، وكأنّ كلّ حرف فيها جبل الألب. لا يمكنك أن تغيّر حرفاً أو تستبدل كلمة بأُخرى، أو تؤلّف جملة مكان جملة، تعطي نفس الإيقاع والنغم والحركة والثقل والدلالة.. وحاول وجرّب لنفسك في هذه العبارة البسيطة ذات الكلمات العشر، أن تغيّر حرفاً أو تستبدل كلمة بكلمة!

ولهذا وقعت العبارة القرآنية على آذان عرب الجاهلية الذين عشقوا الفصاحة والبلاغة وقع الصاعقة!

ولم يكن مستغرباً من جاهلي مثل الوليد بن‌المغيرة، عاش ومات على كفره، أن

---

١ ـ الرعد ١٣: ٩.
٢ ـ الرعد ١٣: ١٣.
٣ ـ الأنعام ٦: ٥٩.
٤ ـ هود ١١: ٤٤.

يذهل، وأن لايستطيع أن يكتم إعجابه بالقرآن، برغم كفره فيقول، وقد اعتبره من كلام محمد:

«والله إنّ لقوله لحلاوة، وإنّ عليه لطلاوة، وإنّ أعلاه لمثمر، وإنّ أسفله لمغدق، وإنّه يعلو ولا يعلى عليه».

ولمّا طلبوا منه أن يسبّه قال: «قولوا ساحر جاء بقول يفرق بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته».

إنّه السحر حتّى على لسان العدوّ الذي يبحث عن كلمة يسبّه بها.

وإذا كانت العبارة القرآنية لاتقع على آذاننا اليوم موقع السحر والعجب والذهول، فالسبب هو التعوّد والأُلفة والمعايشة منذ الطفولة والبلادة والإغراق في عامّيّة مبتذلة أبعدتنا عن أُصول لغتنا. ثمّ أُسلوب الأداء الرتيب المملّ الذي نسمعه من مرتّلين محترفين يكرّرون السور من أوّلها إلى آخرها بنبرة واحدة لايختلف فيها موقف الحزن من موقف الفرح من موقف الوعيد من موقف البشرى من موقف العبرة. نبرة واحدة رتيبة تموت فيها المعاني وتتسطح العبارات.

وبالمثل بعض المشايخ ممّن يقرأ القرآن على سبيل اللعلعة دون أن ينبض شيء في قلبه... ثمّ المناسبات الكثيرة التي يقرأ القرآن فيها روتينيّاً... ثمّ الحياة العصرية التي تعدّدت فيها المشاغل وتوزّع الانتباه وتحجّر القلب وتعقّدت النفوس وصدئت الأرواح.

وبرغم هذا كلّه فإنّ لحظة صفاء ينزع الواحد فيها نفسه من هذه البيئة اللزجة ويرتدّ فيها طفلاً بكراً وترتدّ له نفسه على شفّافيّتها، كفيلة بأن تعيد إليه ذلك الطعم الفريد والنكهة المذهلة والإيقاع المطرب الجميل في القرآن... وكفيلة بأن توقفه مذهولاً من جديد بعد قرابة ألف وأربعمائة سنة من نزول هذه الآيات وكأنّها تنزل عليه لساعتها وتوّها.

اسمع القرآن يصف العلاقة الجنسية بين رجل وامرأة بأُسلوب رفيع وبكلمة رقيقة مهذّبة فريدة لاتجد لها مثيلاً ولا بديلاً في أيّة لغة: «**فَلَمَّا تَغَشَّاها حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً**».[١] هذه

---

١ ـ الأعراف ٧: ١٨٩.

الكلمة «تغشّاها»... تغشّاها رجلها... أن يمتزج الذكر والأُنثى كما يمتزج ظـلّان وكـما يغشى الليل النهار وكما تذوب الألوان بعضها في بعض، هذا اللفظ العجيب الذي يعبّر به القرآن عن التداخل الكامل بين اثنين، هو ذروةٌ في التعبير.

وألفاظ أُخرىٰ تقرؤها في القرآن فتترك في السمع رنيناً وأصداءً وصوراً حينما يقسم الله بالليل والنهار فيقول: «وَاللَّيْلِ إذا عَسْعَسَ. وَالصُّبْحِ إذا تَنَفَّسَ»[١]... هذه الحروف الأربعة «عسعس» هي الليل مصوّراً بكلّ مافيه. «والصُّبح إذا تَنَفَّس» أنّ ضوء الفجر هنا مـرئي ومسموع... أنّك تكاد تسمع زقزقة العصفور وصيحة الديك...

فإذا كانت الآيات نذير الغضب وإعلان العقاب فإنّك تسمع الألفاظ تتفجّر... وترى المعمار القرآني كلّه له جلجلة. اسمع ما يقول الله عن قوم عاد:

«وَأمّا عادٌ فَأُهْلِكُوا بِريحٍ صَرْصَرٍ عاتِيَةٍ. سَخَّرَها عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيالٍ وَثَمانِيَةَ أَيّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فيها صَرْعىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ خاوِيَةٍ».[٢] إنَّ الآيات كلّها تصرّ فيها الريـاح وتسمع فيها اصطفاق الخيام وأعجاز النخل الخاوي وصورة الأرض الخراب.

والصور القرآنية كلّها تجدها مرسومة بهذه اللمسات السـريعة والظـلال المـحكمة والألفاظ التي لها جرس وصوت وصورة.

ولهذه الأسباب مجتمعة كان القرآن كتاباً لايترجم. إنّه قرآن في لغته، أمّا في اللغات الأُخرى فهو شيء آخر غير القرآن... «إنّا أَنْزَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً»[٣] وفي هذا تحديد فاصل.

وكيف يمكن أن تترجم آية مثل: «الرَّحْمانُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوىٰ».[٤] إنّنا لسنا أمام معنى فقط، وإنّما نحن بالدرجة الأُولى أمام معمار.. أمام تكوين وبناء تنبع فيه الموسيقى مـن داخل الكلمات، من قلبها لا من حواشيها، من خصائص اللغة العربية وأسرارها وظلالها وخوافيها..

ولهذا انفردت الآية القرآنية بخاصّيّة عجيبة... إنّها تحدث الخشوع في النفس بمجرّد

---

١ ـ التكوير ٨١: ١٧-١٨.
٢ ـ الحاقة ٦٩: ٦-٧.
٣ ـ يوسف ١٢: ٢.
٤ ـ طه ٢٠: ٥.

أن تلامس الأُذن وقبل أن يتأمّل العقل معانيها.. لأنّها تركيب موسيقي يؤثّر في الوجدان والقلب لتوّه ومن قبل أن يبدأ العقل في العمل، فإذا بدأ العقل يحلّل ويتأمّل فإنّه سوف يكتشف أشياء جديدة وسوف يزداد خشوعاً.. ولكنّها مرحلة ثانية.. قد تحدّث وقد لا تحدّث وقد تكشف لك الآية عن سرّها وقد لا تكشفه.. وقد تؤتى البصيرة التي تفسّر بها معاني القرآن وقد لا تؤتى هذه البصيرة.. ولكنّك دائماً خاشع، لأنّ القرآن يخاطبك أوّلاً كمعمار فريد من الكلام.. بنيان.. فورم.. طراز من الرصف يبهر القلب.. ألقاه عليك الذي خلق اللغة ويعرف سرّها...».[1]

* * *

٣ ـ وللدكتور محمد عبدالله دَرّاز، نظرة مشابهة، يجعل من إعجاز القرآن في قشرته السطحيّة، في جانبي جماله التوقيعي وجماله التنسيقي، إلى جنب محتواه من جلائل أسرار. فإنّه جلّت قدرته أجرى سنّته في نظام هذا الكون أن يغشى جلائل أسراره بأستار زاهية بمتعةٍ وجمالٍ.

قال: إنّك إذا استمعت إلى القارئ المُجوّد يقرأ القرآن يرتّله حقّ ترتيله، نازلاً بنفسه على هوى القرآن، وليس نازلاً بالقرآن على هوى نفسه... ستجد اتساقاً وائتلافاً يسترعي من سمعك ما تسترعيه الموسيقى والشعر، على أنّه ليس بأنغام الموسيقى ولا بأوزان الشعر. وستجد شيئاً آخر لاتجده في الموسيقى ولا في الشعر. ذلك أنّك تسمع القصيدة من الشعر فإذا هي تتشابه أهواؤها وتذهب مذهباً متقارباً. فلا يلبث سمعك أن يمجّها، وطبعك أن يملّها، إذا أُعيدت وكرّرت عليك بتوقيع واحد، بينما أنت من القرآن أبداً في لحن متنوّع متجدّد، تنقل فيه بين أسباب وأوتاد وفواصل[2] على أوضاع مختلفة يأخذ

---

١ ـ القرآن، محاولة لفهم عصري، لمصطفى محمود ـ دار المعارف بمصر ـ سنة ١٩٧٦. فصل (المعمار القرآني)، ص ١٢-١٩.

٢ ـ مصطلحات موسيقية: الحرف المتحرّك يتلوه حرف ساكن يقال لها «سبب خفيف»، والحرفان المتحرّكان يتلوهما ساكن «وتد مجموع»، والحرفان المتحرّكان لايتلوهما ساكن «سبب ثقيل»، والحرفان المتحرّكان يتوسّطهما ساكن «وتد مفروق»، وثلاثة أحرف متحرّكة «فاصلة صغيرة»، وأربعة أحرف متحرّكة يعقبها ساكن «فاصلة كبيرة».

منها كلّ وتر من أوتار قلبك بنصيب سواء، فلا يعروك منه على كثرة ترداده ملالة ولاسأم. بل لا تفتأ تطلب منه المزيد.

هذا الجمال التوقيعي في لغة القرآن لايخفى على أحد ممّن يسمع القرآن، حتّى الذين لايعرفون لغة العرب، فكيف يخفى على العرب أنفسهم؟

إنّ أوّل شيء أحسّته تلك الآذان العربيّة في نظام القرآن هو ذلك النظام الصوتي البديع الذي قسّمت فيه الحركة والسكون تقسيماً منوّعاً يجدّد نشاط السامع لسماعه، ووزّعت في تضاعيفه حروف المدّ والغنّة توزيعاً بالقسط يساعد على ترجيع الصوت به وتهادى النفس فيه آناً بعد آن، إلى أن يصل إلى الفاصلة الأُخرى فيجد عندها راحته العظمى. وهذا النحو من التنظيم الصوتي إن كانت العرب قد عمدت إلى شيء منه في أشعارها فذهبت فيها إلى حدّ الإسراف في الاستهواء ثمّ إلى حدّ الإملال في التكرير، فإنّها ماكانت تعهده قط ولا كان يتهيّأ لها بتلك السهولة في منثور كلامها سواء المرسل والمسجوع، بل كان يقع لها في أجود نثرها عيوب تغضّ من سلاسة تركيبه ولا يمكن معها إجادة ترتيله إلّا بإدخال شيء عليه أو حذف شيء منه.

لاعجب إذاً أن يكون أدنى الألقاب إلى القرآن ـ في خيال العرب ـ أنّه شعر، لأنّها وجدت في توقيعه هزّة لاتجد شيئاً منها إلّا في الشعر. وعجب أن ترجع إلى نفسها فتقول ما هو بشعر؛ لأنّه ـ كما قال الوليد ـ ليس على أعاريض الشعر في رجزه ولا في قصيده. ثمّ لاعجب أن تجعل مردّ هذه الحيرة أخيراً إلىٰ أنّه ضرب من السحر، لأنّه جمع بين طرفي الإطلاق والتقييد في حدّ وسط، فكان له من النثر جلاله وروعته، ومن الشعر جماله ومتعته.

أنت إذا ما اقتربت بأُذنك قليلاً، فطرقت سمعك جواهر حروفه، خارجة من مخارجها الشحيحة، فأجائك منه لذّة أُخرى في نظم تلك الحروف ورصفها وترتيب أوضاعها فيما بينها: هذا ينقر وذاك يصفر. وثالث يهمس، ورابع يجهر، وآخر ينزلق عليه النفس، وآخر يحتبس عنده النفس، وهلمّ جرّا. فترى الجمال اللغوي ماثلاً أمامك في مجموعة مختلفة

مؤتلفة[١] لا كركرة ولا ثرثرة، ولا رخاوة ولا معاظلة، ولا تناكر ولاتنافر. وهكذا تـرى كلاماً ليس بالحضري الفاتر، ولا بالبدوي الخشن، بل تراه وقد امتزجت فيه جزالة البادية وفخامتها برقّة الحاضرة وسلاستها، وقدّر فيه الأمران تقديراً لا يبغي بعضهما على بعض، فإذا مزيجٌ منهما، كأنّما هو عصارة اللغتين وسلالتهما، أو كأنّما هو نقطة الاتّـصال بـين القبائل عندها تلتقي أذواقهم، وعليها تأتلف قلوبهم.

من هذه الخصوصيّة والتي قبلها تتألّف القشرة السطحيّة للجمال القـرآنـي، وليس الشأن في هذا الغلاف إلّا كشأن الأصداف ممّا تحويه من اللآلئ النفسية، فـإنّه ـ جـلّت قدرته ـ أجرى سنّته في نظام هذا العالم أن يغشّي جلائل أسراره بأستار لاتخلو من متعة وجمال، ليكون ذلك من عوامل حفظها وبقائها، بـتنافس المـتنافسين فـيها وحـرصهم عليها... فقد سبقت كلمته أن يصون علينا نفائس العلوم التي أودعها هذا الكتاب الكريم، ومن ثمّ قضت حكمته أن يختار لها صواناً يحبّبها إلى النّاس بعذوبته، ويـغريهم عـليها بطلاوته، ويكون بمنزلة «الحدّاء» يستحثّ النفوس على السير إليها، ويهوّن عليها وعثاء السفر في طلب كمالها، لاجرم اصطفى لها من هذا اللسان العربي المبين ذلك القالب العذب الجميل. ومن أجل ذلك سيبقى صوت القرآن أبداً في أفواه الناس وآذانهم مادامت فيهم حاسّة تذوّق وحاسّة تسمّع، وإن لم يكن لأكثرهم قلوب يفقهون بها حقيقة سرّه، وينفدون بها إلى بعيد غوره «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ».[٢]

هل عرفت أنّ نظم القرآن الكريم يجمع إلى الجمال عزّة وغرابة؟ وهل عرفت أنّ هذا الجمال كان قوّة إلهيّة حُفظ بها القرآن من الفقد والضياع؟

فاعرف الآن أنّ هذه الغرابة كانت قوّة أُخرىٰ قامت بها حجّة القرآن فـي التـحدّي والإعجاز واعتصم بها من أيدي المعارضين والمبدّلين، وأنّ ذلك الجمال ما كان ليكفي

---

١ ـ من وقف على صفات الحروف ومخارجها ازداد بهذا المعنى علماً. سيأتي تفصيل أكثر في كلام الرافعي، كما أشار إليه الزملكاني من ذي قبل فيما مرّ من كلامه الآنف. وهذا جانب دقيق من سرّ إعجاز القرآن التأليفي فتنبّه.

٢ ـ الحجر ١٥: ٩.

وحده في كفّ أيديهم عنه، بل كان أجدر أن يغريهم بـه، ذلك أنّ النّـاس ـكـما يـقول الباقلّاني ـ إذا استحسنوا شيئاً اتبعوه، وتنافسوا في محاكاته بباعث الجبلّة. وكذلك رأينا أصحاب هذه الصناعة يتبع بعضهم بعضاً فيما يستجيدونه من الأسـاليب، وربّـما أدرك اللاحق فيهم شأو السابق أو أربى عليه، كما صنع ابن العميد بأُسلوب الجاحظ، وكما يصنع الكتّاب والخطباء اليوم في اقتداء بعضهم ببعض. وما أساليب الناس على اختلاف طرائقها في النثر والشعر إلّا مناهل مورودة ومسالك معبّدة، تـؤخذ بـالتعلّم، وتـراضّ الألسـنة والأقلام عليها بالمرانة، كسائر الصناعات.

فما الذي منع الناس أن يخضعوا أُسلوب القرآن لألسنتهم وأقلامهم وهم شرع فـي استحسان طريقته، وأنّ أكثرهم الطالبون لإبطال حجته.

ماذاك إلّا أنّ فيه منعة طبيعيّة كفّت ولا تزال تكفّ أيديهم عنه، ولا ريب أنّ أوّل ما تلاقيك هذه المناعة فيما صوّرناه لك من غريب تأليفه في بنيته، وما اتخذه في رصـف حروفه وكلماته وجمله وآياته، من نظام له سمت وحده وطابع خاصّ به، خرج فيه عن هيئة كلّ نظم تعاطاه الناس أو يتعاطونه، فلا جرم لم يجدوا له مثالاً يحاذونه به، ولا سبيلاً يسلكونه إلى تذليل منهجه.

وآية ذلك أنّ أحداً لوحاول أن يدخل عليه شيئاً من كلام الناس، من السابقين منهم أو اللاحقين، من الحكماء أو البلغاء أو النبيّين والمرسلين، لأفسد بذلك مزاجه في فم كلّ قارئ ولجعل نظامه يضطرب في أُذن كلّ سامع، وإذاً لنادىٰ الداخلُ على نفسه بأنّه واغل دخيل، ولنفاه القرآن عن نفسه كما ينفي الكير خبث الحديد. «وإِنَّهُ لَكِتابٌ عَزِيزٌ. لا يَأْتِيهِ الباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاٰ مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ».[1]

وأنت إذ لم يلهك جمال الغطاء عمّا تحته من الكنز الدفين، ولم تحجبك بهجة الأستار عمّا ورائها من السرّ المصون، بل فليت القشرة عن لبّها وكشفت الصدفة عن درّها، فنفذت من هذا النظام اللفظي إلى ذلك النظام المعنوي، تجلّى لك ما هو أبهى وأبهر، ولقيت منه ما

---

١ ـ فصّلت ٤١: ٤١-٤٢.

هو أروع وأبدع.

لانريد أن نحدّثك هاهنا عن معاني القرآن وماحوته من العلوم الخارجة عن متناول البشر، فإنّ لهذا الحديث موضعاً آخر يجيء ـ إن شاء الله تعالى ـ في بحث الإعجاز العلمي وحديثنا الآن كما ترى في شأن الإعجاز اللغوي، وإنّما اللغة الألفاظ.

بيد أنّ هذه الألفاظ ينظر فيها تارة من حيث هي أبنية صوتيّة مادّتها الحروف وصورتها الحركات والسكنات من غير نظر إلى دلالتها... وتارة من حيث هي أداة لتصوير المعاني ونقلها من نفس المتكلّم إلى نفس المخاطب بها، وهذه الناحية لاشك أنّها هي أعظم الناحيتين أثراً في الإعجاز اللغوي، إذ اللغات تتفاضل من حيث هي بيان، أكثر من تفاضلها من حيث هي أجراس وأنغام. والفضيلة البيانية إنّما تعتمد دقّة التصوير وإجادة التعبير عن المعنى كما هو، سواء كان ذلك المعنى حقيقة أو خيالاً، وأن يكون هدى أو ضلالاً، فقد كانت حكايات القرآن لأقوال المبطلين لاتقصر في بلاغتها عن سائر كلامه، لأنّها تصف ما في أنفسهم على أتمّ وجه.

انظر حيث شئت من القرآن الكريم، تجد بياناً قد قدّر على حاجة النفس أحسن تقدير، فلا تحسّ فيه بتخمة الإسراف ولا بمخمصة التقتير، يؤدّي لك من كلّ معنى صورة نقيّة وافية، نقيّة لايشوبها شيء ممّا هو غريب عنها، وافية لايشذّ عنها شيء من عناصرها الأصلية ولواحقها الكماليّة. كلّ ذلك في أوجز لفظ وأنقاه. ففي كلّ جملة منه جهاز من أجهزة المعنى، وفي كلّ كلمة منه عضو من أعضائه، وفي كلّ حرف منه جزء بقدره، وفي أوضاع كلماته من جمله، وأوضاع جمله من آياته سرّ الحياة الذي ينتظم المعنى بأداته. وبالجملة ترى ـ كما يقول الباقلّاني ـ محاسن متوالية وبدائع تترى.

ضع يدك حيث شئت من المصحف، وعُدّ ما أحصته كفُّك من الكلمات عدّاً، ثمّ أحص عدّتها من أبلغ كلام تختاره خارجاً عن الدفّتين، وانظر نسبة ما حواه هذا الكلام من المعاني إلى ذاك، ثمّ انظر كم كلمة تستطيع أن تسقطها أو تبدّلها من هذا الكلام دون إخلال بغرض قائله؟ وأيّ كلمة تستطيع أن تسقطها أو تبدّلها هناك؟ فكتاب الله تعالى

ـكما يقول ابن‌عطية ـ: «لو نزعت منه لفظة ثمّ أُدير لسان العرب على لفظة في أن يوجد أحسن منها لم توجد».

بل هو كما وصفه تعالى «كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ».[١]

وميزة أُخرى تفوق بالقرآن الكريم على سائر الكلام: أنّه خطاب مع العامّة كما هو خطاب مع الخاصّة، وهاتان غايتان متباعدتان عند الناس. إنّك لوخاطبت الأذكياء بالواضح المكشوف الذي تخاطب به الأغبياء، لنزلت بالكلام إلى مستوىً لايرضونه. ولو أنّك خاطبت العامّة باللّمحة والإشارة التي تخاطب بها الخاصّة للجأتهم إلى مالا تطيقه عقولهم، فلا غنى لك ـإن أردت أن تعطي كلتا الطائفتين حقّها كاملاً من بيانك ـ أن تخاطب كلّ واحدة منهما بغير ما تخاطب الأُخرى، كما تخاطب الأطفال بغير ما تخاطب به الرجال... فأمّا أنّ جملة واحدة وتعبيراً واحداً تلقي إلى العلماء والجهلاء، وإلى الأذكياء والأغبياء وإلى السوقة والأُدباء، فيراها كلّ منهم مقدرة على مقياس عقله وعلى وفق حاجته، فذلك مالا تجده ـعلى أتمّه ـ إلّا في القرآن الكريم، فهو قرآن واحد يراه البلغاء أوفى كلام بلطائف التعبير، ويراه العامّة أحسن كلام وأقربه إلى عقولهم لايلتوي على أفهامهم، ولا يحتاجون منه إلى ترجمان وراء وضع اللغة، فهو متعة العامّة والخاصّة على السواء، ميسّر لكلّ من أراد «وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ».[٢]

وميّزات أُخرى أيضاً ذكرهنّ بهذا الشأن، سوف نوافيك بها في فصل قادم عند الكلام عن دلائل الإعجاز، في الحقل الثاني من الكتاب إن شاء الله.

❊ ❊ ❊

٤ ـ وقال الأُستاذ مصطفى صادق الرافعي: وقد كان من عادة العرب أن يتحدّى بعضهم بعضاً في المساجلة والمقارضة بالقصيد والخطب، ثقة منهم بقوّة الطبع، ولأنّ ذلك مذهب من مفاخرهم، يستعلون به ويذيع لهم حسن الذكر وعلوّ الكلمة، وهم مجبولون

---

١ ـ هود ١١: ١.

٢ ـ القمر ٥٤: ١٧. راجع: النبأ العظيم (نظرات جديدة في القرآن)، ص ٩٥-١٠٦.

عليه فطرة. ولهم فيه المواقف والمقامات في أسواقهم ومجامعهم. فتحدّاهم القرآن في آيات كثيرة أن يأتوا بمثله أو بعضه، وسلك إلى ذلك طريقاً كأنّها قضيّة من قضايا المنطق التاريخي، فإنّ حكمة هذا التحدّي وذكره في القرآن، إنّما هي أن يشهد التاريخ في كلّ عصر بعجز العرب عنه وهم الخطباء اللّدّ والفصحاء اللسن، وهم كانوا في العهد الذي لم يكن للغتهم خير منه ولاخير منهم في الطبع والقوّة، فكانوا مظنّة المعارضة والقدرة عليها. حتّى لايجيء بعد ذلك فيما يجيء من الزمن، مولّد أو أعجمي أو كاذب أو منافق أو ذوغفلة، فيزعم أنّ العرب كانوا قادرين على مثله...

أمّا الطريقة التي سلكها إلى ذلك، فهي أنّ التحدّي كان مقصوراً على طلب المعارضة بالمثل، ثمّ قرن التحدّي بالتأنيب والتقريع، ثمّ استفزّهم بعد ذلك جملة واحدة، كما ينفج الرماد الهامد،[1] فقال: «وإنْ كُنْتُمْ في رَيْبٍ مِمّا نَزَّلْنا عَلىٰ عَبْدِنا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وادْعُوا شُهَداٰئَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ فَإنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النّارَ الَّتي وَقُودُها النّاسُ والْحِجارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكافِرينَ»[2] فقطع لهم أنّهم لن يفعلوا، وهي كلمة يستحيل أن تكون إلّا من الله ولا يقولها عربي في العرب أبداً، وقد سمعوها واستقرّت فيهم ودارت على الألسنة، وعرفوا أنّها تنفي عنهم الدهر نفياً وتعجزهم آخر الأبد، فما فعلوا ولا طمعوا قطّ أن يفعلوا. وطارت الآية بعجزهم وأسجلته عليهم ووسمتهم على ألسنتهم...

تأمّل نظم الآية تجد عجباً، فقد بالغ في اهتياجهم واستفزازهم ليثبت أنّ القدرة فيهم على المعارضة كقدرة الميّت على أعمال الحياة، لن تكون ولن تقع! فقال لهم: لن تفعلوا! أي هذا منكم فوق القوّة وفوق الحيلة وفوق الاستعانة وفوق الزمن، ثمّ جعلهم وقوداً، ثمّ قرنهم إلى الحجارة، ثمّ سمّاهم كافرين. فلو أنّ فيهم قوّة بعد ذلك لانفجرت، ولكن الرماد غير النار...

فلمّا رأوا هممهم لاتسموا إلى ذلك، ولا تقارب المطمعة فيه، وقد انقطعت بهم كلّ سبيل إلى المعارضة، بذلوا له السيف، كما يبذل المحرج آخر وسعه «آخر الدواء الكيّ»

---

١ ـ نفجت الريح: هاجت وجاءت بشدّة.

٢ ـ البقرة ٢: ٢٣-٢٤.

وأخطروا بأنفسهم وأموالهم، وانصرفوا عن توهّن حجّته إلى تهوينها على أنفسهم بكلام من الكلام، فقالوا ساحر، وشاعر، ومجنون، ورجل يكتتب أساطير الأوّلين، وإنّما يعلّمه بشر، وأمثال ذلك ممّا أخذت به الحجة عليهم وكان إقراراً منهم بالعجز...[1]

قال: وكان أُسلوب الكلام عند العرب قبيلاً واحداً وجنساً معروفاً، ليس إلّا الحرّ من المنطق والجزل من الخطاب، وإلّا اطّراد النسق وتوثيق السرّ وفصاحة العبارة وحسن ائتلافها... فلمّا ورد عليهم أُسلوب القرآن رأوا ألفاظهم بأعيانها متساوقة فيما ألفوه من طرق الخطاب وألوان المنطق، ليس في ذلك إعنات ولا معاياة، غير أنّهم ورد عليهم من طرق نظمه، ووجوه تركيبه، ونسق حروفه في كلماتها، وكلماته في جملها، ونسق هذه الجمل في جملته، ما أذهلهم عن أنفسهم، من هيبة رائعة وروعة مخوفة، وخوف تقشعّر منه الجلود، حتّى أحسّوا بضعف الفطرة وتخلّف الملكة، ورأى بلغاؤهم أنّه جنس من الكلام غير ماهم فيه فاستيأسوا من حقّ المعارضة، إذ وجدوا من القرآن مايغمر القوّة ويحيل الطبع ويخاذل النفس، مصادمة لاحيلة ولاخدعة... ولهذا انقطعوا عن المعارضة...[2]

ثمّ أخذ في بيان وجه هذا الإعجاز وسرّه الكامن وراء جمال لفظه وروعة بيانه، قال: ذلك بعض ماتهيّأ لنا من القول في الجهات التي اختصّ بها أُسلوب القرآن، فكانت أسباباً لانقطاع العرب دونه وانخذالهم عنه. وتلك أسباب لايمكن أن يكون شيء منها في كلام بلغاء الناس من أهل هذه اللغة، لأنّها خارجة عن قوى العقول وجماع الطبائع، ولا أثر لها في نفس كلّ بليغ إلّا استشعار العجز عنها والوقوف من دونها... وإنّما تلك الجهات صفات من نظم القرآن وطريقة تركيبه، فنحن الآن قائلون في سرّ الإعجاز الذي قامت عليه هذه الطريقة وانفرد به ذلك النظم، وهو سرّ لاندّعي أنّنا نكشفه أو نستخلصه أو ننتظم أُسلوبه، وإنّما جهدنا أن نومئ إليه من ناحية ونعيّن بعض أوصافه من ناحية، فإنّ هذا القرآن هو ضمير الحياة، وهو من اللغة كالروح الإلهيّة التي تستقرّ في مواهب الإنسان فتضمن لآثاره

---

١ ـ إعجاز القرآن للرافعي، ص ١٦٩-١٧٠.

٢ ـ المصدر، ص ١٨٨-١٨٩.

الخلود...

... والكلام بالطبع يتركّب من ثلاثة: حروف هي من الأصوات، وكلمات هي من الحروف، وجمل هي من الكلم. وقد رأينا سرّ الإعجاز في نظم القرآن يتناول هذه كلّها... ولهذا النظم طريقة خاصّة اتّبعها القرآن الكريم كانت غريبة على العرب وفي نفس الوقت رائعة تستأنس إليها النفوس! إنّ طريقة النظم التي اتّسقت بها ألفاظ القرآن، وتألّفت لها حروف هذه الألفاظ إنّما هي طريقة يتوخّى بها إلى أنواع من المنطق وصفات من اللهجة لم تكن على هذا الوجه من كلام العرب، ولكنّها ظهرت فيه أوّل شيء على لسان النبيّ ﷺ فجعلت المسامع لاتنبو عن شيء من القرآن، ولا تلوي من دونه حجاب القلب، حتّى لم يكن لمن سمعه بدّ من الاسترسال إليه والتوفّر على الإصغاء، لايستمهله أمر من دونه وإن كان أمر العادة، ولا يستنسئه الشيطان وإن كانت طاعته عندهم عبادة، فإنّه إنّما يسمع ضرباً خالصاً من «الموسيقى اللغويّة» في انسجامه واطّراد نسقه واتّزانه على أجزاء النفس مقطعاً مقطعاً ونبرة نبرة كأنّها توقّعه توقيعاً ولا تتلوه تلاوة.

وهذا نوع من التأليف لم يكن منه في منطق أبلغ البلغاء وأفصح الفصحاء إلّا الجمل القليلة التي إنّما تكون روعتها وصيغتها وأوزان توقيعها من اضطراب النفس الحاصل في بعض مقامات الحماسة أو الفخر أو الغزل أو نحوها فتنتزي بكلام تلفظه العاطفة أحياناً.

وكان العرب يترسّلون أو يحذمون[١] في منطقهم كيفما اتفق لهم لايراعون أكثر من تكييف الصوت، دون تكييف الحروف اللّهمّ إلّا بتعمّل يأتونه على نمط الموسيقى وهي غاية ماعرفوه من نظم الكلام.

فلمّا قرئ عليهم القرآن، رأوا حروفه في كلماته، وكلماته في جمله، ألحاناً لغويّة رائعة، كأنّها لائتلافها وتناسبها قطعة واحدة، قراءتها هي توقيعها ـ(وكلّ الذين يدركون أسرار الموسيقى وفلسفتها النفسيّة ـ اليوم ـ لايرون في الفنّ العربي بجملته شيئاً يعدل هذا التناسب الذي طبيعي في كلمات القرآن وأصوات حروفها، وما منهم من يستطيع أن يغتمز

١ ـ الحذم في القراءة: الإسراع.

في ذلك حرفاً واحداً، ويعلو القرآن على الموسيقى، أنّه مع هذه الخاصّيّة العجيبة ليس من الموسيقى) ـ والعرب لم يفتهم هذا المعنى، وأنّه أمر لاقبل لهم به، وكان ذلك أبين في عجزهم، حتّى أنّ من عارضه منهم، كمسيلمة، جنح في خرافاته إلى ماحسبه نظماً موسيقياً أو باباً منه وطوى عمّا وراء ذلك من التصرّف في اللغة وأساليبها ومحاسنها ودقائق التركيب البياني، كأنّه فطن إلى أنّ الصدمة الأُولى للنفس العربيّة، وإنّما هي في أوزان الكلمات وأجراس الحروف دون ماعداها، وليس يتّفق ذلك في شيء من كلام العرب إلّا أن يكون وزناً من الشعر أو السجع.

... وأنت تتبيّن ذلك إذا أنشأت ترتّل قطعة من نثر فصحاء العرب أو غيرهم على طريقة التلاوة في القرآن، ممّا تراعى فيه أحكام القراءة وطرق الأداء، فإنّك لابدّ ظاهر بنفسك على النقص في كلام البلغاء وانحطاطه في ذلك عن مرتبة القرآن بل ترى كأنّك بهذا التحسين قد نكّرت الكلام وغيّرته، فأخرجته من صفة الفصاحة، وجرّدته من زينة الأُسلوب... لأنّك تزنه على أوزان لم يتّسق عليها..

... وحسبك بهذا اعتباراً في إعجاز النظم الموسيقي في القرآن، وأنّه ممّا لايتعلّق به أحد، ولا يتّفق على ذلك الوجه الذي هو فيه إلّا فيه، لترتيب حروفه باعتبار من أصواتها ومخارجها ومناسبة بعض ذلك لبعضه مناسبة طبيعيّة في الهمس والجهر، والشدّة والرخاوة، والتفخيم والترقيق، والتفشّي والتكرير، وغير ذلك ممّا جاء في صفات الحروف.

... ولقد كان هذا النظم عينه هو الذي صفّى طباع البلغاء بعد الإسلام، وتولّى تربية الذوق الموسيقي اللغوي فيهم، حتّى كان لهم من محاسن التركيب في أساليبهم ـ ممّا يرجع إلى تساوق النظم واستواء التأليف ـ مالم يكن مثله للعرب من قبلهم، وحتّى خرجوا عن طرق العرب في السجع والترسّل، على جفاء كان فيهما، إلى سجع وترسّل تتعرّف في نظمهما آثار الوزن والتلحين...

وليس يخفى أنّ مادّة الصوت هي مظهر الانفعال النفسي، وأنّ هذا الانفعال بطبيعته

إنّما هو سبب في تنويع الصوت، بما يخرجه فيه مدّاً أو غنّةً أو ليناً أو شدّة، وبما يهيّئ له من الحركات المختلفة في اضطرابه وتتابعه على مقادير تناسب ما في النفس من اُصولها. ثمّ هو يجعل الصوت إلى الإيجاز والاجتماع، أو الإطناب والبسط، بمقدار ما يكسبه من الحدوة والارتفاع والاهتزاز وبُعد المدى ونحوها، ممّا هو بلاغة الصوت في لغة الموسيقى.

... وهذه هي طريقة الاستهواء الصوتي في اللغة، وأثرها طبيعي في كلّ نفس، فهي تشبه في القرآن الكريم أن تكون صوت إعجازه الذي يخاطب به كلّ نفس تفهمه، وكلّ نفس لاتفهمه، ثمّ لا يجد من النفوس على أيّ حال إلّا الإقرار والاستجابة... وقد انفرد بهذا الوجه للعجز، فتألّفت كلماته من حروف لو سقط واحد منها أو اُبدل بغيره أو اُقحم معه حرف آخر، لكان ذلك خللاً بيّناً، أو ضعفاً ظاهراً في نسق الوزن وجرس النغمة، وفي حسّ السمع وذوق اللسان، وفي انسجام العبارة وبراعة المخرج وتساند الحروف وإفضاء بعضها إلى بعض، ولرأيت لذلك هجنة في السمع...

... وممّا انفرد به القرآن على سائر الكلام، أنّه لايخلق على كثرة الردّ وطول التكرار، ولا تملّ منه الإعادة، وكلّما أخذت فيه على وجهه ولم تخل بأدائه، رأيته غضّاً طريّاً وجديداً مونقاً وصادفت من نفسك نشاطاً مستأنفاً وحسّاً موفوراً... وهذا لعَمرُ الله أمر يوسّع فكر العاقل ويملأ صدر المفكّر، ولا نرى جهة تعليله ولا نصحّح منه تفسيراً إلّا ما قدّمنا من إعجاز النظم بخصائصه الموسيقيّة، وتساوق هذه الحروف على اُصول مضبوطة من بلاغة النغم، بالهمس والجهر والقلقلة والصفير والمدّ والغنّة... على اختلاف أنحائها بسطاً وإيجازاً وابتداءً وردّاً وإفراداً وتكريراً...

... والكلمة في حقيقة وصفها إنّما هي صوت للنفس، لأنّها تلبّس قطعة من المعنى فتختصّ به على مناسبةٍ لحظتها النفس فيها حين فصّلت تركيب الكلام.

وصوت النفس أوّل الأصوات الثلاثة التي لابدّ منها في تركيب النسق البليغ، حتّى يستجمع الكلام بها أسباب الاتّصال بين الألفاظ ومعانيها، وبين هذه المعاني وصورها

النفسيّة والأصوات الثلاثة هي:

١ ـ صوت النفس، وهو الصوت الموسيقي الذي يكون من تأليف النغم بـالحروف ومخارجها وحركاتها ومواقع ذلك من تركيب الكلام ونظمه...

٢ ـ صوت العقل، وهو الصوت المعنوي الذي يكون من لطائف التركيب في جملة الكلام ومن الوجوه البيانيّة التي يداور بها المعنى في أيّ جهة انتحى إليها.

٣ ـ صوت الحسّ، وهو أبلغهنّ شأناً، لايكون إلّا من دقّة التصوّر المعنوي والإبداع في تلوين الخطاب، ومجاذبة النفس مرّة وموادعتها اُخرى.

وعلى مقدار مايكون في الكلام البليغ من هذا الصوت، يكون فيه من روح البلاغة، بل صار كأنّه روح للكلام ذاته. يبادرك الروعة في كلّ جزء منه كما تبادرك الحياة في كلّ حركة للجسم الحيّ، كأنّه تمثيل بألفاظ لخلقة النفس، في دقّة التركيب وإعجاز الصنعة...

... ولو تأمّلت هذا المعنى فضلاً من التأمّل، وأحسنت في اعتباره على ذلك الوجه، لرأيته روح الإعجاز في هذا القرآن الكريم...

وأعجب شيء في أمر هذا الحسّ الذي يتمثّل في كلمات القرآن، أنّه لايسرف على النفس ولا يستفرغ مجهودها، بل هو مقتصد في كلّ أنواع التأثير عليها، فلا تضيق به ولا تنفر منه ولا يتخوّنها الملال، وهو يسوّغها من لذّتها ويرفّه عليها بأساليبه وطرقه في النظم والبيان.

... ولو تدبّرت ألفاظ القرآن في نظمها، لرأيت حركاتها الصرفيّة واللغويّة تجري في الوضع والتركيب مجرى الحروف أنفسها فيما هي له من أمر الفصاحة فيهيّئ بعضها لبعض، ويساند بعضاً، ولن تجدها إلّا مؤتلفة مع أصوات الحروف، مساوقة لها في النظم الموسيقي. حتّى أنّ الكلمة ربّما كانت ثقيلة في نفسها لسبب من أسباب الثقل أيّها كان، فلا تعذب ولا تساغ و ربّما كانت أوكس النصيبين في حظّ الكلام من الحرف والحركة، فإذا هي استعملت في القرآن رأيت لها شأناً عجيباً، ورأيت أصوات الأحرف والحركات التي قبلها قد امتهدت لها طريقاً في اللسان، واكتنفتها بضروب من النغم الموسيقي، حتّى إذا

خرجت فيه كانت أعذب شيء وأرقّه، وجاءت متمكّنة في موضعها، وكانت لهذا الموضع أولى الحركات بالخفّة والروعة.

من ذلك لفظ «النذر» جمع نذير، فإنّ الضمّة ثقيلة فيها لتواليها على النون والذال معاً فضلاً عن جسأة هذا الحرف ونبوّه في اللسان، وخاصّة إذا جاءت فاصلة للكلام. فكلّ ذلك ممّا يكشف عنه ويفصح عن موضع الثقل فيه، ولكنّه جاء في القرآن على العكس وانتفى من طبيعته في قوله تعالى: «وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنا فَتَمارَوْا بِالنُّذُرِ».[1] فتأمّل هذا التركيب وأنعم ثمّ أنعم على تأمّله، وتذوّق مواقع الحروف واجرِ حركاتها في حسّ السمع وتأمّل مواضع القلقلة في دال «لقد»، وفي الطاء من «بطشتنا»، وهذه الفتحات المتوالية فيما وراء الطاء إلى واو «تماروا»، مع الفصل بالمدّ، ثمّ اعجب لهذه الغنّة التي سبقت الطاء في نون «أنذرهم» وفي ميمها، وللغنّة الأُخرى التي سبقت الذال في «النّذر».

وما من حرف أو حركة في الآية إلّا وأنت مصيب من كلّ ذلك عجباً في موقعه والقصد به.

قال: إنّما تلك طريقةٌ في النظم قد انفرد به القرآن، وليس من بليغ يعرف هذا الباب إلّا وهو يتحاشى أن يلمّ به من تلك الجهة أو يجعل طريقه عليها، فإن اتفق له شيء منه كان إلهاماً ووحياً، لاتقتحم عليه الصناعة ولا يتيسّر له الطبع بالفكر والنظر... فلا يتهيّأ لأحد من البلغاء في عصور العربيّة كلّها من معارض الكلام وألفاظه، ما يتصرّف به هذا التصرّف في طائفة أو طوائف من كلامه، على أن يضرب بلسانه ضرباً موسيقياً، وينظم نظماً مطّرداً. فهذا إن أمكن أن يكون في كلام ذي ألفاظ، فليس يستقيم في ألفاظ ذات معان، فهو لغو من إحدى الجهتين. ولو أنّ ذلك ممكن لقد كان اتفق في عصر خلا من ثلاثة عشر قرناً، ونحن اليوم في القرن الرابع عشر من تاريخ تلك المعجزة.

... ثمّ أخذ في ضرب أمثلة من ألفاظ وكلمات كانت غريبة وثقيلة، لكنّها جاءت في القرآن في مواقعها الخاصّة أليفة وخفيفة في أبدع ما يكون وأروع ما يتصوّر، «كِتابٌ

---

[1] ـ القمر ٥٤: ٣٦.

أُحْكِمَتْ آياتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَدُنْ حَكيمٍ خَبيرٍ».[١] وسنذكر تفاصيلها في مجاله الآتي إن شاء الله.

❋ ❋ ❋

٥ ـ وللأُستاذ محمد فريد وجدي كلام في وجه إعجاز القرآن، يشبه بعض الشيء من كلام الرافعي فيما نقلناه آنفاً «فإنّ هذا القرآن هو ضمير الحياة، وهو من اللغة كالروح الإلهية التي تستقرّ في مواهب الإنسان فتضمن لآثاره الخلود...»[٢] فقد أخذ الأُستاذ وجدي هذا المعنى وشرحه شرحاً، قال:

حصر المتكلّمون في إعجاز القرآن كلّ عنايتهم في بيان ذلك الإعجاز من جهة بلاغته، وإنّنا وإن كنّا نعتقد أنّ القرآن قد بلغ الغاية من هذه الوجهة، إلّا أنّنا نرى أنّها ليست هي الناحية الوحيدة لإعجازه، بل ولا هي أكثر نواحي إعجازه سلطاناً على النفس، فإنّ للبلاغة على الشعور الإنساني تسلّطاً محدوداً لايتعدّى حدّ الإعجاب بالكلام والإقبال عليه، ثمّ يأخذ هذا الإعجاب والإقبال في الضعف شيئاً فشيئاً بتكرار سماعه حتّى تستأنس به النفس فلا يعود يحدث فيها ما كان يحدثه في مبدأ تحوارده عليها. وليس هذا شأن القرآن، فإنّه قد ثبت أنّ تكرار تلاوته تزيده تأثيراً. ولكنّه معجز لتسلّطه على النفس والمدارك، فوجب على الناظر في ذلك أن يبحث عن وجه إعجازه في مجال آخر يكفي لتعليل ذلك السلطان البعيد المدى الذي كان ولا يزال للقرآن على عقول الآخذين به!

العلّة في نظرنا واضحة لاتحتاج لكثير تأمّل، وهي أنّ القرآن روح من أمر الله، «وَكَذٰلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ روحاً مِنْ أَمْرِنَا»،[٣] فهو يؤثّر بهذا الاعتبار تأثير الروح في الأجساد فيحرّكها ويتسلّط على أهوائها. وأمّا تأثير الكلام في الشعور فلا يتعدّى سلطانه حدّ إطرابها والحصول على إعجابها.

فقوله تعالى: «وكذٰلِكَ أوْحَيْنا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أمْرِنا» يكفي وحده في إرشادنا إلى جهة

---

١ ـ هود ١١: ١. راجع: إعجاز القرآن للرافعي، ص ٢٠٩-٢٩٩.

٢ ـ إعجاز القرآن للرافعي، ص ٢٠٩.

٣ ـ الشورىٰ ٤٢: ٥٢.

إعجاز القرآن، وقصور الإنس والجنّ عن الإتيان بمثله، وبقائه إلى اليوم معجزة خالدة تتلألأ في نورها الإلهي، وتتألّق في جمالها القدسيّ. ذلك لمّا كان القرآن روح من أمر الله، فلا جرم كانت له روحانيّة خاصّة، هي عندنا جهة إعجازه والسبب الأكبر لانقطاع الإنس والجنّ عن محاكاة أقصر سورة من سوره، وارتعاد فرائص الصناديد والجبابرة عند سماعه، وناهيك بروحانيّة الكلام الإلهي!

نعم أنّ جهة إعجاز هذا الكتاب الإلهي الأقدس هي تلك الروحانيّة العالية الّتي قلبت شكل العالم، وأكسبت تلك الطائفة القليلة العدد خلافة الله في أرضه، وأرغمت لهم معاطس الجبابرة والقساورة، ووطأت لهم عروش الأكاسرة والقياصرة... «يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلىٰ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ».[١]

لامشاحة في أنّ القرآن فصيح قد أخرس بفصاحته فرسان البلاغة وقادة الخطابة وسادات القوافي وملوك البيان. وهو حكيم بهر سماسرة الحكمة والفلسفة وأدهش أساطين القانون والشريعة وحيّر أراكين النظام والدستور. وهو حقّ ألزم كلّ عال الحجة ودلّ كلّ باحث على الحجّة ولم يغادر صغيرة ولا كبيرة إلّا أحصاها. وهو هدىً ورحمة ونور وشفاء لما في الصدور.

كلّ هذه صفات جليلة تؤثر على العقل والشعور والعواطف والميول، فتتحكّم فيها تحكّم الملك في ملكه ولكنّه فوق ذلك كلّه (روح من أمر الله) تصل من روح الإنسان إلى حيث لاتصل إليه أشعة البلاغة والبيان، ولا سيالات الحكمة والعرفان، وتسري من صميم معناه إلى حيث لايحوم حوله فكر ولا خاطر، ولا يتخيّله خيال شاعر.

هذه الروحانيّة تنفذ إلى سرّ سريرة الإنسان وسويداء ضميره، وتستولي منها على أصل حياته، ومهبّ عواطفه وإحساساته، وتخلقه خلقاً جديداً وتصوّره بصورة لايتخيّلها ولو قيلت له لما أدركها. ألا ترى كيف فعلت بأُولئك العرب الذين لبثوا اُلوفاً من السنين على حالة واحدة لا يتحوّلون عنها ولا يسأمون منها، فنفختهم بروح عالية قاموا

---

١ ـ غافر ٤٠: ١٥.

بواسطتها يحمّلون الملوك سلطانهم حتّى دانت لهم المعمورة من أقصاها إلى أقصاها...!

أيّ حجّة أكبر من هذه الحجّة على أنّ القرآن روح إلهيّ وأمر سماويّ، وأيّ وجه من وجوه الإعجاز بعد مشاهدة هذا الأثر الفخم أوقع في النفس وأنفى للشك وأولى بالقبول من وجه روحانيّته؟

إنّ للقرآن فوق البلاغة والعذوبة والحكمة والبيان، روحانية يدركها من لاحظّ له في فهم الكلام وتقدير الحكمة وإدراك البلاغة، حتّى الطفل والعاميّ يعتريهما تهيّب عند تلاوته، ويكادان يفرّقان بين ما هو قرآن وماليس بقرآن، فيما لو أراد التالي أن يغشّهما. وهذا يظهر جليّاً عندما تكون آية من آياته جاءت على سبيل الاستشهاد والاقتباس، فإنّها تتجلّى لك من بين السطور وخلال التراكيب كالشمس في رائعة النهار...

قال: هذا رأيُنا في جهة إعجاز القرآن، وهو فيما نعلم يحلّ مشاكل هذا البحث، ويمكن الاستدلال عليه بالحسّ والواقع، أمّا ما أولع به الناس من أنّه لبلاغته وتجاوزه حدود الإمكان، فلم نقف له على أثر في ذات القرآن، ولم يأت ذكره في آياته ممّا جاء وصف القرآن فيها، وليس فيها مايشير إلى جهة بلاغته اللفظية، التي هي من الصنعات الثانية التي لايصحّ أن يمتدح بها الله في كتابه...[1]

❊ ❊ ❊

٦ ـ وللشيخ محمد عبده رأي لم يتعدّ فيه رأي القدماء، وهو أشبه بالاستدلال العقلي الكلامي على نمط دلائل المتكلّمين، قال في رسالة التوحيد: جاء الخبر المتواتر أنّ النبيّ ﷺ نشأ أُمّيّاً، كما تواترت أخبار الأُمم على أنّه جاء بكتاب قال أنّه أنزله الله عليه. كتاب حوى من أخبار الأُمم الماضية مافيه معتبر للأجيال الحاضرة والمستقبلة. نقّب على الصحيح منها وغادر الأباطيل التي لحقته الأوهام بها... وشرّع للنّاس أحكاماً تنطبق على مصالحهم... وقام بها العدل وانتظم بها شمل الجماعة... ففاقت بذلك جميع الشرائع الوضعيّة... وجاء بحكم ومواعظ وآداب تخشع لها القلوب وتهشّ لاستقبالها العقول.

---

١ ـ دائرة معارف القرن العشرين، ج ٧، ص ٦٧٧ – ٦٨٠، مادّة قرأ.

نزل القرآن في عصر كان أرقى الأعصار عند العرب، وأغرزها مادّة في الفصاحة، وبذلك تواترت الأخبار، كما تواترت بمبلغ حرصهم على معارضة النبيﷺ والتماسهم الوسائل قريبها وبعيدها لإبطال دعواه، وقد تحدّاهم لو يأتوا بمثل أقصر سورة من القرآن لو استطاعوا فما استطاعوا، فمع طول زمن التحدّي ولجاج القوم، أُصيبوا بالعجز ورجعوا بالخيبة وحقّت للكتاب العزيز الكلمة العليا...

أليس في ظهور مثل هذا الكتاب على لسان أُمّي، أعظم معجزة وأدلّ برهان على أنّه كلام الله وليس من صنع البشر؟

هذا وقد جاء في القرآن من أخبار الغيب ما صدّقته حوادث الكون... ومنه ماجاء في تحدّي العرب مع سعة بلادهم وتباعد أطرافها، ولم يسبق لهﷺ السياحة في نواحيها للتعرّف على رجالها... فهذا القضاء الحاسم (ولن تفعلوا) ليس قضاء بشريّاً في العادة... إذ لايمكن أن يصدر من إنسان عاقل مثل هذا التحدّي بأن لايوجد على وجه الأرض من يكون على مثيله، سوى أنّه كلام صادر من الله العليم الخبير.[١]

❊ ❊ ❊

٧ ـ ولعلّامة الأُدباء وفقيه الحكماء، الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء (ت ١٣٧٣) كلام تحقيقي عميق، وبيان تفصيلي رشيق حول إعجاز القرآن، أتى به على أُسلوبه الفنّي البديع وسبك إنشائه الأدبي الرفيع حبى به موسوعته القيّمة (الدين والإسلام) التي وضعها لترصيص قواعد الدعوة وترصيف مباني الشريعة، في ضوء الحكمة العالية وهدى العقل الرشيد. فكان من الحريّ أن نقتطف من رياحين حدائقه الغنّاء أزهاراً، ونجتني من رياض حقوله الخصباء أنوارا:

قال ﵀: قد ثبتت التواترات القطعيّة، وقامت الضرورة البتّيّة، أنّ صاحب الشريعة الإسلامية، محمد بن عبداللهﷺ قد ادّعى النبوّة، وتحدّى بالمعجزة وطلب المعارضة، وأتى بما هو الشائع على أهل زمانه، والمتنافس عليه عند قومه، وكانت بلدته أخصب

---

١ ـ عن رسالة التوحيد بقامه، ص ١١٤-١١٧ بتلخيص.

البلاد لإيناع تلك الثمرة المنضحة، وتربية أساطين تلك الصنعة الرائجة... ولمّا دعاهم إلى تلك الدعوة المقدّسة، طغوا وبغوا عليه، وشقّ عليهم ذلك حتّى تخاوصوا بحماليق الحنق إليه.[١] وما تحدّاهم إلّا بالمألوف لهم، المأخوذ عنهم والمسوق إليهم، ولم يزل يلحّ عليهم بأنحاء شتّى وعبارات متفاوتة، حتى اعترف بالعجز عريفهم، وتلدّد تليدهم وطريفهم، وصقع مصاقعهم،[٢] وعاد لبيدهم بليداً، وشبيبتهم وليداً، وقائمهم حصيداً، وعالمهم أباجهل، وسهيلهم على السهل، وعتبتهم أعتاهم، وأبولهبهم أخمدهم وأخزاهم، وعبد شمسهم آفلا، ونابغتهم خاملا، وحيّ أخطبهم ميّتا، وهشامهم مخزوما، ومخزومهم مهشوما، وسراتهم أُسارى وكبّارهم من الصّغار صغارا...

ثمّ قنع منهم بعشر سور من سوره المنزلة، ثمّ تنزّل معهم ـ وهو الرفيع ـ إلى أدنى منزلة، فقنع منهم بأن يأتوا بعشر آيات، رضي منهم بسورة واحدة... فالتجأوا إلى مفاوضة الحتوف، عن معارضة الحروف، وعقلوا الألسنة والعقول، واعتقلوا الأسنّة والنصول. ورضوا بكلم الجراح، عن الكلم الفصاح. وفرّوا إلى سعة آجالهم من ضيق مجالهم... فما انجلت غبرة الضلال عن جبهة الحقّ إلّا وهم بأسرهم أسرى أو قتلى، إلى أن عادت كلمة الله هي العليا، وكلمة أعدائه هي السفلى...

وهكذا ماتصدّى في الأزمنة المتأخّرة لمعارضته، إلّا مأفون الرأي، مايق العقل.[٣] ومن الأعاجيب أنّك ترى الرجل في جميع المقامات فارس يليلها[٤] حتّى إذا تصدّى ـ من ضعف في دينه، أو خور في عود يقينه، أو زندقة في هواه، أو وصم عهار في عصاه ـ إلى مقاومة ذلك المقام ومعارضة معجز ذلك النظام، أفحم وتبلّد، وأبكم وتلدّد[٥] هذا مسيلمة وسجاح من الأوّلين... والمتنبّي والمعرّي وأضرابهم من الآخرين... كلّ يزعم أنّه أتى بما

---

١ ـ التخاوص: النظر الشزر. والحماقة: التحديق والنظر بشدّة.

٢ ـ التلدّد: التحيّر. التليّد: الأصيل. والطريف: الحديث الشرف. صقع: صرع. والمصقع البليغ في خطابته.

٣ ـ أفن: ضعف رأيه فهو أفين ومأفون. وماق الرجل: حمق في غباوة.

٤ ـ يليل: اسم جبل معروف بالبادية، وموضع قرب وادي الصفراء من أعمال المدينة. وإليه نسب عمرو بن عبد ود: فارس يليل.

٥ ـ تلدّد: تلجلج وأفحم عن التكلّم.

يضاهي القرآن، فهل تجد فيه إلّا مايضحك الصبيان... «ما قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزيزٌ...»...[١]

ثمّ أخذ في بيان أوجه إعجازه:

أوّلاً: ارتفاع فصاحته واعتلاء بلاغته، بمالا يدانيه أيّ كلام بشريّ على الإطلاق... وضرب ﷺ لذلك أمثلة من جلائل آياته العظام وأطنب بما بلغ الغاية القصوى.

ثانياً: صورة نظمه العجيب وأُسلوبه الغريب المخالف لأساليب كلام العرب ومناهج نظمها ونثرها، ولم يوجد قبله ولابعده نظير، ولا استطاع أحد مماثلة شيء منه، بل حارت فيه عقولهم، وتدلّهت دونه أحلامهم، ولم يهتدوا إلى مثله في جنس كلامهم من نثر أو نظم أو سجع أو رجز أو شعر... هكذا اعترف له أفذاذ العرب وفصحاؤهم الأوّلون...

ثالثاً: ما انطوى عليه من الإخبار بالمغيّبات ممّا لم يكن فكان كما قال، ووقع كما أخبر، في آيات كثيرة معروفة...

رابعاً: ما أنبأ من أخبار القرون السالفة والأُمم البائدة والشرائع الداثرة، ممّا كان لايعلم به إلّا الفذّ من أحبار أهل الكتاب في صورة ناقصة ومشوّهة، فأتى به القرآن على وجهه الناصع المضيء بما يشهد صدقه وصحّته كلّ عالم وجاهل. في حين أنّه ﷺ لم يقرأ ولم يكتب، ولم يعهد دراسته لأحوال الماضين.

وأخيراً أتمّ كلامه ببيان البلاغة وشأنها الرفيع وشأوها البعيد، وأنّ العرب مهما أُوتوا من إحكام مبانيها وإتقان رواسيها، فإنّ القرآن هو الذي روّج من هذا الفنّ وأشاد من منزلته بل وعرّف البلغاء البلاغة والكتابة والبيان. وبذلك أسدى إلى العربيّة جسيم نعمه، وأسبغ عليها عميم رحمة وفضل وكرامة.[٢]

وفي تعقيب كلامه تعرّض لشبهات هي نزعات بل نزغات، سوف نعرضها في مجالها المناسب الآتي إن شاء الله.

❊ ❊ ❊

---

١ ـ الحج ٢٢: ٧٤.

٢ ـ الدين والإسلام، ج ٢، ص ٥٣-١٢٧.

٨ ـ وللحجّة البلاغي الشيخ محمدجواد صاحب تفسير الآلاء، اختيار مذهب السلف في وجه الإعجاز: فقد خصّ العرب بجانب بيانه السحري العجيب في مثل نظمه البديع وأُسلوبه الغريب وإن اشتركوا مع سائر الناس بوجوه أُخرى غيره:

١ ـ منها: سرده حوادث تاريخية ماضية كانت معروفة في كتب السالفين بوجه محرّف، فجاء بها القرآن نقيّة لامعة، ممّا لايمكن الإتيان به من مثل النبيّ الأُمّيّ العربيّ. وسنذكر نماذج منها عند مقارنة القرآن مع كتب العهدين.

٢ ـ ومنها: احتجاجاته المضيئة وبراهينه الحكيمة، التي كشفت النقاب عن حقائق ومعارف كانت خفيّة ومستورة لذلك العهد، حجبتها ظلمات الضلال المتراكمة في تلك العصور المظلمة، تلك الظلمات التي استولت على أرجاء العالم.

٣ ـ ومنها: استقامة بيانه وسلامته من النقض والاختلاف: «إِنَّ هَذا الْقُرْآن يَهْدي لِلَّتي هِيَ أَقْوَم».[1] «أَفَلاٰ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآن وَلَوْ كٰانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فيهِ اخْتِلاٰفاً كَثيراً».[2]

فقد خاض القرآن في فنون المعارف وشتّى العلوم ممّا يتخصّص به الممتازون من علماء البشر، فقد طرق أبواب الفلسفة والسياسة والإدارة وأصلح من علم اللاهوت والأخلاق والسنن والآداب، وأتى بالتشريع المدني والنظام الإداري والفنّ الحربي، وأرشد وذكّر ووعظ، وهدّد وأنذر، في أحسن أُسلوب وأقوم منهج وأبلغ بيان، لم تشنه زلّة ولم تنقضه عثرة ولا وهن ولا اضطرب ولا سقط في حجّة وبرهان. الأمر الذي لايمكن صدوره من مثل إنسان عاش في تلك البيئة الجاهلة البعيدة عن معالم الحضارة وأُسس الثقافات.

٤ ـ ومنها: إعجازه من وجهة التشريع العادل ونظام المدنية الراقية، ممّا يترفّع بكثير عن مقدرة البشر الفكريّة والعقليّة ذلك العهد. ولاسيّما إذا قارنّاه مع شرائع كانت دارجة في أوساط البشر المتديّنة أو المتمدّنة فيما زعموا.

٥ ـ ومنها: استقصاؤه للأخلاق الفاضلة ومبادئ الآداب الكريمة، ممّا كانت تنبو عن

---

١ ـ الإسراء ١٧: ٩.

٢ ـ النساء ٤: ٨٢.

مثل تلك العادات والرسوم التي كانت سائدة إلى ذلك العهد.

٦ ـ ومنها: إخباراته الغيبية وإرهاصاته بتحكيم هذا الدين وإعلاء كلمة الله في الأرض في صراحة ويقين...

قال: هذا شيء قليل من البيان في الوجهات المذكورة، وهَبْ أنّ الوساوس تقتحم على الحقائق وتخالط الأذهان بواهيات الشكوك، ولكن الزبد يذهب جفاء فأمّا ماينفع الناس فيمكث في الأرض... وهل يسوغ لذي شعور أن يختلج في ذهنه الشك ـ بعد هذا ـ في إعجاز القرآن، وهو الكتاب الجامع بفضيلته لهذه الكرامات الباهرة وخروجه عن طوق البشر مطلقا، وخصوصاً في ذلك العصر وفي تلك الأحوال، وهل يسمح عقله إلّا بأن يقول: «إِنْ هُوَ إِلّاٰ وَحْيٌ يُوحىٰ».[١]

* * *

٩ ـ وهكذا ذهب سيّدنا الطباطبائي مذهب شيخه البلاغي في وجوه الإعجاز، قال: وقع التحدّي الصريح بوجه عامّ، ولم يخصّ جانب بلاغته فحسب ليختصّ بالعرب العرباء أو المخضرمين قبل أن يفسد لسانهم بالاختلاط مع الأجانب. وكذا كلّ صفة خاصّة اشتمل عليها القرآن، كالمعارف الحقيقية والأخلاق الفاضلة والأحكام التشريعية وإخباره بالمغيّبات وغيرها ممّا لم تبلغها البشريّة ولم يمكنها بلوغ كنهها إطلاقاً. فالتحدّي يشمل الجميع وفي جميع مايمكن فيه التفاضل من الصفات.

فالقرآن آية للبليغ في بلاغته، وللحكيم في حكمته، وللعالم في علمه، وللمتشرّعين في تشريعاتهم وللسياسيّين في سياساتهم، وللحكّام في أحكامهم وقضاياهم، ولجميع أرباب الفنون والمعارف فيما لايبلغون مداه ولاينالون قصواه.

وهل يجترئ عاقل أن يأتي بكتاب يدّعي فيه هدى للعالمين وإخباراً عن الغيب ويستطرق أبواباً مختلفة من دون ما اختلافٍ أو تناقضٍ أبداً، فلا يشك لبيب أنّ تلك مزايا كلّها فوق مستطاع البشريّة ووراء الوسائل المادّيّة البحتة.

---

١ ـ النجم ٥٣: ٤. راجع تفصيل ما اقتضبناه من مقدّمة تفسيره (آلاء الرحمان)، ص ٣-١٦.

فقد تحدّى بالعلم والمعرفة الخاصة «تِبْياناً لِكُلِّ شَيْءٍ».[١]

وتحدّى بمن أنزل عليه «قُلْ لَوْ شاءَ اللهُ ما تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْراكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ».[٢]

وتحدّى بالإخبار بالغيب «تِلْكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحيها إِلَيْكَ ما كُنْتَ تَعْلَمُها أَنْتَ وَلا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ».[٣]

وتحدّى بعدم الاختلاف «وَلَو كانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فيهِ اخْتِلافاً كَثيراً» وتحدّى ببلاغته «أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفتَرَياتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقين. فإِنْ لَمْ يَسْتَجيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّما أُنْزِلَ بِعِلْمِ الله».[٤]

وقد مضى القرون والأحقاب ولم يأت بما يناظره آت ولم يعارضه أحد بشيء إلّا أخزى نفسه وافتضح في أمره.[٥]

* * *

١٠ ـ وعلى نفس المنهج ذهب سيّدنا الأُستاذ الخوئي ﷺ قال: وإذ قد عرفت أنّ القرآن معجزة إلهيّة، في بلاغته وأُسلوبه، فاعلم أنّ إعجازه لاينحصر في ذلك، بل هو معجزة ربّانيّة، وبرهان صدق على النبوّة من جهات شتّى: من جهة اشتماله على معارف حقيقيّة نزيهة عن شوائب الأوهام والخرافات، التي كانت رائجة ذلك العهد ولاسيّما عند أهل الكتاب... ومن جهة استقامته في البيان وسلامته عن الاختلاف، مع كثرة تطرّقه لمختلف الشؤون. وتكرّر القصص والحكم فيه مع الاشتمال كلّ مرّة على حكمة ومزيّة فيها لذّة ومتعة... ومن جهة ما أتى به من نظام قويم وتشريع حكيم... ومن جهة إتقانه في المعاني وإحكامه في المباني... ومن جهة إخباره عن مغيّبات وأنباء عمّا سلف أو يأتي وظهور صدقه للملأ... وكذا من جهة اشتماله على بيان أسرار الخليقة ممّا يرتبط وسنن

---

١ ـ النحل ١٦: ٨٩.

٢ ـ يونس ١٠: ١٦.

٣ ـ هود ١١: ٤٩.

٤ ـ هود ١١: ١٣-١٤.

٥ ـ الميزان في تفسير القرآن، ج ١، ص ٥٧-٦٧.

الكون ونواميس الطبيعة، ممّا لاسبيل إلى العلم به ولاسيّما في ذلك العهد...

وأخيراً قال ﷺ: بل أعود فأقول: إنّ تصديق مثل أمير المؤمنين علي ﷺ ـ وهو بطل العلم والمعرفة والبيان ـ لإعجاز القرآن، لشاهد صدق على أنّه وحي إلهي، تصديقاً حقيقيّاً مطابقاً للواقع وناشئاً عن الإيمان الصادق، وهو الحقّ المطلوب.[1]

١ ـ البيان في تفسير القرآن: المقدّمة، ص ٤٣-٩١.

القول بالصرفة

هناك قول في وجه الإعجاز، لعلّه يخالف رأي الجمهور، هو: أنّ الآية و المعجزة في القرآن إنّما هي لجهة صرف النّاس عن معارضته، صرفهم الله تعالى أن يأتوا بحديث مثله، وأمسك بعزيمتهم دون القيام بمقابلته. ولولا ذلك لاستطاعوا الإتيان بسورة مثله. وهذا التثبيط في نفسه إعجاز خارق للعادة، وآية دالّة على صدق نبوّتهﷺ وهذا المذهب ـ فضلاً عن مخالفته لآراء جمهور العلماء ـ فإنّه خطير في نفسه، قد يوجب طعناً في الدّين والتشنيع بمعجزة سيد المرسلينﷺ أن لا آية في جوهر القرآن ولا معجزة في ذاته، وإنّما هو لأمر خارج هو الجبر وسلب الاختيار، وهو ينافي الاختيار الذي هو غاية التشريع والتكليف. وغير ذلك من التوالي الفاسدة.[١]

الأمر الذي استدعى تفصيل الكلام حوله والتحقيق عن جوانبه بما يتناسب مع وضع الكتاب:

---

١ ـ قال الرافعي ـ بشأن الآثار السيّئة التي خلّفها القول بالصّرفة ـ: على أنّ القول بالصرفة هو المذهب الناشئ من لدن قال به النظّام، يصوّبه فيه قوم ويشايعه عليه آخرون. ولولا احتجاج هذا البليغ لصحّته، وقيامه عليه، وتقلّده أمره، لكان لنا اليوم كتب ممتعة في بلاغة القرآن وأُسلوبه وإعجازه اللغوي وما إلى ذلك. ولكن القوم ـ عفا الله عنهم ـ أخرجوا أنفسهم من هذا كلّه، وكفوها مؤونته بكلمة واحدة تعلّقوا عليها، فكانوا فيها جميعاً كقول هذا الشاعر الظريف الذي يقول:

كأنّـنا والمـاء مـن حـولنا ... قـوم جـلوس حـولهم مـاء

إعجاز القرآن للرافعي، ص ١٤٦.

حقيقة مذهب الصرف

الصرف: مصدر «صرفه» بمعنى ردّه، والأكثر استعماله في ردّ العزيمة، قال تعالى: «سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ».[١]

قال السيد شبّر: أي عن إبطال دلائلي. ومعناه ـكما ذكره الطبرسي في المجمع ـ: سأفسخ عزائمهم على إبطال حججي بالقدح فيها و إمكان تكذيبها، و ذلك بوفرة الدلائل الواضحة والتأييد الكثير، بما لا يدع مجالا لتشكيك المعاندين ولا ارتياب المرتابين. كما يقال فلان أَخْرَسَ أعداءه عن إمكان ذمّه والطعن فيه، بما تحلّى من أفعاله الحميدة وأخلاقه الكريمة...

ومنه قوله تعالى ـبشأن المنافقين ـ: «ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ».[٢] وهذا دعاء عليهم بصرف قلوبهم عن إرادة الخير، لكونهم قوماً حاولوا التعمية على أنفسهم فضلاً عن الآخرين...

* * *

وعلى ذلك فقد اختلفت الأنظار في تفسير مذهب الصرف على ما أراده أصحابه، قال الأمير يحيى بن حمزة العلوي الزيدي (ت ٧٤٩): واعلم أنّ قول أهل الصرفة يمكن أن تكون له تفسيرات ثلاثة لما فيه من الإجمال وكثرة الاحتمال:

التفسير الأوّل: أن يريدوا بالصرفة أنّ الله تعالى سلب دواعيهم إلى المعارضة مع أنّ أسباب توفّر الدواعي في حقّهم حاصلة من التقريع بالعجز، والاستنزال عن المراتب العالية والتكليف بالانقياد والخضوع، ومخالفة الأهواء.

التفسير الثاني: أن يريدوا بالصرفة أنّ الله تعالى سلبهم العلوم التي لابدّ منها في الإتيان بما يشاكل القرآن ويقاربه.

ثمّ إنّ سلب العلوم يمكن تنزيله على وجهين، أحدهما أن يقال: إنّ تلك العلوم كانت حاصلة لهم على جهة الاستمرار، لكن الله تعالى أزالها عن أفئدتهم ومحاها عنهم.

---

١ ـ الأعراف ٧: ١٤٦.

٢ ـ التوبة ٩: ١٢٧.

وثانيهما أن يقال: إنّ تلك العلوم ماكانت حاصلة لهم، خلا أنّ الله تعالى صرف دواعيهم عن تجديدها مخافة أن تحصل المعارضة.

التفسير الثالث: أن يراد بالصرفة أنّ الله تعالى منعهم بالإلجاء على جهة القسر عن المعارضة، مع كونهم قادرين وسلب قواهم عن ذلك، فلأجل هذا لم تحصل من جهتهم المعارضة، وحاصل الأمر في هذه المقالة: أنّهم قادرون على إيجاد المعارضة للقرآن. إلّا أنّ الله تعالى منعهم بما ذكرناه...[١]

وحاصل الفرق بين هذه التفاسير الثلاثة، أنّ الصرف ـ على الأوّل ـ عبارة عن عدم إثارة الدواعي الباعثة على المعارضة. كانوا مع القدرة عليها، ووفرة الدواعي إليها، خائري القوى وخاملي العزائم عن القيام بها، وهذا التثبيط من عزائمهم وصرف إرادتهم، كان من لطيف صنعه تعالى، ليظهره على الدّين كلّه ولوكره المشركون.

وعلى التفسير الثاني، كانوا قد أعوزتهم عمدة الوسائل المحتاج إليها في معارضة مثل القرآن، وهي العلوم والمعارف المشتمل عليها آياته الحكيمة، حتّى أنّهم لو كانت عندهم شيء منها فقد أُزيلت عنهم ومحيت آثارها عن قلوبهم، أو لم تكن عندهم ولكنّهم صرفوا عن تحصيلها من جديد خشية أن تقوم قائمتهم بالمعارضة.

وعلى الثالث، أنّ الدواعي كانت متوفّرة، والأسباب والوسائل المحتاج إليها للمعارضة كانت حاضرة لديهم، لكنّهم منعوا عن القيام بالمعارضة منع إلجاء، وقد أمسك الله بعنان عزيمتهم قهراً عليهم رغم الأُنوف.

قلت: والمعقول من هذه التفاسير ـ نظراً لموقع أصحاب هذا الرأي من الفضيلة والكمال ـ هو التفسير الوسط، لكن بمعنى أنّهم افتقدوا وسائل المعارضة لقصورهم بالذات من جانب، وشموخ موضع القرآن من جانب آخر... ومن المحتمل القريب إرادة هذا المعنى، حسبما جاء في عرض كلامهم ولا سيّما في كلام الشريف المرتضى ما ينبّه عليه.

وهكذا رجّح ابن ميثم البحراني (ت ٦٧٩) إرادة هذا المعنى من كلام السيّد، قال:

---

١ ـ الطراز، ج ٣، ص ٣٩١-٣٩٢.

وذهب المرتضى ﷺ إلى أنّ الله تعالى صرف العرب عن معارضته، وهذا الصرف يحتمل أن يكون لسلب قدرهم، ويحتمل أن يكون لسلب دواعيهم، ويحتمل أن يكون لسلب العلوم التي يتمكّنون بها من المعارضة. ونقل عنه أنّه اختار هذا الاحتمال الأخير...[١]

وقد تنظّر سعدالدين التفتازاني (ت ٧٩٣) في صحّة التفاسير الثلاثة جميعاً. قال: الصرفة إمّا بسلب قدرتهم، أو بسلب دواعيهم، أو بسلب العلوم التي لابدّ منها في الإتيان بمثل القرآن، بمعنى أنّها لم تكن حاصلة لهم، أو بمعنى أنّها كانت حاصلة فأزالها الله.

قال: وهذا (الأخير الذي هو أوسط التفاسير) هو المختار عند المرتضى. وتحقيقه أنّه كان عندهم العلم بنظم القرآن والعلم بأنّه كيف يؤلّف كلام يساويه أو يدانيه، والمعتاد أنّ من كان عنده هذان العلمان يتمكّن من الإتيان بالمثل، إلّا أنّهم كلّما حاولوا ذلك أزال الله تعالى عن قلوبهم تلك العلوم، وفيه نظر.[٢]

قال عبدالحكيم السيالكوتي الهروي ـ في تعليقته على شرح المواقف بعد نقل كلام التفتازاني هذا ـ: لعلّ وجه النظر استبعاد بعض الأقسام، أو كون سلب القدرة عبارة عن سلب العلوم.[٣]

وعلى أيّ حال، فالأجدر هو النظر في تفاصيل مقالاتهم، ماذا يريدون؟

---

١ ـ قواعد المرام، ص ١٣٢.
٢ ـ شرح المقاصد، ج ٥، ص ٢٨.
٣ ـ شرح المواقف (بالهامش)، ج ٨، ص ٢٤٩-٢٥٠.

مقالة أبي إسحاق النظّام[١]

١ ـ هو أبوإسحاق إبراهيم بن‌سيّار بن‌هاني البصري ابن أُخت أبي‌الهذيل العلّاف شيخ المعتزلة (ت ٢٣١) كانت له معرفة بالكلام وكان رأساً في الاعتزال، وكانت له آراء تخصّه، منها رأيه في الإمام علي بن أبي‌طالب عليه السلام وأنّ النبيّ صلى الله عليه وآله نصّ عليه بالإمامة وكتمته الصحابة. ورفض حجّيّة الإجماع، وقال: الحجّة هو نصّ المعصوم. وقد اشتهر قوله في أميرالمؤمنين: «علي بن أبي‌طالب عليه السلام محنة على المتكلّم، إن وفى حقّه غلا! وإن بخسه حقّه أساء. والمنزلة الوسطى دقيقة الوزن، حائرة الشأن، صعب المراقي إلّا على الحاذق الدّين...» نقله صاحب المناقب.

وذكر الشهرستاني ميله إلى التشيّع ورفضه بدع الطواغيت، قائلاً: لا إمامة إلّا بالنصّ والتعيين ظاهراً مكشوفاً. وقد نصّ النبيّ صلى الله عليه وآله على عليّ عليه السلام في مواضع، وأظهره إظهاراً لم يشتبه على الجماعة، إلّا أنّ عمر كتم ذلك لصالح أبي‌بكر يوم السقيفة. ونسب إلى عمر شكّه في الرسالة وقال: إنّه هو الذي ضرب فاطمة عليها السلام يوم هجم على دارها لأخذ البيعة من علي، وكان متحصّناً في الدار. فجاءت فاطمة لتحول دون هجومه عليها فأصاب بطنها فأسقطت جنينها (محسناً). وكان عمر يومذاك يصيح: أحرقوا دارها بمن فيها، وكان في الدار الحسنان سبطا رسول‌الله صلى الله عليه وآله ... إلى آخر ما سرده من مطاعن ابن‌الخطّاب. الملل والنحل، ج ١، ص ٥٧. وراجع: الوافي بالوفيات للصفدي، ج ٦، ص ١٥.

قلت: ويتأيّد قوله في قضيّة الدار بما ذكره ابن‌عبدربّه في «العقد الفريد»، ج ٣، ص ٦٢، ط ٢، القاهرة، المطبعة الأزهريّة (١٣٤٦هـ/١٩٢٨م) في الباب الرابع عشر (في الخلفاء وتواريخهم وأخبارهم) في الذين تخلّفوا عن بيعة أبي‌بكر (وهم علي والعبّاس والزبير وسعد بن‌عبادة) قال: «فأمّا علي والعباس والزبير فقعدوا في بيت فاطمة حتّى بعث إليهم أبوبكر عمر بن‌الخطاب ليخرجهم من البيت، وقال: إن أبوا فقاتلهم. فأقبل عمر بقبس من نار، على أن يضرم عليهم الدار، فلقيته فاطمة فقالت: يا ابن‌الخطّاب أجئت لتحرق دارنا؟ قال عمر: نعم، أو تدخلوا فيما دخلت فيه الأُمّة... فخرج علي حتّى دخل على أبي‌بكر فبايعه...».

وما ذكره ابن‌قتيبة في كتابه (الإمامة والسياسة)، ج ١، ص ١٩–٢٠، في باب «كيف كانت بيعة علي بن أبي‌طالب» قال: «وأنّ أبابكر تفقّد قوماً تخلّفوا عن بيعته عند عليّ (كرّم الله وجهه) فبعث إليهم عمر، فجاء فناداهم وهم في دار عليّ فأبوا أن يخرجوا. فدعا بالحطب وقال: والذي نفس عمر بيده، لتخرجنّ أو لأحرقنّها على من فيها، فقيل له: يا أباحفص، إنّ فيها فاطمة؟! فقال: وإن. فخرجوا فبايعوا إلّا علياً، لأنّه حلف أن لايضع ثيابه على عاتقه حتّى يجمع القرآن. فوقفت فاطمة عليها السلام على بابها فقالت: لاعهد لي بقوم حضروا أسوأ محضر منكم، تركتم رسول الله صلى الله عليه وآله جنازة بين أيدينا، وقطعتم أمركم بينكم، لم تستأمرونا ولم تردّوا لنا حقّاً! فأتى عمر أبابكر، فقال له: ألا تأخذ هذا المتخلّف عنك بالبيعة؟! يريد عليا عليه السلام فأرسل أبوبكر قنفذا مولاه ليبلغه دعوته، فأبى عليّ عليه السلام أن يخرج، فكرّر عليه حتّى رفع علي صوته، فقال: سبحان الله، لقد ادّعى ما ليس له. فرجع قنفذ. ثمّ قام عمر ومشى معه جماعة حتّى أتوا باب فاطمة فدقّوا الباب، فلمّا سمعت أصواتهم نادت بأعلى صوتها: يا أبت يا رسول الله، ماذا لقينا بعدك من ابن‌الخطّاب وابن أبي‌قحافة! فلمّا سمع القوم صوتها وبكاءها، انصرفوا باكين، وكادت قلوبهم تنصدع، وأكبادهم تنفطر. وبقي عمر ومعه قوم (من الرجّالة) فأخرجوا عليّاً فمضوا به إلى أبي‌بكر. فقالوا له: بايع، فقال: إن أنا لم أفعل فمه؟ قالوا: إذن والله... نضرب عنقك. فقال: إذن تقتلون عبدالله وأخا رسوله. قال عمر: أما عبدالله فنعم، وأمّا أخو رسوله فلا، وأبوبكر ساكت لايتكلّم. فقال له عمر: ألا تأمر فيه بأمرك؟ فقال: لا أُكرهه على شيء ما كانت فاطمة إلى جنبه... ثمّ انطلقا إلى فاطمة وقالا: إنّا قد أغضبناها،

←

لم نعثر على مقالته بالتفصيل، سوى ما ينقل عنه هنا وهناك من مقتطفات، منها ما ذكره الزملكاني ـ في كلامه الآنف ـ قال: الأكثر على أنّ نظم القرآن معجز، خلافاً للنظّام، فإنّه قال: إنّ الله سبحانه صرف العرب عن معارضته وسلب علومهم، إذ نثرهم ونـظمهم

← فاستأذنا عليها، فلم تأذن لهما، فأتيا عليّا فكلّماه، فأدخلهما عليها... فلمّا قعدا عندها حوّلت وجهها إلى الحائط، فسلّما عليها، فلم تردّ عليهما السلام... إلى آخر ما جرى بينها عليها السلام وبينهما».

وقال المسعودي: وكان عروة بن‌الزبير يعذر أخاه عبدالله في حصر بني‌هاشم في الشعب، وجمعه الحطب ليحرقهم، ويقول: إنّما أراد بذلك أن لا تنتشر الكلمة، ولا يختلف المسلمون، وأن يدخلوا في الطاعة، فتكون الكلمة واحدة، كما فعل عمر بن‌الخطاب ببني‌هاشم لمّا تأخّروا عن بيعة أبي‌بكر، فإنّه أحضر الحطب ليحرق عليهم الدار. شرح نهج البلاغة لابن أبي‌الحديد، ج ٢٠، ص ١٤٧، عن مروج الذهب، ج ٣، ص ٨٦.

وذكر أبوالفداء: إنّ أبابكر بعث عمر إلى علي ومن معه ليخرجهم من بيت فاطمة وقال: إن أبوا عليك فقاتلهم. فأقبل عمر بشيء من نار على أن يضرم الدار. فلقيته فاطمة وقالت: إلى أين يا ابن‌الخطّاب أجئت لتحرق دارنا؟ قال: نعم، أو تدخلوا فيما دخل فيه هذه الأُمّة. (المختصر في أخبار البشر، ج ١، ص ١٥٦) ونقل الأميني عن تاريخ ابن‌شحنة ذلك أيضاً في حوادث سنة ١١. الغدير، ج ٣، ص ١٠٤.

ونقل ابوجعفر عن بعض الزيدية احتجاجاً جاء فيه: «وصار كشف بيت فاطمة والدخول عليها منزلها وجمع حطب ببابها وتهدّدها بالتحريق من أوكد عرى الدين»؟! شرح نهج البلاغة لابن أبي‌الحديد، ج ٢٠، ص ١٧.

وفي مصنف ابن أبي‌شيبة (ج ٨، ص ٥٧٢) كتاب المغازى: جاء عمر يهدّد فاطمة عليها السلام بإحراق الدار عليها لو لم يخرج هؤلاء (علي ومن معه) إلى البيعة.

وذكر أحمد بن يحيى البلاذري (ت ٢٧٩ / ٨٩٢م) في كتابه «أنساب الأشراف» (ج ١، ص ٥٨٦، ط دار المعارف بمصر و ج ٢، ص ٢٦٨، برقم عام ٧٧٠، ط دار الفكر ـ بيروت): أنّ أبابكر أرسل إلى عليّ يريد البيعة فلم يبايع، فجاء عمر ومعه فتيلة! فتلقّته فاطمة عليها السلام على الباب، فقالت: يا ابن‌الخطّاب، أتراك محرّقاً عليّ بابي؟ قال: نعم، وذلك أقوى فيما جاء به أبوك! وجاء عليّ فبايع وقال: كنتُ عزمت أن لاأخرج من منزلي حتّى أجمع القرآن.

وهكذا ذكر الطبري في تاريخه (ج ٢، ص ٤٤٣): أنّ عمر بن‌الخطّاب أتى منزل عليّ وفيه طلحة والزبير ورجال من المهاجرين. فقال: والله لأحرقنّ عليكم أو لتخرجنّ إلى البيعة. فخرج عليه الزبير مُصلِتاً بالسيف فعثر فسقط السيف من يده فوثبوا عليه فأخذوه.

وذكر الذهبي في ميزان الاعتدال (ج ١، ص ١٣٩) في ترجمة أحمد بن‌محمد السرى المحدّث الكوفي (برقم ٥٥٢)، عن محمد بن‌أحمد بن‌حماد الكوفي ـ بعد أن ذكر أنّه كان مستقيم الأمر عامّة دهره ـ أنّه حضر مجلسه يوماً وكان يقرأ عليه رجل: إنّ عمر رفس فاطمة حتّى أسقطت بمحسّن!

وقد ذكر الكثير من المؤرّخين أسف أبي‌بكر حينما حضرته الوفاة، لولم يكشف بيت الفاطمة بضعة رسول الله صلى الله عليه وآله ولم يهيّج روعتها، فماتت وهي واجدة عليه وعلى ابن‌الخطّاب.

راجع: المعجم الكبير للطبراني، ج ١، ص ٦٢. والعقد الفريد، ج ٤، ص ٩٣. ومروج الذهب، ج ٢، ص ٣٠٨. والمبرد في الكامل (شرح نهج البلاغة لابن أبي‌الحديد، ج ٢، ص ٤٦-٤٧). وغيرهم.

لايخفى مافيه من الفوائد، ومن ثمّ قالوا: «لَوْ نَشاءُ لَقُلْنا مِثْلَ هَـذا إنْ هـذا إلّا أساطيرُ الْأَوَّلين»[١] وهذا على حدّ ما جعل الله سلب زكريا (عليه أفضل السلام) النطق ثلاثة أيّام من غير علّة آية. أو أنّهم لم يحيطوا به علماً على ماقال تعالى: «بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحيطُوا بِعِلْمِهِ».[٢]

يبدو من ذلك أنّه أراد المعنى الثاني من التفاسير الثلاثة، وهو سلب العلوم التي يحتاج إليها في المعارضة، أو فقدهم لتلك العلوم، حسبما نبّه عليه في آخر مقاله متمسّكاً بقوله تعالى: «بَلْ كَذَّبُوا بِما لَمْ يُحيطُوا بِعِلْمِهِ»...

لكن جاء في شرح المواقف للسيّد شريف الجرجاني (ت ٨١٦) مايبدو منه خلاف ذلك وإنّه أراد المعنى الأوّل. قال الشريف: معنى الصرفة: أنّ العرب كانت قادرة على كلام مثل القرآن قبل البعثة، لكن الله صرفهم عن معارضته. واختلف في كيفيّة الصرف. فقال الأُستاذ أبوإسحاق النظّام: صرفهم الله عنها مع قدرتهم عليها، وذلك بأن صرف دواعيهم إليها مع كونهم مجبولين عليها، خصوصاً عند توفّر الأسباب الداعية في حقّهم كالتقريع بالعجز والاستنزال عن الرئاسات والتكليف بالانقياد. فهذا الصرف خارق للعادة، فيكون معجزاً...

وأمّا إرادة سلب العلوم فنسبه إلى المرتضى علم الهدى. قال: وقال المرتضى: بل صرفهم بأن سلبهم العلوم التي يحتاج إليها في المعارضة: يعني أنّ المعارضة والإتيان بالمثل يحتاج إلى علوم يقتدر بها عليها، وكانت تلك العلوم حاصلة لكنّه تعالى سلبها عنهم فلم يبق لهم قدرة عليها...[٣]

وفي مقالات الإسلاميّين لأبي الحسن الأشعري (ت ٣٣٠) تصريح بأنّه المعنى الثالث، وهو المنع بالإلجاء والقهر. قال: وقال النّظام: الآية والأُعجوبة في القرآن ما فيه من

---

١ ـ الأنفال ٨: ٣١.

٢ ـ يونس ١٠: ٣٩. راجع: البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن، ص ٥٣.

٣ ـ شرح المواقف، ج ٨، ص ٢٤٦. والمتن للقاضي عضد الايجي توفي سنة ٧٥٦.

الإخبار عن الغيوب. فأمّا التأليف والنظم فقد كان يجوز أن يقدر عليه العباد، لولا أنّ الله منعهم بمنعٍ وعجزٍ أحدثهما فيهم.[١]

وأمّا عبدالكريم الشهرستاني فقد خلط بين المعنى الأوّل والأخير، قال: التاسعة: قوله في إعجاز القرآن، أنّه من حيث الإخبار عن الأُمور الماضية والآتية، ومن جهة صرف الدواعي عن المعارضة، ومنع العرب عن الاهتمام به جبراً وتعجيزاً. حتّى لو خلّاهم لكانوا قادرين على أن يأتوا بسورة من مثله بلاغة وفصاحة ونظماً...[٢]

غير أنّ الأرجح في النظر هو ماذكره القاضي عضد الإيجي والسيّد شريف الجرجاني، في تفسير مذهبه، فقد فصلا رأيه عن رأي الشريف المرتضى القائل بسلب العلوم. والتفصيل قاطع للشركة ـ على ماقيل ـ.

ويتأيّد هذا المعنى أيضاً بما جاء في عرض كلام تلميذه المتأثّر برأيه أبي‌عثمان الجاحظ، قال: «ورفع الله من أوهام العرب وصرف نفوسهم عن المعارضة للقرآن...».[٣] وسننقل كلامه:

اختيار أبي‌عثمان الجاحظ[٤]

يرى الجاحظ في الإعجاز مايراه أهل العربيّة، وهو أنّ القرآن في الدرجة العليا من البلاغة التي لم يعهد مثلها. وقد تقدّم بعض كلامه في ذلك.[٥]

قال الرافعي: غير أنّ الرجل كثير الاضطراب، فإنّ هؤلاء المتكلّمين كانوا في عصرهم في مُنْخُل... ولذلك لم يسلم هو أيضاً من القول بالصرفة، وإن كان قد أخفاها وأومأ إليها عن عُرض. فقد سرد في موضع من كتاب «الحيوان» طائفة من أنواع المعجز، وردّها في العلّة إلى أنّ الله صرف أوهام الناس عنها ورفع ذلك القصد عن صدورهم، ثمّ عدّ منها: «ما

---

١ ـ مقالات الإسلاميّين، ج ١، ص ٢٩٦.
٢ ـ الملل والنحل، ج ١، ص ٥٦-٥٧.
٣ ـ كتاب الحيوان، ج ٤، ص ٣١.
٤ ـ هو الكاتب أبوعثمان عمرو بن‌بحر. كان من غلمان النظّام، وتعلّم عليه، توفي سنة ٢٥٥.
٥ ـ عند الكلام عن مفهوم الإعجاز.

رفع من أوهام العرب وصرف نفوسهم عن المعارضة لقرآنه بعد أن تحدّاهم الرسول بنُظُمه». وقد يكون استرسل بهذه العبارة، لما في نفسه من أثر أُستاذه، وهو شيء ينزل على حكم الملابسة، ويعتري أكثر الناس إلّا من تنبّه له أو نُبّه عليه، أو هو يكون ناقلاً، ولا ندري.[١]

قال الجاحظ في تتمّة كلامه: ولذلك لم نجد أحداً طمع فيه، ولو طمع لتكلّفه، ولو تكلّف بعضهم ذلك فجاء بأمر فيه أدنى شبهة لعظمت القصة على الأعراب وشبه الأعراب... فقد رأيت أصحاب مسيلمة إنّما تعلّقوا بما ألّف لهم كلاماً يعلم كلّ من سمعه أنّه عدى على القرآن فسلبه وأخذ بعضه وتعاطى أن يقارنه، فكان لله ذلك التدبير الذي لا يبلغه العباد، ولو اجتمعوا له...[٢]

وقد ذهب إلى هذا الرأي جماعة من أعلام السنّة من الأشاعرة وأهل الاعتزال، منهم أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الإسفراييني الفقيه الشافعي،[٣] وكان متكلّماً أُصولياً من أصحاب أبي الحسن الأشعري (ت ٤١٨). وقد ذكر الشهرستاني عند الكلام عن الأشاعرة: أنّ من أصحاب أبي الحسن الأشعري من اعتقد أنّ الإعجاز في القرآن من جهة صرف الدواعي، وهو المنع عن المعارضة، ومن جهة الإخبار عن الغيب.[٤] وقد تعرّض كلّ من ذكر النظّام قوله بالصرفة، مواكبة الإسفراييني له في هذا الرأي.

وهكذا تبع النظّام كثير من أصحابه، منهم أبو إسحاق النصيبي، وعباد بن سليمان الصيمري وهشام بن عمرو الفوطي، وغيرهم...

قال أبو الحسن الأشعري: وكان الفوطي والصيمري ينكران كون القرآن معجزاً، لكونه من الأعراض، ويقولان: لا نقول أنّ شيئاً من الأعراض يدلّ على الله سبحانه، ولا نقول أيضاً أنّ عَرَضاً يدلّ على نبوّة النبيّ ﷺ. قال: ولم يجعلا القرآن عَلَما للنبي ﷺ وزعما أنّ

---

١ ـ إعجاز القرآن للرافعي، ص ١٤٧.

٢ ـ كتاب الحيوان، ج ٤، ص ٣١؛ والإعجاز في دراسات السابقين، ص ٣٦٨.

٣ ـ قال الشريف الجرجاني: وممّن ذهب إلى هذا الرأي من أهل السنّة هو الأُستاد أبوإسحاق الإسفراييني. شرح المواقف، ج ٨، ص ٢٤٦.

٤ ـ الملل والنحل، ج ١، ص ١٠٣.

القرآن أعراض...[١]

ونحن نعذرهم في هذا التعليل العليل، بعد حداثة عهدهم بتراجم فلسفة اليونان، وعدم التشخيص لديهم بين الأعراض والجواهر حسب ما اصطلح عليه أهل الفنّ الاختصاصيّون. إذ لا يخفى الفرق البائن بين باب الدلالات ومسألة السنخيّة المعتبرة في باب العلل والمعاليل. والكلام مهما كان فهو عرض حادث والمدلول قد يكون حقيقة جوهريّة وأُخرى غيرها من الأُمور الاعتباريّة المحضة أو الانتزاعيّة، ولا ضرورة تدعو إلى لزوم التسانخ بين الدال والمدلول إطلاقاً.

مقالة ابن حزم الظاهري

وأمّا المذهب الذي سلكه أبومحمد علي بن أحمد بن حزم الأندلسي (ت ٤٥٦) فلا يعدو مذهب الجبر وسلب الاختيار عن العباد. فإنّه شطب على الرأي القائل: «إنّ القسط الأوفر من إعجاز القرآن كامن وراء بلاغته الخارقة...» وحكم عليه حكمه القاسي: أنّه من شغب الاختيار... زاعماً أنّه لمجرّد صرف الناس عن معارضته ومنعهم منها منع قهر وجبر، قال: فهذا هو دليل الإعجاز، وفي ذلك كفاية!

قال: إنّ القائلين بأنّ وجه الإعجاز في بلاغته، قد شغبوا في هذا الاختيار، لأنّهم ذكروا الذلك أمثال آية القصاص، فيقال لهم: فلم خصصتم بالذكر هذه الآيات دون غيرها، وهل هذا منكم إلّا إيهام لأهل الجهل أنّ من القرآن معجزا وغير معجز؟ قال: ثمّ نقول لهم: قول الله تعالى: «وَأَوْحَيْنا إلىٰ إبْراهيمَ وَإِسْماٰعيلَ وَإِسْحٰاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْباطِ وَعيسىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونسَ وهٰارُونَ وَسُلَيْمٰانَ وآتَيْنا داوُد زَبُوراً»[٢] أمعجز هو على شروطكم في كونه في أعلى درج البلاغة أم ليس معجزاً؟ فإن قالوا: ليس معجزاً، كفروا. وإن قالوا: إنّه معجز صدقوا، وسئلوا: هل على شروطكم في أعلى درج البلاغة؟ فإن قالوا: نعم، كابروا، وكفوا مؤونتهم، لأنّها أسماء رجال فقط ليس على شروطهم في البلاغة. وأيضاً فلو كان إعجاز

---

١ ـ مقالات الإسلاميّين، ج ١، ص ٢٩٦.

٢ ـ النساء ٤: ١٦٣.

القرآن لأنّه في أعلى درج البلاغة لكان بمنزلة كلام الحسن وسهل بن هارون والجاحظ وشعر امرئ القيس، ومعاذ الله من هذا، لأنّ كلّ ما يسبق في طبقته لم يؤمن أن يأتي من يماثله ضرورة.

وأخيراً قال: فلابدّ لهم من هذا الخطة، أو من المصير إلى قولنا: إنّ الله تعالى منع من معارضته فقط ـ إلى أن يقول ـ فصحّ أنّه ليس من نوع بلاغة الناس أصلاً، وأنّ الله تعالى منع الخلق من مثله، وكساه الإعجاز، وسلبه جميع كلام الخلق...

قال: وأيضاً فإنّ في القرآن كثيراً من حكاية أقوال الآخرين.[١] فكان هذا كلّه إذ قاله غير الله عزّوجلّ غير معجز بلاخلاف، لكن لمّا قاله الله تعالى وجعله كلاماً له أصاره معجزاً ومنع من مماثلته. قال: وهذا برهان كاف لايحتاج إلى غيره، والحمد لله.[٢]

وقال ـ أيضاً ـ: إنّ كلّ كلمة قائمة المعنى يعلم إذا تليت أنّها من القرآن، فإنّها معجزة لايقدر أحد على المجيء بمثلها أبداً، لأنّ الله تعالى حال بين الناس وبين ذلك، كمن قال: إنّ آية النبوّة أنّ الله تعالى يطلقني على المشي في هذه الطريق الواضحة، ثمّ لا يمشي فيها أحد غيري أبداً، أو مدّة يسمّيها. فهذا أعظم مايكون من الآيات... والذي عجز عنه أهل الأرض مذ أربعمائة عام وأربعين عاماً (٤٤٠) هي سنة تأليفه للكتاب.[٣]

❊ ❊ ❊

وقد سخر الرافعي من كلام ابن حزم هذا، قائلاً: لم نر أحداً فسّر هذه الكلمة (الصرفة) كابن حزم الظاهري، وذلك قوله: «لم يقل أحد أنّ كلام غير الله معجز، لكن لمّا قاله الله تعالى وجعله كلاماً له، أصاره معجزاً ومنع من مماثلته... قال: وهذا برهان كاف لايحتاج إلى غيره» نقول: بل هو فوق الكفاية، وأكثر من أن يكون كافياً أيضاً لأنّه لمّا قاله ابن حزم وجعله رأياً له، أصاره كافياً لايحتاج إلى غيره...![٤]

---

١ ـ كقوله تعالى: «فَقالَ إنْ هٰذا إلّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ. إنْ هٰذا إلّا قَوْلُ الْبَشَرِ» المدّثّر ٧٤: ٢٤-٢٥. وقوله: «وَقالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتّىٰ تَفْجُرَ لَنا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً» ـ إلى آخر الآيات ـ الإسراء ١٧: ٩٠.

٢ ـ الفصل في الملل والنحل، ج ٣، ص ١٧-١٩.

٣ ـ المصدر، ص ٢١.

٤ ـ إعجاز القرآن للرافعي، ص ١٤٦.

قلت: هو كذلك مادام الرجل متزمّتاً هذا التزمّت المفضوح، إذ لم يكتف بالتزامه بمبدأ الجبر حتّى سلب القرآن كلّ مميّزاته الجوهريّة وخلعه من جميع صفاته ونعوته الكريمة! يا له من تقشّب وجمود!

وقد تحمّس الشيخ علي محمد حسن العماري (مبعوث الأزهر في السودان) لدلائل ابن‌حزم فظنّها متوفّرة وكثيرة لم يهتد إليها الرافعي أو لخّصها تلخيصاً هو أقرب إلى المسخ. قال: نحن لا نقرّ الرافعي على هذا المسلك الذي سلكه، وعلى هذا التناول الذي تناول به كلام ابن‌حزم فإنّ الرجل أطال الكلام في تأييد مذهبه، ولوكان الرافعي منصفاً لتناول أقوى ما في كلام ابن‌حزم ولم يأخذ بعض كلامه ويترك بعضاً، على أنّه أخذ لايقارع الحجّة بالحجّة، ولايبسط المسألة كما ذكرها صاحبها، وإنّما يلخّصها تلخيصاً هو أقرب إلى المسخ...[1]

ونحن قد سبرنا دلائل ابن‌حزم كلّها فوجدناها سراباً يحسبه الظمآن ماء!! وسوف نضع اليد على أهمّ دلائله ليعلم الباحث مدى شأوها في عالم الاعتبار!

كلام ابن‌سنان الخفاجي

هو الأمير أبومحمد عبدالله بن‌محمد بن‌سنان الشاعر الشيعي مفلّق صاحب صيت وسوط له مواقف مشهودة[2] (ت ٤٦٦ مسموماً). له كلام مع أبي‌الحسن الرمّاني (ت ٣٨٦)

---

١ ـ مجلة رسالة الإسلام، سنة ٤، عدد ١، ص ٧٠.

٢ ـ من شعره دفاعاً عن ولاء آل بيت الرسول صلى الله عليه وآله:

يا أُمّة كفرت وفي أفواهها ... القرآن فيه ضلالها ورشادها
أعلى المنابر تعلنون بسبّه ... وبسيفه نصبت لكم أعوادها
تلك الخلائق بينكم بدريّة ... قتل الحسين وماخبت أحقادها

الخلائق: جمع خليقة بمعنى سجيّة ومن ظريف تنبهه ما يحكى أنّه كان قد تحصّن بقرية «اعزاز» من أعمال حلب، وكان بينه وبين أبي‌نصر محمد بن‌النحّاس الوزير المحمود بن‌صالح مودّة مؤكّدة، وكان محمود يريد القبض عليه فأمر أبانصر أن يكتب إلى الخفاجي كتاباً يستعطفه ويؤنسه، قال: إنّه لايؤمن إلّا إليك ولايثق إلّا بك. فكتب بمحضره ←

بشأن إعجاز القرآن، فلم يرتض مذهبه بأنّ الإعجاز قائم بفصاحته وبلاغته وتلاؤم نظمه، ورجّح كونه من جهة صرف العرب عن معارضته بأن سلبوا العلوم التي بها كانوا يتمكّنون من المعارضة وقت مرامهم ذلك. وبذلك قد وافق رأي الشريف المرتضى حسبما يأتي.

قال ـ تعليقاً على كلام الرمّاني ـ:[1]

وأمّا قوله: «إن القرآن من المتلائم في الطبقة العليا وغيره في الطبقة السفلى» ـ وهو يعني بذلك جميع كلام العرب ـ فليس الأمر على ذلك، ولافرق بين القرآن وبين فصيح الكلام المختار في هذه القضيّة. ومتى رجع الإنسان إلى نفسه وكان معه أدنى معرفة بالتأليف المختار، وجد في كلام العرب ما يضاهي القرآن في تأليفه. ولعلّ أبا الحسن (الرمّاني) يتخيّل أنّ الإعجاز في القرآن لايتمّ إلّا بمثل هذه الدعوى الفاسدة، والأمر ـ بحمد الله ـ أظهر من أن يعضّده بمثل هذا القول الذي ينفر عنه كلّ من شدا من الأدب شيئاً[2] أو عرف من نقد الكلام طرفاً.

قال: وإذا عدنا إلى التحقيق وجدنا وجه إعجاز القرآن صرف العرب عن معارضته، بأن سلبوا العلوم التي بها كانوا يتمكّنون من المعارضة في وقت مرامهم ذلك، وإذا كان الأمر على هذا فنحن بمعزل عن ادّعاء ماذهب إليه (أي الرمّاني) من أنّ بين تأليف حروف القرآن وبين غيره من كلام العرب كما بين المتنافر والمتلائم. ثمّ لو ذهبنا إلى أنّ وجه إعجاز القرآن الفصاحة، وادّعينا أنّه أفصح من جميع كلام العرب، بدرجة ما بين المعجز والممكن، لم يفتقر في ذلك إلى ادّعاء ما قاله من مخالفة تأليف حروفه لتأليف الحروف

← وأضاف في آخره «إنّ شاء الله» لكنّه شدّد النون... فلمّا أن قرأه الخفاجي خرج قاصداً حلب، فلمّا كان في بعض الطريق أعاد النظر في الكتاب، فلمّا رأى التشديد على النون أمسك بعنان فرسه، وفكّر في نفسه أنّ ابن النحّاس لايخطأ في كتابته، فلم يضع التشديد هنا عبثاً. فلاح له أنّه أراد قوله تعالى: «إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ»! العنكبوت ٢٨: ٢٠. فقفل راجعاً إلى حصنه، وكتب في الجواب: أنا الخادم المعترف بإنعام... فكسر الألف من «أنا» وفتح النون وشدّدها. فلمّا وقف عليه أبونصر سرّ وعلم أنّه قصد به قوله تعالى: «إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَداً مَادَامُوا فِيهَا»! المائدة ٥: ٢٤. والخفاجي نسبة إلى خفاجة ـ بالفتح ـ حيّ من بني عامر.

[1] ـ راجع كلامه في رسالته (النكت في إعجاز القرآن)، ص ٧٥.

[2] ـ يقال: شدا من العلم شيئاً أي أخذ منه.

الواقعة في الفصيح من كلام العرب، وذلك أنّه لم يكن بنفس هذا التأليف فقط فصيحاً، وإنّما الفصاحة لأُمور عدّة تقع في الكلام، من جملتها التلاؤم في الحروف وغيره، وقد بيّنا بعضها وسنذكر الباقي، فلم ينكر على هذا أن يكون تأليف الحروف في القرآن وفصيح كلام العرب واحداً؟ ويكون القرآن في الطبقة العليا، لما ضامّ تأليف حروفه من شروط الفصاحة التي التأليف جزء يسير منها.

فقد بان أنّ على كلا القولين لاحاجة بنا إلى ادّعاء ما ادّعاه، مع وضوح بطلانه وعدم الشبهة فيه.

ثمّ يقال له: أليس التلاؤم معتبراً في تأليف حروف الكلمة المفردة، على ماذكرناه فيما تقدّم فلابدّ من نعم، فيقال له: فما عندك في تأليف كلّ لفظة من ألفاظ القرآن بانفراده؟ أهو متلائم في الطبقة العليا أم في الطبقة السفلى؟ فإن قال: في الطبقة العليا، قيل له: أو ليس هذه اللفظة قد تكلّمت بها العرب قبل القرآن وبعده؟ ولولا ذلك لم يكن القرآن عربيّاً، ولا كانت العرب فهمته. فقد أقررت الآن أنّ في كلام العرب ما هو متلائم في الطبقة العليا، وهو الألفاظ المفردة، ولم يتوجّه عليك في ذلك ما يفسد وجه إعجاز القرآن. فهلّا قلت في كلامهم المؤلّف من الألفاظ ما هو أيضاً كذلك؟ فإنّ علم الناظر بأحدهما كالعلم بالآخر.

وإن قال: إنّ كلّ لفظة من ألفاظ القرآن متلائمة في الطبقة الوسطى، قيل له أوّلاً: إنّ مشاركة القرآن لطبقة ألفاظهم على هذا الوجه أيضاً باقية، ثمّ ما الفرق بينك وبين من ادّعى أنّ التلاؤم من ألفاظ القرآن في الطبقة الوسطى، فإنّ أحد الموضعين كالآخر. على أنّ اللفظة المفردة يظهر فيها التلاؤم ظهوراً بيّناً بقلّة عدد حروفها واعتبار المخارج وإن كانت متباعدة كان تأليفها متلائماً، وإن تقاربت كانت متنافراً، ويلتمس ذلك بما يذهب إليه من اعتبار التوسّط دون البعد الشديد والقرب المفرط. فعلى القولين معاً اعتبار التلاؤم مفهوم، وليس ينازعنا في كلمة من كلم القرآن إذا أوضحنا له تأليفها، ويقول ليس هذا في الطبقة العليا، إلّا ونقول مثله في تأليف الألفاظ بعضها مع بعض، لأنّ الدليل على الموضعين واحد.

فقد بان الذي يجب اعتماده أنّ التأليف على ضربين: متلائم ومتنافر، وتأليف القرآن وفصيح كلام العرب من المتلائم. ولا يقدح هذا في وجه من وجوه إعجاز القرآن، والحمد لله.[١]

وقال ـ في موضع آخر ـ: والصحيح أنّ وجه الإعجاز في القرآن هو صرف العرب عن معارضته، وأنّ فصاحته قد كانت في مقدورهم لولا الصرف. وهذا هو المذهب الذي يعوّل عليه أهل هذه الصنعة وأرباب هذا العلم. وقد سطّر عليه من الأدلّة ماليس هذا موضع ذكره.[٢]

مذهب الشريف المرتضى

المعروف من مذهب الشريف المرتضى (ت ٤٣٦) في الإعجاز هو القول بالصرفة، نسبه إليه كلّ من كتب في هذا الشأن، قولاً واحداً. وكذا شيخه أبوعبدالله المفيد (ت ٤١٣) في أحد قوليه.[٣] وتلميذه أبوجعفر الطوسي (ت ٤٦٠) في كتابه «تمهيد الأُصول» الذي وضعه شرحاً على القسم النظري من رسالة «جمل العلم والعمل» تصنيف المرتضى. لكنّه رجع عنه في كتابه «الاقتصاد بتحقيق مباني الاعتقاد» كتبه متأخّراً، واعتذر عن تأييده

---

١ ـ سرّ الفصاحة، ص ٨٩-٩٠.   ٢ ـ المصدر، ص ٢١٧.

٣ ـ قال بذلك في كتابه (أوائل المقالات، ص ٣١) جاء فيه: «أنّ جهة ذلك هو الصرف من الله تعالى لأهل الفصاحة واللسان عن معارضة النبيّ بمثله في النظام عند تحدّيه لهم. وجعل انصرافهم عن الإتيان بمثله، وإن كان في مقدورهم، دليلاً على نبوّته صلى الله عليه وآله واللطف من الله تعالى مستمرّ في الصرف عنه إلى آخر الزمان. وهذا من أوضح برهان في الإعجاز وأعجب بيان. وهو مذهب النظّام، وخالف فيه جمهور أهل الاعتزال».

غير أنّ المعروف عنه في كتب الإماميّة هو مواكبته مع جمهور العلماء. قال المجلسي (في البحار، ج ١٧، ص ٢٢٤) ـ في باب إعجاز أُمّ المعجزات: القرآن الكريم ـ: «أمّا وجه إعجازه فالجمهور من العامّة والخاصّة ومنهم الشيخ المفيد قدس سره على أنّ إعجاز القرآن بكونه في الطبقة العليا من الفصاحة، والدرجة القصوى من البلاغة. هذا مع اشتماله على الإخبار عن المغيّبات الماضية والآتية، وعلى دقائق العلوم الإلهية، وأحوال المبدأ والمعاد، ومكارم الأخلاق، والإرشاد إلى فنون الحكمة العلميّة والعمليّة، والمصالح الدينيّة والدنيويّة، على مايظهر للمتدبّرين».

وهكذا ذكر عنه القطب الراوندي (في الخرائج والجرائح، ص ٩٨١)، قال ـ بعد أن جعل الوجه الأوّل ـ وهو القول بالصرفة ـ قولا للسيد المرتضى ـ: «والثاني: ماذهب إليه الشيخ المفيد، وهو أنّه كان معجزاً من حيث اختصّ برتبة في الفصاحة خارقة للعادة...».

للسيد في شرح الجمل باحتشام رأي شيخه عند شرح كلامه.

قال: كنت نصرت في شرح الجمل (تمهيد الأُصول) القول بالصرفة، على ما كان يذهب إليه المرتضى ﷺ حيث شرحت كتابه فلم يحسن خلاف مذهبه.[١]

وأمّا تلميذه الآخر، أبوالصلاح تقيّ‌الدّين الحلبي (ت ٤٤٧) فقد سار على منهج الأُستاذ وارتضاه وجعله الأوجه من وجوه إعجاز القرآن. واستدلّ بما يكون تلخيصاً لدلائل السيد، ولم يزد عليه.[٢]

❊ ❊ ❊

ويبدو من كلام السيد ـ وفيما نقل عنه الشيخ وغيره ـ[٣] أنّه أراد المعنى الوسط من التفاسير المتقدّمة عن صاحب الطراز. وهو: أنّ العرب سُلبوا العلوم التي يحتاج إليها في معارضة مثل القرآن، فخامةً وضخامةً، في وجازة اللفظ وظرافته، في سموّ معناه ورفعته... من أين كانت العرب تأتي بمثل معانيه، حتّى ولو فرض قدرتها على صياغة مثل لفظه ولو يسيراً؟!

ومعنى السلب: عدم المنح، على ماسبق في تفسير الآية الكريمة: «ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لايَفْقَهُونَ»[٤] وكذا قوله تعالى: «سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ»[٥] أي أنّهم لفرط جهلهم وصمودهم في رفض الحقّ، حرموا من فيضه تعالى فلم يحظوا ببركات رحمته: «فَلَمَّا زاغُوا أزاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ»[٦] وذلك هو الخذلان والحرمان المقيت.

قال الطبرسي: سلب قدرتهم على التكذيب، بمعنى توفير الدلائل والبراهين القاطعة بحيث لاتدع مجالاً للشك فضلاً عن الردّ وإمكان التكذيب، «ذٰلِكَ الْكِتَابُ لارَيْبَ فيهِ».[٧]

---

١ ـ الاقتصاد، ص ١٧٣. وسننقل كلامه في تمهيد الأُصول، وهو المصدر الوحيد لتعرفة مذهب السيد في الصرفة ودلائله ومبانيه.

٢ ـ في كتابه «تقريب المعارف» الذي وضعه في أُصول المعتقدات، ص ١٠٥-١٠٨.

٣ ـ تقدّم عن القطب الراوندي برقم ٩، ص ٦٧، وعن ابن‌ميثم برقم ١١، ص ٨٠.

٤ ـ التوبة ٩: ١٢٧.

٥ ـ الأعراف ٧: ١٤٦.

٦ ـ الصف ٦١: ٥.

٧ ـ البقرة ٢: ٢.

فقد توفّرت المعاني الضخمة، وازدحمت المعارف الجليلة، بين أحضان القرآن الكريم، بما بهر العقول وطار بالألباب... الأمر الذي سلب قدرة المعارضة عن أيّ معارض متى رامها، ولم يدع مجالاً للتفكير في مقابلته لأيّ صنديد عنيد، مادام هذا الكتاب العزيز قد شمخ بأنفه على كلّ مستكبر جبّار عارض طريقه إلى الإمام.

❊ ❊ ❊

فلعلّ الشريف المرتضى أراد هذا المعنى، وأنّ اللفظ مهماجلّ نظمه وعزّ سبكه، فإنّه لايبلغ مرتبة المعنى في جلاله وكبريائه، والتحدّي إنّما وقع بهذا الأهمّ الأشمل، قال: «فإن قال: الصرف عمّا ذا وقع؟ قلنا: عن أن يأتوا بكلام يساوي أو يقارب القرآن في فصاحته وطريقة نظمه، بأن سلب كلّ من رام المعارضة، العلوم التي يتأتّى ذلك بها. فإنّ العلوم التي بها يتمكّن من ذلك ضرورة من فعله تعالى بمجرى العادة...».[1]

تأمّل هذه العبارة وأمعن النظر فيها، تجدها صريحة ـ تقريباً ـ في إرادة القدرة العلميّة، التي هي حكمة إلهية يهبها لمن يشاء من عباده، ومن يؤتى الحكمة فقد أُوتي خيراً كثيراً. فهؤلاء حرموها مغبّة لجاجهم وعنادهم مع الحقّ.

وهكذا فهم الأُستاذ الرافعي تفسير مذهب السيد في الصرفة، قال: وقال المرتضى من الشيعة: بل معنى الصرفة أنّ الله سلبهم العلوم... التي يحتاج إليها في المعارضة ليجيؤوا بمثل القرآن... فكأنّه يقول: أنّهم بلغاء يقدرون على مثل النظم والأُسلوب، ولا يستطيعون ماوراء ذلك ممّا لبسته ألفاظ القرآن من المعاني، إذ لم يكونوا أهل علم ولا كان العلم في زمنهم.[2]

ومن قبل قال التفتازاني: أو بسلب العلوم التي لابدّ منها في الإتيان بمثل القرآن، بمعنى أنّها لم تكن حاصلة لهم... أو بمعنى أنّها كانت حاصلة فأزالها الله. قال: وهذا (سلب العلوم) هو المختار عند المرتضى...[3]

قلت: ظاهر قول المرتضى هو الشقّ الأوّل من المعنيين: (أنّها لم تكن حاصلة لهم).

---

١ ـ بنقل الشيخ في التمهيد، وسيأتي تفصيله. وهكذا جاء في عبارة السيد من كتابه «الذخيرة»، ص ٣٨٠.

٢ ـ إعجاز القرآن للرافعي، ص ١٤٤.

٣ ـ شرح المقاصد، ج ٥، ص ٢٨.

وللأُستاذ توفيق الفكيكي البغدادي محاولة مشكورة بشأن الدفاع عن موقف السيّد في مذهب الصّرفة. إذ استبعد أن يأخذ مثل الشريف المرتضى وهو علم الهدى موضعاً يبتعد عن موضع الشيعة الإماميّة وإجماع محقّقيهم وهو رأسهم وسيّدهم، وكذا شيخه أبوعبدالله المفيد الذي هو أُستاذ الكلّ ومفخر المتكلّمين.

قال: إنّ أقوال أئمّة الإماميّة المعتمدة المعتبرة، لاتختلف عن كلام أهل التحقيق من أساطين العلم وزعماء البيان في حقيقة الإعجاز، حتّى لقد اشتهر قولهم: «القول بالصدفة كالقول بالصرفة» في الامتناع. كما نبّه عليه العلّامة الحجة الشيخ محمد الحسين آل‌كاشف الغطاء.[١] قال: فنسبة القول بالصّرفة ـ بمعناها الباطل ـ إلى العلّامة الجليل (المفيد) وإلى تلميذه (الشريف المرتضى) لايحتملها النظر الصحيح بعد كون هذا الاحتمال مخالفاً لعقيدة الشيعة الإماميّة ولأُصول مبانيها.

قال: والذي نحتمله بل ونعتقده أنّ الشيخ المفيد معروف بقوّة الجدل والتمرّس بفنون المناظرة، وكان كسقراط يلقي على تلاميذه مسائل دقيقة ويناقشهم فيها لاختبار عقولهم، ولاسيّما شبهات المعتزلة كآراء النظّام وأصحابه القائلين بالصرفة، وهي إحدى المسائل التي ناظر بها أقطاب المعتزلة، فلعلّه وقع في نفوس البعض أنّه يقول بها، وهو اشتباه لايستند إلى تحقيق.[٢]

وهكذا احتمل بشأن الشريف المرتضى ـ العلّامة السيد هبةالدين الشهرستاني ـ أنّه كان معروفاً بقوّة الجدل والتحوّل في حوار المناظرين إلى هنا وهناك، فلم يعلم كونها عقيدة له ونظريّة ثابتاً عليها...[٣]

وبعد... فالإيفاء بأمانة البحث يستدعي نقل كلام المرتضى بكامله، حسبما وصل إلينا من كُتُبه وعن طريق تلميذه الأكبر الطوسي وغيره من الأقطاب:

قال السيد ـ في كتابه (الجمل) في باب مايجب اعتقاده في النبوّة ـ: «وقد دلّ الله

---

١ ـ في موسوعته القيّمة (الدين والإسلام)، ج ٢، ص ١٣٧.

٢ ـ رسالة الإسلام القاهرية، السنة الثالثة: العدد ٣، ص ٣٠٠-٣٠١.

٣ ـ المعجزة الخالدة للسيد هبةالدين الشهرستاني، ص ٩٧-٩٨.

تعالى على صدق رسوله محمّدﷺ بالقرآن، لأنّ ظهوره معلوم ضرورة، وتحدّيه العرب والعجم معلوم أيضاً ضرورة، وارتفاع معارضته أيضاً بقريب من الضرورة، فإنّ ذلك التعذّر معلوم بأدنى نظر، لأنّه لولا التعذّر لعورض، فإمّا أن يكون القرآن من فعله تعالى على سبيل التصديق له، فيكون هو العَلَم المعجز، أو يكون تعالى صرف القوم عن معارضته، فيكون الصرف هو العَلَم الدالّ على النبوّة، وقد بيّنا في كتاب «الصرف» الصحيح من ذلك وبسطناه».[1]

وقد أوضح السيّد من مذهبه في مختلف كتبه ورسائله، التي تعرّض فيها لمسألة الإعجاز، منها ماجاء في كتابه «الذخيرة» في علم الكلام، قال فيه:

الذي نذهب إليه أنّ الله تعالى صرف العرب عن أن يأتوا من الكلام بما يساوي أو يضاهي القرآن في فصاحته وطريقته (أي سبكه في البيان) ونظمه، بأن سَلَب ـ كلّاً من رام المعارضة ـ العلوم التي يتأتّىٰ ذلك بها، فإنّ العلوم التي بها يمكن ذلك ضروريّة من فعله تعالى فينا بمجرى العادة.

وهذه الجملة إنّما تنكشف بأن يدلّ على أنّ التحدّي وقع بالفصاحة بالطريقة في النظم. وأنّهم لوعارضوه بشعر منظوم لم يكونوا فاعلين ما دعوا إليه. وأن يدلّ على اختصاص القرآن بطريقةٍ في النظم مخالفة لنظوم كلّ كلامهم، وعلى أنّ القوم لو لم يُصرفوا لعارضوا.

والذي يدلّ على الأوّل أنّهﷺ أطلق التحدّي وأرسله، فيجب أن يكون إنّما أطلق تعويلاً على عادة القوم في تحدّي بعضهم بعضاً، فإنّها جرت باعتبار الفصاحة وطريقة النظم. ولهذا ماكان يتحدّى الخطيبُ الشاعرَ، ولا الشاعرُ الخطيبَ، وأنّهم ما كانوا يرتضون في معارضة الشعر بمثله إلّا بالمساواة في عروضه وقافيته وحركة قافيته. ولو شكّ القوم في مراده بالتحدّي لاستفهموه، وما رأيناهم فعلوا، لأنّهم فهموا أنّهﷺ جرى فيه على عاداتهم.

---

١ ـ جمل العلم والعمل للسيد المرتضى (ط نجف ١٣٨٧)، ص ٤١ وطبعت مع المجموعة الثالثة من رسائله راجع: ص ١٩.

وممّا يبيّن أنّ التحدّي وقع بالنظم ـ مضافاً إلى الفصاحة ـ أنّا قد بيّنا مقارنة كثير من القرآن لأفصح كلام العرب في الفصاحة. ولهذا خفي الفرق علينا من ذلك، وإن كان غير خافٍ علينا الفرق فيما ليس بينهما هذا التفاوت الشديد. فلولا أنّ النظم معتبر لعارضوا بفصيح شعرهم وبليغ كلامهم.

فأمّا الذي يدلّ على أنّهم لولا الصرف لعارضوا أنّا قد بيّنا في فصاحة كلامهم ما فيه كفاية، والنظم لا يصحّ فيه التزايد والتفاضل، ولهذا يشترك الشاعران في نظم واحد لا يزيد أحدهما فيه على صاحبه وإن زادت فصاحته على فصاحة صاحبه.

وإذا لم يدخل في النظم تفاضل فلم يبق إلّا أن يكون الفضل في السبق إليه. وهذا يقتضي أن يكون السابق ابتداءً إلى نظم الشعر قد أتى بمعجز، وأن يكون كلّ من سبق إلى عروض من أعاريضه ووزن من أوزانه كذلك... ومعلوم خلافه.

وليس يجوز أن يتعذّر نظم مخصوص بمجرى العادة على من يتمكّن من نظوم غيره، ولا يحتاج في ذلك إلى زيادة علوم، كما قلنا في الفصاحة. ولهذا كان كلّ من يقدر من الشعراء على أن يقول في الوزن الذي هو الطويل قدر على البسيط وغيره ولو لم يكن إلّا على الاحتذاء وإن خلا كلامه من فصاحة.

وهذا الكلام قد فرغناه واستوفيناه في كتابنا في جهة إعجاز القرآن.[1]

وهذا الذي ذكره هنا تلخيص ممّا جاء في الرسالة، والتي يبدو منها أنّها إجابة على سؤال المعترض: «...إن كانوا ـ أي العرب ممّن حاول المعارضة ـ سلبوا العلوم، فليس يخلو إمّا أن يكونوا سُلبوها عند ظهور القرآن والتحدّي به، أو يكونوا لم يزالوا فاقدين لها.

---

١ ـ يريد به رسالته التي كتبها في الصرفة (راجع الذخيرة في علم الكلام: تحقيق السيد أحمد الحسيني، ص ٣٨٠-٣٨٢).
وقد تعرّض فيها للإجابة على عدّة مسائل لها صلة بمسألة الصرفة في الإعجاز. وله أيضاً في أجوبة مسائله الرسّية كلام حول مسألة الصرفة. (راجع المجموعة الثانية من رسائل الشريف المرتضى، ص ٣٢٣-٣٢٦، المسألة الثالثة من المسائل الرسّية الأُولى).
أمّا رسالة الصرفة فقد عُثر عليها وطُبعت ونشرت بتحقيق الأُستاذ محمدرضا الأنصاري وإشراف مجمع البحوث الإسلاميّة التابع لآستانة القدس الرضوي بمشهد الرضا عليه السلام عام ١٤٢٤.

فإن أُريد الثاني فهو مؤكّد لقولنا بعجزهم عن معارضته، إذ لم يكن بلغوا مرتبته الخارقة للعادة. وإن أُريد الأوّل، فقد كان يجب أن يقع لنا ولغيرنا تبيان الفرق بين حالتي العرب قبل ظهور القرآن وبعده».

وأجاب بما حاصله: أنّ التفاوت إنّما حصل في الشخص المريد للمعارضة لا كلّ العرب ولا كلّ الفصحاء. فقد كان يحصل عنده الصوارف أي صرف الدواعي للمعارضة ولو بالتهائه بمختلف الصوارف أو إخماد نائرة سعارها أو خمولها ونحو ذلك، ممّا يجده المعارض في ذات نفسه دون غيره.

غير أنّ المحاولين للمعارضة على طول الخطّ، إنّما تقاعسوا بعد الإقدام، لما وجدوا من أنفسهم العجز الذاتي تجاه ذلك الشموخ القرآني العظيم. ولم يقل أحد منهم: أنّ قواي قد انهارت بعد الاشتداد، وأنّ علومي سُلبت بعد توفّر الاجتماع. سوى أنّهم أذعنوا بأنّه كلام فوق كلام البشر أي فوق طاقات البشر المحدودة.

وهكذا تجد دلائل هذه الرسالة ومسائلها فيما لخّصه الشيخ أبوجعفر الطوسي فيما شرح مذهب السيّد، أورده في شرح الجمل بتفصيل وتبيين.[١]

كما تعرّض القطب الراوندي لحديث الصرفة على ما ذهب إليه المرتضى، واستوفى البحث حوله على أُسلوبه الكلامي الجدلي.[٢]

وكذلك أبوالصلاح الحلبي، سار على منهج شيخه المرتضى وارتضاه، فراجع كتابه الذي وضعه في أُصول المعتقدات،[٣] حسبما أشرنا إليه.

---

١ ـ راجع: تمهيد الأُصول في جمل العلم والعمل، ص٣٣٤ ـ ٣٤٥.

٢ ـ راجع: الخرائج والجرائح، ج٣، ص٩٨١ ـ ٩٨٤ و٩٨٧ ـ ٩٩٢ و١٠٠٧ ـ ١٠١٠. ومختصره المطبوع سنة ١٣٠٥، ص٢٦٩. ونقله في البحار، ج٨٩، ص١٢٧ ـ ١٢٨ و١٣٩ ـ ١٤١.

٣ ـ تقريب المعارف، ص١٠٥ ـ ١٠٨.

فذلكة القول بالصرفة

يتلخّص مذهب الصرفة ـ على ماقاله وجوه أصحاب هذا الرأي ـ حسبما يلي:

أوّلاً: قولة النظّام (مبتدع هذه الفكرة): أنَّ في نثر العرب ونظمهم مـالا يـخفى مـن الفوائد، يعني: فصاحة بالغة تضاهي فصاحة القرآن. وقد صرّح بذلك الخفاجي والشريف المرتضى. استناداً إلى قوله تعالى ـ حكاية عن العرب ـ: «لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هذا...»[١] يدلّ على أنّ العرب حسبت من نفسها القدرة على الإتيان بمثله سبكا وصياغة. لولا أنّه تعالى صرف هممهم عن النهوض لمقابلته، وأمسك بعزيمتهم دون القيام بمعارضته.

ثانياً: ربط ابنُ‌حزم مسألة الإعجاز بمسألة الجبر في الاختيار، وأن لاميزة جوهريّة في القرآن لولا المنع الخارجي. واستند إلى ما يوجد في القرآن من تـفاوت فـي درجـة البلاغة، ومن سرد أسماء زعم أن لاعجيبة في نضدها بما يفوق كلام العرب. كما أنّ فيه حكاية أقوال آخرين لم تكن معجزة، فلمّا حكاها الله تعالى في القرآن أصارها مـعجزة ومنع من مماثلته وحال دون إمكان النطق بمثلها أبداً. قال: وهذا برهان كافٍ لايحتاج إلى أزيد منه... وحمد الله أن هداه إلى هذا البرهان الكافي الشافي... لولا أنّ الأُستاذ الرافعي سخر من عقليّته هذه الساذجة، قائلاً: بل هو فوق الكفاية، وأكثر من ذلك أنّه لمّا جـعله ابن‌حزم رأياً له أصاره كافياً ولايحتاج إلى مزيد بيان!

ثالثاً: استند السيّد وأصحابه إلى عدم ظهور فرق بيّن بين قصار السور والمختار من كلام العرب، وإلّا لما احتيج إلى مراجعة الأذكياء من العلماء.

والنظم لايصحّ فيه التزايد والتفاضل. كما لايصحّ معارضة المنثور بالمنظوم. وقاس الخفاجي تلاؤم الكلمات في الجمل بتلاؤم حروف الكلم، ليكون خارجاً عـن اخـتيار المتكلّم.

ودليلاً على ذلك قالوا: لاشكّ أنّ العرب كانوا قادرين على التكلّم بـمثل مـفردات الجمل وقصار تراكيبها مثل «الحمد لله» و «ربّ العالمين» وهكذا، فأجدر بهم أن يكونوا

---

١ ـ الأنفال ٨: ٣١.

قادرين على تراكيب أكبر وجمل أطول.

وأيضاً فإنّ الصحابة الأوّلين ربّما تردّدوا في آية أنّها من القرآن؟ وكذا بعض السور القصار كالمعوّذتين، رفض ابن‌مسعود كونهما منه! فلو كان النظم والبلاغة هما الكافيين للشهادة على القرآنية، فما وجه هذا التوقّف وذلك الترديد أو الرفض؟![1]

وأخيراً قوله تعالى: «سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ»[2] أي أصرفهم عن إبطالها بالمعارضة. هكذا زعموا.

وقد تقدّم الكلام عليها عند توجيه مذهب السيّد في الصرفة.

مناقشة القول بالصرفة

تلك دلائل استند إليها أصحاب القول بالصرفة في ظاهر الأمر. لكنّا نعتقد أنّ السبب الداعي لاختيارهم هذا الرأي أمر آخر وراء هذا الظاهر المريب. إذ ليس فيما استمسكوا به ما يبعث على هذا الاختيار، ولا سيّما وأصحاب هذا القول هم جهابذة أقحاح وأئمّة نقد وتمحيص، ليسوا أهل تعسّف في‌الرأي أو وهن في العقيدة والاختيار! ومن ثمّ فإنّها دلائل ظاهريّة ومعاذير شكليّة كان خلفها شيء آخر لعلّه رصين، لأمر ما جدع قصير أنفه!

نعتقد أنّهم واجهوا أُولئك الذين قصروا وجه الإعجاز في جانب لفظ القرآن وحروفه وجودة سبكه وأُسلوبه. وهو جانب جدّ خطير، يعلو به شأن الكلام ويرتفع قدره. إلّا أنّه ليس بمثابة بحيث يخرجه عن حدّ المعتاد غير الممكن على فصحاء الكلام وبلغاء البيان. ففي كلام العرب وغيرهم من أُمم ذات لغة راقية مقطعات رائعة، من بديع النظم ورفيع النثر ممّا يبهر ويعجب!

ونرافقهم في هذا الشأن، غير أنّ جهة الإعجاز البياني للقرآن ـ على ما سنذكر ـ لا تنحصر في جودة سبكه وروعة نظمه، والوفير من بدائع المحسّنات اللفظية. إنّ هذا كلّه إنّما هو جزء سبب لروعة القرآن الباهرة. وإنّ وراءه سبباً آخر أقوى هو كامن وراء هذا

١ ـ ذكرهما التفتازاني في شرح المقاصد، ج ٥، ص ٢٨-٢٩.

٢ ـ الأعراف ٧: ١٤٦.

القالب الجميل، هي: خلابة رُوحه، ونسمة رَوْحه. فخامة معنى في أنـاقة تـعبير. وهـما مجتمعين وليدان توأمين، الأمر الذي يعزّ وجوده، بل ينعدم في كلام غيره، ولاسيّما مع هذا الإطناب في الكلام والتنوّع في المرام، ميزة خُصّ بها القرآن الكريم.

وبعد... فإليك بعض النقاش مع دلائل القوم في ظاهر المقال:

١ ـ ليس في كلام العرب مايضاهي القرآن

فإذ كانت روعة القرآن منبثقةً من تلاحمٍ في جمال لفظه مع جلال معناه، ومن بديع صورته مع كبرياء محتواه، فأين ـ ياترى ـ يوجد له مثيل في مـثل هـذه الرفـعة وذلك الشموخ؟! نعم سوى شؤون كانت مبتذلة، ومعان كانت هابطة وساقطة إلى حدّ بعيد، كانوا يتداولونها! ولَمُقارَنَةٌ عبرى بين آيات من الذكر الحكيم، وأروع مقطعات العرب لتكفي شاهداً على ذلك البون الشاسع!

جاء القرآن بسبك غريب على العرب، و عجيب على الناس أجمعين، لا هو شعر و لا هو نثر كنثرهم، نثر في خاصيّة الشعر، لا هدر سجع، و لا هذر كهانة، حلو رشيق، وخلوب رفيع. إنّ له لحلاوة، و إنّ عليه لطلاوة، و إنّه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، إنّه يعلو و ما يعلى. وإنّه ليحطم ما تحته! كلام قاله عظيم العرب و خلاصتها الفذّ الفريد الوليد![1]

كانوا كلّما حاولوا مضاهاته، افتضح بهم الأمر، و فشلوا في نهاية المطاف، و هكذا

---

١ ـ نعم نسب إلى الجعد بن‌درهم (مؤدّب مروان بن‌محمد الملقّب بالحمار، آخر خلفاء بني‌اُميّة) القول بأنّ فصاحة القرآن غير معجزة، وأنّ الناس يقدرون على مثلها، وعلى أحسن منها...

قيل: هو أوّل من صرّح بذلك، وتجرّأ عليه.

قال الاُستاذ الرافعي: ولم يقل بذلك أحد قبله. إعجاز القرآن، ص ١٤٤.

وله مقالات اُخرى أيضاً أنكروها عليه، فآل أمره إلى القتل صبراً. ذبحه ـ كما يذبح الكبش ـ خالد القسري أمير العراق من قبل هشام بن‌عبدالملك بأمره.

ذكر ذلك ابن‌الأثير في حوادث (سنة ١٢٥)، ج ٥، ص ٢٦٣. وراجع: ص ٤٢٩ أيضاً.

وقد جعل الاُستاذ عرفة ذلك دليلاً على قوله بالصرفة. فهو أوّل من ذهب هذا المذهب... وهو وهم... لأنّه ـ على فرض صحّة النسبة ـ إنّما حاول بذلك إنكار أصل الإعجاز. كما وهم في علي بن‌عيسى الرماني أيضاً قوله بالصرفة... في حين أنّه جعله أحد الوجوه للإعجاز... راجع: النكت في إعجاز القرآن، ص ١١٠. (قضية الإعجاز القرآني، ص ١٤٨-١٤٩).

على مرّ العصور. الأمر الذي سجّل على محياه الكريم: أنّه لم يسبق له نظير، ولا يخلفه أبداً بديل!

فإن كان النظّام و أصحابه إنّما أرادوا المضاهاة في مجموع هذه الجوانب و المزايا اللفظيّة و المعنويّة، فنحن نطالبهم أن يأتوا بشاهد من كلام العرب أو غيرهم من باب المثال، ولكنّهم أعجز من أن يأتوا بمثله و لو اجتمعوا له.

و إن أرادوا المباهاة ببدائع بعض روائع الكلام، فهذا شيء لا ننكره، ولكنّه ليس كلّ شأن الإعجاز، و لا وقع التحدّي بمثله.

و قوله تعالى: «**وَإِذا تُتْلىٰ عَلَيْهِم آياتُنا قالُوا قَدْ سَمِعْنا لَوْ نَشاءُ لَقُلْنا مِثْلَ هذا إنْ هذا إلّا أساطيرُ الْأَوّلين**».[١]

قولة قالها النضر بن الحارث بن كلدة كان من زعماء قريش ومن شياطينهم الأفّاكين، صاحب ثروة ونفوذ كلمة. كان يختلف إلى الحيرة فيسمع سجع أهلها وكلامهم، فلمّا قدم مكة سمع كلام النبيّ صلى الله عليه وآله والقرآن، فزعم أنّه من قبيل ذاك، فحسب من نفسه القدرة على مماثلته. كما كان قد تعلّم بعضاً من أحاديث ملوك فارس (أساطير رستم وإسفنديار) فكان يقصّها على جهلاء العرب استحواذاً عليهم ليلهيهم عن حديث الإسلام وذكريات القرآن، زاعماً أنّه بذلك يقابل رسول الله في كلامه وتلاوة قرآنه. كان إذا جلس رسول الله صلى الله عليه وآله مجلساً يدعو الناس إلى الله ويتلو عليهم آياته ويحذّر قريشاً ممّا أصاب الأُمم الخالية، خلفه النضر في مجلسه إذا قام عنه، ليحدّثهم عن حديث رستم وإسفنديار وملوك فارس، ويقول: والله ما محمّد بأحسن حديثاً منّي، وما أحاديثه إلّا «**أساطيرُ الْأَوَّلينَ اكْتَتَبَها فَهِيَ تُمْلىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأصيلاً**».[٢]

قيل: فنزلت فيه: «**إنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبيلِه وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدينَ. فَلا تُطِعِ الْمُكَذِّبينَ. وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ. وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلّافٍ مَهينٍ. هَمّازٍ مَشّاءٍ بِنَميمٍ. مَنّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثيمٍ. عُتُلٍّ بَعْدَ ذٰلِكَ زَنيمٍ. أَنْ كانَ ذامالٍ وَبَنينَ. إذا تُتْلىٰ عَلَيْهِ آياتُنا قالَ أساطيرُ**

---

١ ـ الأنفال ٨: ٣١.

٢ ـ الفرقان ٢٥: ٥.

الْأَوَّلِينَ. سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ. إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ. وَلَا يَسْتَثْنُونَ. فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ. فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ».[١]

فكانت الآيات صواقع قوارع هدّمت عليهم بنيانهم وأضرمته ناراً! هكذا جابههم القرآن بصوته المدوّي الصارخ العنيف، وذرّ أوهامهم هباءً منثوراً. فلو كانت لهم بقيّة باقية لقاموا في وجهه، ولكن أنّى لهم التناوش من مكان بعيد؟!

وقع أسيراً يوم بدر، فقال رسول الله ﷺ لعلي عليه السلام: يا عليُّ عَليَّ بالنضر، فأخذ عليٌّ بشعره وجرّه، وكان رجلاً جميلاً متجمّلاً بشعره، فجاء به إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمّد، أسألك بالرحم بيني وبينك إلّا أجريتني كرجل من قريش إن قتلتهم قتلتني وإن فاديتهم فاديتني. فقال ﷺ: لارحم بيني وبينك، قطع الله الرحم بالإسلام. قدّمه يا عليُّ واضرب عنقه، فقدّمه وضرب عنقه صبراً. لعنه الله.[٢]

وبعد... فلا يؤخذ من قولة صاحب نخوةٍ وأوهامٍ شاهداً على برهان!

٢ ـ الإطّراد من روائع البديع

زعم ابن حزم أن لا أُعجوبة في سرد أسماء. لكن يكذّبه رائعة «الإطّراد»[٣] في باب البديع. وهو: أن يطّرد الشاعر أو المتكلّم ـ عند صياغة الكلام إن نظماً أو نثراً ـ في سرد أسماء متعاقبة من غير كلفة ولا حشو فارغ. قال ابن رشيق: فإنّها إذا اطّردت كذلك، دلّت على قوّة طبع الشاعر وقلّة كلفته ومبالاته بالشعر. قال الأعشى:

أقيس بن مسعود بن قيس بن خالد   وأنت امرؤ ترجو شبابك وائل[٤]

---

١ ـ القلم ٦٨: ٧-٢٠.

٢ ـ سيرة ابن هشام، ج ١، ص ٣٨٤؛ ومجمع البيان، ج ٤، ص ٥٣٨؛ والدر المنثور، ج ٣، ص ١٨٠.

٣ ـ قال ابن أبي الإصبع: هو أن يطّرد للمتكلّم أسماء لآباء ممدوحه منسوب بعضها إلى بعض، مرتّبة على حكم ترتيبها في الميلاد. من ذلك قوله تعالى: «واتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبائي إبراهيمَ وإسْحاقَ ويَعْقُوب». يوسف ١٢: ٣٨. قال: فالحظ ما اتفق في هذه اللفظات السّت من أنواع البلاغة، لتقدّر نظم القرآن العزيز قدره وتعرف فرق مابينه في هذا الباب وما جاء فيه من أشعار فصحاء العرب... ثمّ جعل يعدّد موارد الروعة في الآية... بديع القرآن، ص ١٤١.

٤ ـ الوائل: صاحب الحاجة وطالب النجاة من المأزق.

فأتى كالماء الجاري اطّراداً وقلّة كلفة، وبيّن النسب حتّى أخرجه عن مواضع اللبس والشبهة.

ولمّا سمع عبدالملك قول ابن صمّة:

أبأتَ بـعبدالله خـير لِـداتـه ... ذؤاب بن أسماء بن زيد بن قارب[١]

قال ـ كالمتعجّب ـ: لولا القافية لبلغ به إلى آدم.

وقال أبو تمام:

عـبدالمـليك بـن صالح بـن ... علي بن قسيم النبيّ في نسـبه

فهذا سهل العنان، خفيف على اللسان. قال ابن رشيق: وإن كانت الياء في «المليك» ضرورة وتكلّفاً.

وقال بعضهم:

مـن يكـن رام حـاجة بـعُدتْ ... عـنه وأعـيَت عـليه كـلَّ العـياء

فـلها أحـمد المـرَجّى بـن يحيى ... بـن معاذ بـن مسلم بـن رجـاء

فجاء كلامه نسقاً واحداً، إلّا أنّه قد شغل البيت وفصل بين الكلام بقوله: «المرجّى». غير أنّ مجانسة «رجاء» هوّنت خطيئته وغفرت ذنبه.

ثمّ جعل ابن رشيق يعدّد من أنواع الاطّراد وفيها تكلّف من شعراء فصحاء.[٢]

وزعم أيضاً أنّ في حكاية أقوال الآخرين تحوّلاً من الممكن إلى المعجز! كلام غريب، ولعلّه حسبه نقلاً بالحرف! ولا شكّ أنّه نقل بالمعنى، لاسيّما مع النظر إلى لغاتهم غير العربيّة، ويدلّك عليه سرد قضية واحدة في مواضع من القرآن في مختلف العبارات، وإن كانت في كلّ مرّة ذات مزيّة حِكَميّة لاتشترك فيها أُختها. وعليه فالكلام كلامه تعالى، لأنّه من نظمه وتأليفه بالذات. ونسبة الكلام إنّما يتحقّق بالنضد والتأليف. الأمر الذي يكون الإعجاز فيه، أيّاً كان لفظ المنقول عنه.

وأخيراً فإنّ التفاوت في درجة فضيلة البيان، هي أيضاً آية أُخرى، تحلّت بها آيات

---

١ ـ أباء القاتل بالقتيل: أقاده به. واللدة: الترب ومن تربّى معك. وأصله: ولد بكسر الواو.

٢ ـ العمدة، ج ٢، ص ٨٢، رقم ٦٥.

القرآن الكريم، فكان هناك بليغ وأبلغ وفصيح وأفصح، حسب تفاوت المقامات واختلاف المناسبات. وقد جعل السكّاكي حدّ الإعجاز من بلاغته طرفها الأعلى وما يقرب منه، فلا تستوي مرتبة البلاغة في الآيات، وإن كان الجميع بالغاً حدّ الإعجاز.

٣ ـ إنّما يعرف ذا الفضل من العلم ذووه

ليست معجزة نبيّ الإسلام صلى الله عليه وآله بدعا من معاجز سائر الأنبياء عليهم السلام إذ كان نبهاء الأُمم وأصحاب الاختصاص هم الذين كانو يلمسون واقع الإعجاز. وامتياز المعجز عن الممكن ـ فيما يقدّمه الأنبياء ـ إنّما يعرفه أفذاذ الناس. كانت سحرة فرعون هم الذين لمسوا الحقّ في العصا واليد البيضاء فآمنوا به وتبعهم الآخرون وهكذا. فكان سبيل القرآن ـ وهو أرقّ المعاجز وأرقاها ـ سبيل سائر المعاجز يعرفه ذوو الاختصاص من أهل الفنّ، والأذكياء من العلماء، ومن ثمّ فإنّهم هم المراجع في وضح الحقّ ودحض الأباطيل «فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ».[١]

ما الفضل إلّا لأهل العلم أنّهم على الهدى لمن استهدى أدلاء

ومن ثمّ كانت شهادات أفذاذ العرب الأقحاح، هو القول الفصل، بشأن القرآن الكريم وأنّها ميزة خارقة فاق بها سائر الكلام.

تلك شهادة طاغية العرب وعظيمها الوليد بن‌المغيرة: «يا عجباً لما يقول ابن أبي‌كبشة، فوالله ما هو بشعر ولا بسحر... وإنّ قوله لمن كلام الله...».[٢]

وأيضاً قوله: «والله لقد سمعت من محمّد آنفاً كلاماً، ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجنّ. والله إنّ له لحلاوة، وإنّ عليه لطلاوة... وإنّه يعلو وما يعلى. وإنّه ليحطّم ما تحته...».[٣]

وشهادات فصحاء العرب وسادات قريش من هذا القبيل كثيرة، كلّها تنمّ عن واقعيّة فخيمة لمسها أُولئك الخواصّ، فسار من ورائهم العوامّ.

---

١ ـ النحل ١٦: ٤٣.

٢ ـ جامع البيان، ج ٢٩، ص ٩٨.

٣ ـ مستدرك الحاكم، ج ٢، ص ٥٠٧.

ذكروا أنّ فصحاء قريش أزمعت على معارضة القرآن، فجمعت لها جمعها، حتّى إذا ما نزلت «وَقيلَ يا أرْضُ ابْلَعي ماءَكِ وَيا سَماءُ أَقْلِعي وَغيضَ الْماءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظّالِمينَ»[1] نظر بعضهم إلى بعض حيارى مذهولين. فقد يئسوا ممّا طمعوا فيه وعرفوا أنّه ليس بكلام مخلوق.[2]

وبذلك تبيّن أن لاموضع لقوله: «جميع ما شهد به الفصحاء فواقع موقعه. إذ لاتنكر مزيّة القرآن على غيره، وإنّما هي ليست ممّا تخرق العادة»! إذ شهادتهم إنّما كانت بكونه فوق مستوى البشر، وأنّه ليس من كلام المخلوقين، وكفى به دليلاً على كونه معجزاً خارقاً للعادة، إذ لايقصد من الإعجاز سوى كونه فوق مقدور الإنسان، هذا لاغير!

قوله: والنظم لا يصحّ فيه التزايد والتفاضل...

ولعلّه على العكس فإنّ التفاضل في النظم والأُسلوب شيء معروف، وبذلك قد فاق شعر شاعر عتيد على شعر شاعر جديد، وكان أهل الصناعة المضطلعون بالرويّ والقصيد قد فاقوا في نظمهم على المبتدئين المتكلّفين، وكان الأُسلوب هو الذي أشال بهؤلاء وأطاح بهؤلاء!

قال أبوعثمان الجاحظ: أجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء، سهل المخارج، فتعلم بذلك أنّه أُفرغ إفراغاً واحداً، وسبك سبكاً واحداً، فهو يجري على اللسان كما يجري الدهان.

قال ابن‌رشيق: وإذا كان الكلام على هذا الأُسلوب الذي ذكره الجاحظ لذّ سمعه، و خفّ محتمله، وقرب فهمه، وعذب النطق به، وحلي في فم سامعه. فإذا كان متنافراً متبايناً عسر حفظه، وثقل على اللسان النطق به، ومجّته المسامع فلم يستقرّ فيها منه شيء.[3]

وأنشد الجاحظ:

وبعض قريض القوم أبناء علّة ... يكدّ لسان الناطق المتحفّظ

---

١ ـ هود ١١: ٤٤.

٢ ـ العمدة، ج ١، ص ٢١١؛ و مجمع البيان، ج ٥، ص ١٦٥.

٣ ـ العمدة، ج ١، ص ٢٥٧.

وأيضاً:

وشعر كبعر الكبش فرّق بينه   لسان دعيّ في القريض دخيل

واستحسن أن يكون البيت بأسره كأنّه لفظة واحدة لخفّته وسهولته، واللفظة كأنّها حرف واحد، وأنشد قول الثقفي.

من كان ذا عضد يدرك ظلامته   إنّ الذليل الذي ليست له عضد

تنبو يداه إذا ماقلّ ناصره   ويأنف الضيم إن أثرى له عدد[1]

إذن فالنظم نظم، ووزنه وزن شعر، لكن شتّان ما بين النظمين، هذا عذب فرات، وذاك ملح أُجاج، في هذا سهولة وفي ذاك وعورة. وهكذا القرآن، فاق سائر الكلام في عذوبة نظمه، وسهولة أُسلوبه، في روعة وأناقة وجلال، وهذا من سرّ إعجازه الخارق.

وأمّا الدليل الذي أقاموه، من أنّ القادر على الأبعاض قادر على الجملة... فقد أجاب عنه التفتازاني بأنّ حكم الجملة يخالف حكم الأجزاء، ولو صحّ ما ذكر لكان كلّ من آحاد العرب قادراً على الإتيان بمثل قصائد فصحائهم كامرئ القيس وأضرابه.

وأمّا تردّد الصحابة في بعض الآيات والسور، فلعلّه كان لرعاية الاحتياط والاحتراز عن أدنى ملابسة. على أنّ الإعجاز في جميع مراتبه وفي جميع الآيات، ليس ممّا يظهر لكلّ أحد على سواء...[2]

قوله: لو عارضوه بشعر منظوم لم يكونوا معارضين...

هذا إذا كان التحدّي ناظراً إلى جانب النظم والأُسلوب فحسب، أمّا إذا كانت فضيلة الكلام هي الملحوظة في هذه المباراة، والمقصودة من تلك المباهاة، فهذا ممّا لا يفترق فيه بين منظوم الكلام ومنثوره، شعره وخطبه، في أيّ صيغة بني عليها الكلام أو رصفت حروفه وكلماته، ما دامت العبرة بجودة التعبير وحسن الأداء، هذا... ولا سيّما قد أُطلق التحدّي في القرآن إطلاقاً: لو يأتوا بحديث مثله... أي في شرف الكلام وفضيلته. شعراً منظوماً أو كلاماً منثوراً. أيّا كان نمطه إذا كان يماثله في الأبّهة والبهاء. ومع ذلك فقد كلّت

---

١ ـ ينبو السيف: يكلّ ولا يكون قاطعا. وأثرى: كثر وتوفّر.

٢ ـ شرح المقاصد، ج ٥، ص ٢٩.

قرائحهم أن يقابلوه وضنّت أذهانهم أن يعارضوه. لمّا رأوه فوق مستواهم السحيق، فقصرت الأيدي أن تناله وهو في مستواه ذلك الرفيع.

وفي الختام نعود على ما بدأنا به من توجيه كلام الشريف المرتضى في الصرفة، بأنّها من جهة فقد العرب للإمكانات اللازمة في صياغة كلام مثل القرآن، فقد سُلبوا التوفيق عليه وخذلهم الله على إصرارهم في معاندة الحقّ. «فَلَمّا زاغوا أزاغَ اللهُ قُلوبَهُم. وَاللهِ لايَهْدي الْقَوْمَ الْفاسِقين».[١]

دحض شبهة الصرفة

هذا وقد هبّ العلماء جميعاً قديماً وحديثاً يفنّدون مزاعم القول بالصرفة، إمّا برهاناً عقلياً أو خطابة وجدلاً بالتي هي أحسن، في دلائل ومسائل نعرض أهمّها ونقتصر عليها، لأنّ فيها الكفاية والوفاء.

وقبل أن نرد التفصيل نقدّم خلاصة من تلك الردود والدلائل:

أوّلاً: مخالفة هذا المذهب لظاهرة التحدّي القائمة على المباهاة، ولا مباهاة على صنيع لاميزة فيه سوى سلطة صانعه على منع الآخرين قهريّاً من مماثلته!

كمن باهى بوضع يده على رأسه وتحدّى الآخرين أن يصنعوا بمثله، لكنّهم لمّا أرادوا مماثلته أخذ بيدهم ومنعهم من ذلك منعاً، أفهل يعدّ ذلك من المباهاة؟!

أو كمن استهدف غرضاً دقيقاً مباهياً، لكنّه سلب صاحبه بندقته، ولولاه لتمكّن من مماثلته... ليس هذا تحدّياً ولا مباهاة البتة.

والخلاصة: أنّ المباهاة بالصنيع إنّما تُتعقّل إذا كان الصنيع ذاته مشتملاً على مزيّة خارقة وبديعة عجيبة، ليس إلاّ.

ثانياً: لكان ينبغي أن يتعجّبوا من أنفسهم هذا التحوّل المفاجئ لهم، بالأمس كانوا قادرين واليوم أصبحوا عاجزين. فلم يكن موضع إعجاب بالقرآن الكريم، ولا أن تبهرهم

١ ـ الصفّ ٦١: ٥.

روعته، في بديع نظمه وعجيب رصفه.

وأنّ شهادتهم برشاقة أُسلوبه وأناقة سبكه وتأليفه، فضلاً عن فخامة معانيه ورصانة مبانيه لأعظمُ دليلٍ على سموٍّ وشموخٍ لمسوه في جوهر القرآن ووجدوه في ذاته، لا شيء سواه.

ثالثاً: لامباهاة مع مسلوب القدرة، هو والميت سواء، ولا تحدّي مع الأموات، قلّوا أم كثروا فإنّ كثرتهم لاتجدي شيئاً بعد كونه من ضمّ الحجر إلى المدر، ولا حراك في الجماد.

ومن ثمّ فمن المستغرب مازعمه ابن‌حزم من قياس ماهنا بمسألة الجبر وسلب الاختيار «لايُسْأَلُ عَمّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ»![1] فقد ذهب عنه أن لاعلاقة بين المسألتين ولا تناسب بين المفهومين: المباهاة وسلب الاختيار!

أمّا السيّد وأصحابه، وكذا النظّام ـ في احتمال ـ فلم ينكروا اعتلاء جانب القرآن بمافاق سائر الكلام، إمّا في فصاحته البالغة، كما ذكره السيّد، أو لاشتماله على الأُمور الغيبيّة، كما ذكره النظّام. وإنّما عجز القوم عن مماثلته، لفقدهم العلوم التي كان يمكنهم بذلك مقابلته، ولعلّ البشريّة أجمع تعوزه تلك القدرة المحيطة على جمع الامتيازات المشتمل عليها القرآن الكريم. وقد نبّهنا ذلك مسبقاً.

وبعد... فإليك موجز أهمّ كلمات الأعلام في المقام.

كلمة أبي‌جعفر الطوسي

وأوّل من ردّ على المرتضى قوله بالصرفة، هو تلميذه الأكبر أبوجعفر محمد بن‌الحسن الطوسي في كتابه «الاقتصاد» معتذراً لنصرته السيّد في «شرح الجمل» بأنّه حيث شَرَحَ كتابه فلم يحسن خلاف مذهبه! قال:

«وأقوى الأقوال عندي قول من قال: إنّما كان معجزاً خارقاً للعادة، لاختصاصه بالفصاحة المفرطة في هذا النظم المخصوص، دون الفصاحة بانفرادها ودون النظم بانفراده ودون الصرفة. وإن كنت نصرت في شرح الجمل القول بالصرفة، على ما كان يذهب إليه

١ ـ الأنبياء ٢١: ٢٣.

المرتضى ﷺ من حيث شرحت كتابه فلم يحسن خلاف مذهبه».[١]

ثمّ أخذ في الرّد على القول بالصرفة، قال:

«واعلم أنّه لوكان وجه الإعجاز سلب العلوم، لكانت العرب إذا سلبوا هذه العلوم خرجوا عن كمال العقل... قال: وبهذا أجبنا من قال: لم لايجوز أن يكون من تأتّى منه الفعل المحكم، معتقداً أو ظانّاً دون أن يكون عالماً. بأن قلنا: ما لأجله تأتّى الفعل المحكم هو أمر يلزم مع كمال العقل، فلايخرج عنه إلّا باختلال عقله. والعلم بالفصاحة من هذا الباب، فلو سلبهم الله هذه العلوم لكانوا خرجوا من كمال العقل، ولو كان كذلك لظهر واشتهر، وكان يكون أبلغ في باب الاعجاز من غيره. ولمّا لم يعلم كونهم كذلك وأنّ العرب لم يتغيّر حالهم في حال من الأحوال، دلّ ذلك على أنّهم لم يسلبوا العلوم، وإذا لم يسلبوها وهم متمكّنون من مثل هذا القرآن كان يجب أن يعارضوا، وقد بيّنا أنّ ذلك كان متعذّراً منهم، فبطل هذا القول».[٢]

كلمة الإمام يحيى العلوي

وقد فصّل الكلام في تفنيد هذا المذهب، الإمام الزيدي يحيى بن حمزة العلوي، في كتابه «الطراز». احتمل أوّلاً في تفسير المذهب وجوهاً ثلاثة ـ حسبما قدّمنا ـ ثمّ أقام على بطلانه أيضاً براهين ثلاثة نذكرها باللفظ:

قال: «والذي يدلّ على بطلان هذه المقالة براهين:

البرهان الأوّل منها: أنّه لوكان الأمر كما زعموه، من أنّهم صرفوا عن المعارضة مع تمكّنهم منها، لوجب أن يعلموا ذلك من أنفسهم بالضرورة، وأن يميّزوا بين أوقات المنع، والتخلية، ولو علموا ذلك لوجب أن يتذاكروا في حال هذا المعجز على جهة التعجّب، ولو تذاكروه لظهر وانتشر على حدّ التواتر، فلمّا لم يكن ذلك، دلّ على بطلان مذاهبهم في الصرفة.

لايقال: إنّه لانزاع في أنّ العرب كانوا عالمين بتعذّر المعارضة عليهم، وأنّ ذلك

---

١ ـ الاقتصاد، ص ١٧٢-١٧٣.

٢ ـ المصدر، ص ١٧٥-١٧٦.

خارج عن العادة المألوفة لهم، ولكنّا نقول: من أين يلزم أنّه يجب أن يتذاكروا ذلك ويظهروه، حتّى يبلغ حدّ التواتر، بل الواجب خلاف ذلك، لأنّا نعلم حرص القوم على إبطال دعواه، وعلى تزييف ماجاء به من الأدلّة، فاعترافهم بهذا العجز من أبلغ الأشياء في تقرير حجّته، فكيف يمكن أن يقال بأنّ الحريص على إخفاء حجّة خصمه يجب عليه الاعتراف بأبلغ الأشياء في تقرير حجّته، وهو إظهاره وإشهاره.

لأنّا نقول: هذا فاسد، فإنّ المشهور فيما بين العوام، فضلاً عن دهاة العرب، أنّ بعض من تعذّر عليه بعض ماكان مقدوراً له، فإنّه لايتمالك في إظهار هذه الأُعجوبة والتحدّث بها، ولا يخفى دون هذه القضية، فضلاً عنها، فكان من حقّهم أن يقولوا: إنّ كلّ واحد منّا يقدر على هذه الفصاحة، ولكن صار ذلك الآن متعذّراً علينا لأنّك سحرته عن الإتيان بمثله، فلمّا لم يقولوا ذلك دلّ على فسادها.

البرهان الثاني: لوكان الوجه في إعجازه هو الصرفة كما زعموه، لما كانوا مستعظمين لفصاحة القرآن، فلمّا ظهر منهم التعجّب لبلاغته وحسن فصاحته، كما أُثر عن الوليد بن المغيرة حيث قال: إنّ أعلاه لمورق، وإنَّ أسفله لمغدق، وإنَّ له لطلاوة، وإنّ عليه لحلاوة، فإنّ المعلوم من حال كلّ بليغ وفصيح سمع القرآن يتلى عليه فإنّه يدهش عقله ويحيّر لبّه، وماذاك إلّا لما قرع مسامعهم من لطيف التأليف، وحسن مواقع التصريف في كلّ موعظة، وحكاية كلّ قصّة، فلو كان كما زعموه من الصّرفة، لكان العجب من غير ذلك، ولهذا فإنّ نبيّاً لوقال: إنّ معجزتي أن أضع هذه الرمّانة في كفّي، وأنتم لاتقدرون على ذلك، لم يكن تعجّب القوم من وضع الرمّانة في كفّه، بل كان من أجل تعذّره عليهم، مع أنّه كان مألوفاً لهم ومقدوراً عليه من جهتهم، فلو كان كما زعمه أهل الصّرفة، لم يكن للتعجّب من فصاحته وجه، فلمّا علمنا بالضرورة إعجابهم بالبلاغة، دلّ على فساد هذه المقالة.

البرهان الثالث: الرجع بالصرفة التي زعموها، هو أنّ الله تعالى أنساهم هذه الصّيغ فلم يكونوا ذاكرين لها بعد نزوله، ولاشك: أنّ نسيان الأُمور المعلومة في مدّة يسيرة، يدلّ على نقصان العقل، ولهذا فإنّ الواحد إذاكان يتكلّم بلغة مدّة عمره، فلو أصبح في بعض الأيام لايعرف شيئا من تلك اللغة، لكان ذلك دليلاً على فساد عقله وتغيّره، والمعلوم من حال

العرب أن عقولهم مازالت بعد التحدّي بالقرآن وأنّ حالهم في الفصاحة والبلاغة بعد نزوله كما كان من قبل، فبطل ماعوّل عليه أهل الصّرفة، وكلامهم يحتمل أكثر ممّا ذكرناه من الفساد، وله موضع أخصّ به، فلا جرم اكتفينا هاهنا بما أوردناه».[1]

كلمة عبد القاهر الجرجاني

وللشيخ عبدالقاهر الجرجاني ردّ لطيف على القائلين بالصرفة، أورده في رسالته «الشافية» وقد أوفى المطلب حقّه، فأجدر به أن ينقل بلفظه قال:

«اعلم أنّ الذي يقع في الظن من حديث القول بالصرفة أن يكون الذي ابتدأ القول بها ابتدأه على توهّم أنّ التحدّي كان إلى أن يعبّر عن أنفُس معاني القرآن بمثل لفظه ونظمه دون أن يكون قد أُطلق لهم و خيّروا في المعاني كلّها. ذاك لأنّ في القول بها على غير هذا الوجه أُموراً شنيعة، يبعد أن يرتكبها العاقل ويدخل فيها. وذاك أنّه يلزم عليه أن يكون العرب قد تراجعت حالها في البلاغة والبيان، وفي جودة النظم وشرف اللفظ، وأن يكونوا قد نُقصوا في قرائحهم وأذهانهم، وعُدموا الكثير ممّا كانوا يستطيعون، وأن تكون أشعارهم التي قالوها، والخطب التي قاموا بها ـ وكلّ كلام اختلفوا فيه من بعد أن أُوحي إلى النبيّ ﷺ وتحدّوا إلى معارضة القرآن ـ قاصرة عمّا سمع منهم من قبل ذلك، القصور الشديد. وأن يكون قد ضاق عليهم في الجملة مجال قد كان يتسع لهم، ونضبت عنهم موارد قد كانت تغزر، وخذلتهم قوى قد كانوا يصولون بها، وأن تكون أشعار شعراء النبيّ ﷺ التي قالوها في مدحه، وفي الردّ على المشركين، ناقصة متقاصرة عن شعرهم في الجاهلية..

ثمّ أورد اعتراضاً بأنّهم إذا لم يشعروا بهذا النقصان الحاصل في فصاحتهم، فكيف عرفوا مزيّة القرآن على كلامهم، وإذا لم يعرفوا مزيّة القرآن، فكيف اعترفوا بعجزهم عن نيلها!

وأمّا إذا أحسّوا بنقصان حدث في أنفسهم، فعند ذلك فاللازم أن لا يعترفوا بمزيّة

---

١ ـ الطراز (في أسرار البلاغة وحقائق الإعجاز)، ج ٣، ص ٣٩٢-٣٩٥.

القرآن على كلامهم، بل بهذا العجز النفسي الحاصل لهم قهراً، فيتذاكروا ـ ولو عندما يخلو بعضهم لبعض ـ: مالنا قد نقصنا في قرائحنا، وما هذا الكلول الحادث في أذهاننا!

ثمّ قال: وفي سياق آية التحدّي ما يدلّ على فساد هذا الزعم، إذ لا يقال عمّا إذا منع الإنسان عن الشيء قهراً عليه، مع قدرته عليه قبل المنع ـ: إنّي قد جئتكم بما لا تقدرون على مثله. بل كان يجب أن يقال: إنّ لي القدرة على أن أحول بينكم وبين مقدوركم، وأسلبكم القدرة على أمر كان متعارفاً عندكم.

ويقول ـ في خاتمة الفصل ـ: ينبغي أن يقال لهم ماهذا الذي أخذتم به أنفسكم، وما هذا التأويل منكم في عجز العرب عن معارضة القرآن؟ وما دعاكم إليه؟ وما أردتم منه؟ أو هل يكون لكم قول يحكى، فتكونوا اُمّة على حدة أم قد أتاكم في هذا الباب علم لم يأت الناس؟...».[١]

كلمة الإمام الرازي

ولفخر الدين أبي عبدالله الرازي كلمة موجزة في دحض شبهة القول بالصرفة، قالها ردّاً على مقالة النظّام بأنّ القرآن كسائر الكتب المنزلة لبيان الأحكام، والعرب إنّما لم يعارضوه لأنّ الله تعالى صرفهم عن ذلك وسلب علومهم به.

قال الرازي: ويدلّ على فساد ذلك وجوه ثلاثة:

الأوّل: أنّ عجز العرب عن المعارضة ـ لو كان ـ لأنّ الله أعجزهم عنها، بعد أن كانوا قادرين عليها، لما كانوا مستعظمين لفصاحة القرآن، بل يجب أن يكون تعجّبهم من تعذّر ذلك عليهم، بعد أن كان مقدوراً عليه لهم، كما أنّ نبيّاً لو قال: معجزتي أنّي أضع يدي على رأسي هذه الساعة ويكون ذلك متعذّراً عليكم ـ ويكون الأمر كما زعم ـ لم يكن تعجّب القوم من وضعه يده على رأسه، بل من تعذّر ذلك عليهم. ولمّا علمنا بالضرورة أنّ تعجّب العرب كان من فصاحة القرآن نفسها بطل ما قاله النظّام.

---

١ ـ الشافية، ص ١٤٦-١٥٥.

الثاني: أنّه لو كان كلامهم مقارباً في الفصاحة قبل التحدّي لفصاحة القرآن لوجب أن يعارضوه بذلك، ولكان الفرق بين كلامهم بعد التحدّي وكلامهم قبله كالفرق بين كلامهم بعد التحدّي والقرآن. ولمّا لم يكن كذلك بطل ذلك.

الثالث: أنّ نسيان الصيغ المعلومة في مدّة يسيرة يدلّ على زوال العقل، ومعلوم أنّ العرب ما زالت عقولهم بعد التحدّي، فبطل ما قاله النظّام.[1]

كلمة كمال الدين الزملكاني

وقال الزملكاني ـ تعقيباً على مانسبه إلى النظّام من القول بالصرفة حسبما نقلناد عنه ـ: وهذا خلف من القول، إذ لوكان كذلك لكان ينبغي أن يتعجّبوا من حالهم دونه، فإنّ من يضع يده على رأسه دون سائر الحاضرين، بأن يحبس الله أيديهم، لايعجب منه، بل من حالهم...

ولكان ينبغي أن يعارضوه بما قبل صرفهم من كلامهم الفصيح...

ولأنّ سلب قدرهم يجريهم مجرى الموتى، فلا يجدي اجتماعهم قوّة وظهوراً على المعارضة وهو مخالف لقوله تعالى: «قُل لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هٰذا القرآنِ لايَأْتُونَ بِمِثْلِهِ».[2]

قال: وأمّا قصّة زكريا عليه السلام ـ صمته ثلاثة أيّام ـ فحجّة له فيما نحنُ بصدده، إذ الآية كانت في سلبه النطق، لافي نطق غيره...[3]

سعدالدين التفتازاني

وقال التفتازاني: قد استدلّ على بطلان الصرفة بوجوه:

الأوّل: أنّ فصحاء العرب إنّما كانوا يتعجّبون من حسن نظمه وبلاغته وسلاسته فيجزالته، ويرقصون رؤوسهم عند سماع قوله تعالى: «وقيلَ يا أرضُ ابْلَعي مَـاءكِ...»

---

١ ـ نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز للإمام الرازي، ص ٧٩-٨٠.

٢ ـ الإسراء ١٧: ٨٨.

٣ ـ البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن، ص ٥٣-٥٤.

الآية لذلك، لالعدم تأتّي المعارضة مع سهولتها في نفسها!

الثاني: أنّه لو قصد الإعجاز بالصرفة لكان الأنسب ترك الاعتناء ببلاغته وعلوّ طبقته...

الثالث: قوله تعالى: «**قُلْ لَئِن اجْتَمَعَت الإنْس والجنّ**».. الآية فإنّ ذكر الاجتماع والاستظهار بالغير في مقام التحدّي إنّما يحسن فيما لايكون مقدوراً للبعض ويتوهّم كونه مقدوراً للكلّ فيقصد نفي ذلك...[١]

كلمة العلّامة كاشف الغطاء

وقال العلّامة كاشف الغطاء ـ بعد إبطال القول بالصدفة بشأن الأنبياء عليهم السلام بأن اتّفق لهم العلم بأسباب سحر لم يعثر عليه سحرة عصرهم، وأنّ هذا يشبه القول بأنّ وجود العالم بالصدفة والبخت والاتفاق لاعن صنيع صانع وتدبير واضع ـ قال: كما اتضح من جميع ذلك منتهى فساد القول بأنّ إعجاز القرآن ليس هو بجوهره وذاته، بل بالحجز عنه والصرفة دونه. إن ذلك إلّا رأي عازب، وقول كاذب، قول من لم يجعل الله له من معرفة البلاغة حظّاً، ولا حصّل من شرائف حقائقها ومعانيها إلّا حكاية ولفظاً، فمذ ضايقه العجز والجهالة لجأ إلى هذه المقالة، وضلّ يخبط في أمثال هذه الضلالة. ولست أرى لهذه الشبهة صورة صدق ولباس حقّ، يدعو إلى توفّر العناية في شأنها وإيضاح بطلانها، لاسيّما وكلّ من عنى بهذا الشأن وتصدّى لعلم بلاغة القرآن، قد شنّع على هذا القول وبالغ في بطلانه وإحالته على أنّ من نسب إليه ذلك لم ينقل عنه الاستناد إلى حجّة ولا ضعيفة، والتعويل على شبهة ولاسخيفة. وإنّما هو رأي رآه، أو احتمال أبداه.[٢]

كلمة هبةالدين الشهرستاني

وقال السيد هبة الدين الشهرستاني: نعم، جنح أُناس إلى القول بالإعجاز لسبب منعة إلهية، ولصرف «الصرفة». وأرادوا من الصرفة أنّ الله سبحانه كما قديلهم العباد أحياناً،

---

١ ـ شرح المقاصد، ج ٥، ص ٣١.

٢ ـ الدين والإسلام، ج ٢، ص ١٣٧.

كذلك قد يصرف الهمم والأفكار عن أن يباري القرآن أحد. مذهب أعوج أعرج أو كما قيل: حرفة عاجز وحجّة كسول، لايليق إسناده إلى علمائنا الفحول. لأنّ الله عزّ شأنه فيّاض عدل، ذو رأفة وفضل، فهو أرفع شأناً من أن يأمر الإنس والجنّ أن يباروا القرآن، ويرضى منهم بمباراة بعضه لو تعذّر عليهم مباراة كلّه. ثمّ يعترض سبيلهم ويصرف منهم القوّة والهمّة، ويمنعهم من أن يأتوا بما تحدّاهم به...

والظاهر من ظواهر الآيات أنّ القرآن في ذاته، متعال بميزاته، حائز أرقى الميزات وأبلغ المعجزات، وينبغي أن يكون كذلك إن أُريد مدحه وفضله. أمّا لو حصرنا وجه الإعجاز في نقطة الصرفة... فيتمّ حتى مع كونه كلاماً مبذولاً مرذولاً للغاية، ففي الوجود الوجيهة السالفة غنية وكفاية...[١]

كلمة مصطفى صادق الرافعي

وكلمة أخيرة قالها الأُستاذ الرافعي: فذهب شيطان المتكلّمين أبوإسحاق النظّام إلى أنّ الإعجاز كان بالصرفة، وهي أنّ الله صرف العرب عن معارضة القرآن مع قدرتهم عليها، فكان هذا الصرف خارقاً للعادة... قلنا: وكأنّه من هذا القبيل هو المعجزة لاالقرآن. وهذا الذي يروونه عنه أحد شطرين من رأيه، أمّا الشطر الآخر فهو الإعجاز إنّما كان من حيث الإخبار عن الأُمور الماضية والآتية.

وقال المرتضى من الشيعة: بل معنى الصرفة أنّ الله سلبهم العلوم.. التي يحتاج إليها في المعارضة ليجيئوا بمثل القرآن. فكأنّه يقول: إنّهم بلغاء يقدرون على مثل النظم والأُسلوب ولا يستطيعون ماوراء ذلك ممّا لبسته ألفاظ القرآن من المعاني، إذ لم يكونوا أهل علم ولا كان العلم في زمنهم... وهذا رأي بيّن الخلط كما ترى.

غير أنّ النظّام هو الذي بالغ في القول بالصرفة حتّى عرفت به، وكان هذا الرجل من شياطين أهل الكلام، على بلاغة ولسن وحسن تصرّف... وقد جاء رأيه في مذهب

---

١ ـ المعجزة الخالدة، ص ٩٨.

الصرفة دون قدره، بل دون علمه، بل دون لسانه...

... وهو عندنا رأي لو قال به صبية المكاتب وكانوا هم الذين افتتحوه وابتدعوه، لكان ذلك مذهباً من تخاليطهم في بعض ما يحاولونه إذا عمدوا إلى القول فيما لايعرفون ليوهموا أنّهم قد عرفوا!

وإلّا فإنّ من سلب القدرة على شيء بانصراف وهمه عنه، وهو بعد قادر عليه مقرن له، لايكون تعجيزه بذلك في البرهان إلّا كعجزه هو عن البرهان، إذ كان لم يعجزه عدم القدرة. ولكن أعجزه القدر وهو لايغالب والمرء ينسى ويذكر، وقد يتراجع طبعه فترة لاعجزاً، وقد يعتريه السأم ويتخوّنه الملال، فينصرف عن الشيء وهُو لَهُ مطيق، وذلك ليس أحقّ بأن يسمّى عجزاً من أن يسمّى تهاوناً، ولا هو أدخل فيما يحمل عليه الضعف منه فيما يحمل عليه فضل ثقة.

وعلى الجملة فإنّ القول بالصرفة لايختلف عن قول العرب فيه: «إنْ هٰذا إلّا سِحْرٌ يُؤْثَر»[١] وهذا زعم ردّه الله على أهله وأكذبهم فيه وجعل القول به ضرباً من العمى «أفَسِحْرٌ هٰذا أَمْ أَنْتُمْ لاتُبْصِرُونَ»[٢] فاعتبر ذلك بعضه ببعضه فهو كالشيء الواحد...[٣]

وفي الختام لابأس أن نعرف أنّ الشيخ العماري (مبعوث الأزهر في السودان) حَسِبَ من كلمات أمثال الرافعي والشهرستاني وكاشف الغطاء، وحتى المتقدّمين كصاحب الطراز والتفتازاني والجرجاني وأضرابهم... خطاباتٍ لاتفي دليلاً، فحاول ترجيح قولة ابن‌حزم لكثرة دلائله (التي سردها في الفِصَل ونقلها العماري في مجلّة الأزهر)[٤]... قلت: يالها من رزيّة، إذ أصبحت سفاسف الأوهام دلائل، وأمّا شواهد العقول فرذائل!! ولا سيّما ما أسهبه ابن‌حزم، لم نجد فيها ما يروي الغليل أو يشفي العليل... فإن كان القوم لايملكون دليلاً ـ على مازعمه العماري ـ فإنّ خصومهم أفلس ودلائلهم أضمر... بلا كلام.

---

١ ـ المدّثّر ٧٤: ٢٤.　　٢ ـ الطور ٥٢: ١٥.

٣ ـ إعجاز القرآن، ص ١٤٤-١٤٦.

٤ ـ راجع: رسالة الإسلام لسنتها الرابعة: العدد الأوّل، ص ٥٩-٧٢.

شهادات وإفادات

لم تكن العرب لتجهل موضع الرسولﷺ وصدقه وإخلاصه في دعوته. كانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، وقد لمسوا من حقيقة القرآن أنّه الكتاب الذي لاريب فيه، وقد بهرهم جماله وحسن أُسلوبه وعجيب بيانه. نعم سوى حميّة جاهلية حالت دون الاستسلام للحقّ الصريح والاعتراف بصدق رسالته الكريمة. فلم تكن محاولاتهم تلك إلّا تملّصات هزيلة وتخلّصاً معوجّاً عن سحر بيانه وانفلاتاً من روعة جلاله وهيمنة كبريائه.

كانت قضيّة الإعجاز القرآني بدأت تفرض ثقلها على كاهل العرب، شاءت أم لم تشأ. وقد أدركت قريش من أوّل يومها مالهذا الكلام السماوي من روعة وسحر وتأثير، ولم يكد يملك أي عربيّ صميم ـ إذ يجد ذوقه الأصيل سليقةً وطبعاً ـ إلّا أن يرضخ لأُبّهة بيانه الخارق، معترفاً بأنّه كلام الله وليس من كلام البشر:

الوليد بن المغيرة المخزومي

هذا هو طاغية العرب وكبيرها الأسنّ وعظيمها الوليد بن المغيرة المخزومي يقول:

«يا عجباً لما يقول ابن أبيكبشة، فوالله ما هو بشعر ولا بسحر ولا بهذي جنونٍ. وإنّ

قوله لمن كلام الله...».[١]

قاله على ملأ من قريش وذلك بعد أن سمع القرآن لأوّل مرّة، على أفواه المسلمين يرتّلونه ترتيلاً، فأعجبه قرآنه وبهرته جذبته.

وإنّ قريشاً لهابت تلك المفاجأة الخطيرة، ومن ثمّ تآمرت على أن تحوّل دون إشاعة النبأ، فقالوا: لئن صبا الوليد ـ وهو ذو حسب ومال ـ لتصبأنّ قريش كلّها.

قال أبوجهل: أنا أكفيكم شأنه، فانطلق حتّى دخل على الوليد بيته، فقال له: ألم تر أنّ قومك قد جمعوا لك الصدقة! (يريد التأنيب عليه بأنّه إنّما قال كلامه الآنف طمعاً في المال) قال: ألست أكثرهم مالاً وولداً؟ فقال له أبوجهل: يتحدّثون أنّك إنّما تدخل على أصحاب محمّد صلى الله عليه وآله لتصيب من طعامهم! قال الوليد: أقد تحدّثت به عشيرتي؟! فلا تقصر عن سائر بني قصيّ... فعزم أن لا يقرب أحداً من المسلمين بعد ذلك.

وله شهادة أُخرى نظيرتها، قالها عندما مرّ على رسول الله صلى الله عليه وآله وهو يتلو في صلاته بضع آيات من سورة المؤمن، فانقلب إلى مجلس قومه مندهشا قائلاً:

«والله لقد سمعت من محمّد آنفاً كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجنّ، والله إنّ له لحلاوة، وإنّ عليه لطلاوة، وإنّ أعلاه لمثمر، وإنّ أسفله لمغدق. وإنّه يعلو ولا يعلى عليه».[٢]

وفي رواية أُخرى ـ ذكرها القاضي عياض ـ: لمّا سمع الوليد بن المغيرة من النبيّ صلى الله عليه وآله يقرأ: «إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسانِ وإِيتاءِ ذِي الْقُرْبىٰ وَيَنْهىٰ عَنِ الْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ»[٣] أعجبته فقال: والله إنّ له لحلاوة، وإنّ عليه لطلاوة، وإنّ أسفله لمغدق، وإنّ أعلاه لمثمر، ما هذا بقول بشر.[٤]

ورواها أبوحامد الغزالي ناسباً لها إلى خالد بن عقبة، ولعلّه أخو الوليد بن عقبة بن

---

١ ـ جامع البيان، ج ٢٩، ص ٩٨.

٢ ـ المعجزة الخالدة، ص ٢١. والطلاوة ـ مثلثة الطاء ـ البهجة والنضارة. وأغدقت الأرض: أخصبت وابتلّت بالغدق وهو المطر الغزير.

٣ ـ النحل ١٦: ٩٠.

٤ ـ الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض، ج ١، ص ٢٢٠؛ وراجع الشرح للملّا علي القارئ، ج ١، ص ٣١٦.

أبي‌معيط. جاء إلى رسول الله‌ﷺ وقال: اقرأ عليّ القرآن! فقرأ عليه: «إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسانِ وَإِيتاءِ ذِي الْقُرْبىٰ»... الخ.

فقال له خالد: أعِد! فأعادﷺ فقال خالد: «والله إنّ له لحلاوة، وإنّ عليه لطلاوة، وإنّ أسفله لمغدق، وإنّ أعلاه لمثمر، وما يقول هذا بشر».[1]

وهكذا جاء في الإصابة وفي الذيل «وما هذا بقول بشر». أمّا الاستيعاب وأُسد الغابة فمتوافقان مع نسخة الغزالي.

قال أبوعمر: لا أدري هو خالد بن‌عقبة بن أبي‌معيط أو غيره وظني أنّه غيره.[2]

وأيضاً روى الحاكم بإسناده الصحيح أنّ الوليد بن‌المغيرة جاء إلى النبيﷺ فقرأ عليه القرآن، فكأنّه رقّ له، فبلغ ذلك أباجهل فأتاه فقال: يا عمّ، إنّ قومك يرون أن يجمعوا لك مالاً! قال الوليد: لِمَ؟ قال: ليعطوكه، فإنّك أتيت محمداً لتتعرّض لما قِبلَه! قال: قدعلمت قريش أنّي من أكثرهم مالاً. قال أبوجهل: فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنّك منكر له أو أنّك كاره له. قال: وماذا أقول، فوالله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار منّي ولا أعلم برجز ولا بقصيدة منّي ولا بأشعار الجنّ، والله مايشبه الذي يقول شيئاً من هذا. «ووالله إنّ لقوله الذي يقول حلاوة وإنّ عليه لطلاوة، وإنّه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنّه ليعلو وما يعلى، وإنّه ليحطّم (أوليحكم) ما تحته». قال أبوجهل: لايرضى عنك قومك حتّى تقول فيه. قال: فدعني حتى أُفكّر، فلمّا فكّر قال: هذا سحر يؤثر، يأثره عن غيره، فنزلت: «ذَرْني وَمَنْ خَلَقْتُ وَحيداً».[3]

قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد على شرط البخاري.[4]

وهكذا ائتمروا فيما يصنعون عندما تفد العرب في مواسم الحج فيستمعوا إلى قرآنه فينجذبون إليه انجذاباً. فتوافقوا على أن يترصّدوا لقبائل العرب عند وفودها للحجّ في

---

١ ـ إحياء العلوم، باب تلاوة القرآن، ج ١، ص ٢٨١.

٢ ـ الإصابة لابن‌حجر، ج ١، ص ٤١٠؛ والاستيعاب بهامشه، ج ١، ص ٤١٢؛ وأُسد الغابة لابن الأثير، ج ٢، ص ٩٠.

٣ ـ المدّثّر ٧٤: ١١.

٤ ـ المستدرك على الصحيحين، ج ٢، ص ٥٠٧؛ وراجع: الدر المنثور، ج ٦، ص ٢٨٣؛ وجامع البيان، ج ٢٩، ص ٩٨.

مداخل مكة، ويأخذوا بسبل الناس، لايمرّ بهم أحد إلّا حذّروه من الإصغاء إلى ما يقوله محمد بن عبدالله ﷺ فيقولوا: إنّه لسحر يفرّق به بين المرء وأخيه وأبيه وبين المرء وزوجه وولده وعشيرته!

كان الوليد قد حضر الموسم فاستغلّت قريش حضوره فاستماروه بشأن دعوة محمد ﷺ فأشار عليهم بتهمة السحر لمّا لم يجدوا سبيلاً إلى رميه بجنون أو شعر أو كهانة!

قال: يا معشر قريش، إنّه قد حضر هذا الموسم، وإنّ وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فاجمعوا فيه رأياً واحداً، ولا تختلفوا فيكذّب بعضكم بعضاً ويردّ قولكم بعضه بعضاً!

قالوا: فأنت يا أباعبد شمس فقل وأقم لنا رأيا نقول به.

قال: بل أنتم فقولوا، أسمع. قالوا: نقول: كاهن!

قال: لا والله ما هو بكاهن. لقد رأينا الكُهّان، فما هو بزمزمة الكاهن ولاسجعه.[١]

قالوا: فنقول: مجنون، قال: ما هو بمجنون. لقد رأينا الجنون وعرفناه. فما بخنقه.[٢] ولا تعالجه ولا وسوسته.

قالوا: فنقول: شاعر، قال: وما هو بشاعر، لقد عرفنا الشعر كلّه رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه، فما هو بالشعر.

قالوا: فنقول: ساحر، قال: ما هو بساحر، لقد رأينا السُحّار وسحرهم، فما هو بنفثهم ولا عقدهم.[٣]

قالوا: فما نقول يا أبا عبد شمس؟

قال: «والله إنّ لقوله لحلاوة، وإنّ أصله لعَذق،[٤] وإنّ فرعه لجناة وما أنتم بقائلين من

---

١ ـ زمزمة الكاهن: رنّة صوته عند قراءة الأوراد على نحو ما تفعله الفرس عند شرب الماء من صوت مصيصة.

٢ ـ خنق المجنون كناية عن بحّة صوته. وتعالجه: تعاطيه اُموراً غير منتظمة كناية عن هذيه.

٣ ـ إشارة إلى ما كان يفعل الساحر بأن يعقد خيطاً ثمّ ينفث فيه أي ينفخ ما يدمدمه من أوراد.

٤ ـ قال السهيلي: العذق بفتح العين النخلة. استعارة من النخلة التي ثبت أصلها وقوي، وطاب فرعها إذا اُجني أي اقتطف ثمرها. الروض الاُنف، ج ٢، ص ٢١.

هذا شيئاً إلّا عرف أنّه باطل». وإنّ أقرب القول فيه لأن تقولوا ساحر جاء بقول هو سحر يفرّق بين المرء وأبيه وبين المرء وأخيه وبين المرء وزوجته وبين المرء وعشيرته فتفرّقوا عنه بذلك، فجعلوا يجلسون بسبل الناس حين قدموا الموسم، لا يمرّ بهم أحد إلّا حذّروه إيّاه، وذكروا لهم أمره.[١]

وكانوا إذا رفع النبيّ صلى الله عليه وآله صوته بالقرآن، جعلوا يصفّقون ويصفّرون ويخلطون بالكلام لئلّا تسمع قراءته «وَقَالَ الَّذينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهٰذا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ».[٢]

قال ابن‌عباس: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وهو بمكة إذا قرأ القرآن يرفع صوته، فكان المشركون يطردون الناس عنه ويقولون: لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه. قال: بالتصفير والتخليط في المنطق على رسول الله صلى الله عليه وآله إذا قرأ القرآن، قريش تفعله.[٣]

الطفيل بن‌عمرو الدوسي

وكان الطفيل بن‌عمرو الدوسي شاعراً لبيباً من أشراف العرب، كان قد قدم مكّة ورسول الله صلى الله عليه وآله بها. فمشى إليه رجال من قريش، وقالوا له: يا طفيل، إنّك قدمت بلادنا، وهذا الرجل الذي بين أظهرنا قد أعضل بنا[٤] وقد فرّق جماعتنا وشتّت أمرنا، وإنّما قوله كالسحر يفرّق بين الرجل وبين أبيه، وبين الرجل وبين أخيه، وبين الرجل وبين زوجته، وإنّا نخشى عليك وعلى قومك ماقد دخل علينا، فلا تكلّمه ولا تسمعنّ منه شيئاً.

وكانت قريش قد تخوّفت من إسلام الطفيل، الشاعر المفلّق، وللشعر عند العرب مكانة سامية، فإذا أسلم اندفعت العرب وراءه.

قال الدوسي: فوالله ما زالوا بي حتّى أجمعتُ أن لا أسمع منه شيئاً ولا أُكلّمه، حتّى حشوتُ في اُذني حين غدوتُ إلى المسجد كرسفاً، فَرَقاً من أن يبلغني شيء من قوله.

قال: فغدوت إلى المسجد وإذا رسول الله صلى الله عليه وآله قائم يصلّي عند الكعبة، فقمت قريباً

---

١ ـ سيرة ابن‌هشام، ج ١، ص ٢٨٨–٢٨٩.

٢ ـ فصّلت ٤١: ٢٦.

٣ ـ الدرّ المنثور للسيوطي، ج ٥، ص ٣٦٢–٣٦٣.

٤ ـ أي أوجد معضلة فينا، والمعضلة هي المشكلة.

منه، فأبى الله إلّا أن يسمعني بعض قوله فسمعت كلاماً حسناً، فقلت في نفسي: واثكل أُمي، والله إنّي لرجل لبيب شاعر ما يخفى عليّ الحسن من القبيح، فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول فإن كان الذي يأتي به حسناً قبلته وإن كان قبيحاً تركته.

قال: فتبعته إلى بيته، وحدّثته الحديث، وقلت له: فأعرض عليّ أمرك! قال: فعرض ﷺ عليّ الإسلام وتلا عليّ القرآن. «فلا والله ماسمعت قولاً قطّ أحسن منه، ولا أمراً أعدل منه» فأسلمت وشهدت شهادة الحقّ... فرجع إلى قومه وكان داعية الإسلام، وأسلمت معه قبيلة دوس.[1]

هذه شهادة شاعر لبيب له مكانته عند العرب وله معرفته وذوقه وسليقته، جذبته روعة كلام الله وقلبته من كافر وثنيّ مشرك إلى داعية من دعاة الإسلام!

النضر بن الحارث

كان أبوجهل قد أزمع على أن ينال من محمد ﷺ فأخذ حجراً وجلس ينتظر قدومه ﷺ حتّى إذا جاء وقام للصلاة بين الركن اليماني والحجر الأسود جاعلاً الكعبة بينه وبين الشام. فلمّا سجد احتمل أبوجهل الحجر وأقبل نحوه، حتّى إذا دنىٰ منه رجع منهزماً منتقعاً لونه[2] مرعوباً قد يبست يداه على حجره، حتّى قذف الحجر من يده. فقامت إليه رجال من قريش وقالوا له: مالك يا أباالحكم، قال: قمت إليه لأفعل به ما قلت لكم البارحة ـ وكان قد عاهد الله ليفضخنّ رأسه بحجر ما أطاق حمله ـ[3] فلمّا دنوت منه عرض لي دونه فحل من الإبل، لا والله ما رأيت مثل هامته ولا مثل قصرته[4] ولا أنيابه لفحل قط، فهمّ بي أن يبتلعني!

فلمّا قال لهم ذلك أبوجهل، قام النضر بن الحارث بن كلدة بن علقمة بن عبدمناف وكان

---

١ ـ سيرة ابن‌هشام، ج ٢، ص ٢١-٢٥؛ وأسد الغابة، ج ٣، ص ٥٤.

٢ ـ انتقاع اللون: تغيّره.

٣ ـ الفضخ: الشدخ والكسر.

٤ ـ القصرة ـ بفتحتين ـ أصل العنق.

من رؤساء قريش، فقال: يا معشر قريش، إنّه والله قد نزل بكم أمر ما أتيتم له بحيلة بعد، قد كان محمد فيكم غلاماً حدثاً أرضاكم فيكم، وأصدقكم حديثاً، وأعظمكم أمانةً، حتّى إذا رأيتم في صدغيه الشيب، وجاءكم بما جاءكم به، قلتم: ساحر! لا والله ما هو بساحر، لقد رأينا السحرة ونفثهم وعقدهم. وقلتم: كاهن! لا والله ما هو بكاهن، قد رأينا الكهنة وتخالجهم[١] وسمعنا سجعهم. وقلتم: شاعر! لا والله ما هو بشاعر، قد رأينا الشعر وسمعنا أصنافه كلّها، هزجه ورجزه. وقلتم: مجنون! لا والله ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون فما هو بخنقه ولا وسوسته ولا تخليطه. قال: يا معشر قريش، فانظروا في شأنكم، فإنّه والله لقد نزل بكم أمر عظيم.

قال ابن‌هشام: وكان النضر هذا من شياطين قريش وكان ممّن ينصب العداء لرسول الله ﷺ [٢] ومن ثمّ لم تكن شهادته تلك اعترافاً بصدقه، ولا إيماناً بكتابه، وإنّما هي إثارة لشحناء قريش وتأليباً لعدائهم نحو دعوة الإسلام.

وسنأتي على بعض مواقفه التعنّتيّة مع رسول الإسلام (في فصل القرعات). وقع أسيراً يوم بدر، فقتله رسول الله ﷺ فيمن قتله صبراً.[٣]

عتبة بن‌ربيعة

قال ابن‌إسحاق: وحدّثني يزيد بن‌زياد عن محمد بن‌كعب القرظي قال:

حدّثت أنّ عتبة بن‌ربيعة، وكان سيّداً، قال يوماً وهو جالس في نادي قريش، ورسول الله ﷺ جالس في المسجد وحده: يا معشر قريش، ألا أقوم إلى محمّد فأُكلّمه وأعرض عليه أُموراً لعلّه يقبل بعضها فنعطيه أيّها شاء، ويكفّ عنها؟ وذلك حين أسلم حمزة ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ يزيدون ويكثرون. فقالوا: بلى يا أبا الوليد، قم إليه

---

١ ـ التخالج: هواجس نفسيّة مضطربة.

٢ ـ سيرة ابن‌هشام، ج ١، ص ٣٢٠-٣٢١.

٣ ـ الدر المنثور، ج ٣، ص ١٨٠.

فكلّمه. فقام إليه عتبة حتّى جلس إلى رسول الله ﷺ فقال:

يا ابن أخي، إنّك منّا حيث قد علمت من السطة[١] في العشيرة، والمكان في النسب، وإنّك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرّقت به جماعتهم، وسفّهت به أحلامهم[٢] وعيّبت به آلهتهم ودينهم وكفّرت به من مضى من آبائهم، فاسمع منّي أعرض عليك أُموراً تنظر فيها، لعلّك تقبل منها بعضها!

فقال له رسول الله ﷺ: قل يا أباالوليد، أسمع!

قال: يا ابن أخي، إن كنت إنّما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً، جمعنا لك من أموالنا حتّى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد به شرفاً، سوّدناك علينا، حتّى لانقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به ملكاً ملّكناك علينا... قال: وإن كان هذا الذي يأتيك رئيّاً تراه[٣] لاتستطيع ردّه عن نفسك طلبنا لك الطبّ، وبذلنا فيه أموالنا، حتّى نبرئك منه، فإنّه ربّما غلب التابع[٤] على الرجل حتّى يداوى منه!

حتّى إذا فرغ عتبة، ورسول الله ﷺ يستمع منه، قال: أقد فرغت يا أباالوليد؟ قال: نعم! قال ﷺ: فاسمع منّي! قال عتبة أفعلُ!

فجعل رسول الله ﷺ يقرأ من مفتتح سورة فصّلت:

«بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰانِ الرَّحِيمِ. حم. تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمٰانِ الرَّحِيمِ. كِتَابٌ فُصِّلَتْ آياتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ. بَشِيراً وَنَذِيراً...» فمضى ﷺ يقرأها عليه، وهو منصت لها.

قال: وكان عتبة ينصت لقراءته ﷺ وقد ألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يسمع منه، ثمّ انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها فسجد ثمّ قال: قد سمعت يا أباالوليد ما سمعت؟ فأنت وذاك!

فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبوالوليد بغير

---

١ ـ سطة كعدة مصدر محذوف الفاء مأخوذ من الوسط بمعنى الشرف. يقال وسط في حسبه أي صار شريفا.

٢ ـ الحلم: العقل.

٣ ـ الرئي: ما يتراءى للإنسان من الجنّ.

٤ ـ التابع: من يتبع الإنسان من الجنّ.

الوجه الذي ذهب به. فلمّا جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أباالوليد؟

قال: ورائي أنّي قد سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قطّ، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة!

يا معشر قريش، أطيعوني واجعلوها بي، وخلّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه فوالله ليكوننّ لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم، فإن تصبه العرب فقد كفيتوه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزّه عزّكم، وكنتم أسعد الناس به. قالوا: سحرك والله يا أباالوليد بلسانه. قال: هذا رأيي فيه، فاصنعوا مابدا لكم.[١]

وهي أيضاً شهادة ضافية من كبار قريش وزعماء العرب وسادتهم.

أُنيس بن جنادة

هو أخو أبي‌ذر الغفاري، كان أكبر منه، وكان شاعراً معارضاً يفوق أقرانه عند المعارضة. ينبئك عن ذلك حديث إسلام أخيه أبي‌ذر جندب بن‌جنادة، قال: والله ما سمعت بأشعر (أي أكثر شعراً وأحسن نظماً) من أخي أُنيسَ، لقد ناقَضَ (أي عارَضَ) اثني‌عشر شاعراً من معاريف شعراء الجاهلية، فغلبهم، وكان قاصداً مكة فقلت له: فليستخبر من حال رسول الله صلى الله عليه وآله فراث عليّ أي أبطأ، ثمّ جاء فقلت: ما صنعت؟

قال: «لقيت رجلاً بمكة على دينك ـ (إذ كان أبوذر يصلّي إلى ربّه منذ ثلاث سنين) ـ يزعم أنّ الله أرسله».

قلت: فما يقول الناس؟ قال: «يقولون شاعر، كاهن، ساحر»، قال أبوذر: ـ وكان أُنيس أحد الشعراء ـ قال أُنيس: «لقد سمعت قول الكهنة، فما هو بقولهم، ولقد وضعت قوله على أقراء الشعر، فما يلتئم على لسان أحد بعدي، أنّه شعر! والله إنّه لصادق، وإنّهم لكاذبون...».

قوله: أقراء الشعر أي أوزانه وقوافيه.[٢]

---

١ ـ سيرة ابن‌هشام، ج ١، ص ٣١٣-٣١٤.

٢ ـ الشفا بتعريف حقوق المصطفى، ج ١، ص ٢٢٤؛ وشرح الشفاء، ج ١، ص ٣٢٠-٣٢١؛ وراجع: صحيح مسلم، ج ٧، ص ١٥٣؛ والمستدرك على الصحيحين، ج ٣، ص ٣٣٩؛ والإصابة، ج ١، ص ٧٦ و ج ٤، ص ٦٣.

ثلاثة من أشراف قريش يتسلّلون بيت الرسول

كانت قريش ربّما تتسلّل ليلاً إلى استماع القرآن من رسول اللهﷺ أو أحد أصحابه، لترى ما في هذا الكلام من سرّ التأثير. فقد اتّفق أنّ أباسفيان بن‌حرب[1] وكذا أبوجهل بن‌هشام والأخنس بن‌شريق الثقفي وكان لمّاذاً خبيثاً يتظاهر بغير مايبطنه، خرجوا ليلاً إلى بيتهﷺ من غير أن يعلم كلّ بصاحبه. فجلس كلّ واحد في مخبئه لايعلم به أحد حتّى مطلع الفجر، يستمعون إلى قرآنه وهو قائم يصلّي في بيتهﷺ وعند الصباح أخذ كلّ منهم طريقه إلى بيته حتّى إذا جَمَعهم الطريق، فشلوا وتلاوموا، وقال بعضهم لبعض، لا تعودوا لمثل ذلك، فلورآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً وكان ذلك تأييداً لموضع محمدﷺ ثمّ انصرفوا، ولكن من غير أن ينقضي عجبهم أو يرتوي ظمؤهم إلى استماع هذا الكلام السحريّ العجيب، ومن ثمّ عادت مسيرتهم في الليلة الثانية والثالثة، وفي كلّ ليلة يفتضحون عند الصباح، حتّى تعاهدوا فيما بينهم أن لايعودوا أبداً.

وفي صباح اليوم الثالث جاء الأخنس إلى أبي‌سفيان يسترئيه فيما سمعه من محمدﷺ فقال: «والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها، وسمعت أشياء ماعرفت معناها ولا ما يراد بها!» فقال الأخنس: وأنا كذلك، والذي حلفت به!

ثمّ رجع إلى أبي‌جهل ودخل عليه وقال: يا أبا الحكم، ما رأيك فيما سمعت من محمدﷺ فقال: ماذا سمعتُ! تنازعنا نحن وبنو عبدمناف الشرف، أطعَموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتّى إذا تجاذينا على الرُّكب وكنّا كفرسي رهان!

والآن قالوا: منّا نبيّ يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك مثل هذه! والله لانؤمن به أبداً ولا نصدّقه. فقام عنه الأخنس وتركه![2]

هكذا تحكّم الحسد والعصبيّة في نفوس قريش، فحال دون قبولهم للحقّ الصريح،

---

١ ـ ويروى مكان أبي‌سفيان، الوليد بن‌المغيرة. قال الرفاعي: وهؤلاء الثلاثة من بلغاء قريش الذين لايعدل بهم في البلاغة أحد. إعجاز القرآن ـ في الهامش ـ ص ٢١٣.

٢ ـ سيرة ابن‌هشام، ج ١، ص ٣٣٧-٣٣٨.

فأخزاهم الله.

«قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُم».[١] «كَتَبَ اللهُ لأَغْلِبَنَّ أَنا وَرُسُلي إنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزيزٌ».[٢]

فصحاء قريش تحاول معارضة القرآن

ذكر أبوالحسن ابن‌رشيق القيرواني (ت ٤٥٦) بشأن مايعين على جيّد الشعر ـ وأنّ الطعام الطيّب، والشراب الطيّب، وسماع الغناء ممّا يرقّ الطبع، ويصفّي المزاج، ويعين على الشعر ـ: أنّ قريشاً لمّا أرادت معارضة القرآن، عكف فصحاؤهم الذين تعاطوا ذلك على لباب البرّ وسلاف الخمر ولحوم الضأن والخلوة إلى أن بلغوا مجهودهم. فلمّا سمعوا قول الله عزّوجلّ «وَقيلَ يا أَرْضُ ابْلَعي ماءَكِ، ويا سَماءُ أَقْلِعي وَغيضَ الْماءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظّالِمينَ»[٣] يئسوا ممّا طمعوا فيه، وعلموا أنّه ليس بكلام مخلوق...[٤]

وفي المجمع: فلمّا أخذوا فيما أرادوا سمعوا هذه الآية، فقال بعضهم لبعض: هذا كلام لايشبهه شيء من الكلام ولا يشبه كلام المخلوقين، وتركوا ما أخذوا فيه وافترقوا...[٥]

قال الزمخشري: ولِما اشتملت عليه الآية من المعاني والنكت استفصح علماء البيان هذه الآية ورقّصوا لها رؤوسهم، لا لتجانس الكلمتين وهما قوله «ابلعي» و«أقلعي» وذلك وإن كان لايخلي الكلام من حسن، فهو كغير الملتفت إليه بإزاء تلك المحاسن التي هي اللّبّ وما عداها قشور...[٦]

سنأتي على محاسن الآية ودقائق مزاياها ـ بتقرير من جهابذة الفن ـ عند ذكر الشواهد على النكت البلاغيّة في القرآن، في فصل قادم إن شاء الله.

---

١ ـ آل عمران ٣: ١١٩.

٢ ـ المجادلة ٥٨: ٢١.

٣ ـ هود ١١: ٤٤.

٤ ـ العمدة، ج ١، ص ٢١١.

٥ ـ مجمع البيان، ج ٥، ص ١٦٥.

٦ ـ الكشاف، ج ٢، ص ٣٩٨.

جذبات وجذوات[١]

«اللهُ نَزَّلَ أحْسَنَ الْحَديثِ كِتاباً مُتَشابِهاً مَثانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إلىٰ ذِكْرِ اللهِ ذٰلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدي بِهِ مَنْ يَشاءُ».[٢]

نعم هو أحسن حديث سمعته العرب بل البشرية جمعاء، كتاباً متشابهاً، لا يختلف أُسلوبه في التعبير والأداء، في أبدع لفظ وأفخم معنى، في روعة وأناقة وإكبار، لا يختلف أوّله عن آخره ولا أطرافه عن وسطه.

مثاني، تتكرّر قراءته من غير ملل ولا كسل، بل هو المسك ما كرّرته يتضوّع.

إنّها الأنفس البشريّة تهتزّ وجداً عند استماعه، وتطرب خفّة عند تلاوته، إنّها جذبة روحيّة تنجذب النفس انجذاباً من داخلها حيث جذوات الروح الملتهبة وليس وَهْماً أو خيالاً شعرياً في تيه الهيام.

«إنَّ في ذٰلِكَ لَذِكْرىٰ لِمَنْ كانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهيدٌ».[٣]

وعدّ القاضي عياض ذلك من دلائل إعجاز القرآن، قال:

«ومنها ـ من وجوه الإعجاز ـ: الروعة التي تلحق قلوب سامعيه وأسماعهم عند سماعه، والهيبة التي تعتريهم عند تلاوته، لقوّة حاله وإناقة خطره، وهي على المكذّبين به أعظم، حتّى كانوا يستثقلون سماعه ويزيدهم نفوراً، ويودّون انقطاعه، لكراهتهم له. وأمّا المؤمن فلا تزال روعته به وهيبته إيّاه مع تلاوته، توليه انجذاباً، وتُكسبه هشاشة لميل قلبه إليه وتصديقه به.

ويدلّ على أنّ هذا شيء خصّ به أنّه يعتري من لا يفهم معانيه ولا يعلم تفاسيره. كما روي عن نصرانيّ أنّه مرّ بقارئ، فوقف يبكي! فقيل له: ممّ بكيت؟ قال: للشجا و النظم.

وهذه الروعة قد اعترت جماعة قبل الإسلام وبعده، فمنهم من أسلم لها لأوّل وهلة

---

١ ـ من تلك الجذوة التي جذبت موسى عليه عليه السلام نحو الشجرة «فَلَمّا أتاها نُودِيَ مِنْ شاطِئِ الْوادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يا مُوسىٰ إنّي أَنَا اللهُ رَبُّ الْعالَمينَ» القصص ٢٨: ٣٠.

٢ ـ الزمر ٣٩: ٢٣.

٣ ـ ق ٥٠: ٣٧.

وآمن به، ومنهم من كفر...» فذكر حديث جبير بن‌مطعم وعتبة بن‌ربيعة، فيما يأتي.[١]

نفوس مستعدّة

«كتابٌ فُصِّلَتْ آياتُهُ قُرآناً عَرَبيّاً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ».[٢]

نعم، تلك قلوب واعية تتفتّح مساربها تلقاء آيات الذكر الحكيم، لا لشيء سوى أنّها نفوس مستعدّة صنعها خالق السماء وها هي كلماته المشرقة وجدت مواضعها فهبطت إليها.

«وإذا سَمِعُوا ما أُنْزِلَ إلَى الرَّسُولِ تَرىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفيضُ مَنَ الدَّمْعِ مِمّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنا آمَنّا فَاكْتُبْنا مَعَ الشّاهِدين وَما لَنا لا نُؤْمِنُ بِاللهِ وَما جاءَنا مِنَ الْحَقِّ».[٣]

وفد نصارى نجران

جاءت ركب النصارى عشرون رجلاً أو قريب من ذلك، إلى رسول الله ﷺ وهو بمكة، حين بلغهم خبره من الحبشة، فوجدوه في المسجد، فجلسوا إليه وكلّموه وسألوه، ورجال من قريش في أنديتهم حول الكعبة، فلمّا فرغوا من مسألة رسول الله ﷺ عمّا أرادوا، دعاهم رسول الله ﷺ إلى الله عزّوجلّ وتلا عليهم شيئاً من القرآن، فإذا هم لمّا سمعوا القرآن فاضت أعينهم من الدّمع، فاستجابوا لله وآمنوا به وصدّقوه وعرفوا من أمره ما قد وصفت لهم كتبهم.

ولمّا قاموا عنه اعترضهم أبوجهل بن‌هشام في‌نفر من قريش، فقالوا لهم: خيّبكم الله من ركب! بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم لتأتوهم بخبر الرجل، فلم تطمئن مجالسكم عنده حتّى فارقتم دينكم وصدّقتموه بما قال! ما نعلم ركباً أحمق منكم! فقالوا لهم: سلام عليكم لانجاهلكم، لنا ما نحن عليه ولكم ما أنتم عليه، لم نألُ أنفسنا

---

١ ـ الشفا بتعريف حقوق المصطفى، ج ١، ص ٢٣٠-٢٣١؛ وراجع شرحه للملّا علي القارئ، ج ١، ص ٣٢٨-٣٢٩.

٢ ـ فصّلت ٤١: ٣.

٣ ـ المائدة ٥: ٨٣-٨٤.

خيراً.[١]

قيل: ونزلت فيهم: «الَّذينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ. وإذا يُتْلىٰ عَلَيْهِمْ قالُوا آمَنّا بِهِ إنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنا إنّا كُنّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمينَ. أولٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِما صَبَرُوا وَيَدْرَأُونَ بالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ. وإذا سَمِعُوا اللَّغْوَ أعْرَضُوا عَنْهُ وَقالُوا لَنا أَعْمالُنا وَلَكُمْ أعْمالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغي الْجاهِلينَ».[٢]

سويد بن الصامت الشاعر

قدم سويد بن الصامت، أخو بني عمرو بن عوف (وكان ابن خالة عبدالمطلب) مكة حاجّاً أو معتمراً، وكان سويد يسمّيه قومه: الكامل، لجَلَده وشعره[٣] وشرفه ونسبه، وكان له علم بكتب السالفين. فتصدّى له رسول الله ﷺ حين سمع به، فدعاه إلى الله وإلى الإسلام. فقال له سويد: فلعلّ الذي معك مثل الذي معي، فقال له رسول الله ﷺ ما الذي معك؟ قال: مجلّة لقمان ـ يعني صحفاً فيها حكمة لقمان ـ.[٤] فقال له رسول الله ﷺ أعرضها عليّ، فعرضها عليه. فقال له: إنّ هذا الكلام حسن. والذي معي أفضل من هذا، قرآن أنزله الله تعالى عليّ هو هدى ونور. فتلا عليه رسول الله ﷺ القرآن ودعاه إلى الإسلام، فلم يبعد

---

١ ـ أي لم نقصّر لأنفسنا في مكسبة الخير والصلاح.

٢ ـ القصص ٢٨: ٥٢-٥٥. راجع: سيرة ابن هشام، ج ٢، ص ٣٢.

٣ ـ ومن شعره الرقيق قوله:

ألا ربّ من تدعو صديقاً ولو ترى	مقالته بالغيب ساءك ما يفري
مقالته كالشهد ما كان شاهداً	وبالغيب مأثور على ثُغرة النحر
يسرّك باديه وتحت أديمه	نميمة غش تبتري عقب الظهر
تبين لك العينان ما هو كاتم	من الغلّ والبغضاء بالنظر الشزرِ
فرشني بخير طالما قد بريتني	فخير الموالي من يريش ولا يبري

قوله: مأثور، هو السيف الموشى. ويقال: راشه أي قوّاه. وبراه أي أضعفه. سيرة ابن هشام، ج ٢، ص ٦٧.

٤ ـ قال السهيلي: ولقمان هذا كان نوبيّاً (من أهل نوبة) من أهل ايلة، وهو لقمان بن عنقاء فيما ذكروا. وابنه الذي يذكره القرآن هو ثاران فيما ذكر الزجّاج وغيره.

منه، وقال: إنّ هذا لَقَوْلٌ حسن. ثمّ انصرف عنه وقدم المدينة على قومه فلم يلبث أن قتلته الخزرج. وكان رجال من قومه يقولون: إنّا لنراه قد قتل وهو مسلم.[١]

إسلام سعد وأُسيد

وكان رسول اللهﷺ قد بعث مصعب بن‌عمير بن‌هاشم مع وفد الأنصار (الّذين بايعوا رسول اللهﷺ ليلة العقبة الأُولى على نبذ الشرك واجتناب المحارم) وأمره أن يقرئهم القرآن ويعلّمهم الإسلام ويفقههم في الدين، فنزل على أبي أُمامة أسعد بن‌زرارة بن‌عدس، فكان يصلّي بالقوم لأنّ أوساً وخزرجاً كرّه بعضهم أن يؤمّه بعض.

واتفق أنّ أسعد خرج بمصعب، يريد به دار بني‌عبدالأشهل ودار بني‌ظفر فدخل به حائطاً من حوائط بني‌ظفر، على بئر يقال لها: بئر مرَق، فجلسا في الحائط واجتمع إليهما رجال ممّن أسلم.

وكان سعد بن‌معاذ وأُسيد بن‌حضير، يومئذ سيّدي قومهما من بني عبدالأشهل، وكلاهما مشرك على دين قومه، فلمّا سمعا به قال سعد لأُسيد: لا أباً لك، انطلق إلى هذين الرجلين اللذين أتيا دارينا ليسفّها ضعفاءنا، فازجرهما وانههما عن أن يأتيا دارينا، فإنّه لولا أنّ أسعد منّي‌حيث عرفت كفيتك ذلك، هو ابن‌خالتي ولا أجد عليه مقدماً.

فأخذ أُسيد حربته ثمّ أقبل إليهما، فلمّا رآهُ أسعد، قال لمصعب بن‌عمير: هذا سيّد قومه قد جاءك فاصدق الله فيه. قال مصعب: إن يجلس أُكلّمه... فوقف أُسيد عليهما متشتمّاً، فقال: ماجاء بكما إلينا تسفّهان ضعفاءنا؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة.

فقال له مصعب: أو تجلس فتسمع، فإن رضيت قبلته، وإن كرهته كفّ عنك ماتكره! قال: أنصفت، ثمّ ركز حربته وجلس إليهما.

فكلّمه مصعب بالإسلام، وقرأ عليه القرآن.

---

١ ـ سيرة ابن‌هشام، ج ٢، ص ٦٨.

قالا (أي أسعد بن زرارة ومصعب بن عمير): فوالله لقد عرفنا الإسلام في وجهه قبل أن يتكلّم، في إشراقه وتسهّله!

ثمّ قال أُسيد: ما أحسن هذا الكلام وأجمله! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين؟

قالا له: تغتسل فتطهّر وتطهّر ثوبيك، ثمّ تشهد شهادة الحقّ، ثمّ تصلّي، ففعل وركع ركعتين، ثمّ قال لهما: إنّ ورائي رجلاً إن اتّبعكما لم يتخلّف عنه أحد من قومه، وسأرسله إليكما الآن، سعد بن معاذ...

ثمّ أخذ أُسيد بن حضير حربته وانصرف إلى سعد وقومه وهم جلوس في ناديهم، فلمّا نظر إليه سعد بن معاذ مقبلاً، قال: أحلف بالله لقد جاءكم أُسيد بغير الوجه الذي ذهب به.

فلمّا وقف على النادي قال له سعد: ما فعلت؟

قال: كلّمت الرجلين، فوالله مارأيت بهما بأساً، وقد نهيتهما، فقالا: نفعل ما أحببت، وقد حُدّثت أنّ بني حارثة قد خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه، وذلك أنّهم قد عرفوا أنّه ابن خالتك، ليخفروك.[١]

فقام سعد بن معاذ مغضباً مبادراً، تخوفّا للذي ذكر له. فأخذ الحربة من يد أُسيد وقال: والله ما أراك أغنيت شيئاً! ثمّ خرج إليهما، فلمّا رآهما سعد مطمئنّين، عرف أنّ أُسيد إنّما أراد منه أن يسمع بنفسه منهما، فوقف عليهما متشتّماً، وقال لأسعد بن زرارة: يا أباأُمامة أما والله، لولا ما بيني وبينك من القرابة مارمت هذا منّي، أتغشانا في دارنا بما نكره!

فقال له مصعب: أو تقعد فتسمع... إلى آخر ما ذكره لأُسيد.

فرغب سعد في الإسلام كأخيه أُسيد وفعل مثل ما فعل وشهد الشهادتين.

ثمّ أقبل عائداً إلى نادي قومه ومعه أُسيد بن حضير، فلمّا وقف على القوم، قال: يابني عبدالأشهل، كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالوا: سيّدنا وأوصلنا وأفضلنا رأياً وأيمننا نقيبةً!

قال: فإنّ كلام رجالكم ونسائكم عليّ حرام حتّى تؤمنوا بالله ورسوله.

---

١ ـ الإخفار: نقض العهد والغدر. وفي نسخة: ليحقروك بالحاء المهملة والقاف من التحقير.

قالا: فوالله ما أمسى في دار بني عبدالأشهل رجل ولا امرأة إلّا مسلماً ومسلمة.[1]

بكاء النجاشي

وفي الهجرة الأُولى إلى أرض الحبشة،[2] أرسل إليهم النجاشي يستخبر أحوالهم فتقدّم جعفر بن أبي‌طالب، وكان لسان القوم، وقال: أيّها الملك، كنّا قوماً أهل جاهليّة، نعبد الأصنام ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجار، ويأكل القويّ الضعيف، فكنّا على ذلك حتّى بعث الله إلينا رسولاً منّا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله ـ إلى أن قال ـ: فلمّا ضيّقت علينا قريش وحالت بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك ورغبنا في جوارك ورجونا أن لانظلم عندك أيّها الملك.

فقال له النجاشي: هل معك شيء ممّا جاء به عن الله؟

قال جعفر: نعم. قال: فاقرأه عليّ!

فقرأ جعفر صدراً من سورة مريم فيما حكاه الله من حديث زكريّا ويحيى وعيسى وأُمّه الصدّيقة العذراء. وكان قد تلى الآيات بترنّم أخذ بمجامع قلوب السامعين.

فلمّا استمع النجاشي إلى هذا الترنّم المرهف، بكى بكاءً شديداً حتّى اخضلّت لحيته، وبكت الأساقفة الذين كانوا حضوراً وكانت صحفهم بين أيديهم وقد ابتلّت بدموعهم، حينما سمعوا ما تلي عليهم من آيات الذكر الحكيم.

ثمّ قال لهم النجاشي: إنّ هذا وما جاء به المسيح ليخرجان من مشكاة واحدة. وذكر ابن‌هشام أنّه أسلم ومات مسلم وصلّى عليه النبيّ ﷺ واستغفر له.[3]

---

١ ـ سيرة ابن‌هشام، ج ٢، ص ٧٧-٨٠.

٢ ـ كانت الهجرة إلى أرض الحبشة ذات مرحلتين. كان في المرحلة الأُولى تسلّل رجال من مكّة لواذاً، في خمسة عشر نفساً (أحد عشر رجلاً وأربعة نساءً)، وفي المرحلة الثانية كانوا ثمانين رجلاً غير نسائهم وأطفالهم، وكان قد ترأسهم جعفر بن أبي‌طالب، وكان لسان القوم وهو الذي تكلّم مع النجاشي وأصحابه فيما تكلّم.

والهجرة إلى الحبشة في مرحلتيها تسمّى الهجرة الأُولى تجاه الهجرة الكبرى إلى المدينة.

٣ ـ المصدر، ج ١، ص ٣٥٩-٣٦٥.

عند رجال العلم والأدب المعاصر

ويجدر بالذكر، اعتراف رجال العلم والأدب المعاصر بهذه الجاذبيّة السحريّة للقرآن، ولاسيّما الأجانب لايملكون خضوعهم تجاه عظمته الخارقة. يقول الأُستاذ المحقّق ـ بجامعة كمبريج ـ «كينت كريج» في كتابه «كيف عرفت القرآن»: الإنسان عندما يبدأ بقراءة القرآن يجد نفسه منجذباً إليه، وكلّما يتقدّم في القراءة يشتدّ هذا الانجذاب، بحيث لايستطيع ترك قراءته إلّا بصعوبة.

وإنّي لأوّل مرّة عندما فتحت القرآن أقرأه، حسبت أنّها حالة عرضتني بالذات، ولكنّي عندما راجعت زملائي ـ ممنّ زاول ترجمة القرآن إلى اللغات الأُوربّيّة ـ أو كاتبتهم، وجدتهم على مثل حالتي على سواء. وجدير بالذكر أنّها جذبة خاصّة بنصّ الأصل وليست كما هي في تراجمه.

إنّ هذا التأثير على المسلمين، لابدّ أنّه طبيعي، بفضل عقيدتهم بوحيانيّة القرآن وأنّه كلام الله العزيز الحميد. أمّا تأثيره على الرجل الأُوروبّي وكذا المرأة الأُوروبية، فيبدو غير طبيعي، ومن ثَمَّ فلابدّ من التريّث لديه وتحليله تحليلا علميّاً.

لاحاجة إلى بيان أن لاتأثير للقرآن عقائديّاً على الإنسان المسيحى الأُوروبّي تأثيره على المسلمين. لأنّه لايراه وحياً ولايصدّق بكونه كتاباً سماوياً نزل على محمد رسول‌الله! فلابدّ أنّ هذه التأثير لايعود إلى معاني القرآن ومفاهيمه الحكيمة كما هي عند المسلمين.

وقد راجعت عامّة الأُوروبيّين المنشغلين بشؤون القرآن، ووجدتهم متّفقي القول في أنّ للقرآن جذبة مغناطيسيّة ساحرة، تعمل شرارتها في النفوس كما يعمل حجر المغناطيس في برادة الحديد لايدعها تفارقه إلّا بشدّة وعنف.

ولهذه الجذبة ـ كما سمعت الكثير من المحقّقين والمترجمين للقرآن ـ أثرها بحيث إذا بدأ أحدهم يفتح القرآن ويقرأ منه، لايستطيع أن يفارقه ويزداد اشتياقاً في مداومة القراءة إلى غير نهاية.

وقد جربّت على نفسي: هل هذا التأثير يعود إلى اشتياقي المفرط في فهم معاني القرآن؟ فوجدتُ الجواب: لا، وإن كان اهتمامي بمعرفة معاني القرآن كثيراً، لكنّه ليس هو العامل الوحيد، بل المعاني إذاكانت غير متسلسلة تسلسلاً منطقيّاً، وكانت متفرّقة إلى حدّ ما، ليس لها ذلك التأثير والجذبة الملحّة. إنّما هي في جرس الألفاظ وفي روعة الكلمات المنضّدة ذلك النضد البديع، والمنتظمة ذلك النظم العجيب. وفي نظامه الصوتي الغريب، الذي يأخذ بالألباب ويدوّي برنّته ملأ الآفاق.

ويمكن تعليل ذلك بنضد كلماته أوّلاً ذلك النضد الرائع، نضداً يفوق نظم الشعر ويسطو تأثيره على تأثير السحر. وثانياً في استقامة سبكه وتأليف لفظه غير محايد على قواعد اللغة الأصح الأفصح الأفشى. وثالثاً جزالة الكلام وسلاسته، في صياغة عذبة يستسيغها كلّ عربيّ صميم وكلّ عارف بأُصول اللغة. إنّ هذه السهوله والسلاسة تجدها في عامّة قصصه وأمثاله وحكمه، وحتى في تشريعاته وأحكامه، بحيث يهشّ لها المسامع ويجلو لها الأذهان، فتراهم وهم يستمعون إليه إلّا وتنطبع ترسيماته على صفحات الأذهان، وهو أثر متبقّ خالد للقرآن مدى الأحقاب.[١]

❊ ❊ ❊

ويُعجبني أن أذكر هنا حادثاً طريفاً عرض له سيّد قطب أثناء سفرته إلى «نيويورك» على ظهر باخرة، فيها الكثير من الأجانب المسيحيّين. يقول هو عنه:

إنّ الأداء القرآني يمتاز من الأداء البشري: إنّ له سلطاناً عجيباً على القلوب ليس للأداء البشري، حتى ليبلغ أحياناً أن يؤثّر بتلاوته المجرّدة، على الذين لايعرفون من العربّية حرفاً.. وهناك حوادث عجيبة لايمكن تفسيرها بغير هذا الذي نقول ـ وإن لم تكن هي القاعدة ـ ولكن وقوعها يحتاج إلى تفسير وتعليل.. ولن أذكر نماذج ممّا وقع لغيري، ولكنّي أذكر حادثاً وقع لي وكان عليه معي شهود ستّة، وكان ذلك منذ حوالي خمسة عشر

---

١ ـ راجع: كيف عرفت القرآن (قرآن را چگونه شناختم) ترجمة واقتباس ذبيح الله منصوري، ص ٢٥-٣٢. (انتشارات مجيد ـ طهران) ط ٣ / ١٣٦٩هـ.ش.

عاماً..

كنّا ستة نفر من المنتسبين إلى الإسلام على ظهر سفينةٍ مصريّة تمخر بنا عُباب المحيط الأطلسي إلى نيويورك، من بين عشرين ومائة راكب وراكبة أجانب ليس فيهم مسلم.. وخطر لنا أن نقيم صلاة الجمعة في المحيط على ظهر السفينة! والله يعلم، أنّه لم يكن بنا أن نقيم الصلاة ذاتها أكثر ممّا كان بنا حماسة دينيّة إزاء مبشّر كان يزاول عمله على ظهر السفينة، وحاول أن يزاول تبشيره معنا!.. وقد يسّر قائد السفينة ـ وكان إنجليزيّاً ـ أن نقيم صلاتنا، وسمح لبحّارة السفينة وطهاتها وخدمها ـ وكلّهم نوبيّون مسلمون ـ أن يصلّي منهم معنا من لايكون في «الخدمة» وقت الصلاة. وقد فرحوا بهذا فرحاً شديداً، إذ كانت المرّة الأُولى التي تقام فيها صلاة الجماعة على ظهر السفينة... وقمتُ بخطبة الجمعة وإمامة الصلاة، والركّاب الأجانب ـ معظمهم ـ متحلّقون يرقبون صلاتنا!... وبعد الصلاة جاءنا كثيرون منهم يهنّئوننا على نجاح «القدّاس»!! فقد كان هذا أقصى ما يفهمونه من صلاتنا! ولكن سيّدة من هذا الحشد ـ عرفنا فيما بعد أنّها يوغسلافيّة مسيحيّة هاربة من جحيم «تيتو» وشيوعيّته! ـ كانت شديدة التأثّر والانفعال، تفيض عيناها بالدمع ولاتتمالك مشاعرها. جاءت تشدّ على أيدينا بحرارة، وتقول ـ في إنجليزيّة ضعيفة ـ: إنّها لاتملك نفسها من التأثّر العميق بصلاتنا هذه ومافيها من خشوع ونظام وروح!.. وليس هذا موضع الشاهد في القصّة... ولكن ذلك كان في قولها: أيّ لغة هذه التي كان يتحدّث بها «قسّيسكم»! فالمسكينة لاتتصوّر أن يقيم «الصلاة» إلّا قسّيس ـ أو رجل دين ـ كما هو الحال عندها في مسيحيّة الكنيسة! وقد صحّحنا لها هذا الفهم!... وأجبناها.. فقالت: إنّ اللّغة التي يتحدّث بها ذات إيقاع موسيقي عجيب، وإن كُنت لم أفهم منها حرفاً.. ثُمَّ كانت المفاجأة الحقيقيّة لنا وهي تقول: ولكن هذا ليس الموضوع الذي أُريد أن أسأل عنه.. إنّ الموضوع الذي لفت حسّي، هو أنّ «الإمام» كانت ترد في أثناء كلامه ـ بهذه اللغة الموسيقيّة ـ فقراتٌ من نوع آخر غير بقيّة كلامه! نوع أكثر موسيقيّة وأعمق إيقاعاً.. هذه الفقرات الخاصّة كانت تحدث فيّ رعشة وقشعريرة! إنّها شيء آخر!

كما لو كان ـ الإمام ـ مملوءاً من الروح القدس! ـ حسب تعبيرها المستمدّ من مسيحيّتها! ـ وتفكّرنا قليلاً، ثُمَّ أدركنا أنّها تعني الآيات القرآنيّة التي وردت في أثناء خطبة الجمعة وفي أثناء الصلاة! وكانت ـ مع ذلك ـ مفاجأة لنا تدعو إلى الدهشة، من سيّدة لاتفهم ممّا نقول شيئاً!

قال سيد قطب: إنّ وقوع هذه الحادثة ـ ووقوع أمثالها ممّا ذكره لي غير واحد ـ ذو دلالة على أنّ في هذا القرآن سرّاً آخر تلتقطه بعض القلوب لمجرّد تلاوته. وقد يكون إيمان هذه السيّدة بدينها، وفرارها من الجحيم الشيوعي في بلادها، قد أرهف حسّها بكلمات الله على هذا النحو العجيب.. ولكن ما بالنا نعجب وعشرات الأُلوف ممّن يستمعون إلى القران من عوامّنا لايطرق عقولهم منه شيء، ولكن يطرق قلوبهم إيقاعه ـ وسرّه هذا ـ وهم لايفترقون كثيراً من ناحية فهم لغة القرآن عن هذه السيّدة اليوغسلافيّة!!![1]

١ ـ في ظلال القرآن ـ المجلد الرابع ـ، ص ٤٢١-٤٢٣، الجزء ١١، ص ١٤٩-١٥١.

قرعات وقمعات

لم تكن قرعات كلامه تعالى القامعة بأقلّ تأثيراً في نفوس كـافرة مـضطربة، مـن جذبات جذواته لنفوس مؤمنة مطمئنّة، وإن كانت قريش لتمجّ من سماع القرآن وتتنفّر منه نفرة الوحش عند اصطياد! «كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرةٌ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ».[١]

«وَلَقَدْ صَرَّفْنا في هٰذا الْقرآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَما يَزيدُهُمْ إلّا نُفُوراً».[٢]

«وَإذا ذَكَرْتَ رَبَّكَ في الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أدبارِهم نُفُوراً».[٣]

«تِلْكَ آياتُ اللهِ نَتْلُوها عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَديثٍ بَعْدَ اللهِ وَآياتِهِ يُؤْمِنُونَ. وَيْلٌ لِكُلِّ أَفّاكٍ أَثيمٍ. يَسْمَعُ آياتِ اللهِ تُتْلىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بَعَذابٍ أَليمٍ. وَإذٰا عَلِمَ مِنْ آياتِنا شَيْئاً اتَّخَذَها هُزُواً أُوْلئِكَ لَهُمْ عَذٰابٌ مُهينٌ. مِنْ وَرائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلٰا يُغْني عَنْهُمْ ما كَسَبُوا شَيْئاً وَلٰا مَااتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِياءَ وَلَهُمْ عَذٰابٌ عَظيمٌ. هٰذا هُدىً والَّذينَ كَفَرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذٰابٌ مِنْ رِجْزٍ أَليمٍ».[٤]

انظر إلى وقعات هذا الكلام الدامغة، إنّها شديدة، تدهش وتذهل وتذيب:

.. ويلٌ لكلّ أفّاك أثيم!

---

١ ـ المدّثّر ٧٤: ٥٠-٥١.
٢ ـ الإسراء ١٧: ٤١.
٣ ـ الإسراء ١٧: ٤٦.
٤ ـ الجاثية ٤٥: ٦-١١.

.. فبشّره بعذاب أليم!

.. أُولئك لهم عذاب مهين!

.. من ورائهم جهنّم ولايغني عنهم ما كسبوا شيئاً!

.. ولهم عذاب عظيم!

.. لهم عذاب من رجز أليم!

ستّ قرعات متتالية على رأس مستكبر أصرّ على استكباره كأن لم يسمعها!

لم تكن العرب الواهنة القوى، المتجزّئة الأشلاء يومذاك، لتطيق تحمّل هكذا قرعات عنيفة متتابعة شديدة، ومن ثمّ كان اللجوء إلى تولول وصراخ وصياح..!

استمع إلى الآيات التالية، ثمّ قايس بين وقعاتها ونفوس منهارة كانت تحاول كفاح القرآن!

«يَوْم تكُونُ السَّماءُ كَالْمُهْلِ. وَتكُونُ الْجِبالُ كَالْعِهنِ. وَلايَسأَلُ حَمِيمٌ حَميماً. يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْيَفْتَدي مِنْ عَذابِ يَوْمِئذٍ بِبَنِيهِ. وَصاحِبَتِهِ وَأَخيهِ. وَفَصيلَتِهِ الَّتى تُؤْويهِ. وَمَنْ فِي الأَرْضِ جَميعاً ثُمَّ يُنْجيهِ».[1]

«فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْواقِعَةُ. وانْشَقَّتِ السَّماءُ فَهيَ يَوْمَئِذٍ واهِيَةٌ. وَالْمَلَكُ علىٰ أرْجائِها وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمانِيَةٌ. يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لاتَخفىٰ مِنْكُمْ خافِيَةٌ. فَأمّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمينِهِ فَيَقولُ هاؤُمُ اقْرَأوا كِتابِيَهْ. إنّي ظَنَنْتُ أنّي مُلاقٍ حِسابِيَهْ. فَهو في عيشَةٍ راضِيَةٍ. في جَنَّةٍ عالِيَةٍ. قُطوفُها دانِيَةٌ. كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنيئاً بِما أَسْلَفْتُمْ في الْأَيّامِ الْخالِيَةِ. وَأمّا مَن أُوتِيَ كِتابَهُ بِشِمالِه فَيقُولُ ياليَتَني لَمْ أُوتَ كِتابِيَهْ. وَلَمْ أَدْرِ ما حِسابِيَه. ياليْتَها كانَتِ الْقاضِيَةَ. ما أَغْنىٰ عَنّي مالِيَهْ. هَلَكَ عَنّي سُلْطانِيَهْ».[2]

«وَاصْبِرْ عَلى ما يَقولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَميلاً. وذَرْني وَالمُكذِّبينَ أُولي النَّعْمَةِ ومَهِّلْهُمْ قَليلاً. إنَّ لَدَينا أَنْكالاً وجَحيماً وَطَعاماً ذاغُصَّةٍ وَعَذاباً أليماً».[3]

---

١ ـ المعارج ٧٠: ٨-١٤.
٢ ـ الحاقة ٦٩: ١٥-٢٩.
٣ ـ المزّمل ٧٣: ١٠-١٣.

إلى غيرهنّ من آيات ذوات الأجراس المدويّة، وفي تقطيعات متقاربة ومتوازنة، تشبه قرعات الحدّادين المتواصلة ولاسيّما في نفوس آثمة ارتكبت مآسي وأجراما:

أبولهب وامرأته حمّالة الحطب

أبولهب ـ واسمه عبدالعزّى ابن عبدالمطلب ـ وهو عمّ النبيﷺ. وإنّما سمّي أبالهب لإشراق وجهه ووضائته. وكان هو وامرأته «أُمّ جميل» من أشدّ الناس إيذاءً لرسول اللهﷺ ومكافحة للدعوة التي جاء بها.

قال طارق المحاربي: بينا أنا بسوق ذي‌المجاز، إذا أنا بشابّ يقول: أيّها النّاس، قولوا: لا إله إلّا الله، تفلحوا! وإذا برجل خلفه يرميه قد أدمى ساقيه وعرقوبيه ويقول: أيّها النّاس، إنّه كذّاب فلا تصدّقوه! قلت: من هذا؟ قالوا: محمّد يزعم أنّه نبيّ، وهذا عمّه أبولهب يزعم أنّه كذّاب.

روى ابن اسحاق بإسناده إلى ربيعة بن‌عباد، قال: إنّي، لمع أبي رجل شابّ، أنظر إلى رسول اللهﷺ يتّبع القبائل، ووراءه رجل أحول، وضيء الوجه ذوجمّة (عليه شَعْر كثير). يقف رسول اللهﷺ على القبيلة فيقول: «يا بني فلان، إنّي رسول الله إليكم، أدعوكم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً. وأن تصدّقوني وتمنعوني حتّى أُنفّذ عن الله ما بعثني به»... وإذا بالرجل من خلفه يبادر فيقول: يا بني فلان، هذا يريد منكم أن تسلخوا اللّات والعزّى وحلفاءكم، إلى ما جاء به من البدعة والضلال، فلا تسمعوا له ولا تتّبعوه... فقلت لأبي: من هذا؟ قال: عمّه أبولهب!

وكانت زوجته أُمّ جميل في عونه في هذه الحملة الدائبة الظالمة ـ وهي أروى بنت حرب ابن‌أُميّة أُخت أبي‌سفيان ـ كانت تسعى عند القوم بالنميمة على رسول اللهﷺ لتفسد عليه قلوب القوم والعشيرة. والساعي بالنميمة: حامل حطب، كما قال الراجز:

إنّ بني الأدرم حمّالوا الحطب   هم الوشاة في الرضاء والغضب

ولقد اتّخذ أبولهب موقفه هذا من رسول اللهﷺ منذ اليوم الأوّل للدعوة. خرج

النبيﷺ إلى البطحاء، فصعد الجبل ونادى: يا صباحاه! فاجتمعت إليه قريش. فقال: أرأيتم إن حدّثتكم أنّ العدوّ مصبحكم أو ممسيكم، أكنتم مصدقيّ؟ قالوا: نعم. قال: «فإنّي نذير لكم بين يدي عذاب شديد». فقال أبولهب: ألهذا جمعتنا؟ تبّاً لك. فنزلت في شأنه: «تَبَّتْ يَدا أَبِي لَهَبٍ...».

ولمّا أجمع بنوهاشم بقيادة أبي‌طالب على حماية رسول اللهﷺ خرج أبولهب على إخوته، وحالف عليهم قريشاً، وكان معهم في الصحيفة التي كتبوها بمقاطعة بني‌هاشم وتجويعهم كي يُسلموا لهم محمّداًﷺ.

وكان قد خطب بنتي رسول اللهﷺ رقيّة وأُمّ‌كلثوم لولديه قبل البعثة، فلمّا كانت البعثة أمرهما بتطليقهما حتّى يثقل كاهل رسول اللهﷺ بهما!

وهكذا مضى هو وزوجته أُمّ‌جميل يثيرانها حرباً شعواء على النبيّﷺ وعلى الدعوة، لاهوادة فيها ولا هدنة. وكان بيت أبي‌لهب قريباً من بيت رسول اللهﷺ فكان الأذى أشدّ!

نزلت سورة المسد لتردّ على هذه الحرب المعلنة من أبي‌لهب وامرأته، وتولّى الله ـ سبحانه ـ عن رسولهﷺ أمر المعركة:

«تَبَّتْ يَدا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ...» والتباب: الهلاك والبوار والقطع.

و«تبّت» الأُولى دعاء. و«تبّ» الثانية تقرير لوقوع هذا الدعاء.

ففي آية قصيرة واحدة في مطلع السورة تصدر الدعوة وتتحقّق، وتنتهي المعركة ويسدل الستار!

واليدان هنا كناية عن القدرة والبطش، فإذا قيل: فلان خسرت يده، أي قعد به الإفلاس فلا يقدر على شيء. وذكر اليدين أبلغ في الدلالة على هلاك الشخص وخسرانه نهائيّاً. ومعناه: إنّه لم يكتسب يداه خيراً يعود إليه وخسر مع ذلك هو نفسه.

«ما أَغْنىٰ عَنْهُ مالُهُ وَما كَسَبَ» وكان ذاثروة طائلة وكان مرابياً يكدّ على جمع المال ليدّخره ليوم الحاجة. لكن ماله الذي اكتسبه من حرام لم يف له. فقد ابتلى بقرحة

«العدسة» ـ وهي قرحة خبيثة مُعدية تشبه الجذام ذات نتن ـ فكان يعالج بنفسه لا يقترب منه أحد من أهله توقّياً من القرحة، فترك ثلاثة أيّام حتّى أنتن في بيته فأهالوا عليه التراب ودفنوه لحاله.

«سَيَصْلىٰ نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ» وعيد حتم بمآل الحال. «وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ» هي مقيّدة بجرائمها وذمائمها قيداً وثيقاً.

❊ ❊ ❊

وفي الأداء التعبيري للسورة تناسق دقيق ملحوظ مع موضوعها وجوّها، والّذي أثّر وقعه في نفس أُمّ جميل التي ذُعرت لها وجنّ جنونها:

«أبو لهب، سيصلى ناراً ذات لهب...»

تناسق في اللفظ وتناسق في الصورة، فجهنّم هنا نار ذات لهب يصلاها أبو لهب، وهو صاحبه أبداً.

«وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ...» والحطب ممّا يوقد به اللهب.

وتناسق آخر في جرس الكلمات، مع الصوت الذي يحدثه شدّ أحمال الحطب وجذب العنق بحبل من مسد!

وهذا التناسق القويّ في التعبير جعل أُمّ جميل تحسب أنّ الرسول ﷺ قد هجاها بشعر، وبخاصّة حين انتشرت هذه السورة وما تحمله من تهديد ومذمّة وتصوير زريّ لأُمّ جميل خاصّة. تصوير يثير السخريّة من امرأة معجبة بنفسها، مُدلّة بحسبها ونسبها. ثمّ ترتسم لها هذه الصورة: «حَمَّالَةَ الحَطَبِ، فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِن مَسَد» في هذا الأُسلوب القويّ الذي يشيع عند العرب!

قال ابن اسحاق: إنّ أُمّ جميل حمّالة الحطب، حين سمعت ما نزل فيها وفي زوجها من القرآن، خرجت تهرول وتولول صارخة كالمجنونة، تعوي في طرقات مكّة وتقول: إنّ محمّداً هجاني، وتستنجد بالشعراء أن يهجوا محمّداً كما هجاها، ولكنّها جعلت نفسها سخريّة للنّاس. فأتت رسول الله ﷺ وهو جالس بفناء الكعبة وفي يدها فهر (بمقدار ملئ

الكف) من الحجارة، فلمّا وقفت عليه أخذ الله ببصرها من شدّة هياجها فلم تبصر رسول الله، فجعلت تقول: أين محمّد، أين الذي كان يهجوني؟! والله لو وجدته لشدخته بهذا الفهر. فجعلت تهجو النبي بقولها:

مُذَمّماً عصينا. وأمره أبينا. ودينه قلينا.

فانصرفت مذعورة مقهورة وكان آخر أمرها أن ماتت واجدة على أمرها في عاقبة سوء.[١]

أُميّة بن خلف

كان من أثرياء قريش معجباً بنفسه ومترفّعاً بثرائه ومن العتاة المستكبرين في الأرض. كان كلّما رأى رسول الله ﷺ يسخر منه ومن المؤمنين به ويستهين بهم. وكان من خسّته الهمز واللمز بالناس وخاصّة بالمستضعفين من المؤمنين، فيحاول التنقيص منهم والتعيير بشأنهم في دناءة ولؤم. فنزلت في شأنه:

«وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ. الَّذي جَمَعَ مالاً وَعَدَّدَهُ. يَحْسَبُ أَنَّ مالَهُ أَخْلَدَهُ. كَلّا لَيُنْبَذَنَّ في الْحُطَمَةِ. وَما أَدْراكَ ما الْحُطَمَةُ. نارُ اللهِ الْمُوقَدَةُ. الَّتي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ. إِنَّها عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَة. في عَمَدٍ مُمَدَّدَة».[٢]

هذه الآيات تعكس صورة من الصور الواقعيّة الّتي تواجهها دعوة الحقّ أينما كانت، صورة اللئيم الصغير النفس الذي يؤتى المال فتسيطر نفسه به، ويروح يشعر أنّ المال هو القيمة العليا في الحياة، القيمة الّتي تهون أمامها جميع القيم وجميع الأقدار. وهي صورة حقيرة من صور النفوس البشرية حين تخلو من المروءة وتعرى من الإيمان.

والإسلام يكره هذه الصورة الهابطة من صور النفوس، بحكم ترفّعه الأخلاقي، وقد نهى عن السخرية واللمز والتعييب في مواضع شتّى. إلّا أنّ ذكرها هنا بهذا التشنيع والتقبيح

---

١ ـ راجع: سيرة ابن‌هشام، ج ١، ص ٣٨١؛ والروض الأُنف للسهيلي، ج ٢، ص ١١١-١١٥ وغيرهما.

٢ ـ الهمزة ١٠٤: ١-٩.

مع الوعيد والتهديد، يوحي بأنّه كان يواجه حالة واقعيّة من بعض المشركين تجاه رسول الله ﷺ وتجاه المؤمنين. فجاء الردّ عليها في صورة الردع الشديد، والتهديد الرعيب.

والتهديد يجيء في صورة مشهد من مشاهد القيامة، كانت صورة منعكسة عن الحالة الرديئة التي زاولها أعداء الإسلام في هذه الحياة، فكانت صورة تمثّل للعذاب مادّيّة ونفسيّة، وصورة للنار حسّيّة ومعنويّة. وقد لوحظ فيها التقابل بين الإجرام وطريقة الجزاء وجوّ العقاب.

فصورة الهمزة واللمزة، الذي يدأب على الهزء بالناس وعلى لمزهم في أنفسهم وأعراضهم، وهو يجمع المال فيظنّه كفيلاً بالخلود! صورة هذا المتعالي الساخر المستقوي بالمال، تقابلها صورة «المنبوذ» المهمل المتردّى في «الحُطَمة» الّتي تحطم كلّ ما يلقى إليها، فتحطم كيانه وكبرياءه. وهي «نارُ اللهِ المُوقَدَة». وإضافتها لله وتخصيصها هكذا يوحي بأنّها نارٌ فذّة، غير معهودة. ويخلع عليها رهبة مفزعة رعيبة. وهي «تطّلع» على فؤاده الذي ينبعث منه الهمز واللمز، وتكمن فيه السخريّة والكبرياء والغرور. وتكملة لصورة هذا المحطّم المنبوذ المهمل، جاء وصف النار هذه بأنّها مغلقة عليه. ولا ينقذه منها أحد، ولا يسأل عنه فيها أحد! وهو موثّق فيها إلى عمود كما توثق البهائم بلا احترام!

وفي جرس الألفاظ تشديد: «عدّده، كلّا. لينبذنّ. تطّلع. ممدّدة». وفي معاني العبارات توكيد بشتّى أساليب التوكيد: «لَيُنْبَذَنَّ في الْحُطَمَة. وَما أَدْراكَ مَاالْحُطَمة؟ نارُ اللهِ المُوقَدَة...» فهذا الإجمال والإبهام، ثمّ سؤال الاستهوال، ثمّ الإجابة والبيان.. كلّها من أساليب التوكيد والتضخيم. وفي التعبير تهديد: «ويل. لينبذنّ. الحطمة. نار الله الموقدة. الّتي تطّلع على الأفئدة. إنّها عليهم مؤصدة. في عمد ممدّدة».

وفي ذلك كلّه لون من التناسق التصويري والشعوري يتّفق مع فعلة «الهمزة واللمزة»!

ولقد كان القرآن يتابع أحداث الدعوة ويقودها في الوقت ذاته. وكان هو السلاح البتّار الصاعق الذي يدمّر كيد الكائدين. ويزلزل قلوب المعاندين. ويثبّت أرواح المؤمنين. وإنّا لنرى في عناية الله سبحانه بالردّ على هذه الصورة معنيين كبيرين:

الأوّل: تقبيح الهبوط الأخلاقي وتبشيع الحالة الهابطة من النفوس.

والثاني: المنافحة عن المؤمنين وحفظ نفوسهم من أن تتسرّب إليها مهانة الإهانة. وإشعارهم بأنّ الله يرى مايقع لهم، ويكرهه، ويعاقب عليه. وفي هذا كفاية لرفع أرواحهم واستعلائها على الكيد اللئيم![1]

الوليد بن المغيرة المخزومي

كان طاغية العرب وكبيرها الأسنّ، صاحب جاه وثراء وبنين وحفدة. لعبت به قريش ليقوم بدور رئيسي خاصّ (الرّمي بالسحر)[2] في تكذيب رسول الله ﷺ والتبييت للدعوة. فنزلت بشأنه آيات مهدّدة ساحقة ماحقة، ترسم له صورة منكرة تثير الهزء والسخريّة من حاله وملامح وجهه التعيس ونفسه المنهزمة تجاه تلك القرعات العنيفة اللاذعة:

«ذَرْني وَمَنْ خَلَقْتُ وَحيداً. وَجَعَلْتُ لَهُ مالاً مَمْدُوداً. وَبَنينَ شُهُوداً. وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهيداً. ثُمَّ يَطْمَعُ أنْ أزيد! كَلّا! إنَّهُ كانَ لِآياتِنا عَنيداً. سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً. إنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّر. فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّر. ثُمَّ قُتِلَ! كَيْفَ قَدَّر؟ ثُمَّ نَظَرَ، ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ، ثُمَّ أدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ، فَقالَ إنْ هٰذا إلّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ. إنْ هٰذا إلّا قَوْلُ الْبَشَرِ. سَأُصْليهِ سَقَر. وَما أدْراكَ ما سَقَر؟ لا تُبْقي وَلا تَذَرُ. لَوّاحَةٌ لِلْبَشَرِ، عَلَيْها تِسْعَةَ عَشَر».[3]

«ذَرْني وَمَنْ خَلَقْتُ وَحيداً»: دعني وإيّاه، سأكفيك دهاءه وأردّ بغيه على نفسه. فيا له من مخلوق كفور لكبار نعم توحّد فيها.

و«يَطْمَعُ أنْ أزيد، كَلّا، إنَّهُ كانَ لآياتِنا عَنيداً» وقف في وجه الدعوة وحارب رسولها وصدّ عنها نفسه وغيره وأطلق حواليها الأضاليل.

---

١ ـ راجع: في ظلال القرآن، المجلّد ٨، ص ٦٦٢-٦٦٣.

٢ ـ هو أوّل من اقترح لطريقة تكذيب النبي، رميه بالسحر وأشاع بين العرب، وكان لمقترحه تأثير بالغ بين الناس. ومن ثَمَّ نزلت بشأنه الآيات لاذعة دامغة.

٣ ـ المدّثّر ٧٤: ١١-٣٠.

«سَأُرْهِقُه صَعُوداً»: عقبة شاقّة مرهقة. والصَّعَد: العقبة الصعبة (يشقّ سلوكها)، ويستعار لكلّ شاقّ «وَمَن يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذاباً صَعَداً».[١]

ثمّ يرسم تلك الصورة الغريبة المثيرة للسخريّة، والرجل يكدّ ذهنه، ويعصر أعصابه، ويقبض جبينه، وتكلح ملامحُه وقسماتُه... كلّ ذلك ليجد عيباً يعيب به هذا القرآن، وليجد قولاً يقوله فيه:

«إنَّه فَكَّرَ، وَقَدَّر. فَقُتِلَ! كَيْفَ قَدَّر؟ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّر؟ ثُمَّ نَظَر. ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَر، ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَر! فَقال: إن هٰذا إلّا سِحْرٌ يُؤْثَر. إنْ هٰذا إلّا قَوْلُ الْبَشَرِ!!»

لحظة لحظة ترسمها ريشة التعبير القاسم، كما لوكانت حراباً يفتّت، بل ومعولاً يدمّر في ضربات متتابعات:

لحظة وهو يفكّر ويدبّر، ومعها دعوة هي قضاء «فقتل»! واستنكار كلّه استهزاء «كيف قدّر»! ثمّ تكرار الدعوة والاستنكار لزيادة الإيحاء بالتكرار.

ولحظة وهو ينظر هكذا وهكذا في جدّ مصطنع متكلّف يُوحى بالسخريّة منه والاستهزاء.

ولحظة وهو يقطب حاجبيه عابساً، ويقبض ملامح وجهه باسراً، ليستجمع فكره في هيأة مضحكة!

وبعد هذا المخاض كلّه! وهذا الحزق كلّه! لايُفتح عليه بشيء، سوى تفاهة فاضحة، فيقول: «إنْ هذا إلّا سِحْرٌ يُؤْثَر. إنْ هٰذا إلّا قَوْلُ الْبَشَرِ»!

فإذا انتهى عرض هذه اللمحات المخزية لهذا المخلوق المضحك، عقّب عليها بالوعيد المفزع:

«سَأُصْليهِ سَقَر! وَما أَدْراكَ ما سَقَر؟ لا تُبْقي وَلا تَذَر» فَهي تكنس كنساً، وتبلع بلعاً، وتمحو محواً، فلا يقف لها شيء، ولا يبقى وراءها شيء!!

ثمّ هي تتعرّض للبشر وتلوّح أي تغيّره وتشوّهه من شدّة الحرّ اللافح «لَوّاحَةٌ لِلْبَشَرِ»

---

١ ـ الجن ٧٢: ١٧.

ـكما قال في سورة المعارج: «تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلّى»[١] ـ وكأنّما تقصد إثارة الفـزع فـي النفوس المعاندة بصولتها المخيفة المرعبة!![٢]

الأسود بن عبد يغوث

كان من عظماء قريش وكان من المستهزئين برسول الله ﷺ وهو الذي تعرّض له في نفر من قريش (هم: زمعة بن الأسود، والنضر بن الحارث، وأُبيّ بن خلف، والعاص بن وائل. وخامسهم الأسود بن عبد يغوث)، قالوا ـ مستهزئين به ـ: لو جُعل معك يا محمّد ملك يحدّث عنك الناسَ ويُرى معك (أو يروى معك). فأنزل الله: «وَقالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ...».[٣]

قال محمد بن إسحاق: قام رسول الله ﷺ على أمر الله محتسباً مؤدّياً إلى قومه النصيحة، على ما كان فيهم من النائرة والأذى والاستهزاء. وكان عظماء المستهزئين برسول الله ﷺ خمسة: الأسود بن عبد يغوث بن وهب. والأسود بن المطّلب بن أسد. والوليد بن المغيرة. والعاصي بن وائل. والحارث بن الطلاطلة. فكانوا يهزئون برسول الله ﷺ ويغمزونه! قال: وفيهم نزلت: «إِنّا كَفَيْناكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ».[٤]

قال مجاهد: ونزلت الآيات (١٠-١٦) من سورة القلم بشأن الأسود بن عبد يغوث:[٥]
«وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلّافٍ مَهِينٍ، هَمّازٍ مَشّاءٍ بِنَمِيمٍ. مَنّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ. عُتُلٍّ بَعْدَ ذلِكَ زَنِيمٍ...!»

والقرآن يصفه هنا بتسع صفات كلّها ذميم:

فهو حلّاف... كثير الحلف. ولا يُكثر الحلف إلّا إنسان غير صادق، يدرك أنّ الناس يكذّبونه ولا يثقون به، فيحلف ويكثر من الحلف ليداري كذبه ويستجلب ثقة الناس، وهو

---

١ ـ المعارج ٧٠: ١٧.
٢ ـ راجع: في ظلال القرآن، ج ٨، ص ٣٦١-٣٦٤.
٣ ـ الأنعام ٦: ٨. راجع: سيرة ابن هشام، ج ٢، ص ٣٦.
٤ ـ الحجر ١٥: ٩٥. راجع: سيرة ابن اسحاق، ص ٢٧٣؛ وسيرة ابن هشام، ج ٢، ص ٥٠.
٥ ـ الدر المنثور، ج ٦، ص ٢٥٢.

مفضوح لا محالة.

وهو مهين... لا يحترم نفسه ولا يحترم الناس شأنه. وهي صغارة في النفس ملصقة بها!

وهو همّاز... يهمز الناس ويعيبهم بالقول والإشارة. وهي حقارة تتعقّبها مهانة!

وهو مشّاء بنميم... يمشي بين الناس ويحاول إفساد قلوبهم وقطع صلاتهم والذهاب بموداّتهم. خلق ذميم يجعل صاحبه ساقطاً مهيناً!

وهو منّاع للخير... يمنع الخير عن نفسه وعن غيره. وهي غاية في الدناءة والخسّة!

وهو معتد... متجاوز للحقّ والعدل إطلاقاً. ثمّ هو معتد على النبيّ وعلى أهله وعشيرته وعلى المؤمنين، حيث يحاول صدّهم عن الهدى ومنعهم الإيمان برسالة الله.

وهو أثيم... يرتكب الآثام حتّى حقّ عليه الوصف الثابت. أثيم... بدون تحديد لنوع الآثام الّتي يرتكبها. فاتّجاه التعبير إلى إثبات الصفة، وإلصاقها بالنفس كالطبع المقيم!

وهو ـ بعد هذا كلّه ـ عتلّ... وهي لفظة تعبّر بجرسها وظلّها عن مجموعة من الصفات ومجموعة من السمات، لاتبلغها مجموعة ألفاظ وصفات. وفسّر بتفاسير كلّها تنمّ عن دناءة وخبث، غير أنّ لفظة «عتلّ» بوزانها وجرسها أدلّ على كلّ هذا وأبلغ تصويراً للشخصيّة الكريهة من جميع الوجوه!

وهو زنيم... وهي خاتمة الصفات الذميمة الكريهة الّتي تجمّعت في عدوّ من أعداء الإسلام، لدود خبّ لئيم. والزنيم: اللّصيق الذي لفظته الناس وطردته من حاضرتها، لخبثه ولؤمه الفاحش، حتّى ولو كان ذا نسب أصيل.

وفي الحديث: سئل رسول الله ﷺ عن العتلّ الزنيم؟ قال: «هو الفاحش اللئيم».

وأيضاً روي عنه أنّه قال: «ألا أخبركم بأهل النار؟ كلّ عتلّ، جَوّاظ، جعظريّ، متكبّر».[1]

الجَوّاظ: المختال المتكبّر في مشيه، الجافي الغليظ في خلقه، الرحيب البطن الواسع

---

١ ـ المصدر.

الحلقوم، المنهوم الذي لا يشبع.

والجَعْظريّ: الفظّ الغليظ. الأكول على غير شبع. القصير المتنفّخ بما ليس عنده. الشره النهم، الضخم الإست إذا مشى حرّكها. القليل العقل الخرف.

والصفات الثلاث، تفسير للعتلّ الحاوي لذمائم الصفات وكريهات السمات!

ثمّ يعقّب على هذه الصفات الذاتيّة، بموقفه الشائئ من آيات الله، مع التشنيع بـهذا الموقف الذي يقابل به نعم الله عليه بالمال والبنين، شأن كلّ مختال فخور:

«أَنْ كان ذا مالٍ وَبَنينَ، إذا تُتْلىٰ عَلَيْهِ آياتُنا قالَ: أَساطيرُ الْأَوَّلينَ»...

وما أقبح بالرجل يقابل نعمة الله عليه بالاستهزاء بآياته وسخريّة من رسوله واعتداء على شريعته. وهذه وحدها تعدل كلّ ما مرّ من وصف ذميم!

ومن ثمّ يجيء التهديد من الجبّار القهّار، يلمس في نفسه موضع الاختيال والفخر بالمال والبنين، كما لمس وصفه من قبل موضع الاختيال بمكانته ونسبه... ويسمع وعد الله القاطع:

«سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُوم»!

ومن معاني الخرطوم طرف أنف الخنزير البرّي. ولعلّه المقصود هنا كناية عن أنـفه. والأنف في لغة العرب يكنّى به عن العزّة، ومنه الأَنَفَة: الترفّع والتنزّه.

والتهديد بوسمه على الخرطوم، يحوي على نوعين مـن الإذلال والتـحقير: الأوّل الوسم، كما يوسم العبيد. والثاني جعل أنفه خرطوماً كخرطوم الخنزير!

وما من شكّ أنّ وقع هذه الآيات على نفس الأسود بن عـبد يـغوث أو الأخـنس بن شريق[1] أو الوليد بن المغيرة أو غيرهم من أعداء الإسلام آنذاك المناوئين له، كان قاصماً وقامعاً دامغاً. فإنّهم من أُمّة كانت تعدّ هجاء شاعر ـ ولو بالباطل ـ مذمّة يتوقّاها الكريم! فكيف بدمغه بالحق من خالق السماوات والأرض، بهذا الأُسلوب الّذي لا يبارى، وفي هذا السجلّ الذي يتجاوب بكلّ لفظ من ألفاظه جنبات الوجود، ثُمّ يـستقرّ فـي كـيان

---

١ ـ المصدر.

الوجود... في خلود!

إنّها القاصمة الّتي يستأهلها عدوّ الإسلام وعدوّ الرّسول الكريم صاحب الخلق العظيم.[١]

روى ابن‌إسحاق في الخمسة الذين كانوا يستهزئون بالنبيﷺ ويغمزونه: أنّ جبرئيل عليه السلام أتى رسول اللهﷺ فوقف به عند الكعبة، وهم يطوفون به. فمرّ به الأسود بن عبديغوث فأشار جبرئيل إلى بطنه فمات حبناً (وهوداء يرم كالدمّل ويكون له خراج). ومرّ به الأسود بن‌المطّلب فرمى في وجهه فعمى. ومرّ به الوليد فأشار إلى جرح في كعب رجله كان قد أصابه قبل ذلك بيسير، فانتقض به فأهلكه. ومرّ به العاصي فأشار إلى أخمص رجله، فركب إلى الطائف على حمار فربض به على شبرقة (نبات شوكيّ) فدخلت في أخمص رجله فقتلته. ومرّ به الحارث فأشار إلى رأسه فامتخض قيحاً حتّى هلك.[٢] وبذلك كفى الله المؤمنين شرّ المستهزئين.

الحكم بن أبي‌العاص

يبدو أنّ الآيات السابقة الدامغة، لم تخصّ أُناساً بأشخاصهم، وإنّما هي عمّت كلّ عات معاند حاول مقابلة الدعوة بالهزء والسخريّة والامتهان بشأنها، فعاكسهم القرآن بالاستهزاء بشأنهم والإذلال والتحقير.

فقد أخرج ابن‌مردويه عن أبي‌عثمان النهدي أنّ مروان بن‌الحكم لمّا أخذ البيعة بولاية العهد ليزيد وبايعه الناس كرهاً، قال: سنّة أبي‌بكر وعمر! فسمع ذلك عبدالرحمان بن أبي‌بكر ـ وكان قد امتنع من البيعة ليزيد ـ: إنّها ليست بسنّة أبي‌بكر وعمر، ولكنّها سنّة هرقل! فقال مروان: هذا الذي أُنزلت فيه «وَالَّذي قالَ لِوالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُما».[٣] وأراد القبض عليه، فلجأ عبدالرحمان إلى‌بيت أُخته عائشة. وكانت قد سمعت قولة مروان. فقالت: إنّها

١ ـ راجع: في ظلال القرآن، ج ٨، ص ٢٢٩-٢٣٣.
٢ ـ سيرة ابن‌إسحاق، ص ٢٧٣.
٣ ـ الأحقاف ٤٦: ١٧.

لم تنزل في عبدالرحمان، ولكن نزلت في أبيك «وَلاَ تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَهِينٍ، هَمّازٍ مَشّاءٍ بِنَمِيمٍ».[1]

والحكم بن أبي‌العاص هذا كان من أخبث الناس وأسوأهم دناءة ولئامة. كان يحاول تحقير رسول الله والسخريّة به. وكانت ابنته توبّخه على صنيعه وصنيع قومه بني‌أُميّة بموضع رسول الله ﷺ قالت له: ما رأيت قوماً كانوا أسوأ رأياً وأعجز في أمر رسول الله ﷺ منكم يا بني‌أُميّة! ولم يستسلم إلّا كرهاً عام الفتح فيمن استسلم من قريش وسكن المدينة. ولكنّه بقى على خبثه ولؤمه. روى ابن‌الأثير بإسناده إلى جبير بن‌مطعم، قال: كنّا مع النبي ﷺ فمرّ الحكم بن أبي‌العاص. فقال النبي: ويل لأُمّتي ممّا في صلب هذا.

وهو طريد رسول الله ﷺ نفاه من المدينة إلى الطائف وخرج معه ابنه مروان. وكان السبب أنّه كان يتسمّع سرّ رسول الله ﷺ ويطلع عليه من باب بيته. فأراد النبي ﷺ أن يفقأ عينه بمدرى (قطعة خزف حادّة) في يده لما أطلع عليه من الباب.

روى أبوسنان عن الزهري وعطاء الخراساني: أنّ أصحاب رسول الله ﷺ دخلوا عليه يوماً فرأوه يلعن الحكم بن أبي‌العاص، فسألوه عن السبب؟ قال: دخل على شقّ الجدار وأنا مع زوجتي، فكلح في وجهي[2] أي عبس وتكشّر.

وكان ـ من شدّة خبثه وضعة نفسه ـ يحكي مشية رسول الله وبعض حركاته. وقد كان النبي يتكفّأ في مشيته (أي يميد ويتمايل). فالتفت النبي يوماً فرآه وهو يتخلّج في مشيته (أي يضطرب ويميل يميناً وشمالاً)! فقال له النبي: كن كذلك، فلم يزل يرتعش في مشيته من يومذاك. وقد ذكره عبدالرحمان بن‌حسّان بن‌ثابت، في هجائه لعبد الرحمان بن‌الحكم:

إنّ اللعين أبوك، فارم عظامه   إن ترم ترم مخلّجاً مجنوناً

يُمسي خميص البطن مَنْ عَمِلَ التُّقى   ويظلّ من عمل الخبيث بطيناً

وقد قالت عائشة لمروان: أمّا أنت يا مروان، فأشهد أنّ رسول الله ﷺ لعن أباك وأنت

---

١ ـ القلم ٦٨: ١٠-١١. راجع: الدرّ المنثور، ج ٦، ص ٢٥١.

٢ ـ الإصابة، ج ١، ص ٣٤٥.

في صلبه. قال ابن‌الأثير: وقد روي في لعنه ونفيه أحاديث كثيرة، لا حاجة إلى ذكرها، إلّا أنّ الأمر المقطوع به أنّ النبيﷺ مع حلمه وإغضائه على ما يكره ما فعل به ذلك إلّا لأمر عظيم، ولم يزل منفيّا حياة النبيﷺ. ولمّا ولّي أبوبكر الخلافة قيل له في الحكم ليردّه إلى المدينة، فقال: ما كنت لأحلّ عقدة عقدها رسول اللهﷺ وكذلك عمر. فلمّا ولّي عثمان ـ وكان الحكم عمّه ـ ردّه ومات في عهده.[1]

وروى ابن‌حجر من حديث عبدالرحمان بن أبي‌بكر قال: كان الحكم بن أبي‌العاص يجلس عند النبيﷺ فإذا تكلّم النبي، اختلج الحكم، أي كان يحرّك شفتيه تقليداً وسخريّة برسول الله. فبصر به النبيّ يوماً فقال: كن كذلك. فما زال يختلج حتّى هلك حيث مستقرّه في سقر.

وروي أيضاً بإسناده إلى هند بن‌خديجة زوجة النبيﷺ قال: مرّ النبيّ بالحكم، فجعل يغمز النبيّ بإصبعه، فالتفت فرآه، فقال: اللّهمّ اجعله وزغاً، فزحف في مكانه. والروايات في مخازيه كثيرة.[2]

العاص بن‌وائل

وكان العاص بن وائل السهمي ممّن أعجب بنفسه مستهزئاً بمواقف أصحاب النبيّﷺ في أناتهم وصبرهم على الأذى، ولاسيّما المنقطعين عن أهليهم لاعشيرة لهم في مكة ولاثروة، فقد كان الخبّاب بن الأرت قينا[3] بمكة يعمل السيوف وكان من الأصحاب المؤمنين. وكان له مال على العاص بن وائل قيمة سيوف باعها منه، فجاء يتقاضاه.

فقال له العاص: يا خبّاب، أليس يزعم صاحبكم أنّ في الجنة ما ابتغى أهلها من ذهب

---

١ ـ أسد الغابة، ج ٢، ص ٣٤؛ والإصابة، ج ١، ص ٣٤٥.

٢ ـ راجع: الإصابة، ج ١، ص ٣٤٦؛ والاستيعاب لابن عبدالبر، بهامش الإصابة، ج ١، ص ٣١٧.

٣ ـ القين: الحدّاد.

وفضّة وثياب وخدم! فأنظرني إلى يوم القيامة، حتى أرجع إلى تلك الدار فأقضيك هنالك حقّك، فوالله لاتكن أنت وصاحبك يا خبّاب آثر عند الله منّي، ولا أعظم حظّاً في ذلك. فنزلت:

«أَفَرَأَيتَ الَّذي كَفَر بِآياتِنا وَقالَ لَأُوتَيَنَّ مالاً وَوَلَداً. أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أم اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمانِ عَهْداً. كَلّا سَنَكْتُبُ مايَقولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذابِ مَدّاً. وَنَرِثُهُ مايَقولُ ويَأْتينا فَرْداً. وَاتَّخَذوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لِيَكونُوا لَهُمْ عِزّاً. كَلّا سَيَكْفُرونَ بِعِبادَتِهِمْ وَيَكُونونَ عَلَيهِمْ ضِدّاً. أَلَمْ تَرَ أَنّا أَرْسَلْنا الشَّياطِينَ عَلى الْكافِرينَ تَؤُزُّهُمْ أَزّاً. فَلا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إنَّما نَعُدُّ لَهُمْ عَدّاً».[1]

إنّها قرعات عنيفة وصواعق مرعدة، تدمرّ من بقايا أشلاء مبعثرة، خلّفتها أجساد كافرة، لاتطيق تحمّلها ولاتستطيع المقاومة تجاه هجماتها العنيفة، إلّا الهزيمة والاندحار «فَقُلْ يَنْسِفُها رَبِّي نَسْفاً».[2]

إنّها لم تخصّ العاص بن وائل ـ إن صحّ الحديث ـ ولاغيره من عتاة قريش فحسب وإنّما هدفت وهبّت لتذرّ كلّ دعائم الكفر والإلحاد على مرّ الزمان.

***

والعاصي هذا هو الذي عاب النبيﷺ وشمت به حينما مات ابنه عبدالله، وشنأه بالبتر وانقطاع النسل، فيخبوا أثره فيما حسب. لكنّه تعالى قرّر ـ رغم أنف الشامتين ـ أنّه ليس أبتر بل هو صاحب الكوثر، والكوثر صيغة من الكثرة. وهو مطلق غير محدود. يشير إلى عكس المعنى الذي أطلقه هؤلاء السفهاء. إنّا أعطيناك ما هو كثير فائض غزير، غير ممنوع ولامبتور. إنّه الكوثر،الذي لانهاية لفيضه، ولاإحصاء لعوارفه، ولاحدّ لمدلوله. ومن ثمّ تركه النصّ بلاتحديد، يشمل كلّ ما يكثر من الخير والبركة ويزيد.

«إنّ شانئك هو الأبتر». وهنا يردّ الكيد على كائديه، ويؤكّد ـ سبحانه ـ أنّ الأبتر ليس هو محمداً، إنّما هو شانئوه وكارهوه.

---

١ ـ مريم ١٩: ٧٧-٨٤.
٢ ـ طه ٢٠: ١٠٥.

ولقد صدق فيهم وعيدُ الله. فقد انقطع ذكرهم وانطوى. بينما امتدّ ذكر محمد واعتلا! إنّ الإيمان والحقّ والخير، لايمكن أن يكون أبتر، فهو ممتدّ الفروع عميق الجذور. وإنّما الكفر والباطل والشرّ هو الأبتر مهما ترعرع وزها وتجبّر.

إنّ مقاييس الله غير مقاييس البشر. ولكن البشر ينخدعون ويغترّون فيحسبون مقاييسهم هي التي تقرّر حقائق الأُمور. وأمامنا هذا المثل الخالد. وصدق الله وكذب الكائدون الماكرون!

النضربن الحارث

وتقدّم بعض الحديث عن مواقف النضربن الحارث، كان من عتاة قريش ومن شياطينهم، كان قد تعلّم بعض أحاديث ملوك فارس (أساطير رستم واسفنديار) وكان يقصّها على جهلاء العرب ليستحوذ عليهم، ويلهيهم عن حديث الإسلام وذكريات القرآن.

كان إذا جلس رسول الله ﷺ مجلساً يدعو فيه إلى الله ويتلو فيه القرآن، ويحذّر قريشا ممّا أصاب الأُمم الخالية، خلفه النضر في مجلسه إذا قام عنه، فحدّثهم عن رستم واسفنديار وملوك فارس، ثمّ يقول: والله ما محمد بأحسن حديثاً منّي، وما أحاديثه إلّا أساطير الأوّلين اكتتبها كما اكتتبتها. قيل: وبذلك جاءت الإشارة في الآية الكريمة «وَقالُوا أَساطيرُ الأَوّلينَ اكْتَتَبَها فَهِيَ تُمْلىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصيلاً». [١]

قيل: ونزلت فيه: «إنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدينَ. فَلا تُطِعِ الْمُكَذِّبينَ. وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنونَ. وَلاتُطِعْ كُلَّ حَلّافٍ مَهينٍ. هَمّازٍ مَشّاءٍ بِنَميمٍ. مَنّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثيمٍ. عُتُلٍّ بَعْدَ ذٰلِكَ زَنيمٍ. أَنْ كانَ ذامالٍ وَبَنينَ. إذا تُتْلىٰ عَلَيْهِ آياتُنا قالَ أَساطيرُ الْأَوَّلينَ. سَنَسِمُه عَلَى الْخُرْطومِ. إنّا بَلَوْناهُمْ كَما بَلَوْنا أَصْحابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَموا لَيَصرِمُنَّها مُصْبِحينَ. وَلايَسْتَثْنونَ. فَطافَ عَلَيْها طائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نائِمونَ. فَأَصْبَحَتْ كَالصَّريمِ». [٢]

---

١ ـ الفرقان ٢٥: ٥.

٢ ـ القلم ٦٨: ٧ ـ ٢٠.

إنّ لوقع هذه الآيات الشديد لتأثيراً بالغاً في نفوس مضطربة لاتؤمن بالله العظيم! وكذلك آيات مرّت بهذا الشأن، قيل: نزلت تقريعاً عنيفاً بمن يحادد الله ورسوله:

«وَيْلٌ لِكُلِّ أفّاكٍ أثيمٍ. يَسْمَعُ آياتِ الله تُتْلى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأنْ لَمْ يَسْمَعْها فَبَشِّرْهُ بِعذابٍ أليمٍ».[1]

قيل: ونزلت فيه قوله تعالى: «وَإذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا قالوا قَدْ سَمِعْنا لَوْ نَشاءُ لَقُلْنا مِثْلَ هذا، إنْ هذا إلّا أساطيرُ الْأوّلين».[2]

وقع أسيراً يوم بدر فقتله رسول اللهﷺ صبراً نقمة على المشركين.[3]

جُبَيْر بن مُطْعِمْ

كان من أشراف قريش ومن علمائهم بالأنساب وطالما بغى على الإسلام والمسلمين ونال من الوقيعة بهم. وهوالذي دعا غلامه الحبشي الذي كان يدعى «وحشيّاً» وكان قذّافاً بحربةٍ له قَذْفَ الحبشة، قلّما يخطئ بها، فقال له: اخرج مع الناس، فإن أنت قتلت حمزة عمّ النبيّﷺ بعميّ (طعيمة بن عدي) فأنت عتيق.[4]

فخرج وحشيّ مع قريش حتى كان يوم أُحد، يقول: فلمّا التقى الناس خرجت أنظر حمزة وأتبصّره حتى رأيته في عرض الناس مثل الجمل الأورَق يهدّ الناس بسيفه هَدّاً، ما يقوم له شيء وإنّي لأتهيّأ له، أُريده وأستتر منه بشجر أو حجرٍ ليدنو منّي، حتى إذا دَنى، وهزرت حربتي ودفعتها عليه فوقعت في ثُنَّته حتى خرجت من بين رجليه، وذهب لينوء نحوي، فغلب، وتركته حتى إذا مات، ثمّ أتيته فأخذت حربتي... فلمّا قدمت مكة أعتقني جبير على صنيعي.[5]

وبعد الفتح هرب وحشيّ إلى الطائف، ثمّ قدم المدينة وتظاهر بالإسلام، ولمّا علم به

---

١ ـ الجاثية ٤٥: ٧-٨. راجع: سيرة ابن هشام، ج ١، ص ٣٨٤.

٢ ـ الأنفال ٨: ٣١.

٣ ـ الدرّ المنثور، ج ٣، ص ١٨٠.

٤ ـ سيرة ابن هشام، ج ٣، ص ٦٥.

٥ ـ المصدر، ص ٧٦.

النبيّ صلى الله عليه وآله قال له: أوحشيّ؟ قال: نعم. قال: ويحك، غيّب عنّي وجهك، فلا أرينّك. فتغيّب عنه في البلاد.

قال ابن هشام: لم يزل وحشيّ يحدّ في الخمر حتى خلع اسمه من الديوان، فكان عمربن الخطاب يقول: قد علمت أنّ الله لم يكن ليدع قاتل حمزة.[١]

وبذلك تعرف موضع الرجل (جبير) من إيجاع قلب رسول الله صلى الله عليه وآله والنكاية بالإسلام.

وهذا الرجل على جفائه وقساوة قلبه وغيظه على الإسلام، لمّا سمع النبيّ صلى الله عليه وآله يقرأ في صلاته بالطور، لان قلبه وشفّت مساربه لدخول الإسلام.

وذلك عندما أتى النبيّ صلى الله عليه وآله في فداء أُسارى بدر، فلم يجب النبيّ صلى الله عليه وآله طلبه، وقال له: لو كان أبوك حيّاً وكلّمني فيهم لوهبتهم له.[٢]

يروي البخاري عنه، قال: سمعت النبيّ صلى الله عليه وآله يقرأ في المغرب بالطور، فلمّا بلغ هذه الآية «أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيءٍ أَمْ هُمُ الخالِقُونَ. أَمْ خَلَقُوا السَّماوات وَالأَرْضَ بَل لايُوقِنُونَ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزائِنُ رَبِّكَ أمْ هُمُ المُسَيْطِرُونَ».[٣] قال: كاد قلبي أن يطير[٤] قال: فكان ذلك أوّل مادخل الإيمان قلبي.[٥]

وفي رواية: وذلك أوّل ماوقر الإسلام في قلبي.[٦] وَقَر، أي أثّر.

ولكنّه عاد إلى شقائه الأوّل حتى كان عام الفتح[٧] فأسلم على يد رسول الله صلى الله عليه وآله[٨]

---

١ ـ المصدر، ص ٧٧.

٢ ـ الإصابة، ج ١، ص ٢٢٦. وفي أُسدالغابة، ج ١، ص ٢٧١: «لو كان الشيخ أبوك حيّاً فأتانا فيهم لشفعّناه» قال: وكان له عند رسول الله صلى الله عليه وآله يد، وهي أنّه كان أجار رسول الله صلى الله عليه وآله لمّا قدم من الطائف حين دعا ثقيفاً إلى الإسلام. وكان أحد الذين قاموا في نقض الصحيفة التي كتبها قريش على بني هاشم وإيّاه عنى أبوطالب بقوله:

أطعم أنّ القوم ساموك خطة ... وانّي متى أُوكل فلست بآكل

٣ ـ الطور ٥٢: ٣٥-٣٧.

٤ ـ صحيح البخاري، ج ٦، ص ١٧٥.

٥ ـ الإصابة، ج ١، ص ٢٢٦.

٦ ـ الشفا بتعريف حقوق المصطفى، ج ١، ص ٢٣١؛ وشرحه، ج ١، ص ٣٢٩.

٧ ـ أُسد الغابة، ج ١، ص ٢٧١.

٨ ـ روي عن ابن عباس: أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله قال ليلة قربه من مكة في غزوة الفتح: إنّ بمكة أربعة نفر من قريش أربأ بهم عن ←

وحضر يوم حنين.[١]

ونقل البيهقي عن أبي سليمان الخطّابي، قال: إنّما كان انزعاج جبير بن مطعم عند سماع الآيات، لحسن تلقّيه معانيها ومعرفته بما تضمّنته من بليغ الحجّة، فاستدركها بلطيف طبعه، واستشفّ معانيها بذكيّ فهمه.[٢]

← الشرك وأرغب لهم في الإسلام: عتاب بن أسيد وجبير بن مطعم وحكيمبن حزام وسهيل بن عمرو. أُسدالغابة، ج ١، ص ٢٧١.

١ ـ سيرة ابن هشام، ج ٤، ص ٩١.

٢ ـ الأسماء والصفات للبيهقي، ص ٣٩٠؛ والدرّ المنثور، ج ٦، ص ١٢٠؛ والإتقان، ج ٤، ص ١٧.

محاجات ومخاصمات

هناك للمشركين مخاصمات مع النبيّ ﷺ دحرتها حجج القرآن الداحضه، وقد أفحمتهم قوّة برهانه وبهرتهم روعة بيانه، فكانت النهاية هي الرضوخ والاستسلام:

مع النضربن الحارث

قال ابن إسحاق: وجلس رسول‌الله ﷺ فيما بلغني مع الوليد بن‌المغيرة في المسجد، فجاء النضربن الحارث حتى جلس معهم، وفي المجلس غير واحد من رجال قريش. فتكلّم رسول الله ﷺ فعرض له النضر، فكلّمه رسول‌الله ﷺ حتى أفحمه. ثمّ تلا عليهم: «إنَّكم وَماتَعبُدونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَها وارِدُون. لَوكانَ هٰؤلاءِ آلِهَةً ما وَرَدُوها وَكُلٌّ فيها خالِدونَ. لَهُمْ فيها زَفيرٌ وَهُم فيها لايَسمَعون».[١]

مع عبدالله بن الزبعري[٢]

ثمّ قام رسول‌الله ﷺ وأقبل عبدالله بن الزبعري السهمي، وكان زعيماً من زعماء

---

١ ـ الأنبياء ٢١: ٩٨-١٠٠. راجع: سيرة ابن هشام، ج ١، ص ٣٨٤. والحصب هو الحطب: كلّ ما أُوقدت به النار.

٢ ـ كان من شعراء العرب وخطبائهم العبقريّين. وشعره في قصة أصحاب الفيل ومعروف. راجع: سيرة ابن هشام، ج ١، ص ٥٩.

قريش، حتى جلس معهم. فقال له الوليد بن المغيرة: والله ماقام ابن الحارث لابن عبدالمطلب آنفا وماقعد، وقد زعم محمد أنّا ومانعبد من آلهتنا هذه حصب جهنّم!

قال ذلك في حالة تأثّر شديد!

فقال ابن الزبعري: أما والله، لو وجدته لخصمته! فسلوا محمداً: أكلّ مايعبد من دون الله في جهنّم مع من عبده؟! فنحن نعبد الملائكة، واليهود تعبد عزيراً، والنصارى تعبد المسيح!

فعجب الوليد ومن كان معه في المجلس من قول ابن الزبعري! ورأوا أنّه قد احتجّ وخاصم! فذكر ذلك لرسول الله ﷺ من قول ابن الزبعري.

فقال رسول الله ﷺ: إنّ كلّ من أحبّ أن يُعبد من دون الله، فهو مع من عبده، إنّهم إنّما يعبدون الشياطين، ومن أمرتهم بعبادته![1]

قيل: فنزلت بهذا الشأن: «أمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ هٰذا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلي بَلْ أكْثَرُهُمْ لايَعْلَمونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضونَ. وَما أرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسولٍ إلّا نوحي إلَيْهِ أنَّهُ لا إلٰهَ إلّا أنا فَاعْبُدونِ. وَقالوا اتَّخَذَ الرَّحْمانُ وَلَداً سُبْحانَهُ بَلْ عِبادٌ مُكْرَمونَ. لايَسْبِقونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلونَ. يَعْلَمُ مابَيْنَ أيْديهِمْ وَماخَلْفَهُمْ وَلايَشْفَعونَ إلّا لِمَنِ ارْتَضىٰ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقونَ. وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إنّي إلٰهٌ مِنْ دونِهِ فَذٰلِكَ نَجْزيهِ جَهَنَّمَ كَذٰلِكَ نَجزي الظّالِمينَ».[2]

مع أُبيّ بن خلف

قال ابن إسحاق: ومشى أُبيّ بن خلف بن وهب إلى رسول الله ﷺ بعظم بال قد ارفتّ[3] فقال: يا محمّد، أنت تزعم أنّ الله يبعث هذا بعد ما أرمّ؟[4] ثمّ فتّه في يده، ثمّ نفخه في الريح

---

١ ـ أي إنّ الملائكة ومن ذكرهم لم يدعوهم إلى عبادتهم، وإنّما عبدوهم بإغواء الشياطين وتسويلاته الخبيثة.

٢ ـ الأنبياء ٢١: ٢٤-٢٩.

٣ ـ أي تحطّم وتكسّر.

٤ ـ اي بلى وفسد.

نحو رسول الله ﷺ! فقال رسول الله ﷺ: نعم، أنا أقول ذلك، يبعثه الله وإيّاك بعد ماتكونان هكذا، ثمّ يدخلك الله النار![1]

قيل: فأنزل الله تعالى فيه: «أَوَلَمْ يَرَ الإنْسانُ أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإذا هُوَ خَصيمٌ مُبينٌ. وَضَرَبَ لَنا مَثَلاً ونَسِيَ خَلْقَهُ قالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظامَ وَهِيَ رَميمٌ. قُلْ يُحْيِيها الّذي أنْشَأَها أوّلَ مَرّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَليمٌ. الّذي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأخْضَرِ ناراً فَإذا أنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدونَ. أوَلَيْسَ الّذي خَلَقَ السّماواتِ وَالْأرْضَ بِقادِرٍ عَلىٰ أنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلىٰ وَهُوَ الْخَلّاقُ الْعَليمُ. إنّما أَمْرُهُ إذا أرادَ شَيْئاً أنْ يَقولَ لَهُ كُنْ فَيَكونُ. فَسُبْحانَ الَّذي بِيَدِهِ مَلَكوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإلَيْهِ تُرْجَعونَ».[2]

مع الأسود بن المطّلب

واعترض رسول الله ﷺ وهو يطوف بالكعبة، الأسود بن المطلب بن أسد، والوليد بن المغيرة، وأُمية بن خلف، والعاص بن وائل، وكانوا ذوي أسنان في قومهم. فقالوا: يامحمد، هلمّ فلنعبد ما تعبد، وتعبد مانعبد، فنشترك نحن وأنت في الأمر. فإن كان الذي تعبد خيراً ممّا نعبد، كنّا قد أخذنا بحظّنا منه. وإن كان مانعبد خيراً ممّا تعبد، كنت قد أخذت بحظّك منه. قيل: فأنزل الله تعالى فيهم: «بِسْمِ اللهِ الرَّحْمانِ الرَّحيمِ. قُلْ يا أيُّهَا الْكافِرونَ. لا أَعْبُدُ ماتَعْبُدونَ. وَلا أَنْتُمْ عابِدونَ ماأعْبُدُ. وَلا أَنا عابِدٌ ماعَبَدْتُم. وَلا أنْتُمْ عابِدونَ ماأعْبُدُ. لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينٌ».[3]

قال ابن إسحاق: أي إن كنتم لاتعبدون الله إلّا أن أعبد ماتعبدون، فلا حاجة لي بذلك منكم. لكم دينكم ولي ديني.[4]

---

١ ـ سيرة ابن هشام، ج ١، ص ٣٨٧.

٢ ـ يس ٣٦: ٧٧-٨٣.

٣ ـ الكافرون ١٠٩: ١-٦.

٤ ـ الروض الأُنف، ج ٢، ص ١٠٨.

مع أبي جهل بن هشام

قال ابن إسحاق: لمّا ذكر الله عزّوجلّ «شجرة الزّقوم» تخويفاً لمشركي قريش، في قوله: «أذٰلِكَ خَيْرٌ نُزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ. إنّا جَعَلْناها فِتْنَةً لِلظّالِمينَ. إنَّها شَجَرَةٌ تَخْرُجُ في أصْلِ الْجَحيمِ. طَلْعُها كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّياطينِ. فَإنَّهُمْ لآكِلُونَ مِنْها فَمالِؤونَ مِنْها الْبُطونَ. ثُمَّ إنَّ لَهُمْ عَلَيْها لَشَوْباً مِنْ حَميمٍ. ثُمَّ إنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإلىٰ الْجَحيمِ. إنَّهُمْ أَلْفَوْا آباءَهُمْ ضالّينَ. فَهُمْ عَلىٰ آثارِهِمْ يُهْرَعُونَ. وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الأوَّلينَ. وَلَقَدْ أرْسَلْنا فيهِمْ مُنْذِرينَ. فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُنْذَرينَ».[1]

فقد أهاجت هذه الآيات القارعة من غلواء المشركين وجعلتهم حيارى مندهشين يخافون سوء العاقبة القريبة! فعمد أبوجهل ـ على عادته ـ يحاول تهدئة هياجهم المبرّح، قائلاً: يامعشر قريش، أو تدرون ماهي شجرة الزقّوم، التي يخوّفكم بها محمد؟! إنّها عجوة يثرب بالزبد.[2] فوالله لئن استمكنّا منها، لنتزقّمنّها تزقّماً[3] قالها مستهزئاً لهياجهم الثائر!

قيل: فأنزل الله: «إنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ ميقاتُهُمْ أَجْمَعينَ. يَوْمَ لايُغْني مَوْلىً عَنْ مَوْلىً شَيْئاً وَلاهُمْ يُنْصَرونَ ـ إلى قوله ـ إنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ. طَعامُ الْأَثيمِ. كَالْمُهْلِ يَغْلي فِي الْبُطونِ. كَغَلْيِ الْحَميمِ. خُذوهُ فَاعْتِلُوهُ إلىٰ سَواءِ الْجَحيمِ. ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذابِ الْحَميمِ. ذُقْ إنَّكَ أنتَ الْعَزيزُ الْكَريمُ. إنَّ هٰذا ماكُنتُمْ بِهِ تَمْتَرون».[4]

قال ابن هشام: المهل كلّ شيء أذبته من نحاس أو رصاص وما أشبه.[5]

إنّ هذا ليس بكلام، وإنّما هي صواعق مرعدة وقوارع دامغة، تترىٰ على أشلاء هامدة وبقايا أجساد متفتّتة، لاتطيق تحمّلها حتى وإن جهدت في المقاومة والعناد. «فَتَرَى الْقَوْمَ فيها صَرْعىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ خاوِيَةٍ. فَهَلْ تَرىٰ لَهُمْ مِن باقِيَةٍ».[6]

وبذلك تتجسّد معجزة هذا الكلام وسحره في أُسلوبه هذا الباهر وسلطانه هذا القاهر!

---

١ ـ الصافّات ٣٧: ٦٢-٧٣.

٢ ـ العجوة: ضرب من تمر الحجاز، فيها لذّة.

٣ ـ التزقّم: الابتلاع.

٤ ـ الدخان ٤٤: ٤٠-٥٠.

٥ ـ سيرة ابن هشام، ج ١، ص ٣٨٨.

٦ ـ الحاقة ٦٩: ٧-٨.

مفاخرات ومساجلات

كانت سَنَةُ التسع سَنَةَ الوفود، وذلك بعد أن فرغ رسول الله ﷺ من غزاة تبوك، فجعلت وفود العرب تترى عليه مستسلمة منخرطة مع الكفّة العليا التي أخضعت قريش ومحالفيها وأحزاب العرب جميعاً.

فمن هؤلاء عطاردبن حاجب التميمي وكان خطيب القوم، قدم على النبيّ ﷺ في أشراف بني تميم، منهم الأقرع بن حابس، والزبرقان بن بدر ـ وهو شاعر القوم ـ وعمروبن الأهتمّ، والحتات بن يزيد، وعيينة بن حصن وغيرهم. وكان الأقرع وعُيينة أسلما من قبل وشهدا فتح مكة وحنينا والطائف، لكنّهما صحبا الوفد.

فلمّا قدم الوفد ودخلوا المسجد، نادوا رسول الله ﷺ من وراء حجراته: أن اخرج إلينا يا محمد! فآذى ذلك رسول الله ﷺ من صياحهم[1] فخرج إليهم.

فقالوا: يا محمد، جئناك نفاخرك، فأذن لشاعرنا وخطيبنا! قال: قد أذنت لخطيبكم فليقل، فقام عطارد بن حاجب، فقال:

(الحمدلله الذي له علينا الفضل والمنّ وهو أهله، الذي جعلنا ملوكاً، ووهب لنا أموالاً عظاماً، نفعل فيها المعروف. وجعلنا أعزّ أهل المشرق وأكثره عدداً، وأيسره عدّة، فمن مثلنا في الناس؟ ألسنا برؤوس الناس وأُولي فضلهم؟ فمن فاخرنا فليعدّد مثل ماعدّدنا! وإنّا لونشأ لأكثرنا الكلام، ولكنّا نحيا من الإكثار فيما أعطانا، وإنّا نعرف بذلك! أقول هذا، لأن تأتوا بمثل قولنا، وأمرٍ أفضل من أمرنا!...)... ثمّ جلس.

فقال رسول الله ﷺ لثابت بن قيس: قم، فأجب الرجل في خطبته، فقام ثابت وقال:

(الحمدلله الذي السماواتُ والأرض خلقه، قضى فيهنّ أمره، ووسع كرسيّه علمُه، ولم يك شيء قطّ إلّا من فضله. ثمّ كان من قدرته أن جعلنا ملوكاً، واصطفى من خير خلقه رسولاً، أكرمه نسباً، وأصدقه حديثاً، وأفضله حسباً. فأنزل عليه كتابه وائتمنه على خلقه، فكان خيرة الله من العالمين. ثمّ دعا الناس إلى الإيمان به، فآمن برسول الله ﷺ المهاجرون

١ ـ قيل: فنزلت «إِنَّ الَّذينَ يُنادُونَكَ مِنْ وَراءِ الحُجُراتِ أَكْثَرُهُمْ لايَعْقِلُونَ»: الحجرات ٤٩: ٤.

من قومه وذوي رحمه، أكرم الناس حسباً، وأحسن وجوهاً، وخير الناس فعالاً. ثمّ كان أوّل الخلق إجابةً، واستجاب لله حين دعاه رسول‌الله ﷺ نحن، فنحن أنصار الله ووزراء رسوله، نقاتل الناس حتى يؤمنوا بالله. فمن آمن بالله ورسوله، منع منّا ماله ودمه، ومن كفر جاهدناه في الله أبداً وكان قتله علينا يسيراً، أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي وللمؤمنين والمؤمنات، والسلام عليكم).

فقام الزبرقان بن بدر، وأنشد:

نحن الكرام فلا حيٌّ يعادلنا   منّا الملوك وفينا تقسم الرُبَع[١]

وجعل يعدّد من هذا القبيل من مفاخرات لاتعدّ وشعارات فارغة إلى أن يقول:

إنّا أبينا ولا يأبى لنا أحد   إنّا كذلك عند الفخر نرتفع.. الخ[٢]

فلمّا فرغ الزبرقان، قال رسول‌الله ﷺ لحسان بن ثابت: قم ياحسان، فأجب الرجل، وكان حسان يعرض قوله ويقول على منواله، فقام وقال:

إنّ الذوائب[٣] من فهر وإخوتهم   قد بيّنوا سنّة للناس تتّبع

يرضى بهم كلّ من كانت سريرته   تقوى الإله وكلّ الخير يصطنع

قوم إذا حاربوا ضرّوا عدوّهم   أو حاولوا النفع في أشياعهم نفعوا

سجيّة تلك منهم غير محدثة   إنّ الخلائق فاعلم شرّها البدع

إن كان في الناس سبّاقون بعدهم   فكلّ سبق لأدنى سبقهم تبع

إلى أن يقول:

إذا نصبنا لحيّ لم ندبّ لهم   كما يدبّ إلى الوحشيّة الذرع[٤]

نسمو إذا الحرب نالتنا مخالبها   إذا الزعانف[٥] من أظفارنا خشعوا

لايفخرون إذا نالوا عدوّهم   وإن أُصيبوا فلا خُور ولاهُلُع[٦]

---

١ ـ تقسم الرُبع: كناية عن كونهم رؤساء، حيث كان الرئيس العربيّ يأخذ ربع الغنائم في الجاهلية.

٢ ـ سيرة ابن هشام، ج ٤، ص ٢٠٨.

٣ ـ الذوائب: السادة، لأنّ ذوائب المرأة تعلو رأسها.

٤ ـ نصبنا: أظهرنا العداوة، والذرع: ولد البقرة الوحشية.

٥ ـ الزعانف: أطراف الناس وأتباعهم.

٦ ـ الخور: الضعفاء. والهلع: الجازعون. واحده هلوع.

كأنّهم في الوغى والموت مكتنع ... أُسدٌ بِحَليَة في أرساغها فدع[1]

خذ منهم ما أتى عفواً إذا غضبوا ... ولايكن همّك الأمر الذي منعوا[2]

فإنّ في حربهم فاترك عداوتهم ... شرّاً يخاض عليه السمّ والسلع[3]

أكرم بقومٍ رسولُالله شيعتهم ... إذا تفاوتت الأهواء والشيع

أُهدي لهم مدحتي قلبٌ يؤازره ... فيما أُحبّ لسانٌ حائك صنع[4]

فإنّهم أفضل الأحياء كلّهم ... إن جدّ بالناس جدّ القول أو شمعوا[5]

ثمّ إنّ للزبرقان بن بدر شعراً آخر، قام فقال:

أتيناك كيما يعلم الناس فضلنا ... إذا احتفلوا عند احتضار المواسم

إلى أن يقول:

وأنّ لنا المرباع[6] في كلّ غارة ... نغير بنجد أو بأرض الأعاجم

فقام حسان بن ثابت فقال:

هل المجد إلّا السؤدد العَوْد والنّدى ... وجاه الملوك واحتمال العظائم

نصرنا وآوينا النبيّ محمداً ... على أنف راض من معدّ وراغم

بحيّ حريد أصله وثراؤه ... بجابية الجولان وسط الأعاجم

نصرناه لمّا حلّ وسط ديارنا ... بأسيافنا من كلّ باغ وظالم

جعلنا بنينا دونه وبناتنا ... وطبنا له نفساً بفيء المغانم

ونحن ضربنا الناس حتى تتابعوا ... على دينه بالمرهفات الصوارم

ونحن ولدنا من قريش عظيمها ... ولدنا نبي الخير من آل هاشم

إلى أن يقول:

فإن كنتم جئتم لحقن دمائكم ... وأموالكم أن تقسموا في المقاسم

---

١ ـ مكتنع: دان. وحلية: مأسدة في اليمن. والأرساغ: جمع رسغ، موضع القيد من الرجل. وفدع: اعوجاج إلى ناحية.

٢ ـ عفواً: من غير مشقّة.

٣ ـ السلع: نبات مسموم.

٤ ـ صنع: الذي يجيد القول ويحسنه.

٥ ـ شمعوا: هزلوا. وأصله من الطرب واللهو.

٦ ـ المرباع: أخذ الربع من الغنيمة.

فــلا تــجعلوا لله نــدّا وأســلموا ولاتــلبسوا زيّاً كــزيّ الأعــاجم

قال ابن إسحاق:

فلمّا فرغ حسان من قوله: قال الأقرع بن حابس: وأبي إنّ هذا الرجل لمؤتى له. لخطيبه أخطب من خطيبنا، ولشاعره أشعر من شاعرنا، ولأصواتهم أحلى من أصواتنا...

فلمّا فرغ القوم، أسلموا، وجوّزهم رسول الله ﷺ فأحسن جوائزهم.[١]

---

١ ـ سيرة ابن هشام، ج ٤، ص ٢٠٦-٢١٢.

سخافات وخرافات

على أنّ التأريخ لايخلو من أسماء قوم قد زعموا أنّهم عارضوا القرآن، أو رأوا أنّ باستطاعتهم أن يعارضوه: «لَوْ نَشاءُ لَقُلْنا مِثْلَ هٰذا إنْ هٰذا إلّا أَساطيرُ الْأَوَّلينَ»[١] فمنهم من ادّعى النبوّة وجعل مايلقيه من سفاسفه مازعمه مضاهياً للقرآن كي لاتكون صنعته بلا أداة «أَوْ قالَ أُوحِيَ إلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إلَيْهِ شَيءٌ وَمَنْ قالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ ما أَنْزَل».[٢]

ومنهم من تعاطى معارضته صناعةً وظنّ أنّه قادر عليها، لكنّه سرعان ماتراجع إلى الوراء إما صاغراً أو مستغفراً ربّه من سوء مانواه.

والغريب أنّ مايؤثر عن أُناس في التأريخ حاولوا معارضة القرآن، أنّهم أتوا بكلام لايشبه القرآن ولايشبه كلام أنفسهم، بل نزلوا إلى ضرب من السخف والتفاهة، باد عواره، باق عاره وشناره. فمنهم عاقل استحيى أن يتمّ تجربته فحطّم قلمه ومزّق صحيفته، ومنهم ماكر وجد الناس في زمنه أعقل من أن تروج فيهم سخافاته، فطوى صحفه وأخفاها عن أعين الناظرين إلى حين، ولكن متى ذلك الحين، أنّه إلى أبد الآبدين! أمّا الذين أتوا بسخائفهم فقد أبدوا بِعوراتهم سفهاً وحمقاً، وإليكم نماذج من كلا النمطين، دليلا على صدق التحدّي إعجازاً مع الخلود «وَلَنْ تَفْعَلُوا...»:

---

١ ـ الأنفال ٨: ٣١.

٢ ـ الأنعام ٦: ٩٣.

١ ـ مسيلمة الكذّاب

فمن أُولئك مسيلمة بن حبيب، تنبّأ باليمامة في بني حنيفة على عهد رسول الله ﷺ بعد أن وفد عليه وأسلم في ظاهر أمره، كان يصانع كلّ إنسان ويتألّفه، ولا يبالي أن يطّلع أحد منه على قبيح، إذ كان اتخذ النبوّة مدعاة إلى الملك، حتى عرض على رسول الله ﷺ أن يشركه في الأمر. كان وفد بني حنيفة ـ في سنة تسع من الهجرة ـ قدم على رسول الله ﷺ وفيهم مسيلمة وقد ستروه بالثياب، ورسول الله ﷺ جالس بين أصحابه معه عسيب من سعف النخل، في رأسه خوصات. فلمّا انتهى إلى رسول الله ﷺ وهم يسترونه بالثياب، كلّمه وسأله، فقال له الرسول ﷺ: لوسألتني هذا العسيب ما أعطيتكه. وكان قد سأله تشريكه في أمر الرسالة.

ثمّ انصرفوا، فلمّا انتهوا إلى اليمامة ارتدّ عدوّ الله، وتنبّأ وتكذّب لهم، وقال: إنّي أُشركت في الأمر مع محمد ﷺ ثمّ جعل يسجع لهم الأساجيع، ويقول لهم فيما يقول مضاهاة للقرآن:

«لقد أَنْعمَ الله على الحُبْلى أَخرجَ منها نَسَمَةً تسعى، من بين صِفاقٍ[1] وَحشى» ثمّ أحلّ لهم الخمر ووضع عنهم الصلاة، وهو مع ذلك يشهد لرسول الله ﷺ بأنّه نبيّ، لكنّه شريكه، فأصفقت معه بنو حنيفة على ذلك.[2]

وكتب إلى رسول الله ﷺ في أُخريات سنة عشر: «من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله، سلام عليك، أمّا بعد، فإنّي قد أُشركت في الأمر معك وأنّ لنا نصف الأرض ولقريش نصف الأرض، ولكن قريشا قوم يعتدون».

وأرسله مع رجلين من قومه، فقدما إلى رسول الله ﷺ وقدّما إليه الكتاب. فلمّا قرأه قال لهما: فما تقولان أنتما؟ قالا: نقول كما قال. فقال النبي ﷺ: «أما والله، لولا أنَّ الرُسُل لاتُقْتَلُ، لضربت أعناقكما». ثمّ كتب إلى مسيلمة: «بسم الله الرحمان الرحيم من محمد

---

١ ـ الصفاق: الجلد الأسفل دون الجلد الأعلى الذي يسلخ.

٢ ـ سيرة ابن هشام، ج ٤، ص ٢٢٣.

رسول‌الله، إلى مسيلمة الكذّاب، السلام على من اتّبع الهدى. أمّـا بـعد، فـإنّ الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتّقين».[١]

وكان قد اتخذ باليمامة حرماً، وكانت قرى لبني أُسيد صارت في الحرم، ومن ثمّ كانوا يغيرون على ثمار أهل اليمامة واتخذوا الحرم دغلاً، فقيل لمسيلمة في ذلك، فقال: أنتظر الذي يأتي من السماء، ثمَّ أتاه فقال: «والليل الأطحم، والذئب الأدلم، والجذع الأزلم، ما انتهكت أُسيد من محرم».

ثمّ عادوا للغارة وللعدوى واستعدى عليهم، فقال مسيلمة: أنتظر الذي يأتيني فقال: «والليل الدامس، والذئب الهامس، ما قطعت أُسيد من رطب ولا يابس». فقالوا له: أمّـا النخيل مرطبة فقد جدّوها، وأمّا الجدران يابسة فقد هـدموها، فـقال: اذهـبوا وارجـعوا فلاحقّ لكم.

وكان فيم يقرأ لهم: «إنّ بني تميم قوم طهر لقاح، لامكروه عليهم ولاأتاوه، نجاورهم ما حيينا بإحسان، نمنعهم من كلّ إنسان، فإذا متنا فأَمْرُهُم إلى الرحمان».

وكان يقول: «والشاء وألوانها، وأعجبها السود وألبـانها، والشـاة السـوداء واللـبن الأبيض أنّه لعجب محض وقد حرم المذق، فما لكم لاتمجعون».

وكان يقول: «الفيل ماالفيل، وما أدراك ماالفيل، له ذنب وبيل وخرطوم طويل...».

وكان يقول: «ياضفدع ابنة ضفدع، نقّي ماتنقّين، أعلاك في الماء وأسفلك في الطين، لاالشارب تمنعين ولاالماء تكدّرين».

وكان يقول: «والمبذرات زرعاً، والحاصدات حصداً، والذاريات قمحاً، والطاحنات طحناً، والخابزات خبزاً، والثاردات ثرداً، واللاقمات لقماً، إهالة وسمناً، لقد فضلتم على أهل الوَبَر، وما سبقكم أهل المدر، ريفكم فامنعوه، والمعترّ فآووه، والباغي فناوؤه».

وجاءه طلحة النمري فقال له: أنت مسيلمة؟ قال: نعم. قال: من يأتيك. قال: رحمان.

---

١ ـ المصدر، ص ٢٤٧.

قال: أفي نور أم في ظلمة؟ قال: في ظلمة. فقال طلحة: أشهد أنّك كذّاب وأنّ محمداً صادق.

ولكن كذّاب ربيعة أحبّ إلينا من صادق مضر. فثبت معه حتى قتل يوم عقرباء فيمن قتل معه.[١]

وكان من المسلمين رجل يقال له نهار الرجّال[٢] قد هاجر إلى النبيﷺ وقرأ القرآن وفقّه في الدّين، فبعثه معلّماً لأهل اليمامة وليشغب على مسيلمة وليشدّ من أمر المسلمين، لكنّه أصبح بعد وفاتهﷺ أعظم فتنة على بني حنيفة من مسيلمة، إذ شهد أنّه سمع محمداًﷺ يقول: إنّ مسيلمة قد أُشرك معه! فصدّقوه واستجابوا له.

فكان الرجّال لا يقول شيئاً إلّا تابعه مسيلمة، وكان ينتهي إلى أمره ويستعين به على تعرّف سيرة الرسولﷺ ومعجزاته في العرب ليحاكيه ويتشبّه به، لكنّه ما عارضه في شيء قط إلّا انقلبت الآية عليه وأخزاه الله.

قال الجاحظ في كتاب الحيوان عند القول في الضفدع: ولا أدري ماهيّج مسيلمة على ذكرها ولم ساء رأيه فيها حتى جعل بزعمه فيما نزل عليه من قرآنه: ياضفدع بنت ضفدعين، نقّي ماتنقّين، نصفك في الماء ونصفك في الطين، لاالماء تكدّرين، ولاالشارب تمنعين.

وقال الرافعي: وكلّ كلامه على هذا النمط واهٍ سخيف لاينهض ولايتماسك، بل هو مضطرب النسج، مبتذل المعنى مستهلك من جهتيه، وما كان الرجل من السخف بحيث ترى، ولا من الجهل بمعاني الكلام وسوء البصر بمواضعه.[٣]

وقال الدكتور درّاز ـ بشأن سخافة عقله ـ: فقد زعم أنّه يوحى إليه بكلام مثل القرآن،

---

١ ـ تاريخ الطبري (حوادث سنة ١١)، ج ٢، ص ٥٠٤-٥٠٨.

٢ ـ عن أبي هريرة قال: جلست مع النبيﷺ في رهط معنا الرجّال بن عنفوه، فقال: إنّ فيكم رجلاً ضرسه في النار أعظم من أحد. فهلك القوم وبقيت أنا والرجّال، فكنت متخوّفاً لها حتّى خرج الرجّال مع مسيلمة فشهد له بالنبوّة. وقتل في حرب خالدبن الوليد لمسيلمة وأهل اليمامة. والرجّال في الرواية المشهورة بالجيم. وفي بعضها بالحاء المهملة.

٣ ـ إعجاز القرآن للرافعي، ص ١٧٥.

وما صنع شيئاً إلّا أنّه كان يعمد إلى آي القرآن فيسرق أكثر ألفاظها ويبدّل بعضاً، كقوله «إنّا أعطيناك الجماهر فصلّ لربّك وجاهر». أو يجيء على موازين الكلمات القرآنية بألفاظ سوقيّة ومعان سوقيّة، كقوله: «والطاحنات طحناً والعاجنات عجناً والخابزات خبزاً». وهكذا لم يستطع وهو عربيّ قحّ أن يحتفظ بأُسلوب نفسه، بل نزل إلى حدّ الإسفاف. وأتى العبث الذي يأتيه الصبيان في مداعبتهم وتفكّههم بقلب الأشعار والأغاني عن وجهها. ولا يخفى أنّ هذا كلّه ليس من المعارضة في شيء، بل هو المحاكاة والإفساد. وما مثله إلّا كمثل من يستبدل بالإنسان تمثالاً لا روح فيه، وهو على ذلك تمثال ليس فيه شيء من جمال الفن.[1]

***

قلت: وبذلك يتبيّن فساد ما زعمه بعض أهل الخرف، من أنّه لو كان ما أتى به باطلاً، لوجب على الله إرغامه، كما قال تعالى: «وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنا بَعْضَ الأَقاويلِ. لأَخَذْنا مِنْهُ بِالْيَمِينِ. ثُمَّ لَقَطَعْنا مِنْهُ الْوَتينَ. فَما مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حاجِزينَ».[2] كما زعمه بعض البابيّة في سفاسفهم.

إذ لا تعدّ أمثال هذه الخزعبلات تقوّلا على الله، ما لا يتناسب مع كلامه تعالى لا في لفظه ولا في أُسلوبه ولا في شيء من معانيه. إنّما هي ترّهات تشبه أطيط بعير أو نهيق حمار.

قال ابن كثير: وأمّا مسيلمة فمن شاهده من ذوي البصائر علم أمره لا محالة بأقواله الركيكة التي ليست بفصيحة، وأفعاله غير الحسنة بل القبيحة، وقرآنه الذي يخلد به في النار يوم الحسرة والفضيحة.

وكم من فرق بين قوله تعالى: «الله لا إله إلّا هُوَ الحَيُّ القَيّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ ولا نَوم...»[3] وبين قول مسيلمة: يا ضفدع بنت ضفدعين... وقوله: لقد أنعم الله على الحبلى، إذ أخرج

---

١ ـ النبأ العظيم، ص ٧٤، الهامش.
٢ ـ الحاقة ٦٩: ٤٤-٤٧.
٣ ـ البقرة ٢: ٢٥٥.

منه نسمة تسعى بين صفاق وحشى... وقوله: الفيل وما أدراك ماالفيل... وقوله: والعاجنات عجناً، والخابزات خبزاً، واللاقمات لقماً، إهالةً وسمناً، إنّ قريشاً قوم يعتدون... إلى غير ذلك ممّا يأنف الصبيان أن يتلفّظوا بها إلّا على وجه السخريّة والاستهزاء.

وذكروا أنّ عمرو بن العاص وفد على مسيلمة وكان صديقاً له في الجاهليّة، وكان عمرو لم يُسلم بعدُ. فقال له مسيلمة: ويحك يا عمرو، ماذا أُنزل على صاحبكم ـ يعني رسول الله صلى الله عليه وآله في هذه المدّة؟ فقال: لقد سمعت أصحابه يقرأون سورة عظيمة قصيرة! فقال: وما هي؟ فقال: «وَالعَصْرِ إنَّ الإنسانَ لَفِي خُسْر...»[1] إلى آخر السورة. ففكّر مسيلمة هُنيئةً ثُمّ قال: وأنا قد أُنزل عليّ مثله. فقال عمرو: وما هو؟ فقال: «يا وَبْرُ، يا وَبْرُ، إنّما أنت أُذنان وصَدْر، سائرك حُفَر ونُقَر!». كيف ترى يا عمرو؟! فقال له عمرو: والله إنّك لتعلم أنّي أعلم أنّك تكذب.

قال ابن كثير: وقد رأيت أبابكر الخرائطي أسند في كتابه المعروف بمساوئ الأخلاق في الجزء الثاني منه شيئاً من هذا أو قريباً منه.

والوَبْر: دويبة تُشبه الهرّ أعظم شيء فيه أُذناه وصدره وباقيه دميم. فأراد مسيلمة أن يركّب من هذا الهذيان ما يعارض به القرآن، فلم يَرُج ذلك على عابدي الأوثان في ذلك الزمان.[2]

٢ ـ سجاح بنت الحارث التميميّة

كانت في بني تغلب (وهم أخوالها) راسخة في النصرانيّة، وكانت تعلّمت منهم بعضاً من شؤون الدين، فتنبّأت فيهم بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله فاستجاب لها الهذيل وترك التنصّر، ومالأها جماعة من رؤساء القبائل، وكانت تقول لهم: إنّما أنا امرأة من بني يربوع

---

١ ـ سورة العصر ١٠٣.

٢ ـ راجع: تفسير ابن كثير، ذيل الآية: ١٧ من سورة يونس. وتفسير سورة العصر. وذيل الآية: ٢٣ من سورة البقرة. (ج ٤، ص ٤١٠ وج ٢، ص ٥٤٧ و ج ١، ص ٦٢).

وإن كان ملك فالملك ملككم فخرجت بهم تريد غزو المسلمين، ومرّت تقاتل بعض القبائل وتوادع بعضها، وكان أمر مسيلمة قد غلظ واشتدّت شوكة أهل اليمامة، فنهدت له بجمعها، وخافها مسيلمة، ثمّ اجتمعا وعرض عليها أن يتزوّجها، قال: ليأكل بقومه وقومها العرب فأجابت وانصرفت إلى قومها فقالوا: ماعندك؟ قالت: كان على الحقّ فاتّبعته فتزوّجته...

ولها خلال قصّتها كلمات وتسجيعات، لتوقر من أنفس العرب وتستدرجهم في الاستماع إلى هذه التعابير المسجعة التي تشبه كلام الكهّان. وإليك إجمال قصّتها:

كانت عندما تريد الخروج قالت: «أعدّوا الركاب، واستعدّوا للنهاب، ثمّ أغيروا على الرباب فليس دونهم حجاب». وكانت قصدت الإغارة على قبيلة رباب، كانت من أضعف القبائل. لكنّها فشلت ورجعت مقهورة.

يقول أصم التميمي في ذلك:

أتتنا أُخت تغلب فاستهدت	جلائب من سَراة بني أبينا[1]
وأرست دعوة فينا سفاهاً	وكانت من عمائر آخرينا[2]
فما كنّا لنرزيهم زبالاً	وما كانت لتسلم إذ أتينا[3]
ألا سفهت حلومكم وضلّت	عشيّة تحشدون لها ثبينا[4]

ثمّ خرجت في جنود الجزيرة حتى بلغت النباج، فأغار عليهم أوس بن خزيمة، وهزمهم وقتل منهم وأسر من أسر، فردّت على أعقابها. فاجتمع إليها رؤساء الجزيرة، وقالوا لها: ماذا تأمرين؟ قالت: اليمامة! فقالوا: إنّ شوكة أهل اليمامة شديدة وقد غلظ أمر مسيلمة، قالت:

«عليكم باليمامة، ودفّوا دفيف الحمامة، فإنّها غزوة صرّامة، لا يلحقكم بعدها

---

١ ـ إستهد: استضعف. والجلائب: جمع الجلبية وهي المجلوبة. والسريّ: الشريف.

٢ ـ أرسى: أثبت. العميرة: خلايا النحل مجموعة. وتطلق على الحيّ العظيم المنفرد.

٣ ـ رزى فلاناً: قَبِلَ برّه. والزبال: ماتحمله النملة بفمها. ٤ ـ الثبين: طرف الرداء إذا تثبنه أي تثنيه. وحشده: جمعه.

ملامة».

فنهدت لبني حنيفة، وبلغ ذلك مسيلمة، فهابها واحتال في استمالتها، فأرسل إليها بهديّة وطلب منها يستأمنها على نفسه حتى يأتها. فأمرت بنزول الجند على الأمواه[١] وأذنت له وآمنته فجاءها وافداً في أربعين رجلاً من الأحناف. فأوّل ما بدأها أن قال لها: لنا نصف الأرض وكان لقريش نصفها لو عدلت، وقد ردّ الله عليك النصف الذي ردّت قريش، فحباك به، وكان لها لو قبلت.

فقالت: «لا يردّ النصف إلّا من حنف، فاحمل النصف إلى خيل تراها كالسهف».[٢]

فقال مسيلمة: «سمع الله لمن سمع، وأطمعه بالخير إذا طمع، ولازال أمره في كلّ ما سرّ نفسه يجتمع. رآكم ربّكم فحيّاكم، ومن وحشة خلاكم، ويوم دينه أنجاكم. فأحياكم علينا من صلوات معشر أبرار، لاأشقياء ولافجّار، يقومون الليل ويصومون النهار، لربّكم الكُبار، ربّ الغيوم والأمطار».

وقال أيضاً: «لمّا رأيت وجوههم حسنت، وأبشارهم صفت، وأيديهم طفلت، قلت لهم: لاالنساء تأتون، ولاالخمر تشربون، ولكنّكم معشر أبرار، تصومون يوماً وتكلفون يوماً، فسبحان الله، إذا جاءت الحياة كيف تحيون، وإلى ملك السماء ترقون، فلو أنّها حبّة خردلة لقام عليها شهيد، يعلم ما في الصدور، ولأكثر الناس فيها الثبور».[٣]

ثمّ دعا مسيلمة سجاحاً إلى حصنه، فلمّا أتت ونزلت به أغلق الحصن دونها. فقالت له: انزل، قال: فنحّي عنك أصحابك، ففعلت. فقال مسيلمة: اضربوا لها قبّة وجمّروها، لعلّها تذكر الباه، ففعلوا، فلمّا دخلت القبّة نزل مسيلمة، فقال: ماذا أُوحي إليك؟ فقالت: هل تكون النساء يبتدئن؟ ولكن أنت قل، ماذا أُوحي إليك؟ قال مسيلمة:

«ألم ترى إلى ربّك كيف فعل بالحُبلى، أخرج منها نسمة تسعى، من بين صفاق

---

١ ـ الأمواه: المياه جمع ماء.

٢ ـ حنف: مال. السهف: حرشف السمك أُطلق على الخيل الصغار.

٣ ـ طفلت: أي صارت ناعمة كالطفلة. والثبور: الويل والهلاك.

وحشي».

قالت: وماذا أيضاً؟ قال: أُوحي إليّ:

«إنّ الله خلق النساء أفراجاً، وجعل الرجال لهنّ أزواجاً، فنولج فيهنّ قُعساً[١] إيلاجاً، ثمّ نخرجها إذا نشاء إخراجاً، فينتجن لنا سخالاً إنتاجاً».

قالت: أشهد أنّك نبيّ! قال: هل لك أن أتزوّجك؟ فآكل بقومي وقومك العرب؟ قالت: نعم، فقال:

ألاقــــــومي إلى... فقد هــيّئ لك المـضجع

... إلى آخر أبيات ملؤها استهتار وخلاعة، يترفّع القلم عن نقلها.[٢]

ذكر ابن حجر: أنّها بعد مقتل مسيلمة عادت إلى الإسلام فأسلمت وعاشت إلى خلافة معاوية[٣] وماكانت نبوّتها إلّا زفافاً على مسيلمة!

٣ـ طليحة بن خويلد الأسدي

كان من أشجع العرب وكان يعدّ بألف فارس، قدم على النبيّ ﷺ في وفد أسد بن خزيمة سنة تسع فأسلموا، ثمّ لمّا رجع تنبّأ طليحة وعظم أمره بعد أن توفّي رسول الله. وكان يزعم أنّ ذاالنون هوالذي يأتيه بالوحي، ولم يأت بقرآن، لأنّ قومه من الفصحاء لم يكن ليعبَّر عليهم ذلك، إلّا أنّهم تابعوه عصبيّة وطلباً لأمر كانوا يحسبونه كائناً في العرب بالغلبة.

ولم يؤثر منه كلام سوى قوله: «إن الله لايصنع بتعفير وجوهكم، وقبح أدباركم شيئاً، فاذكروا الله قياماً، فإنّ الرغوة فوق الصريح».

وذلك أنّ الصلاة في شرعه كانت مجرّد قيام وابتهال إلى الله، فيما زعم.

---

١ ـ القعس ـ بضم القاف ـ نتوء في الجسد، كناية عن... وفي الأغاني: «فنولج فيهنّ الغراميل...» والغرمول: الضخم من...

٢ ـ راجع تفصيل القصة في تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٤٩٦-٤٩٩.

٣ ـ الإصابة، ج ٤، ص ٣٤٠.

ولمّا توافته جيوش المسلمين، تلفّف في كساء له بفناء بيت له من شعر، يتنبّأ لهم والناس يقتتلون، وكان عيينةبن حصن في سبعمائة من بني فزارة، يقاتل دونه. فلمّا هزّت عيينة، الحربُ وضرس القتال، كرّ على طليحة، فقال: هل جاءك جبرئيل بعد؟ قال: لا، فرجع فقاتل حتى إذا اشتدّت الحرب ثانية، جاءه فقال له: لاأباً لك، أجاءك جبرئيل بعد؟ قال: لاوالله، فجعل يقول عيينة: حتى متى؟ قد والله بلغ منّا. ثمّ رجع فقاتل، وكرّ عليه ثالثاً وسأله هل جاءه جبرئيل، وفي هذه المرّة قال: نعم! قال: فماذا قال لك؟ قال: قال لي: «إنّ لك رحى كرحاه، وحديثاً لاتنساه».

فقال عيينة: أظنّ أن قد علم الله أنّه سيكون حديث لاتنساه، يابني فزارة، هكذا فانصرفوا فهذا والله كذّاب! فانصرفوا وانهزم الناس، فغشوا طليحة يقولون: ماذا تأمرنا ـ وقد كان أعدّ فرسه عنده، وهيّأ بعيراً لامرأته النوّار ـ فلمّا أن غشوه يقولون ماذا تأمرنا، قام فوثب على فرسه وحمل امرأته ثمّ نجا بها، وقال: من استطاع منكم أن يفعل مثل ما فعلت وينجو بأهله فليفعل. ثمّ سلك الحوشيّة حتى لحق بالشام، وارفضّ جمعه.[١]

٤ ـ الأسود العنسي

هو مسعودبن كعب من بني مذحج، ويقال له: عبهلة. وكان يلقّب ذا الخمار، إذ كان يقول: يأتيني ذوخمار. وكان فصيحاً معروفاً بالكهانة والسجع عالماً بالنسب. وقد تنبّأعلى عهد النبيﷺ وخرج باليمن وأتبعته قبائل من مذحج واليمن واستفحل أمره. وكان يدّعي أنّ ملكين يأتيانه يسمّى أحدهما «سحيقاً» والآخر «شريفاً» وكان إذا ذهب مذهب التنبّؤ أكبّ ثمّ رفع رأسه ويقول: قال لي: كيت كيت. وكان له خدع كثيرة يزخرف بها. قتل قبل وفاة النبيّﷺ بيوم. قتله فيروز وقيس وداذويه من أبناء الفرس الذين أسلموا باليمن، قتلوه في تواطئ خطير:

وذلك عن طريق امرأة يقال لها: مرزبانة، كان قد اغتصبها، لأنّها كانت من أجمل

---

١ ـ تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٤٨٥-٤٨٦، حوادث سنة ١١.

النساء وكانت مسلمة صالحة، وكانت تحدّث عنه أنّه لايغتسل من الجنابة. فصنعت سرباً ـ حفيرة تحت الأرض: النفق ـ وأدخلتهم عليه وهو سكران، فخبطوه بأسيافهم، وهم يقولون:

ضلّ نبيّ مات وهو سكران والناس تلقى جلّهم كالذبان

النور والنار لديهم سيّان[١]

وذكر ابن جرير: أنّ الأسود العنسي كتب إلى عمّال رسول الله ﷺ ورؤساء الأجناد: «أيها المتورّدون علينا، امسكوا علينا ما أخذتم من أرضنا، ووفّروا ما جمعتم، فنحن أولى به. وأنتم على ما أنتم عليه».

وكان اللعين قد خرج واستغلظ أمره واستولى على صنعاء وقتل شهربن باذان الذي خلف أباه باذان على صنعاء بأمر من رسول الله ﷺ وتزوّج بامرأته (آزاد) ـ وهي ابنة عمّ فيروز، ولعلّها التي كانت تلقّب بمرزبانة، على ماجاء في رواية السهيلي الآنف ـ وقد أسند أمر جنده إلى قيس بن عبد يفوث، وأسند أمر الأبناء (الفُرس الذين قطنوا اليمن) إلى فيروز وداذويه. وكانوا من ذي قبل من عمّال رسول الله ﷺ فاستمالهم وهدّدهم على قبول ولايته، فقبلوا مكرهين.

قال: واستخفّ بقيس وبفيروز وداذويه، وتزوّج امرأة شهر، ابنة عمّ فيروز.

يقول فيروز: ونحن في هذه الشدّة، إذ جاءنا كتاب رسول الله ﷺ قدم علينا به وَبَربن يحنس، يأمرنا فيه بالقيام على ديننا والنهوض في الحرب، والعمل في الأسود إمّا غيلة وإمّا مصادمة وأن نبلّغ عنه مَنْ رأينا أنّ عنده نجدة وديناً، فعملنا في ذلك، وكاتبنا الناس ودعوناهم، فرأينا أمراً كثيفاً.[٢]

قال: وقد أحسّ بذلك الأسود، يقال: أخبره به شيطانه. فأرسل إلى قيس، وقال له: إنّ هذا ـ وأشار إلى شيطانه ـ يقول لي:

---

١ ـ الروض الأُنف، ج ٤، ص ٢٢٦؛ وذكره ابن هشام في السيرة، ج ٤، ص ٢٤٦.

٢ ـ كثف: غلظ وكثر والتفّ.

عمدت إلى قيس فأكرمته، حتى إذا دخل منك كلّ مدخل، وصار في العزّ مثلك، مال ميل عدوك وحاول ملكك، وأضمر على الغدر، إنّه يقول: يا أسود يا أسود، يا سوأة يا سوأة، اقطف قُنّته[1] وخذ من قيس أعلاه، وإلّا سلبك أو قطف قُنّتك. فقال قيس: كذب وذي الخمار، لأنت أعظم عندي من أن أُحدّث نفسي بذلك. فقال العنسي: ماأجفاك، أتكذّب الملك! قد صدق الملك لكنّي عرفت الآن أنّك تائب!

ثمّ خرج قيس من عنده وجاء إلى جُشَيش وفيروز وداذويه وأخبرهم بالخبر، وقال: إذن فما الرأي؟ قالوا: نحن على حذر. فبيناهم على ذلك إذ أرسل إليهم العنسي، وقال لهم: «ألم أُشرّفكم على قومكم، ألم يبلغني عنكم!» فقالوا: أقلنا مرّتنا هذه، فقال لهم: لا يبلغني عنكم فأقتلكم. قالوا: فنجونا ولم نكد. لكنّه لم يزل في ارتياب من أمرنا وأمر قيس. ونحن أيضاً في ارتياب من أمره.

قال فيروز: إذ جاءنا اعتراض عامر بن شهربن باذان، وذي زود، وذي مران، وذي كلاع، وذي ظليم عليه، وكاتبونا وبذلوا لنا النصر، وإنّما اهتاجوا لذلك حين جاءهم كتاب رسول الله ﷺ بشأن العنسي يحرّضهم عرباً وغير عرب على رفع فتنته. فكاتبناهم أن لا يحرّكوا شيئا حتى نبرم الأمر.

قال: فدخلت على آزاد، امرأته، فقلت لها: يا ابنة عمّ، قد عرفت بلاء هذا الرجل عند قومك قتل زوجك وطأطأ في قومك القتل، أي أسرع فيهم القتل، وسفل بمن بقي منهم وفضح النساء، فهل عندك من ممالأة عليه؟! فقالت: عليّ أمره. قلت: إخراجه؟ قالت: أو قتله. قلت: أو قتله؟! قالت: نعم، والله ما خلق الله شخصاً أبغض إليّ منه، مايقوم لله على حقّ، ولا ينتهي له على حرمة. قالت: فإذا عزمتم فأعلموني، أخبركم بمأتى هذا الأمر.

قال: فاجتمع أمرنا على أن نغدر به، فأتيت آزاد وأخبرتها بعزيمتنا وانتظرت رأيها، فقالت: هو متحرّس، وليس في القصر ناحية إلّا والحرس محيطون بها، سوى هذا البيت

---

١ ـ القنّة: كالقلّة لفظا ومعنى، وهو أعلى الشيء ورأسه.

فإنّ ظهره إلى مكان كذا، فإذا أمسيتم فانقبوا عليه، فإنّكم دون الحرس، وليس دون قتله شيء. قالت: وإنّكم ستجدون فيه سلاحاً وسراجاً.

فتقدّم جشيش وداذويه فاقتلعا بطانة البيت، فدخل فيروز وأغلق الباب وجلس عند آزاد كالزائر. وإذا بالأسود دخل عليها فاستخفّته غيرةً، وأخبرته برضاع وقرابة، فصاح به وأخرجه.

قال: فنقبنا البيت من خارج ودخلنا وفيه سراج تحت جفنةٍ. وإذا به يمرّ بباب البيت إذ سمع غطيطاً، فعاجله فيروز فخالطه وهو مثل الجمل، فأخذ برأسه وقتله، فدقّ عنقه ووضع ركبته في ظهره فدقّه. ثمّ قام ليخرج فأخذت المرأة بثوبه، وهي ترى أنّه لم يقتله. فقالت: أين تدعني؟ قال: أخبر أصحابي، فأتاهم فقاموا معه وأرادوا حزّ رأسه، فاضطرب فلم يمكن ضبطه، فقال: اجلسوا على صدره، فجلس اثنان على صدره، وأخذت المرأة بشعره، إذ سمعت منه بربرة (صياح ونخير) فألجمته بمئلاة[1] فأمرّوا الشفرة على حلقه، فخار كأشدّ خوار ثور. فابتدر الحرس الذين كانوا حول المقصورة، فقالوا: ماهذا ماهذا؟ فقالت المرأة: النبيّ يوحى إليه! فخمد.

قال: وكتبنا بذلك إلى رسول الله ﷺ وكان قد أتاه الخبر من السماء الليلة التي قتل فيها العنسي. فأصبح رسول الله ﷺ يبشّر أصحابه بهلاك عدوّ الله، فقال: قتل العنسي البارحة. قتله رجل مبارك من أهل بيت مباركين! قيل: ومن هو؟ قال فيروز، فاز فيروز.[2] تلك كانت نهاية أمر اللعين عدوّ الله.

قال فيروز في كيفيّة قتله: إنّي لمّا خرجت إليه كنت قد خلفت سيفي فقلت إن رجعت إلى سيفي خفت أن يفوتني، فضربت بيدي على رأسه، وأخذت رأسه بيد ولحيته بيد، ثمّ لويت عنقه فدققتها.

قال أبوجعفر: وكان أوّل أمره إلى آخره ثلاثة أشهر.[3]

---

١ ـ هي خرقة تمسكها المرأة عند النوح تشير بها.
٢ ـ فيروز معرّب پيروز، بمعنى المظفَّر.
٣ ـ تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٤٦٣-٤٧٣.

٥ ـ ابن المقفّع

عبدالله بن المقفّع الفارسي الماهر في صنعة الإنشاء والأدب[١] وهو الذي عرّب «كليلة ودمنة» بأسلوبه الأدبي البديع، صاحب كتاب «الدرّة اليتيمة» المعروفة. زعموا أنّه اشتغل بمعارضة القرآن مدّة ثمّ مزّق ما جمع واستحيى لنفسه من إظهاره.

يقال: اجتمع ابن أبي العوجاء وأبوشاكر الديصاني[٢] وعبدالملك البصري[٣] وابن المقفّع في المسجد الحرام يستهزئون بالحاجّ ويطعنون في الإسلام والقرآن.

فقال ابن أبي العوجاء: تعالوا ننقض القرآن كلّ واحد منّا ربعه، وإذا نقضناه بطلت نبوّة محمد صلى الله عليه وآله وفي إبطال نبوّته إبطال الإسلام!

فتوافقوا على أن يجتمعوا بعد عام ويأتوا بما عملوا في نفس المكان. فلمّا كان من قابل واجتمعوا، وإذا هم لم يأتوا بشيء!

قال ابن أبي العوجاء: أمّا أنا فمنذ افترقنا تفكّرت في هذه الآية «فَلَمَّا اسْتَيْأَسوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيّاً».[٤] فلم أقدر على موازاتها في الفصاحة والبيان، فقد شغلتني عن التفكّر في غيرها!

وقال عبدالملك: وأنا منذ فارقتكم كنت مفكّرا في هذه الآية «يا أيُّها النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فاسْتَمِعوا لَهُ إنَّ الّذينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقوا ذُباباً وَلَوِ اجْتَمَعوا لَهُ وَإنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبابُ شَيْئاً لايَسْتَنْقِذوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطّالِبُ وَالْمَطْلوبُ»[٥] فلم أقدر على مناظرتها!

وقال أبوشاكر: وأنا أيضاً منذ مفارقتي إيّاكم ظلت متفكّراً في هذه الآية «لَوْ كانَ فيهما آلِهَةٌ إلّا الله لَفَسَدتا».[٦] فلم أقدر على أن أُماثلها!

فقال ابن المقفّع: ياقوم، إنّ هذا القرآن ليس من جنس كلام البشر، وأنا مذ فارقتكم

---

١ ـ أسلم على يد «عيسى بن علي» عمّ المنصور. ولعلّه لذلك (لمنافسة كانت بينه وبين عمّه) أمر عامله بالبصرة (سفيان بن معاوية) بشنق ابن المقفّع نكاية به، بحجّة زندقته في ظاهر الأمر كان ذلك عام (١٤٣).

٢ ـ ستأتي ترجمتهما.

٣ ـ لم نعثر له على ترجمته.

٤ ـ يوسف ١٢: ٨٠.

٥ ـ الحج ٢٢: ٧٣.

٦ ـ الأنبياء ٢١: ٢٢.

مفكّر في هذه الآية «وَقيلَ يا أرْضُ ابْلَعي ماءَكِ وَيا سَماءُ أقْلِعي وَغيضَ الْماءُ وَقُضِيَ الْأمْرُ وَاسْتَوَتْ علىٰ الجُودِيِّ وَقيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظّالِمين»[1] فلم أستطع أن آتي بنظيرتها!

قال هشام بن الحكم[2] وهو يراقب الجماعة: فبينما هم في ذلك، إذ مرّ بهم الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام وعلم ماهم فيه، فقال لهم ـ متهكّما ـ: «قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإنْسُ وَالْجِنُّ عَلى أنْ يَأتوا بِمِثْلِ هٰذا الْقُرْآنِ لايَأْتونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهيراً».[3]

قال: فنظر القوم بعضهم إلى بعض، وقالوا ـ معجبين بالأمر ـ: لئن كان للإسلام حقيقة، لما انتهت وصاية محمد صلى الله عليه وآله إلّا إلى مثل جعفر بن محمد عليه السلام والله مارأيناه قطّ إلّا هبناه واقشعرّت جلودنا لهيبته. ثمّ تفرّقوا مقرّين بالعجز.[4]

هذا وقد أنكر العلماء نسبة ذلك إلى ابن المقفّع، الذي هو من أبصر الناس باستحالة المعارضة. إنّما يعرف ذاالفضل من الفضل ذووه.

قال الرافعي: هذه النسبة مكذوبة عليه، وأنّ ابن المقفّع من أبصر الناس بعدم إمكان معارضة مثل القرآن، لالشيء إلّا لأنّه من أبلغ الناس. وإذا قيل أنّ فلاناً يزعم إمكان المعارضة فاعلم أنّه إمّا جاهل أحمق أو عالم أعمته العصبيّة، وابن المقفّع ليس واحداً منهما، ذلك الرجل العاقل الخبير بموضع نفسه من كلام الله المجيد.

قلت: إن صحّت الرواية ـ ولم تصحّ ـ فلعلّه كان مجاراة مع بني جلدته من أهل الأدب وربما كانوا يلحدون في آيات الله، فأراد بهذه التجربة إفحامهم وإقناعهم بواقع الأمر.

يدلّك على ذلك قصّته الأُخرىٰ ـ في المسجد الحرام ـ مع أصحابه، عندما مرّوا بالإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام فعمد إلى التنويه بمقامه الرفيع:

---

١ ـ هود ١١: ٤٤.

٢ ـ كان من أعاظم صحابة الإمام الصادق عليه السلام مشهوراً بالكلام وحسن المناظرة. كان كوفيّاً ونشأ بواسط واتّجر ببغداد. توفّي سنة ١٩٩.

٣ ـ الإسراء ١٧: ٨٨.

٤ ـ الاحتجاج للطبرسي، ج ٢، ص ١٤٢-١٤٣؛ وأورد مختصره في بحار الأنوار، ج ٨٩، ص ١٦ نقلاً عن مختصر الخرائج، ص ٢٤٢.

روى الصدوق ﷺ بإسناده المتّصل إلى أحمد بن محسن الميثمي، قال: كنت عند أبي منصور المتطبّب، فقال: أخبرني رجل من أصحابي قال: كنت أنا وابن أبي العوجاء وعبدالله بن المقفّع في المسجد الحرام. فقال ابن المقفّع: ترون هذا الخلق؟ وأومأ بيده إلى موضع الطواف. ما منهم أحد أوجب له اسم الإنسانيّة،إلّا ذلك الشيخ الجالس ـ يعني جعفر بن محمد ﷺ ـ فأمّا الباقون فرعاع وبهائم.

فقال له ابن أبي العوجاء: وكيف أوجبت هذا الاسم لهذا الشيخ دون هؤلاء؟ قال: لأنّي رأيت عنده مالم أرعندهم.

فقال ابن أبي العوجاء: مابدّ من اختبار ما قلت فيه منه.

فقال له ابن المقفّع: لاتفعل، فإنّي أخاف أن يفسد عليك ما في يدك.

فقال: ليس ذا رأيك، ولكنّك تخاف أن يضعف رأيك عندي، في إحلالك إيّاه المحلّ الذي وصفت! فقال ابن المقفّع: أمّا إذا توهّمت عليّ هذا فقم إليه، وتحفّظ ما استطعت من الزلل، ولاتثن عنانك إلى استرسال يسلمك إلى عقال، وسمه مالك أو عليك!

قال: فقام ابن أبي العوجاء إلى الإمام وتكلّم معه وحاجه طويلاً ـ في شرح يطول ـ ثمّ رجع وهو مبهور بفضله (صلوات الله عليه) ونبوغه. فقال: ياابن المقفّع، ماهذا ببشر، وإن كان في الدنيا روحاني يتجسّد، إذا شاء ظاهراً، ويتروّح إذا شاء باطناً، فهو هذا! ثمّ ذكر له حديثه معه.[1]

وهذا إن دلّ فإنّما يدلّ على أنّ ابن المقفّع كان يرى ـ بفضل ذكائه وفرط عقله ـ مكانة أئمّة المسلمين، الأحقّاء بمقام الإمامة، سموّاً ورفعة وشموخاً، تلك كانت عقيدته الباطنة، وربّما كان يتألّم من تقدّم غير الأهل من أهل الهرج والضوضاء، فكان يقوم في وجههم ويعارضهم بقوّة بيانه وصريح حجّته، ومن ثمّ رموه بالزندقة والإلحاد. هذا ماأظنّه بحقّ الرجل وربّما لاأشك في استقامة طريقته على غرار استقامة سائر أبناء الفرس الذين

---

١ ـ التوحيد للصدوق، باب القدرة، ح ٤، ص ١٢٦.

أسلموا يوم أسلموا وكانوا يرون الحقّ مع أهل‌بيت الرسول‌ﷺ وإن كان في ذلك رغم أُنوف أشياع أُمية وبني‌العباس!

٦ـ أبوشاكر الديصاني

هو عبدالله أبوشاكر الديصاني، نسبة إلى الفرقة الديصانيّة، مذهب قديم من ثنوية المجوس، له كتاب «النور والظلمة». كان يسكن الكوفة وله مع هشام‌بن الحكم مناظرات، وأسلم أخيراً على يد الإمام جعفر بن‌محمد الصادق عليه‌السلام في مباحثة جرت معه، فاستسلم وتشهّد الشهادتين وتاب إلى الله ممّا كان فيه. عاش إلى حدود المائة والخمسين.

وقد مرّت قصة معارضته للقرآن إن صحّت. نعم له محاجحات على مذهبه القديم الثنوي استناداً إلى آيات متشابهة في القرآن، ذكرها المجلسي في بحار الأنوار، وغيره.[1]

٧ـ ابن أبي‌العوجاء

هو عبدالكريم بن أبي‌العوجاء، خال معن بن زائدة، زنديق مغترّ. كان تلميذاً للحسن البصريّ فانحرف عن التوحيد. وكان يقول: إنّ صاحبي كان مخلّطاً يقول طوراً بالجبر وطوراً بالقدر! فما أعتقد له مذهباً! وقد جرى بينه وبين الإمام الصادق عليه‌السلام احتجاجات. ولمّا أُخذ ليضرب عنقه، قال:لقد وضعت أربعة آلاف حديث أُحرّم وأُحلّل.

كان عبدالكريم يفسد الأحداث فتهدّده عمروبن عبيد، فلحق بالكوفة، فدلّ عليه محمدبن سليمان أمير البصرة فقتله وصلبه، وكان ذلك في خلافة المهدي بعد الستين والمائة.[2]

له مع الإمام الصادق عليه‌السلام مناظرات كثيرة في مختلف شؤون الدين ولاسيّما فيما

---

١ ـ بحار الأنوار، ج ٤، ص ١٤٠؛ وسفينة البحار، ج ٣، ص ١٥٨، مادة «ديص»؛ وتجده في الملل والنحل للشهرستاني، ج ٢، ص ٥٥.

٢ ـ الكنى والألقاب، ج ١، ص ٢٠١؛ ولسان الميزان لابن‌حجر، ج ٤، ص ٥١-٥٢.

زعمه من مناقضات في القرآن الكريم،[١] وسنذكرها في مجال مناسب قادم. أمّا قصة معارضته للقرآن فقد مرّت في قصّة ابن‌المقفّع.

٨ـ ابن الراوندي

أبوالحسين أحمدبن يحيى الراوندي البغدادي (ت ٢٤٥). نسبته إلى راوند من قرى كاشان. كان من العلماء الأفذاذ، ومن النقّاد من أهل الكلام، له مجالس ومناظرات مع أرباب الأُصول من أصحاب المذاهب ولاسيّما أهل الاعتزال، فإنّ له نقداً حرّاً على أُصول مذهبهم في المعتقدات، ومن ثمّ رمي بالزندقة والإلحاد.

يقال: إنّه وضع كتابه «الفرند» طعناً في الدين ذكر فيه: «أنّ المسلمين احتجّوا لنبوّة نبيّهم بالقرآن الذي تحدّى به النبيُّ فلم تقدر العرب على المعارضة. فيقال لهم: أخبرونا لو ادّعى مدّع لمن تقدّم من الفلاسفة مثل دعواكم في القرآن، فقال: الدليل على صدق بطلميوس أو إقليدس، أنّ إقليدس ادّعى أنّ الخلق يعجزون عن أن يأتوا بمثل كتابه، أكانت نبوّته تثبت؟».[٢]

لكن يظهر من مناظراته مع أرباب الجدل، أنّ كلماته مثل هذه، إنّما قالها جدلاً وإفحاماً لدليل الخصم، لالعقيدة الخلاف واقعاً، انظر إلى مانقله صاحب كتاب «معاهد التخصيص» عن مناظرة وقعت بينه وبين أبي علي الجبائي (رئيس المعتزلة في وقته)، قال له ابن الراوندي: ألاتسمع شيئاً من معارضتي للقرآن؟ قال الجبائي: أنا أعلم بمخازي علومك، ولكن أُحاكمك إلى نفسك، فهل تجد في معارضتك له عذوبة وهشاشة وتشاكلاً وتلاؤماً، ونظماً كنظمِهِ، وحلاوة كحلاوته؟ قال: لاوالله. قال: قد كفيتني. فانصرف حيث شئت.

---

١ ـ راجع: التوحيد للصدوق، ص ٢٥٣.

٢ ـ تأريخ أبي‌الفداء (المختصر في أخبار البشر)، ج ٢، ص ٦١.

قال الرافعي: أما ماقيل من معارضته للقرآن فلم يعلم منها شيء سوى هذه المناظرة.[١]

قلت: على فرض صحّتها، فهي صريحة في عقيدته بكبرياء القرآن وعظمته الخارقة، ومن ثمّ فهي على العكس أدلّ، وأنّه إنّما جارى الخصوم في أنّه هل يمكن المعارضة أم لا؟

هذا وقد رمي إلى الرفض والتشيّع، رفضاً لعقائد أهل السنّة القائلين بالجبر والقدر، ولعلّه شايع مذهب أهل البيت في مسائل العقيدة الإسلاميّة الأُولى.

وكيف كان، فلم يثبت أنّه عارض القرآن أو حاول معارضته، مع أنّه الرجل العالم العارف بمواقع الكلام.

قال الشريف المرتضى ـ في كتاب الشافي ـ: إنّ ابن الراوندي إنّما عمل الكتب تشنيعاً على مغالطات المعتزلة، ليبيّن لهم عن استقصاء نقصانها، وكان يتبرّأ منها تبرّؤاً ظاهراً، وينتحي من علمها وتصنيفها إلى غيره. وله كتب سداد مثل كتاب الإمامة والعروس... وعن صاحب الرياض: يبدو من كتب السيّد أنّه كان يحسن الظنّ به، مستقيماً في عقيدته...[٢]

يذكر الخيّاط المعتزلي عن ابن الراوندي ـ نقلاً عن كتابه في الإمامة ـ أنّه طعن على المهاجرين والأنصار قائلاً: إنّ النبيّ ﷺ استخلف عليهم رجلاً بعينه واسمه ونسبه، وأمرهم أن يقدّموه ولايتقدّموا عليه وأن يطيعوه ولايعصوه، فأجمعوا جميعاً إلّا نفراً يسيراً ـ خمسة أو ستة ـ على أن أزالوا ذلك الرجل عن الموضع الذي وضعه فيه رسول الله ﷺ وأقاموا غيره، استخفافاً منهم بأمر رسول الله ﷺ وتعمّداً منهم لمعصيته.[٣]

وقد كشف الخيّاط عن هذا الرجل الذي استخلفه النبي ﷺ في موضع آخر من كتابه الانتصار، قال: ولكن ليس الاقتصاد في التشيّع هو ما قصد إليه صاحب الكتاب ـ يريد ابن الراوندي في كتاب الإمامة ـ من أنّ النبيّ ﷺ استخلف على اُمّته من بعده عليّ بن أبي

---

١ ـ إعجاز القرآن للرافعي، ص ١٨٣ بالهامش.
٢ ـ الكنى والألقاب، ج ١، ص ٢٨٨.
٣ ـ كتاب الانتصار في الردّ على ابن الراوندي لأبي الحسين عبدالرحيم بن محمدبن عثمان الخيّاط المعتزلي (قرن ٣و٤)، ص ٣ تحقيق الدكتور نيبَرْج، طبع القاهرة ١٣٤٤هـ / ١٩٢٥م.

طالب عليه السلام باسمه ونسبه ونصّهم (ونصّه ظ) عليه، فقصدت الأُمّة إليه فأزالته عن الموضع الذي جعله فيه النبيّ صلى الله عليه وآله وأقامت غيره، اعتماداً لمعصيته واستخفافاً بأمره، ثمّ قصدت إلى القرآن فنقصت منه وزادت فيه، وقصدت بمثل ذلك إلى السُّنن.[١]

٩ ـ ابن إسحاق الكندي

وممّن حاول معارضة القرآن وأحسّ بالفشل، هو أبو يوسف يعقوب بن إسحاق (المتوفى حدود سنة ٢٦٠) من أحفاد محمد بن الأشعث بن قيس الكندي فيلسوف العرب. كان رأساً في حكمة الأوائل ومنطق اليونان والهيأة والنجوم والطب، وله باع في الهندسة والموسيقى واضطلاع باللغة والأدب، وله نظم جيّد وبلاغة وتلامذة... بخيلا ساقط المروءة وله في ذلك حكايات تنبؤك عن دناءة طبعه. وكان متّهماً في دينه، همّ بأن يعمل شيئاً مثل القرآن، فبعد أيّام أذعن بالعجز. ذكر ابن النجار: أنّ أصحاب الكندي طلبوا منه أن يعمل لهم شيئاً مثل القرآن فأجابهم على ذلك فغاب عنهم طويلاً ثمّ خرج عليهم فقال: والله لا يقدر على ذلك أحد...[٢]

كما حاول تأليف كتاب يجمع فيه تناقض القرآن فيما زعم، لولا أنّ الإمام أبا محمد العسكري عليه السلام نهره عن ذلك على يد أحد تلاميذه. ذكر أبو القاسم فرات بن إبراهيم الكوفي في كتابه «التبديل» أنّ ابن إسحاق الكندي، وكان فيلسوف العراق في وقته، أخذ في تأليف تناقض القرآن وشغل نفسه بذلك وتفرّد به في منزله. وأنّ بعض تلامذته كان يتردّد على الإمام الحسن العسكري عليه السلام فقال له: أما فيكم رجل رشيد يردع أُستاذكم الكندي عمّا أخذ فيه من تشاغله بالقرآن؟ فقال التلميذ: نحن من تلامذته، كيف يجوز منّا الاعتراض عليه في هذا أو في غيره! فقال له أبو محمد: أتؤدّي إليه ما أُلقيه عليك؟ قال: نعم. قال: فصر إليه وتلطّف في مؤانسته ومعونته على ما هو بسبيله، فإذا وقعت الأُنسة في

---

١ ـ الانتصار للخيّاط المعتزلي، ص ١٦٤.

٢ ـ راجع: سير أعلام النبلاء للذهبي، ج ١٢، ص ٣٣٧، رقم ١٣٤؛ ولسان الميزان، ج ٦، ص ٣٠٥.

ذلك فقل له: قد حضرتني مسألة، أسألك عنها؟ فإنّه يستدعي ذلك منك! فقل له: إن أتاك هذا المتكلّم بهذا القرآن، هل يجوز أن يكون مراده بما تكلّم منه غير المعاني التي قد ظننتها أنّك ذهبت إليها؟ فإنّه سيقول لك: إنّه من الجائز، لأنّه رجل يفهم إذا سمع. فإذا أوجب ذلك، فقل له: فما يدريك لعلّه قد أراد غير الذي ذهبت إليه، فتكون واضعاً لغير معانيه! فصار الرجل إلى الكندي وتلطّف إلى أن ألقى عليه هذه المسألة. فقال له: أعد عليّ! فأعاد عليه. فتفكّر في نفسه ورأى ذلك محتملاً في اللّغة وسائغاً في النظر. فقال: أقسمت عليك إلّا أخبرتني من أين لك هذا؟ فقال: إنّه شيء عرض بقلبي فأوردته عليك. فقال: كلّا، ما مثلك من اهتدى إلى هذا ولا من بلغ هذه المنزلة! فعرّفني من أين لك هذا؟ فقال: أمرني به أبومحمّد. فقال: ألآن جئت به، وما كان ليخرج مثل هذا إلّا من ذلك البيت! ثمّ إنّه دعى بالنار وأحرق جميع ما كان ألّفه في ذلك.[١]

١٠ ـ أبو الطيّب المتنبّي

كذلك نسب إلى أبي الطيّب أحمدبن الحسين المتنبّي (المتوفى قتيلاً سنة ٣٥٤) أنّه ادّعى النبوّة في حدثان أمره، وكان ذلك في بادية السماوة (العراق) وتبعه خلق كثير من بني كلب وغيرهم. وقيل أنّه تلا على البوادي كلاماً زعم أنّه قرآن أُنزل عليه، منه:

«والنجم السيّار، والفلك الدوّار، والليل والنهار، إنّ الكافر لفي أخطار امض على سنّتك، واقف أثر من قبلك من المرسلين، فإنّ الله قامع بك زيغ من ألحد في دينه، وضلّ عن سبيله».

لكنّه كلام ليس من طبقة شعره ولافي وزن كلامه، كما لايخفى على من راج ديوانه.

وإنّما لقّب بالمتنبّي لأنّه فاق الشعراء في شعره وأعجز الأُدباء في أدبه، فلكأنّه تنبّأ وأتى بالمعجزات، كما قال ابن جنّي: سمعت أباالطيب يقول: إنّما لقّبت بذلك لمكان قولي:

---

١ ـ المناقب لابن شهرآشوب، ج ٤، ص ٤٢٤؛ وأورده المجلسي في بحار الأنوار، ج ٥٠، ص ٣١١ في تاريخ حياة الإمام العسكري عليه السلام.

أنا ربّ الندى وربّ القوافـي	وسمام العدى وغيظ الحسود
أنـا فـي أُمّـة تـداركـها الله	غـريب كـصالح فـي ثـمود
مـامقامي بأرض نـحلة إلّا	كمقام المسـيح بـين اليـهود

وقال الواحدي بشأنه:

مـارأى النـاس ثـاني المـتنبّي	أيّ ثـان يُـرى لبكـر الزمـان
وهـو فـي شـعره نـبيّ ولكـن	ظهرت معجزاتـه فـي المـعاني

وهو من فحول شعراء الشيعة، وله في مديح أميرالمؤمنين عليه السلام قصائد وأبيات منها قوله:

أبا حسن لو كان حـبّك مـدخلي	جهنّم كان الفوز عندي جـحيمها
وكيف يخاف النار من بات موقنا	بأنّ أمـيرالمـؤمنين قسـيمها

وكم لأعداء أهل البيت مفتريات ألصقوها برجالات الأدب والكمال من الشيعة الأبرار، حسداً من عند أنفسم وبغضاً لموالي هذا البيت الرفيع.[1]

١١ ـ أبوالعلاء المعرّي

أحمد بن‌عبدالله بن‌سليمان (ت ٤٤٩)، كان نسيج وحده بالعربية، وفاق أهل زمانه أدباً وذكاءً، وقد أعجبه محضر الشريف المرتضى فكان مولعاً بالحضور لديه، حتى عدّ من شعراء مجلسه. وقال فيه:

يا سـائلي عـنه لمّـا جـئت أسأله	ألا هو الرجـل العـاري مـن العـار
لوجـئته لرأيت النـاس فـي رجـل	والدهر في ساعة والأرض في دار[2]

وزعم بعضهم أنّه عارض القرآن في قوله: «أقسم بخالق الخيل، والريح الهابّة بليل، مابين الأشراط ومطالع سهيل، أنّ الكافر لطويل الويل، وأنّ العمر لمكفوف الذيل، اتّق

---

١ ـ الكنى والألقاب، ج ٣، ص ١٣٩.
٢ ـ المصدر، ص ١٩٤.

مدارج السيل، وطالع التوبة من قبيل، تنج وما إخالك بناج». وقوله: «أذلّت العائذة أباها، وأصاب الوحدة وربّاها، والله بكرمه اجتباها، أولاها الشرف بماحباها، أرسل الشمال وصباها، ولا يخاف عقباها...».[١]

لكنّه كلام ليس يشبه من كلام أديب شاعر بليغ. قال الرافعي: وتلك ولاريب فرية على المعرّي أراده بها عدوّ حاذق، لأنّ الرجل أبصر بنفسه وبطبقة الكلام الذي يعارضه. ولأنّه هوالذي أثبت إعجاز القرآن فيما كتبه ردّاً على ابن الراوندي فيما نسب إليه.

قال ـ بشأن إعجاز القرآن ـ: «وأجمع ملحد ومهتد، وناكب عن المحجّة ومقتدٍ، أنّ هذا الكتاب الذي جاء به محمدﷺ كتاب بهر بالإعجاز، ولقى عدوّه بالإرجاز، ماحُذي على مثال، ولاأشبه غريب الأمثال، ماهو من القصيد الموزون، ولاالرجز من سهل وحزون، ولاشاكل خطابة العرب، ولاسجع الكهنة ذوي الإرب... وأنّ الآية منه أو بعض الآية لتعترض في أفصح كلم يقدر عليه المخلوقون، فتكون فيه كالشهاب المتلألئ في جنح غسق، والزهرة البادية في جدوب ذاب نسق، فتبارك الله رب العالمين».[٢]

نعم يجوز أن يكون الكلام الآنف إنّما قاله مداعبة لاعن جدّ وعن واقعيّة أرادها. قال الخطيب: إن يكن ذلك من كلام أبي العلاء فلن يكون إلّا عن معابثة أرادها وقعد لها، وإلّا فإنّ أبا العلاء لا يرضى بنفسه أن تنزله إلى هذا السخف في مقام الجدّ أبداً. وإنّه إذا كان أبوالعلاء يتّهم في دينه، فإنّه لا يتّهم في أدبه، وإنّ ذوقه للكلام وبصره بمواقع الحسن والروعة فيه يحميه من أن يزلّ أو ينزلق فيتصدّى لمعارضة القرآن ويلقي بنفسه في البحر ليكون من المغرقين. وهو الذي دأب على أن يزيّن كلامه وأدبه بما يقبس من كلمات القرآن وآياته، فهل من يفعل ذلك يتصدّى لمعارضة القرآن؟! المعرّي أعقل من هذا وأعرف الناس بمكانة القرآن![٣]

---

١ ـ معجم الأُدباء لياقوت الحموي، ج ٣، ص ٤١٥. ٢ ـ المصدر، ج ٣، ص ١١٠.

٣ ـ الإعجاز في دراسات السابقين، ص ٥٠٥.

١٢ ـ حادث طريف عاصرناه؟

ذكر الشيخ طنطاوي عند تفسيره لقوله تعالى: «يَوْمَ نَقولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ فَتَقولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ»[١] حادثاً عجيباً ينبؤك عن مدى بلاغة هذه الآية بالغاً حدّ الإعجاز. قال:

في يوم ١٣ يونيو سنة ١٩٣٢م قابلني الأديب المصري الأُستاذ كامل گيلاني فحدّثني حديثاً عجيباً كان أشار إليه بمدّةٍ قُبيل تقديم هذه السورة إلى الطبع، وهذا الحديث راجع إلى البلاغة التي ظهرت في الآية، فهاك حديثه:

قال: كنت مع الأُستاذ «فنگل» وهو من أفاضل المستشرقين الأمريكيّين، وكانت بيني وبينه صلات أدبيّة وثيقة، وكان يأخذ برأيي في ذكر المشاكل التي تقابله في الأدب، لما يعتقده فيّ من الصراحة. ففي يوم همس في أُذني متهيّباً، فقال: خبّرني عن رأيك بصراحتك المعروفة، أممّن يعتقدون إعجاز القرآن أنت، أم لعلّك تجاري جمهور المسلمين الذين يتلقّنون ذلك كابراً عن كابر؟! وابتسم ابتسامة كلّ معانيها لاتخفى على أحد، وهو يحسب أنّه قد ألقى سهماً لاسبيل إلى دفعه! فابتسمت له كما ابتسم لي وقلت: لكي نحكم على بلاغة أُسلوب بعينه يجب أن نحاول أن نكتب مثله أو نقلّده، فلنحاول ليظهر لنا أنحن قادرون أم عاجزون عن محاكاته وتقليده! فلنجرّب أن نعبّر عن سعة جهنّم، فماذا نحن قائلون؟ فأمسك بالقلم وأمسكتُ به، فكتبنا نحو عشرين جملة، متخيّرة الأُسلوب نعبّرها عن هذا المعنى، أذكر منها:

١ ـ إنّ جهنّم واسعة جدّاً.

٢ ـ إنّ جهنّم لأوسع ممّا تظنّون.

٣ ـ إنّ سعة جهنّم لايتصوّرها عقل إنسان.

٤ ـ إنّ جهنّم لتسع الدنيا كلّها.

٥ ـ إنّ الجنّ والإنس إذا دخلوا جهنّم لتسعهم ولاتضيق بهم.

٦ ـ كلّ وصف في سعة جهنّم لايصل إلى تقريب شيء من حقيقتها.

---

١ ـ ق ٥٠: ٣٠.

٧ ـ إنّ سعة جهنّم لتصغر أمامها سعة السماوات والأرض.

٨ ـ كلّ ما خطر ببالك في سعة جهنّم فإنّها لأرحب منه وأوسع.

٩ ـ سترون من سعة جهنّم مالم تكونوا لتحلموا به أو تتصوّروه.

١٠ ـ مهما حاولت أن تتخيّل سعة جهنّم، فأنت مقصّر ولن تصل إلى شيء من حقيقتها.

١١ ـ إنّ البلاغة المعجزة لتقصر وتعجز أشدّ العجز عن وصف سعة جهنّم.

١٢ ـ إنّ سعة جهنّم قد تخطّت أحلام الحالمين وتصوّر المتصوّرين.

١٣ ـ متى أمسكت بالقلم وتصدّيت لوصف سعة جهنّم أحسست بقصورك وعجزك.

١٤ ـ إنّ سعة جهنّم لايصفها وصف، ولايتخيّلها وهم، ولاتدور بحسبان.

١٥ ـ كلّ وصف لسعة جهنّم إنّما هو فضول وهذيان.

إلى آخر هذه الجمل التي لاأذكر منها إلّا ماذكرت، لتقادم العهد وطول الزمان.

فقلت له متبسّماً ابتسامة الظافر الواثق: الآن تتجلّى لك بلاغة القرآن وإعجازه، بعد أن حاولنا جهدنا أن نحاكيه في هذا المعنى!

فقال: هل أدّى القرآن هذا المعنى بأبلغ ممّا أدّيناه؟ فقلت: لقد كنّا أطفالاً في تأديته، فقال مدهوشاً: وماذا قال؟ قلت له: قال: «يَوْمَ نَقولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقولُ هَلْ مِنْ مَزيدٍ»![1] فصفق أو كاد، وفتح فاه كالأبله أمام هذه البلاغة المعجزة! وقال لي: صدقت، نعم صدقت، وأنا أُقرّر لك ذلك، مغتبطاً من كلّ قلبي (هذا لفظه)!

فقلت له: ليس عجيباً أن تذعن للحقّ وأنت أديب خبير بقيمة الأساليب.

وهذا المستشرق يجيد الإنجليزيّه، لأنّها لغة بلاده في أمريكا. والألمانيّة، لأنّها اللغة التي درس بها الأدب. والعبرية، لأنّها لغة الأُمومة. والعربية، لأنّها اللغة التي وقف حياته على درس أدبها. فهو رجل متخصّص للأدب، وقد جعل حياته وقفاً عليه.

---

١ ـ ق ٥٠: ٣٠.

قال الأُستاذ طنطاوي: هذا حديث الأُستاذ «كامل گيلاني» ذلك الشابّ الذي ظهر ببلادنا المصريّة في هذه السنين، وله كتب منشورة نهج فيها منهجاً حديثاً.[١]

محاكاة وتقاليد صبيانيّة

وأخيراً قامت أفراد وجماعات زاعمة بإمكانها معارضة القرآن، فجاؤوا بتلفيقات غريبة اقتباساً من أُسلوب القرآن ومن نفس تعابيره في تقليد أعمى، لابراعة فيه ولاجمال، سوى أنّها سخافات وخرافات لايتعاطاها ذو عقل حكيم.

منها ماجاء في رسالة «حسن الايجاز» التي زعم كاتبها، وهو مسيحيّ متطرّف، أنّه عارض القرآن في سُوره القصار فكأنّ بإمكانه معارضته في السور الكبار، هكذا زعم المسكين!

فممّا عارض به سورة الحمد، وزعم أنّه أخصر منه لفظاً وأجمع منه معنى، قوله:

«الحمد للرحمان، ربّ الأكوان، الملك الديّان، لك العبادة، وبك المستعان، إهدنا صراط الإيمان».

وقد أسهب سيّدنا الأُستاذ ﷺ في تسخيف هذا التائه وتزييف مزعومته، وفنّد أُسلوبه على قواعد الكلام بشكل فنّي دقيق، منها قوله: «ولست أدري ماذا أقول لكاتب هذه الجمل، ألم يشعر بأنّ المألوف من معارضة الكلام بمثله، أن يأتي الشاعر أو الكاتب بكلام مستقلّ في أُسلوبه وتعبيراته، لكنّه يماثل كلام المعارض في قوّة البيان وقدرة التأثير، في مستوى رفيع وأُسلوب بديع، الأمر الذي يمتاز به القرآن الكريم. وليس معنى المعارضة أن يقلّد في أُسلوب التعبير ويبدّل من مواضع الكلمات بتصرّف وتغيير في ألفاظه. إذ هذا وإن أمكن وكان سهلاً، لكنّه مع ذلك يذهب برونق الكلام وربّما يطيح به إلى حضيض الابتذال، كما حصل بالفعل لهذا المعارض السفيه. وليس مالفّقه تقليديّاً ممّا يفي بما وفّاه

---

١ ـ تفسير الجواهر للشيخ طنطاوي، ج ٢٣، ص ١٠٧-١٠٨.

سورة الحمد من جليل المعنى وقوّة التعبير».[١]

❊ ❊ ❊

وهكذا زعم الكاتب أنّه عارض سورة الكوثر، بكلمات لفّقها من غير مانظم ولا أُسلوب ولامحتوى معقول، وزاد شناعة أنّه لعق إناءً كان قد لعقها كذّاب يمامة من قبل، جاء في تلفيقه:

«إنّا أعطيناك الجواهر، فصلّ لربّك وجاهر، ولاتعتمد قول ساحر».

وماذاك إلّا تقليد مفضوح عن قولة مسيلمة:

«إنّا أعطيناك الجماهر، فصلّ لربّك وهاجر، وإنّ مبغضك رجل كافر».

قال سيّدنا الأُستاذ ﷺ: لم يلتفت هذا المعتوه أنّ إعطاء الجواهر لايستدعي إقامة الصلاة والجهر بها، لأنّ نعمة الثروة أخسّ نعم الله على الإنسان الذي شرّفه بجلائل النعم العظام، كالحياة والعقل والإيمان، ثمّ ماوجه تعريف الجواهر، أهي لام العهد أم لام الجنس للاستغراق أم لغيره؟ وأخيراً ماوجه المناسبة بينه وبين قوله: «لاتعتمد قول ساحر» أيّ ساحر؟ معيّن أم غير معيّن؟

ولعلّ قولة مسيلمة كانت أقرب إلى نظم السورة، بعد أن كان الأصل أيضا تقليداً وسرقة محضة. الأمر الذي ليس من المعارضة في شيء.[٢]

البابية والبهائية

البابيّة فرقة مبتدعة ابتدعها «علي محمدبن ميراز رضا البزّاز الشيرازي» ولد سنة ١٢٣٦ في شيراز وورد كربلاء سنة ١٢٥٥ لتعلّم العربيّة والدروس الدينيّة، فصادف أن تتلمذ عند السيّد كاظم الرشتي (ت ١٢٥٨). فكان يدعو شيخه البابَ الأعظم، وبعد وفاته ادّعى لنفسه البابيّة (الوسيط بين الغائب المنتظر والناس). ثمّ ارتقى بنفسه إلى مرتبة

---

١ ـ راجع: البيان في تفسير القرآن، ص ١٠٩.

٢ ـ راجع: المصدر، ص ١١٢.

المهدويّة ووصف نفسه بصفة «بقيّة الله» وأمر أتباعه بإدخال جملة «أشهد أنّ علي محمد الباب بقية الله» في الأذان. وانتهى أمره إلى شنقه بأمر «ناصرالدين شاه القاجاري» في ميدان تبريز سنة ١٢٦٦ وعمره إذ ذاك ٣١سنة.

وقد تدرّج المعتوه من درجة البابيّة إلى دعوى المهدويّة فإلى دعوى النبوّة، والألُوهيّة أخيراً.

وله في كلّ هذه المدارج مقالات سخيفة كان يمليها عليه شيطانه الأخرس، وكان يصدرها بصورة ألواح قدسيّة نازلة من السماء، كما زعم.

ومن سخافاته الهذيانيّة ما سطّره في لوح الحمد:

«أستحمد حمداً ما حمده أحد من قبل ولا يستحمده أحد من بعد، حمداً طلع وأضاع وتشعش وأشرق وأنار وبرق فأبار، فارتفع، وتسطّع فامتنع، حمداً شرّاقاً ذوالاشتراق، وبرّاقاً ذوالابتراق، وشقّاقاً ذوالاشتقاق، وترّاقاً ذوالارتقاق، ورتّاقاً ذوالارتتاق، ورفّاقاً ذوالارتفاق، وحقّاقاً ذوالاحتقاق، وسيّاقاً ذوالاستياق، وحدّاقاً ذوالاحتداق، وقلّاقاً ذوالاقتلاق... ويختم اللوح بقوله: جملاً كملاً زقعاً بهيّاً، بحياناً جملاناً، جمولاناً، وعظماناً».

وفي لوح البهاء: «بسم الله البهيّ الأبهى، لا إله إلّا هو الواحد البهيّان، بهاء السماوات والأرض ومابينهما، فوق كلّ ذي البهاء، لن يقدر أن يمتنع عن مليك سلطان أبهائه من أحد لافي السماوات ولافي الأرض ولامابينهما إنّه كان بهاء باهياً بهياءً...».

وفي لوح القدم: «بسم الله الأقدم الواحد القدّام المقدّم القدوم القدمان المتقدّم المقتدم المقدوم المتقادم المستقدم القيدوم، المقادم ذي القدامين، القدم ذي القدماء، ذي القدمات، ذي الأقادم... إلى أن يقول:

اشهد يا إبراهيم إنّه لا إله إلّا أنا الرّحام الرحيم، لن يرى في الأسماء إلّا الله أنّك ربّ العالمين، لم يكن لما خلقت من أوّل ولاآخر، وكلّ ما يرى قائمون ولن يقدر أحد أن يحصي ظهورات ربّك من أوّل الذي لاأوّل له إلى آخر الذي لاآخر له. قل في كلّ

الظهورات لا إله إلّا الله وأنّ مظهر نفسه لحقّ لا ريب فيه، كلّ بأمر الله من عنده يخلقون...».

وفي لوح القائم: «وإنّني أنا القائم الذي كلّ ينتظرون يومه وكلّ به يوعدون، قد خلقني الله بأمره وجعلني قائماً على كلّ نفس بما قد آتاني الله من الآيات وإنّه هو المهيمن القيّوم... إلى أن يقول: قل كلّ شيء هالك إلّا وجهه، كذلك يظهر الله صدق ما نزل لعلكم تتذكّرون... ويختتم اللوح بقوله: ولعمري أنّ أمر الله في حقّي أعجب من أمر محمد رسول‌الله من قبل لو أنتم فيه تتفكّرون. قل إنّه رُبّي في العرب ثمّ من بعد أربعين سنة قد نزّل الله عليه الآيات، قل إنّي ربّيت في الأعجمين وقد نزّل الله عليّ من بعد ما قد قضى من عمري خمسة بعد عشرين سنة آيات التي كلّ عنها يعجزون. إنّا كنّا نستنسخ ماكنتم به تعملون...».[1]

أمّا البهائية فهم أخلاف فرقة الباب تاهوا في بيداء الضلال كما تاه أسلافهم. وأوّل من استخلف الباب هو الميرزا يحيى بن‌عباس النوري الملقّب بصبح أزل، وأصبح خليفة الباب سنة ١٢٦٥، وارتحل هو وأصحابه إلى بغداد، وتغيّب هناك عن أعين الناس، وكان الواسطة بينه وبين أغنام البابيّة أخاه الميرزا حسين علي الملقّب ببهاء الله الذي تغلّب على أخيه (صبح أزل) بعدئذ وعزله وقام مقامه وإليه تنتمي الفرقة البهائية.

وإليك من كلمات «صبح أزل» أنزلها بصورة آيات!!:

«سبحان الذي نزّل الكتاب بالحقّ فيه آيات اللوح هدىً وبشرى لقوم يسمعون، أن اتبع حكم ربّك لا إله إلّا هو كلّ إليه ترجعون. وأنّ في الحِيْنِ قد خرجن الحوريات من قصرٍ بحكم ربّك العزيز الحميد، وأنّ من دعائهنّ قل هذا الحرف، فلمّا جاء الرجال الذين يقاتلون من الله بالحقّ فإنّا نحن لفائزون. وأنّ وعد الله لمفعول. قل الحكم في يوم الأمر كان من لدي لمشهوداً أن ارجعن وسبّحن ربّ الخلق الذي بيده ملكوت كلّ شيء وأن لا إله إلّا هو الغنيّ الحميد».[2]

---

١ ـ فلسفه نيكو، ج ٤، ص ٤٤ ـ ٥٠؛ و لغت‌نامه، مادة «باب»، ص ٣٧٧٧.

٢ ـ فلسفه نيكو، ج ٤، ص ٦٠.

ومن سخائف كلمات البهاء في كتابه «المبين» طبع ١٣٠٨ في بومباي: «ياهذا الهيكل ابسط يدك على من في السماوات والأرض وخذ زمام الأمر بقبضة إرادتك إنّا جعلنا في يمينك ملكوت كلّ شيء افعل ماشئت ولاتخف من الذين هم لايعرفون ـ إلى أن يقول ـ ترتفع أيادي كلّ شيء إلى الله المقتدر العزيز الودود، سوف نبعث من يدك أيادي القوّة والقدرة والاقتدار وتظهر بها قدرتي لمن في ملكوت الأمر والخلق ليعرف العباد أنّه لاإله إلّا أنا المهيمن القيوم...».[1]

القاديانيّة

القاديانيّة: فرقة هندية إسلامية مبتدعة، ابتدعها الميرزا غلام أحمد القادياني (١٢٤٨-١٣١٩) كان من أولاد الأثرياء الكبار في الهند. كانت داعيته ـ حسبما زعم ـ تطهير الإسلام من الشوائب والدخائل، ومن عقيدتهم تكفير أصحاب سائر المذاهب وعدم التزاوج معهم وتحريم الاقتداء بهم في الصلاة. وعدم جواز الصلاة على موتى غير مذهبهم. ونحو ذلك من مزاعم غريبة.

ومن كتبهم «حمامة البشرى إلى أهل مكة وصلحاء أُمّ‌القرى» و «القصائد الأحمدية» و «المسيح الموعود والمهدي الموعود» و «مواهب الرحمان». كلّها بقلمه.[2]

وذكر السيد هبةالدين الشهرستاني: أنّ أصل هذا الهندي من «بلخ» من قرية «مزارشريف» بأفغانستان. وكان آباؤه ارتحلوا إلى مدينة «سبزوار» من بلاد «خراسان» ثمّ ارتحلوا منها إلى قرية «قاديان» في منطقة «پنجاب» شمالي الهند، أيّام الاحتلال الإنگليزي... فجعل غلام أحمد وهو شاب يافع يتعلّم الإنگليزيّة والعربيّة ويدرس العلوم الدينيّة، ليُسْتَخْدم عند الإنگليز على مزارع القرية هناك براتب «عشرين روپيّة» شهريّا. وفي سنة ١٨٨٠م أعلن في كتابه «برهان أحمدي» أنّه المهدي الموعود ثمّ أعلن في سائر

---

١ ـ المصدر، ص ١٠٣-١٠٤.

٢ ـ المصدر، ص ٦٩؛ و لغت‌نامه، مادة «غلام أحمد»، ص ١٦٧٦٨ نقلاً عن معجم المطبوعات، ج ٢، ع ١٤١٩.

كتبه بنزول الوحي عليه، ومن جملة ما أُوحي إليه: نسخ حكم الجهاد من شريعة الإسلام ووجوب طاعة الإنكليز في البلاد! فأعانته السلطة على دعوته وأعلنت برسميّة مذهبه. وفي سنة ١٨٨٩م ادّعى النبوّة رسميّاً، وزعم أنّه المسيح، وأسقط من اسمه لفظة «غلام».

وممّا زعم أنّه أُوحي إليه ـ ماجاء في كتابه «حمامة البشرى» ـ: «فألهمني ربّي مبشّراً بفضل ماعنده وقال: إنّك من المنصورين. وقال: يا أحمد بارك الله فيك، مارميت إذ رميت ولكنّ الله رمى. لتنذر قوماً ما أُنذر آباؤهم. ولتستبين سبيل المجرمين... وقال: أنت على بيّنة من ربّك رحمة من عنده وما أنت بفضله من المجانين ويخوفونك من دونه أنّك بأعيننا سميتك المتوكّل... ويمكرون ويمكر الله.. فأدخل الله في لفظ اليهود معشر علماء الإسلام الذين تشابه الأمر عليهم كاليهود. وتشابهت القلوب والعادات، والجذبات والكلمات من نوع المكائد والبهتانات والافتراءات، وأنّ تلك العلماء قد أثبتوا هذا التشابه على النظارة بأقوالهم وأعمالهم، وانصرافهم واعتسافهم، وفرارهم من ديانة الإسلام... وكونهم من المسرفين العادين. وكنت أظنّ بعد هذه التسمية أنّ المسيح الموعود خارج. وماكنت أظنّ أنّه أنا. حتى ظهر السّر المخفي، وسمّاني ربّي عيسى في إلهام من عنده. إنّا جعلناك عيسىبن مريم، وأنت منّي بمنزلة لايعلمها الخلق، وأنت اليوم منّي بمنزلة توحيدي وتفريدي...» إلى آخرما لفّقه من ترّهات...[1]

مصطنعات و تلفيقات هزيلة

هناك مزاعم اصطنعتها أصحاب شبهة التحريف، فحسبتها قرآناً وعلى شاكلته فيما زعموا ونسبوها إلى الوحي سفهاً وحمقاً، وليست سوى تلفيقات هزيلة نسجتها عقول ضعيفة، لانظم لها ولاتأليف معروف، فضلاً عن ضحالة المعنى وضآلة المحتوى إلى مستوى سحيق.

نعم تصانع الأخباريون مع إخوانهم الحشويين على اختلاق روايات وحكايات

---

١ ـ راجع: المعجزة الخالدة، ص ١١٧-١١٩.

أساطيريّة عن سور وآيات زعموهنّ مُسقَطات من الذكر الحكيم. وبذلك حاول الفريقان قصارى جهدهم على هدم أساس الإسلام والإطاحة بصرحه الرفيع وحصنه المنيع. يالها من عقليّة هزيلة وفكرة هابطة. «إنَّ كَيْدَ الشَّيْطانِ كانَ ضَعيفاً».[١] «كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أنا وَرُسُلي إنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزيز».[٢] «يُريدونَ لِيُطْفِئوا نورَ اللهِ بِأَفْواهِهِمْ وَاللهُ مُتِمُّ نورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكافِرونَ».[٣] وهانحن نعرض نماذج من سخائف تلكم المخاريق، لتكون هي بذاتها شاهدة صدق على ذلك البون الشاسع بين رفيع كلامه تعالى، والوضيع من تلك السقطات.

من ذلك مااختلقته عقليّة برهميّة حاقدة على الإسلام والمسلمين هو صاحب «دبستان المذاهب»، فحسب فيما حسب في أوهام خياله، سورة قرآنية ساقطة من القرآن، ناسباً ذلك إلى بعض فئات الشيعة نسبة عمياء، إذ لا أثر لها في أقلّ رسالة أو أدنى كتاب منسوب إليهم إطلاقاً، وإنّما هدرت منه من غير هوادة، ولم يُعلم مستنده ولاالذي قصّ عليه هذه القصّة الخيالية. نعم كان الرجل ذا شذوذ عقليّ مفرط يتقبّل كلّ مايلقيه عليه المشعوذون ممّن أحسّوا منه هذا الشذوذ، فضلاً عمّا كانت تحمله ضلُوعُه من الحقد على أبناء الإسلام وكان يحاول مبلغ جهده الحثيث ولكن في ستار خبيث على تشويه سمعة الإسلام ليدسّ التحريف في عقائد الفرق والملل أيّاً كانوا وأيّ مذهب سلكوا، رغبةً في ترويج مذهب أبيه (آذركيوان) وكان قد دعا إليه منذ عهد أكبر شاه التيموري (٩٦٣-١٠١٤).

أمّا صاحب الدبستان، وإن اختلفت الآراء في معرفة اسمه ونسبه، لكن المحقّق هو «المُؤَبّد كيخسرو اسفنديار» حفيد (آذركيوان ـ المتوفّى سنة ١٠٢٧) مؤسّس المذهب الكيواني. وكانت ولادة المؤلّف قبل موت جدّه ببضع سنين في مدينة «پتنه ـ من أعمال الهند» وعاش حتى مابعد سنة السبعين بعد الألف، على مايظهر من تأريخات جاءت قيد الحوادث في كتابه الآنف.

---

١ ـ النساء ٤: ٧٦.

٢ ـ المجادلة ٥٨: ٢١.

٣ ـ الصفّ ٦١: ٨.

وأوّل من أشاد بشأن كتابه هذا هو «فرنسيس غلادوين» الإنجيليزي ترجمه إلى الإنجليزية عام ١٧٨٩م. وفي عام ١٨٠٩م (في ذي‌القعدة ١٢٢٤) طبع الكتاب بنصّه لأوّل مرّة في «كلكتا» بدستور من المندوب البريطاني في الهند (ويليام بيلي)...[١]

أمّا لماذا اهتّم العجوز المستعمر بهذا الكتاب ونشره وطبعه؟! لأمر ما جدع قصيراً أنفه!

والسورة المزعومة هذه غير منسجمة اللفظ ولاملتئمة المعنى إلى حدّ بعيد، بما لايقاس بكلام العرب فضلاً عن كلام الله المعجز. وإليك مقتطفاً من نصّها:

«يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالنورين أنزلناهما يتلوان[٢] عليكم آياتي، ويحذّرانكم عذاب يوم عظيم. نوران بعضهما من بعض وأنا السميع العليم. إنّ الذين يوفون بعهد الله ورسوله في آيات[٣] لهم جنات النعيم. والذين كفروا من بعدما آمنوا بنقضهم ميثاقهم وماعاهدهم الرسول عليه يقذفون في الجحيم. ظلموا أنفسهم[٤] وعصوا لوصي الرسول، أُولئك يسقون من حميم. إنّ الله الذي نوّر السماوات والأرض بما يشاء، واصطفى من الملائكة والرسل، وجعل من المؤمنين.[٥] أُولئك في خلقه يفعل الله مايشاء،[٦] لاإله إلّا هو الرحمان الرحيم.. قد خسرالذين كانوا عن آياتي وحكمي معرضون...[٧] ولقد أرسلنا موسى وهارون، فبغوا هارون[٨] فصبر جميل... فاصبر فسوف يبصرون... وجعلنا لك منهم وصيّا لعلّهم يرجعون...[٩] إنّ علياً قانتاً بالليل، ساجداً يحذر الآخرة[١٠] ويرجو ثواب ربّه. قل هل يستوي الذين ظلموا وهم بعذابي يعلمون[١١] سيجعل الأغلال في أعناقهم وهم على

---

١ ـ راجع ما حقّقه الأُستاد رحيم في المجلد الثاني من الكتاب المطبوع سنة ١٣٦٢ وقد ذكرنا بعض الكلام عنه عند البحث عن شبهة التحريف.

٢ ـ كيف النور النازل يتلو الآيات؟!

٣ ـ كيف الوفاء بعهد الله ورسوله في آيات؟!

٤ ـ ما محلّ إعراب هذه الجملة الفعلية، أهي خبر عن مبتدأ محذوف؟!

٥ ـ ما معنى «وجعل من المؤمنين»؟!

٦ ـ ما معنى «أُولئك في خلقه يفعل الله مايشاء»؟!

٧ ـ لماذا ارتفع خبر كان؟!

٨ ـ كيف يكون هارون مبغياً؟!

٩ ـ مامعنى «وجعلنا لك منهم وصيّاً لعلّهم يرجعون»؟!

١٠ ـ كيف انتصب خبر «إنّ» مرّتين؟!

١١ ـ بماذا يستوى الذين ظلموا... وكيف يعلمون بعذابه؟!

أعمالهم يندمون. إنّا بشّرناك بذريّته الصالحين... فعليهم منّي صلوات ورحمة أحياء وأمواتا يوم يبعثون.[١] وعلى الذين يبغون عليهم من بعدك غضبي أنّهم قوم سوء خاسرين».[٢]

والعجيب أنّ المحدّث النوري ـ مع معرفته بالعربيّة ـ استندها حجّة قاطعة على زعمه التحريف فيما رواه أهل الخلاف[٣].. وليته تدبّرها ولم يتسرّع إلى قبول ما ترفضه العقول..!

❊ ❊ ❊

وحكي عن أبي موسى الأشعري عندما كبر وخرف في أُخريات حياته السوداء أنّه كان يقول ـ في مجتمع قرّاء البصرة ـ: إنّا كنّا نقرأ سورة كنّا نشبّهها في الطول والشدّة ببراءة فأنسيتها، غير أنّي حفظت منها «لو كان لابن آدم واديان من المال لابتغى وادياً ثالثاً، ولايملأ جوف ابن آدم إلّا التراب»، وزاد بعضهم: «ويتوب الله على من تاب».

قال: كنّا نقرأ سورة أُخرى نشبّهها بإحدى المسبّحات، فأنسيتها غير أنّي حفظت منها «يا أيّها الذين آمنوا لِمَ تقولون مالاتفعلون، فتكتب شهادة في أعناقكم»... وزاد السيوطي: «فتسألون عنها يوم القيامة».

لاندري كيف توافق المحدّث النوري[٤] مع هذا العجوز الخرف في أوهامه وخرافاته، وقد قال تعالى: «وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ»[٥]... وقد كان قد أشرب في قلبه السفه والحمق من أُوليات حياته وإلّا فكيف يخفى على ذي حجى الفرق الواضح بين كلامه تعالى وهذا المختلق من ألفاظ وكلمات لامحتوى لها ولاائتلاف. وليته نسي هاتين كما نسي غيرهما من بقيّة السورتين الموهومتين.

❊ ❊ ❊

وأغرب من ذلك ما وهمه بشأن دعاءي القنوت المرويّين عن طرق العامّة، فحسبهما

---

١ ـ لماذا كانوا أمواتاً يوم يبعثون؟!

٢ ـ لماذا انتصب نعت موصوف مرفوع؟! راجع: دبستان المذاهب تحقيق رحيم رضازاده ملك، ج ١، ص ٢٤٦-٢٤٧.

٣ ـ فصل الخطاب، ص ١٧٩ رقم (سح ـ ٦٨) من الدليل الثامن.

٤ ـ المصدر، ص ١٧١، رقم (ب ـ ٢).

٥ ـ يس ٣٦: ٦٨.

سورتين تحاكيان سور القرآن. والبون شاسع والفسحة واسعة بينهما وبين نظم القران وتراكيب ألفاظه.

وهما: «اللهمّ إنّا نستعينك ونستغفرك ونثني عليك ولانكفرك، ونخلع ونترك من يفجرك»... «اللهم إيّاك نعبد ولك نصلّي ونسجد، وإليك نسعى ونحفد، نرجو رحمتك ونخشى عذابك الجدّ إنّ عذابك بالكفار ملحق...».

ونقل المحدّث النوري عن الإتقان: أنّ عمربن الخطاب قنت بهما بعد الركوع.[١] ومع ذلك فقد زعمهما سورتين قرآنيّتين أُسقطتا من المصحف الشريف، ياله من ضحالة الفكر.. ياللعجب «**أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشيد؟!**».[٢]

وأيضاً زعم من قول مسلمة بن‌مخلّد الأنصاري: آيتان لم تكتبا في المصحف، وهما: «إنّ الّذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، ألا أبشروا أنتم المفلحون. والذين آووهم ونصروهم وجادلوا عنهم، القوم الذين غضب الله عليهم، أُولئك لاتعلم نفس ما أخفى لهم من قرّة أعين، جزاء بما كانوا يعملون»... دليلاً على اختياره.[٣]

لاندري ماهي المناسبة بين مفاتح الآيتين المزعومتين وخواتيمهما؟! وكيف خفي ذلك على مثل النوري العائش في أوساط عربيّة بسامراء يومذاك؟!

... إلى أمثالها من سفاسف القول هي أشبه بمهازل الكلام. وقد ذكرنا تفاصيلها في مسألة «شبهة القول بالتحريف» وأبدينا أوجه التخلّص منها. وأنّها لاتعدو مزاعم زعمها أهل الحشو من أهل الحديث، وساندهم إخوانهم من الفئات الأخباريّة أصحاب العقول الساذجة! والله هو العاصم.

---

١ ـ فصل الخطاب، ص ١٧٢، برقم (و ـ ٦).
٢ ـ هود ١١: ٧٨.
٣ ـ فصل الخطاب، ص ١٧٣، برقم (يج ـ ١٣).

صفاقة تبشيريّة مفضوحة

في مطالع الألف الثالث من الميلاد!

تكاد تهبّ البشريّة لتستطلع على آفاق جديدة في حياتها الفكريّة والأدبيّة وشعورها الديني العميق الذي أحسّته في باطن ضميرها منذ عهد قريب، ومن ثَمَّ أخذت تنبذ الخرافات والأوهام التي كدّرت صفو حياتها الديني منذ أحقاب، ولتدرس معالمه على أُصول منطقيّة وفي ضوء العقل الرشيد، وإذا بالجمعيّة التبشيريّة التابعة للكنيسة الأمريكيّة، نراها تقفز قفزتها الملتوية، انتكاصاً على عقب، ورجوعاً إلى الوراء إلى حيث أسلافهم الأغبياء، فجعلت تلوك ما قضمته الآباء، تكراراً للمكرّر المستمرّ على خطّ الفشل الفاضح، وكما قال الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام: «تَكَلَّموا بِرَجْع قولٍ قد قاله رجال من قبلهم».[1] «كَذٰلِكَ قالَ الَّذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ، تَشابَهَتْ قُلوبُهُمْ».[2]

هذا.. وقد فاجأتنا الأخبار بأنّ شركة أمريكيّة اسمها «أمريكا على الخطّ» بثّت على شبكة الإنترنت تلفيقات في مجموعات أربع حسبتها على شاكلة السور القرآنيّة، لغرض

١ ـ مقتبس من كلامه عليه السلام في الخطبة رقم ١٨٣ من نهج البلاغة، ص ٢٦٦.

٢ ـ البقرة ٢: ١١٨.

المعارضة مع القرآن، فيما حسبوا. ويا لها من سخافة في رأي ووقاحة في الإصرار على تجربة فاشلة قد قاساها رجال من قبل، وقد سُجّل فضحهم كراراً على صفحة التاريخ، ولم ينبّهوا: أنّ من جرّب المجرّب حلّت به الندامة، ولكن أنّى للوقيح من ندم على سخائفه.

إنّهم حاولوا المعارضة مع القرآن، ولكن في شراسة فاضحة، تجاه أدب القرآن الرفيع! بينما القرآن يقدّس المسيح عيسى‌بن مريم وأُمّه الصديقة، ويعظّم من شأن القساوسة والرهبان الّذين اتّبعوه بإحسان، بكلّ أدب واحترام.

«إنّما المَسيحُ عيسى بْنُ مَرْيَمَ رَسولَ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقاها إلىٰ مَرْيَمَ، وَروحٌ مِنْهُ...».[1]

«وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذينَ آمَنوا الَّذينَ قالوا إنّا نَصارى. ذٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسّيسينَ وَرُهْباناً وَأَنَّهُمْ لايَسْتَكْبِرونَ..».[2]

نجد المعارض الوقح يسرد في شراسته ـ فيما أسماه سورة «المسلمون» ـ: «يا أيّها المسلمون إنّكم لفي ضلال بعيد...

«وإذ قال الله يا محمّد أغويت عبادي وجعلتهم من الكافرين. قال ربّي إنّما أغواني الشيطان...».

إلى آخر خزعبلاته التي زعمها تعادل رصانة القرآن وأدبه في التعبير.

وإليك القصّة وآراء العلماء حولها في نقدٍ نزيه؛ ولنبدأ بالسور المزيّفة التي زعمها الصقيع الزائف أنّها تضاهي سور القرآن:

سورة الإيمان

واذكرْ في الكتابِ الحواريينَ إذ عصفتِ الرياحُ بِهم ليلاً وهُم يُبْحِرون (١)إذ تراءى على المياهِ لهُمُ طيفُ المسيحِ يمشي، فقالوا أهوَ ربُّنا[3] يهزأ بنا أم قد مسَّنا ضربٌ من

---

١ ـ النساء ٤: ١٧١.
٢ ـ المائدة ٥: ٨٢.
٣ ـ لم ندر أهو ربّ او ابن الربّ؟ وكيف يكون المسيح ـ وهو بشر ـ ربّاً أو ابنه الوليد؟

جُنون (٢) فجاءَهم صوتُ المعلِّم أنْ لاتخافوا إنّي أنا هُوَ أفلاتُبصِرونْ (٣) فهتفَ هاتف منهم يقولُ ربِّي مُرْني إن كنتَ حقاً هوَ، آتي على المياهِ إليك، عسى أن يبدّلَ اللهُ شَكِّي بيقين (٤) قالَ فاسع إليّ ولتَكُنْ للناسِ آية لعلَّهم يتذكّرون (٥) وإذ طَفِقَ الحواريُّ يمشي رأى شِدَّةَ الريحِ فخافَ وبدأ يغرَقُ فصاحَ بربِّهِ يسْتعين (٦) فمدَّ بيمينِه لهُ فأخذهُ بها وقالَ يا قليلَ الإيمانِ هذا جزاءُ المُمْترين (٧) وإذ ركبَ السفينةَ معه سَكنتِ الرياحُ لنوِّها فسَبّح الحواريون بحمدِهِ، وهتفوا لهُ قائلين (٨) أنت هو أبنُ الله[1] حقاً، بكَ نحنُ آمنّا، وأمامكَ نخرُّ ساجدين (٩) قالَ طوبى للذينَ آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بشك فأُولئك همُ المفلحون (١٠)

سورة المسلمون

الصم (١) قُل يا أيُّها الْمُسلِمُونَ إنَّكُمْ لفي ضَلالٍ بَعيد (٢) إنَّ الَّذينَ كَفَرُواْ بِاللهِ ومسيحهِ لَهُمْ في الآخِرَةِ نارُ جَهَنَّمَ وَعَذابٌ شَديدٌ (٣) وجوهٌ يومئذٍ صاغرةٌ مُكفهرّةٌ تلتمسُ عفوَ اللهِ واللهُ يفعلُ مايريد (٤) يومَ يقولُ الرحمنُ ياعبادي قد أنعمتُ على الذينَ من قبلِكُم بالهدى منزّلاً في التوراةِ والإنجيل (٥) فما كان لكم أن تكفروا بما أنزلتُ وتضلّوا سَواء السبيل (٦) قالوا ربّنا ما ضَلَلْنا أنفُسنا بل أضلَّنا مَنْ ادّعى أنّه من المرسَلين (٧) وإذ قالَ اللهُ يا محمد أغويتَ عبادي وجعلتَهُم من الكافرين (٨) قالَ رَبِّي إنّما أغوانيَ الشيطانُ إنّهُ كان لبني آدمَ أعظمَ المفسدين (٩) ويغفرُ اللهُ للذين تابوا مِمَّن أغواهُمُ الإنسانُ ويبعثُ بالذي كانَ للشيطانِ نصيراً إلى جهنّم وبئسَ المصير (١٠) وإن[2] قضى اللهُ أمراً فإنّه أعلمُ بما قضى وهو على كلِّ شيءٍ قدير (١١)

---

١ ـ هل هذا إلّا تناقض مفضوح و مضادّة مع قاطع العقل بأنّ لاربّ سوى الله الواحد القهّار!

٢ ـ استعمال كلمة «إن» هنا لحن فاحش. إذ لاموضع للشرط. فلوكان كانت الخزعبلة عارفاً بأُصول اللغة لكان عليه أن يأتي بـ«إذا»، كما جاء في القرآن الكريم.

سورة التجسُّد

سبحانَ الذي خلقَ السمواتِ فلم يجعلْ لهـا حـدّاً[١] (١) وخـلقَ الأَرضَ وكـوّرها وجعلَها ماءً[٢] وجلَدا (٢) قل للذين خُدعوا بدعوةِ الشيطان عَمِيَتْ بصائرُكُـمْ فـافتريتم على الله كذباً وكنتمُ للشيطانِ سَندَا (٣) إنّ الشيطانَ كان للإنسانِ عدوّاً ألدّا (٤) لو شـاءَ ربّكم لاتخذَ من الحجارةِ أولاداً[٣] له إذ هو الذي قال للكونِ كُنْ فكانَ وسبحانه أن يستشيرَ في أمرِه أحداً (٥) سبحانه ربّ العالمين أن يتّخذ من خلائقِه ولدا (٦) قل للذين يمترون فيما أنزل من قبل ليس المسيح خليقة الله إذ كان مع الله قبل البدء وهو معه أبدا (٧) فيه ومنه كان مع روح قدسه إلهاً سرمدياً واحداً أحدا (٨) وإذ بعثَ بِهِ الآبُ للـعالمين كـما وعدَ (٩) حلَّ في بطنِ عذراء كلمةً، وخرجَ منه جسدا (١٠) عاشر الإنسانَ، علّم الإنسانَ، مات عن الإنسانِ فِدى، وكالإنسانِ رقدَ (١١) وإلى أبيه السماوي بعدَ ثلاثةِ أيامٍ صعدَ (١٢) إنّ الذين كفروا بآياته وقالوا قولاً إدّا (١٣) لن يجعل اللهُ لهم من أَمَدِهِ بُدّا (١٤) أما الذين آمنوا بالله ومسيحِه فلهُم مغفرةٌ وجنّاتُ نعيم خالدينَ فيها أبدا (١٥)

سورة الوصايا

المذ (١) إنّا أَرسلناكَ للعالمينَ مبشّراً ونذيراً (٢) تقضي بما يخطرُ بـفكرِكَ[٤] وتـدبِّر الأُمورَ تدبيرا (٣) فمن عملَ بما رأيتَ فلنفسِه ومنْ لم يعملْ فلسوفَ يَلْقى على يديكَ[٥] جزاءِ مريرا (٤) إنّا أَعطينا موسى من قبلِكَ من الوصيّات عشرةَ ونعطيك عشراتٍ أُخرى إذ قد ختمنا بك الأَنبياءَ وجعلناكَ عليْهمُ أميرا (٥) فانسَخْ مالكَ أن تنسَخَ وما أمرناهُمْ بِهِ

---

١ ـ اللّامحدوديّة صفة خاصّة بالله العظيم، لاشيء سواه.

٢ ـ الذي جاء في الكتب المقدّسة أنّ الأرض خلقت بعد خلقة الماء. وكذا الجلد.

٣ ـ مامعنى اتخاذ الحجارة ولداً إذ لاتسانخ. ولانفي إلّا حيث يمكن الإثبات.

٤ ـ هذا يناقض تماماً قوله تعالى: «وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ»، المائدة ٥: ٤٩.

٥ ـ لايجازى على العصيان إلّا الله، لاأحد سواه.

فقدْ سَمعنا لكَ أن تجري على قرارتِنَا تَغْييرا (٦) قل لعبادي الذينَ آمنُوا إن تشاءبوا يستعيذوا بالرحمنِ أن لايضحك منهمُ الشيطانُ وليكبِّروا اللهَ إن عَطسوا تكبيرا (٧) وأن لايَقْتَنوا في بيوتِهم كلباً ولايضعوا على حيطانِهم تَصويرا (٨) وإذا أرادوا انتِعالاً فليبدأوا باليمينِ قبل الشمالِ وإن لم يَفْعلوا فقد اقتَرفوا ذنباً كبيراً[1] (٩) وإن تبرّزوا فليمسحوا مؤخراتِهم بحجارٍ ثلاثةٍ ويَنْتَهوا عن الروثِ إذ قد جعلناهُ للجنِّ غذاءً[2] وعلى المؤمنين أمراً مَحْظورا (١٠) قلْ لعبادي الذينَ آمنُوا يغْزوا من أرادوا ويَقْتلوا من أجلِ رزقِهم[3] ومن لم يغز منهُم أو لمْ يحدِّثْ نفسَه بغزوٍ ماتَ منافقاً منكُورا (١١) وللذين يخشون سحراً يأكلوا سبع عجواتٍ ينجّيهمُ اللهُ من السحرِ ويبعدُ عنهمُ شرّاً مُستطيرا (١٢) قل لعبادي إن أرادوا أن يحلِفوا فليحلِفوا باللهِ ولايخافوا تبذيرا (١٣) وأن ينكحوا ما طاب لهم من النساء مثنى وثلاثَ ورباعَ أو ماملكت أيمانهم إنّا جعلنا لهمُ الدينَ أمراً يسيرا (١٤) وإذا فَرغَتْ من بين يديكَ الوصايا فاطلبْ إليكَ جبريلَ يأتيكَ ساعياً مأمورا (١٥) وإن شُغِلَ جبريلُ عنك فعليك بورقةَ بنِ نوفل[4] واستَفِدْ منه قبل أن نتوفّاهُ فيصبح الوحيُ عليكَ أمراً عسيرا (١٦)

الإنترنت والسّور المزيّفة للقرآن *Internet and False Quranic Surahs*

بقلم: مصطفى مشهور *Mustafa Mashhour:* (El-Shaab, 30 June 1998)

فاجأتنا الأخبار بأنّ شركة أمريكية اسمها «أمريكا على الخط» بثّت على شبكة الإنترنت ما أسمته «سورمن القرآن» تحت أسماء «سورة الإيمان» «وسورة المسلمون» «وسورة التجسّد» «وسورة الوصايا».

وممّا ذكر في سورة المسلمون: «قل يا أيّها المسلمون إنّكم لفي ضلال بعيد» وعبارة أُخرى: «وإذ قال الله يا محمد أغويت عبادي وجعلتهم كافرين». وغير ذلك من العبارات.

---

١ ـ كيف يكون الانتعال بدءاً بالشمال ذنباً كبيراً؟!

٢ ـ كيف يجعل روث الإنسان طعاماً للجنّ؟!

٣ ـ كيف يجوز القتال لغرض النهب والإعاشة؟!

٤ ـ كيف يخاف إنسان عن ملك مقرّب؟!

ونقول بكلّ الاطمئنان: إنّ هذا الافتراء لن ينال من الإسلام ولا من القرآن شيئا. فالله سبحانه وتعالى قد تعهّد بحفظ كتابه ليبقى حجّة للناس إلى يوم القيامة فقال تعالى: «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحافِظون»[١] وقد سبق أن تحدّى أهل الاختصاص في اللغة العربية التي نزل بها أن يأتوا بعشر سور من مثله وفي آية أُخرى أن يأتو بسورة من مثله، ولكنّهم عجزوا، فكيف يأتي اليوم من ليس له باع في لغة أو دين بهذه السور الأربع التي نشرت. لكنّه الحقد والغيظ. فنقول لهم موتوا بغيظكم.

ربّ ضارّة نافعة

على المسلمين جميعا، أفرادا وحكومات ومؤسّسات دينية أن تستثير فيهم هذه الحادثة الغيرة على دينهم وتدفعم إلى أداء واجبهم نحو دينهم الذي ارتضاه الله للناس كافّة بأن ينشروه بوجهه الصحيح، وصورته المشرقة بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن كما أمرنا الله وألّا نجاري الأعداء في المستوى الهابط الذي يهاجمون به الإسلام. فقد تعرّض رسول الله ﷺ للإيذاء، وقيل عنه إنّه مجنون وشاعر وكاهن وكان يقول: «ربّ اهد قومي فإنّهم لا يعلمون» وصبر المسلمون على هذا الإيذاء واستمرّوا في الدعوة إلى الله حتى نصرهم الله ومكّن لهم دينهم وممّا ينبغي أن نذكره ونعتزّ به أنّ المسلمين يعتبرون كلّ أنبياء الله أنبياءهم «عليهم صلوات الله وسلامه» وأنّ إيمان المسلم لا يكتمل مالم يشهد بذلك وقد جاءوا جميعا بالإسلام.

ولعلّ هذه الحادثة تدفعنا إلى الاستفادة من هذه المكتشفات الحديثة كالإنترنت وغيرها بأن نحسن الاستفادة منها في نشر الدعوة إلى الله وتصحيح الصور الخاطئة عن الإسلام، فهي فرصة ثمينة للمسلين الذين يتوجه بهم في الأساس للعالمين وللبشر كافّة.

---

١ ـ الحجر ١٥: ٩.

فلتتحوّل مشاعر الغضب والاستفزاز التي تحدثها مثل هذه الأحداث إلى طاقة بنّاءة وفاعلة تحثّ المسلمين على التفكير في توظيف تلك الوسائل لتصبح منبرا رشيدا ومتحضراً للدفاع عن الإسلام، وتبيانه للخلق بصورته المشرقة خاصّة وأنّ اليهود أشدّ الناس عداوة للذين آمنوا، يبذلون جهودهم في تشويه صورة الإسلام في الغرب بأنّه دين إرهاب وعنف. ونكون «بهذا المنهاج» نحن الرابحين من الإنترنت وأمثاله، وأنّ إساءاتهم كالزبد يذهب جفاء وأمّا ما ينفع الناس فيمكث في الأرض.

فعلى المسلمين جميعاً ومؤسّساتهم الدينية وعلمائهم أن يعطوا هذا الجانب الاهتمام اللائق به، وأن يقوم المتخصّصون بالردّ على الشبهات التي تلصق بالإسلام، وأن يوضّحوا للناس جميعاً وجهه المشرق وما يحمله للإنسانية من خير في دنياهم وأُخراهم وبأن يوقظوا الناس من غفلتهم وانغماسهم في زخارف الدنيا وشهواتها ونسيانهم المصير المحتوم الذي ينتظرهم جميعاً، وهذ واجب العلماء فهم ورثه الأنبياء.

كما لابدّ أن يصل إلى هذه الشركة التي بثت هذا الزيف الاستنكار من العديد من الجهات الإسلاميّة والحكومات الإسلاميّة والدعوة إلى مقاطعتها إن لم تصحّح هنا الخطأ وتلغيه، كما لابدّ أن تشعر أمريكا عن طريق وزراء خارجية الدول الإسلاميّة بسخط المسلمين عليها لسماحها لهذه الشركة أن تبثّ هذا البرنامج الشاذ، وعليها أن تراعي مشاعر المسلمين الذين يشكّلون ثلث سكّان العالم.

نظرة تاريخية...

إنّ الدين عند الله الإسلام وكلّ الأنبياء جاءوا بدعوة الناس إلى إسلام الوجه لله وإلى توحيد الله وعبادته ونرى ذلك على لسان بعض هؤلاء الأنبياء، ولمّا كانت الحياة في الزمن الغابر بدائية وليس فيها مايوجد الآن من وسائل الاتصالات والمواصلات السريعة فكان كلّ رسول يبعث إلى قومه ومعه معجزة حسّية يراها قومه ويدركون أنّها ليست من

صنع البشر ولكنّها من صنع الله فيؤمنوا، ولكنّ الله سبحانه كان يعلم مسبقا أنّ البشرية ستكتشف من وسائل المواصلات والاتصالات السريعة التي تجعل الكرة الأرضية كأنّها مدينة واحدة، فما يحدث في أمريكا والصين نعلمه في الحال فجعل الله الرسول ﷺ للناس كافّة ولم يجعل معجزته حسّية يراها من عاصروه فقط ولكنّه جعلها معجزة معنوية خالدة وهي القرآن الكريم وتعهّد الله بحفظه من أيّ تبديل أو تحريف «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ»[1] ليبقى حجّة على الناس إلى يوم القيامة.

ثمّ إن الإسلام والقرآن رسم للناس منهاج حياتهم في كلّ جوانبها بما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة وقد أثبتت الأيّام والتجارب فشل النظم الأُخرى كالشيوعية والاشتراكية والرأسمالية وغيرها. في حين أنّ الإسلام قد أسعد الكثيرين فترة من الزمن ليست بالقصيرة وانحسرت عنهم الانحرافات والجرائم إلى حدّ كبير. ولكن سنّة الله في التغيير تفرض نفسها. فعندما قصر المسلمون في أُمور دينهم سلّط الله عليهم الأعداء فاحتلّوا بلادهم ونشروا فيها الفساد والخمر والربا وأسقطوا الخلافة وغرسوا الكيان الصهيوني فكانت هذه الفترة التي يعاني المسلمون فيها من المحن والابتلاءات والتي هي أيضا من سنن الله في الدعوات للتمحيص والصقل ليخرج منها المسلمون أقوى عزيمة وأصلب عودا فيحقّ الله بهم الحقّ ويبطل الباطل وقد بدت في الأُفق بوادر صحوة إسلامية نرجو لها النماء والقوّة.

ومن إعجاز القرآن الإعجاز العلمي

لمّا كان القرآن هو معجزة الإسلام وعصرنا الحالي يتميّز بالعلم والعلماء فإنّ القرآن الكريم يحتوي على المئات من الآيات التي تتفق معها الحقائق العلمية التي يكتشفها

١ ـ الحجر ١٥: ٩.

العلماء حديثا كأطوار الجنين في بطن أُمه وقد ذكرها القرآن منذ ألف وأربعمائه سنة ممّا يؤكّد يقينا أنّها ليست من صنع محمدﷺ الأُمّي ولكنّها من صنع الله العليم الخبير. فالعقل والمنطق يحتّمان على من يؤمن بأنّ هذا القرآن من عند الله بسبب سبقه بهذه الحقائق العلمية، أن يؤمن بما في القرآن من عقيدة التوحيد وغيرها من المبادىء الدينية فيدخل في دين الله.

وقد قام بعض المسلمين بدراسات حول الإعجاز العلمي في القرآن وقاموا بجهد طيّب ولايزالون وغيرهم يواصلون هذه الأبحاث. ونطالب أهل التخصّص من العلماء في الفروع المختلفة أن يقدّموا أبحاثهم في هذا الإعجاز العلمي وأن تترجم هذه الأبحاث إلى اللغات الحية وتنشر عن طريق الإنترنت وغيره من الوسائل فيكون لذلك الأثر الطيّب الكبير فيدخل الناس في دين الله أفواجا.

كلمة أخيرة

نقول وقد أظلّنا شهر ربيع الأول الذي ولد فيه رسول اللهﷺ: إنّ هذا الدين الذي ارتضاه الله للناس جميعا وحتى قيام الساعة لايمكن أن يقضي عليه البشر مهما قاموا به من كيد وتضليل، وإنّ هذا الصراع القائم بين أهل الحقّ وأهل الباطل قد حسم الله نتيجته في قوله تعالى «كَذلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الحَقَّ وَالْباطِلَ فَأمّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفاءً وَأمّا مايَنْفَعُ النّاسَ فَيَمْكُثُ في الْأَرْضِ كَذلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْأمثال».[1]

لقد شقيت البشرية ببعدها عن تعليم ربّها، وانتشر فيها الفساد والقتل والمخدّرات والشذوذ الجنسي والاغتصاب و غير ذلك وقامت الحروب والفتن ولانجاة للبشرية من هذا الخراب والضياع إلّا بالعودة إلى تعاليم الله ربّ العالمين وهذا دور المسلمين بالدعوة

إلى دين الله وأن يبدأوا بأنفسهم وأسرهم ليبرزوا القدوة الفاضلة، ثمّ عليهم أن يوضّحوا للناس ما يتميّز به هذا الدين من أمن وسلام وعزّة وكرامة وطهر وعفاف، وأن يستفيد المسلمون من كلّ وسائل الإعلام الحديثة في هذا التبليغ، والرسولﷺ يحثّنا على ذلك في قوله: (لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم). فكلّ من يقدّم للإسلام جهدا في أيّ جانب ويكون له أثره في المستقبل سيكون له أجر عظيم.

تقليد القرآن ليس إعجازا — *Paroding Qur'an is not Miraculous*

كتب عامر عبد المنعم (El-Shaab, June 23, 1998)

حدث ما حذرنا منه وقام كثير من المسلمين وبدافع الغيرة على الإسلام في الترويج لأحد المواقع المنحرفة التي تسخر من القرآن بإرسال برقيات عبر البريد الإلكتروني إلى آلاف الأشخاص يطالبونهم بالتصدّي لموقع يردّد كلاماً مثل ما قاله مسيلمة الكذّاب وغيره من قبل، وبدورهم قام الآخرون الذين تسلّموا هذه الرسائل بإرسالها إلى من يعرفون، في ترويج غير مقصود لمنكر وباطل.

أشار أحد قرّاء جريدة الشعب إلى أنّه بعث بالرسالة التي وصلته إلى أكثر من مائة صديق يحتفظ بعناوينهم في قائمة بريده الإلكتروني وأكّدت قارئة أُخرى نفس الأمر كما اتصل بالجريدة العديد من الأشخاص مؤكّدين أنّ رسائل وصلتهم من أشخاص يعرفونهم وآخرين لا يعرفونهم.

ومع تزايد الاحتجاجات التي أُرسلت إلى «شركة أمريكا أون لاين» التي تستضيف الموقع قام صاحبه المجهول بإنشاء موقعين آخرين على حاسبات شركتي «جيوستز» و «تريبود» بهما نفس المادة المنكرة.. وقد وصلت الشعب رسائل بهذين العنوانين الجديدين (نحتفظ بهما) كما أنّ «أمريكا أون لاين» لم تستجب للضغوط. الأمر الذي يكشف أنّ خصومنا يريدون إدخالنا في معركة وهمية ليس لها حدود، وللأسف مازال

بعض المسلمين الذين نقدّرهم ونقدّر مكانتهم يعطون أعداء الإسلام الشعور بأنّهم حقّقوا مايريدون بالاستمرار في الترويج لهذا الموقع عبر البريد الإلكتروني وإشاعة عنوانه بزعم التحذير منه.

ولكن السؤال هل فعلاً يمكن اعتبار هذه الترّهات والهذل تحدّياً لله؟

يقول د. أحمد عبدالرحمن: هذا الكلام ليس جديداً وليس به عبقرية فمحاولات تقليد القرآن كثيرة فقد فعلها مسيلمة الكذّاب الذي ادّعى النبوّة كما فعلتها امرأة اسمها سجاح.. ومن يقرأ تاريخ الطبري يجد كثيراً من مثل هذه الأقاويل التي تثير الضحك أحياناً، كما أنّ القاديانية ألّفوا كتاباً خاصّا بهم، حيث اقتطعوا آيات من القرآن ووضعوا بدلاً منها وهذا لاصلة له بالإعجاز.

ويضيف د. أحمد عبدالرحمن: الإعجاز القرآني المقصود ليس في الألفاظ فقط وإنّما في المعاني والعقائد وما تضمّنه عن الظواهر الكونية والتشريع الإسلامي لذا فالذين حاولوا تقليد القرآن استخدموا بعض ألفاظ القرآن وحذفوا بعضها ووضعوا أُخرى فأين الإعجاز. أيضاً الإعجاز إنّك تقرأ القرآن تعرف أنّه قرآن ولكن عندما تقرأ هذا التقليد المشوّد تعرف أنّه ليس قرآناً وهذا قمّة الإعجاز.

ويقول المفكّر الإسلامي د. محمد عمارة: هذا نوع من الهزل، ليس جديداً ومايقولونه ليس إعجازاً لأنّ التحدّي القرآني مركّب فإعجاز القرآن في البيان وفي التركيب وما يحويه من أسرار البلاغة وفي الإنباء والحديث عن الغيب وإعجازه الأكبر في قدرته على خلق الإنسان الراشد في كلّ زمان ومكان فمنذ (١٥) قرناً لم يحدث أن استطاع أحد أن يأتي بمثل هذا القرآن حتى كفّار العرب فصحاء البلاغة.

ويضيف د. عمارة: أنا أرى أنّ الانزعاج من مثل هذه المواقع مبالغ فيه والانشغال به مضيعة للوقت وأتصوّر أنّنا إذا وقفنا مواقف ردود أفعال لما يبثّ على الإنترنت حول الإسلام فسنصبح ضحايا لعديد من المنظّمات بل والأفراد الذين يستهلكون جهودنا في

الردّ على طوفان من الافتراءات على الإسلام بصرف النظر عن ما في هذه الافتراءات من جديد أو من جدية.

ومع هذا قال د. عمارة: نحن محتاجون إلى أن نضع تصوّراً وسطيا معتدلا للإسلام كدين وحضارة وقيم وكعقيدة وكشريعة وكأُمّة وتاريخ وأن نضع ذلك على الإنترنت وأيضاً أن نضع إلى جانب هذا التصوّر الوسطي للإسلام الحجج التي يقيمها الإسلام على صدق دعوته ونضع أيضاً الردّ على الشبهات التي قيلت والتي تقال عادة في مواجهة الإسلام، ذلك أنّ تبليغ الإسلام إلى الناس يقتضي أوّلا تبليغ الدعوة وثانياً إقامة الحجّة وثالثاً دفع الشبهة فإذا نحن قدّمنا صورة الإسلام كما نراها وأقمنا الحجّة على صدق دعوته وإذا فنّدنا الشبهات نكون وضعنا المرجع لمن يريد أن يفهم ولمن يريد أن يسأل وبذلك نكون قد أسّسنا البناء ولم تستنفد طاقاتنا في الجري وراء مثيري الاستفزازات والشبهات.

ويستطرد الدكتور محمد عمارة: أتصوّر أنّ هذا العمل يجب أن لا يتحوّل إلى مبادرات فردية تخضع لمزاجات مذهبية أو طائفية وإنّما يجب أن يجتمع له وعليه أبرز مؤسّسات العلم الإسلامى في الوطن العربي والعالم الإسلامي، فعلى سبيل المثال يستطيع الأزهر أن يدعو رابطة العالم الإسلامي والمجامع العلمية في العالم الإسلامي ومجامع اللغة العربية والجمعيات الإسلامية الكبرى ومجامع الفقه الإسلامي وممثّلين لوزارات الأوقاف وأقسام الشريعة والدراسات الإسلامية بالجامعات بحيث يتكوّن مؤتمر له أمانة ويتوزّع هذا المؤتمر إلى لجان لاتبدأ العمل من الصفر وإنّما تستعين بما في المكتبة الإسلامية من دوائر المعارف وموسوعات ومؤلّفات بها كلّ ما يمكن أن يقيم هذا البناء الفقهي وأن تكون مهمّة هذه الهيئة الإعداد والتبويب والصياغة ليخرج هذا العمل في شكل منسّق وروح واحدة وبذلك نضع هذا التصوّر في متناول الراغبين معرفة أيّ شيء عن الإسلام.

وفي تعليقه على ما حدث يقول الدكتور عبدالله هلال الأمين العام المساعد لنقابة العلميين ورئيس اتحاد الطلاب العرب في جامعة ولاية فلورايدا عام ١٩٨٨: الهجوم على القرآن الكريم بكافّة الوسائل التآمرية ليس جديداً، فقد بدأ منذ نزلت أُولى الآيات على رسول الله ﷺ.. والقرآن منذ ذلك الوقت يدافع عن نفسه، ويذود بعضه عن بعض، فهو كلام الله تبارك وتعالى الذي وعد بحفظه، وقد حفظه بالفعل سبحانه وتعالى فرغم تصاعد الهجوم وزيادة الإلحاد على مرّ الزمن، فمؤشر الحفظ يتصاعد بدخول المخترعات الحديثة من تسجيل صوتي وتسجيل بالصورة واستخدام إمكانات الحاسب الآلي، وغير ذلك من وسائل الاتصال الحديثة.. وتعتبر شبكة الإنترنت من أعظم ما توصّل إليه الإنسان في العصر الحديث، وهي كغيرها سلاح ذوحدّين، فيمكن أن تستخدم لصالح الإيمان والدعوة، كما يمكن أن تستخدم في الاتجاه العكسي كما يحدث من حين لآخر والحلّ في نظري يعتمد علينا نحن بأن نكون فاعلين وليس مجرّد أصداء لردود الأفعال، علينا أن نستفيد من وسائل الاتصال الحديثة ونسابق الأُمم في إبراز الوجه الحضاري للإسلام والإعجاز العلمي واللغوي للقرآن الكريم. فإذا ارتفع صوت القرآن عالياً لن يدع الفرصة لأصوات الخفافيش أن تظهر.

ويشير د. عبدالله هلال إلى أنّ وسائل الاتصال الحديث تتميّز بالانفتاح والحرّية ولا تجدي معها وسائل الإغلاق والمصادرة لذلك فإنّني أرى أنّ أصواتنا كما أسلفت ونبذل الجهد والعرق لإبراز وجوه الخير التي يتميّز بها الإسلام، وإبراز كنوز المعرفة التي يحفل بها القرآن الكريم أمّا الردّ على هؤلاء السفلة الذين يهاجمون كتاب الله فيكفي السخرية منهم وعدم الالتفات إلى جهالاتهم.

Obscuries Fending:

Al-Azhar Official Response to Qur'an Parody

الأزهر وبيانه الرسمي

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

وبعد فردّاً على الشيطان من الإنس غلبت عليه شقوته، وبارز الله بعصيانه، وافترائه على بارئه، فقد دأب المحجوج المبهوت، وأعماه حقده البغيض عن الحقائق الجلية فلم يستطع تبين ما كتبت يداه ولا ما أملاه عليه عقله الشارد، فناقض نفسه بعمه، وسوّلت له نفسه المريضة بالسوء أن ارتاب ممّا نزل على رسولنا الكريم، فمن جهله وحماقته أن أتى ببعض آية، فذكر متجهّما: «**وَإِنْ كُنْتُمْ في رَيْبٍ مِمّا نَزَّلْنا عَلى عَبْدِنا فَأْتوا بِسورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعوا شُهَداءَكُمْ مِنْ دونِ اللهِ إنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ**» ولم يكمل الآية، فلو أكملها لأوجعته عقابا ولكلّفته جوابا، فيقول الله تعالى في الآية نفسها: «**فَإِنْ لَمْ تَفْعَلوا وَلَنْ تَفْعَلوا فَاتَّقوا النّارَ الّتي وَقودُها النّاسُ وَالْحِجارَة**»[١] فبذلك يكون هذا المبهوت قد تحدّ نفسه، فجعله الله هالكاً لنفسه فسلّطها عليه بالضلال والبهتان، فهيهات هيهات أن يصف عبثه بما وصف به نفسه. لقد سبق هذا المبهوت من هم على شاكلته، فأشراف العرب مع كمال حذاقتهم في أسرار الكلام وشدّة عداوتهم للإسلام، لم يجدوا في بلاغة القرآن وحسن نظمه وأُسلوبه مجالا، ولم يوردوا في القدح مقالا، بل اعترفوا أنّه ليس من جنس خطب الخطباء وشعر الشعراء، وكيف يتصوّر أن يكون الفصحاء والبلغاء من العرب العرباء كثيرين كثرة رمال الدهناء وحصى النطحاء. كانوا عاجزين عن المعارضة، فهذا العابث لم يكن إلا صاغراً بينهم.

---

١ ـ البقرة ٢: ٢٣-٢٤.

إن أراد هذا الغافل إلا اتباع الضلال فعليه نفسه، وإن أراد الهدى فليتبعنا يهدى صراطا مستقيما ونهجا قويما فنورد إليه بعضا من الأُمور التي تدلّ على أنّ القرآن كلام الله:

أوّلا ـ كونه في الدرجة العالية من البلاغة التي لم يعهد مثلها في تراكيبهم وتقاصرت عنها درجات بلاغاتهم وهي عبارة عن التعبير باللفظ المعجب ولانقصان في البيان.

ثانياً ـ نسقه العجيب وأُسلوبه الفريد في المطالع والمقاطع والفواصل مع اشتماله على رقائق البيان وحقائق العرفان وحسن العبارة ولطف الإشارة وسلاسة التركيب وسلامة الترتيب فتحيّرت فيه عقول العرباء وفهوم الفصحاء والحكمة في هذه المخالفة أن لا يبقى لمتصف عنيد فطنة السرقة.

ثالثاً ـ كون القرآن منطويا على الإخبار عن الحوادث الآتية فوجدت في الأيّام اللاحقه على الوجه الذي أخبر كقوله تعالى: «**لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إن شاءَ اللهُ آمِنينَ مُحَلِّقِينَ رُؤوسَكُم وَمُقَصِّرينَ لاتَخافون**».[1]

رابعاً ـ ما أخبر من أخبار القرون السالفه والأُمم الهالكة وقد علم أنّه كان أُمّياً ما قرأ ولا كتب ولا اشتغل بمدرسة مع العلماء ولامجالسة مع الفضلاء بل تربّى بين قوم لا يعرفون الكتاب وكانوا عارين عن العلوم العقلية. يقول الله تعالى: «**إنَّ هذا القُرآنَ يَقُصُّ عَلى بَني إسرائيلَ أكْثَرَ الَّذي هُمْ فيهِ مُخْتَلِفونَ**».[2]

خامساً: مافيه من كشف أسرار المنافقين حيث كانوا يتواطؤون في السرّ على أنواع كثيرة من المكر والكيد وكان الله يطلع رسوله على تلك الأحوال حالاً فحالا.

سادساً: جمعه لمعارف جزئية وعلوم كونية لم تعهد العرب عامّة ولا محمدﷺ خاصّة من علم الشرائع التنبيه على طرق الحجج العقلية والسير والمواعظ والحكم وأخبار الدار الآخرة ومحاسن الآداب والشيم.

---

١ ـ الفتح ٤٨: ٢٧.   ٢ ـ النمل ٢٧: ٧٦.

سابعاً ـ كونه بريئا عن الاختلاف والتفاوت مع أنّه كتاب كبير مشتمل على أنواع كثيرة من العلوم، فلو كان من عند غير الله لوقعت فيه أنواع من الكلمات المتناقضة.

ثامناً ـ كونه معجزة باقية متلوّة في كلّ مكان مع تكفّل الله بحفظه بخلاف معجزات الأنبياء فإنّها انقضت بانقضاء أوقاتها.

تاسعاً ـ أنّ قارئه لا يسأمه، وسامعه لا يمجّه، بل تكراره يوجب زيادة محبّته.

عاشراً ـ كونه جامعا بين الدليل ومدلوله، فمن يدرك معانيه يفهم مواضع الحجّة والتكليف معاً في كلام واحد باعتبار منطوقه ومفهومه، لأنّه ببلاغة الكلام يستدلّ على الإعجاز، وبالمعاني يقف على أمر الله ونهيه ووعده ووعيده، كذلك حفظه لتعليمه بالسهولة، والخشية التي تلحق قلوب سامعيه وأسماعهم عند سماع القرآن والهيبة التي تعتري تاليه.

فأين هو من هذا! فحاشا وكلّا. الأزهر

إغلاق الموقع الذي أساء إلى القرآن على الإنترنت

كتب عامر عبدالمنعم:

أغلقت شركة «أمريكا أون لاين» بالولايات المتحدة الأمريكية الموقع الخبيث الذي أساء إلى القرآن الكريم كما فعلت نفس الأمر شركة ترايبود إلّا أنّ المجرم مازال يبثّ مادّته المزيّفة على موقع آخر على حاسبات شركة «جيوسيتز»... وقد بثّ صاحب الموقع ـ الذي أعلن أنّ اسمه سكوت جوزيف ـ رسالة أشار فيها إلى أنّ أحد اليهود دفع له مبلغ ٥٠٠٠ دولار لإنشاء هذه المواقع لتدمير الإسلام، وقال إنّه درس اللغة العربية ويجيدها وقدّم اعتذاره للمسلمين. وقد كشفت الرسالة التي كتبها بالإنجليزية أنّه شخص عربي وليس أجنبياً كما يزعم لأنّها احتوت على العديد من الأخطاء والتي يستحيل أن يقع فيها من يعرف الإنجليزية.

من ناحية أُخرى أصدر الأزهر الشريف بياناً ردّاً على هذا المجرم أكّد فيه أنّ هذا الجاهل أعماه حقده البغيض عن الحقائق الجلية فلم يستطع تبين ما كتبت يداه ولا ما أملاه عليه عقله الشارد فناقض نفسه.

وعلى صعيد جمع المعلومات عن صاحب هذا العمل الإجرامي تشكّر «الشعب» كلّ الإخوة القرّاء في جميع أنحاء العالم الذين ساهموا بمعلومات هامّة سننشر تفاصيلها حال اكتمالها لعقاب هذا العابث بكلام الله.

The Full Story of the Criminal Attack on the Holy Qur'an on Internet

Abuser Creates more than one site for his filth

site born-dead last September until Muslims started protesting last week

(El-Shaab, 30 June 1998)

القصّة الكاملة للمجرم الذي أساء للقرآن على الإنترنت

أنشأ أكثر من موقع ونشر ترّهات على أنّها قرآن

الموقع ولد ميتا في سبتمبر الماضي وانتشر عنوانه فجأة الأُسبوع الماضي

د. جمال عبدالهادي: أفضل علم نشر الموضوع في الصحف

تقرير: عامر عبدالمنعم

انشغل الرأي العام الإسلامي خلال الأُسبوع الماضي بقصّة «الموقع الخبيث» الذي يسيء إلى القرآن على شبكة الإنترنت، فقد صدم المسلمون من قيام أحد شياطين الإنس بافتراء ألفاظ على وزن آيات القرآن، زاعما أنّه يتحدّى القرآن، ويكتب سوراً مثلما أنزله الله.

وتناقلت وسائل الإعلام هذا الموضوع، وساهمت في اشتعال النار في نفوس المؤمنين غضبا من تجرّؤ هذا الفاجر على الله والاستهزاء بكلام المولى عزّوجلّ، ودخل

الأزهر بثقله ليردّ على هذه الترّهات مفنّداً هذه الأقاويل وكاشفا خبثها وضحالتها.

ومع اتساع الاحتجاجات، وتزايدها ضدّ هذا الموقع، استغلّ هذا الشيطان إمكانيات شبكة الإنترنت في إنشاء مواقع أُخرى يبثّ من خلالها مادّته المزيفة، بعد أن شعر أنّه استطاع استغضاب المسلمين وإثارتهم.

ماهي القصّة؟ وما أبعادها؟ وكيف نواجه هذا الإجرام؟

هذا ما نوضّحه من خلال متابعة هذه المعركة المفتعلة منذ بدايتها.

قام هذا المجرم بإنشاء هذا الموقع في أواخر شهر سبتمبر ١٩٩٧ على حاسبات شركة «أمريكا أون لاين» بالولايات المتحدة الأمريكية وبدأه بترجمة بالإنجليزية لقول الله تعالى: «**وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنا عَلى عَبْدِنا فَأْتوا بِسورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعوا شُهَداءَكُمْ مِنْ دونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِين**»[1] ثمّ أتبع ذلك عناوين بأسماء إفك من تأليفه بها كلام مسيحي على وزن آيات القرآن الكريم وزعم أنّه يتحدّى الله بها وأطلق على الأُولى سورة الإيمان والثانية سورة التجسّد والثالثة سورة المسلمين والرابعة سورة الوصايا. وتعمّد صاحب الموقع إخفاء هويّته ولم يضع أيّة معلومة تكشف هويّته ولاحتى عنوان بريده الالكتروني.

وظلّ هذا الموقع ميتا لم يشعر به أحد حتى الأُسبوع الماضي عندما بدأ المسلمون أنفسهم تبادل رسائل البريد الإلكتروني عبر الإنترنت محذّرين منه ومطالبين باتّخاذ تحرّك لإغلاقه، وقام صاحب موقع مصري ببثّ رسائل إلى أكثر من ثلاثة آلاف مسلم في جميع أنحاء العالم يطالبهم بإرسال برقيات احتجاج إلى شركة «أمريكا أون لاين» لإغلاق هذا الموقع الذي يسيء إلى القرآن.. ومع تصاعد الاحتجاجات استجابت شركة «أمريكا أون لاين» لطلب المسلمين وشكّلت لجنة لفحص المادّة التي يحويها الموقع،

---

١ ـ البقرة ٢: ٢٣.

فقرّرت إغلاقه بعد اكتشافها أنّه يسيء إلى المسلمين، فقام صاحب الموقع المجهول الهوية بإنشاء موقعين آخرين على حاسبات شركتي «ترايبود وجيوسيتز» ووضع عليهما نفس المادّة المزيّفة وقام صاحب الموقع العربي الذي تبنّى الحملة بإرسال العنوانين الجديدين إلى آلاف المسلمين أيضاً لمواصلة الحملة فاستجابت شركة «ترايبود» وأغلقت الموقع بينما لم تتجاوب شركة «جيوسيتز».

وفي خطوة مفاجئة وغير مقنعة بثّ صاحب الموقع الخبيث رسالة أعلن فيها اعتذاره للمسلمين، وقال: إنّ يهودياً أعطى له ٥ آلاف دولار لكتابة هذا الكلام لتدمير الإسلام، وزعم أنّه أراد أن يمحي ما كتبه، إلّا أنّ ذلك اليهودي احتفظ بكلمة المرور التي يستطيع بها أن يدخل الموقع ويغيّر مافيه، وزعم أنّ اسمه سكوت جوزيف.

إلا أنّ الذين قرأوا الرسالة تأكّدوا أنّ هذا الشخص ليس أجنبيا وإنّما عربي، لأنّ هذا الاعتذار تضمّن العديد من الأخطاء يستحيل أن يقع فيها من يعرف الإنجليزية.

ومع توسّع وإذاعة مايحويه هذا الموقع ونشر الصحف المصرية عن هذه الجريمة اضطرّ الأزهر خوض المعركة وإصدار بيان واف موضّحا أنّ ماكتبه هذا السفيه ليس إعجازاً وإنّما عبث وقال إنّ هذا الجاهل «أعماه حقده البغيض عن الحقائق الجلية فلم يستطع تبين ما كتبت يداه ولا ما أملاه عليه عقله الشارد فناقض نفسه». وتضمّن بيان الأزهر ١٠ نقاط ردّاً على هذا الأفّاك.

وعقّب بيان الأزهر تمادي المجرم في غيّه وحربه على الله بإنشاء موقع آخر على حاسبات شركة «جيوسيتز» تضمّنت نفس المادّة السابقة مضافا إليها أربع سور مزيّفة أُخرى وبعض كلمات من أقوال مسيلمة الكذّاب الذي سبق وأن ادّعى النبوّة ليؤكّد أنّ الاعتذار كان مزعوما أو أنّ من كتب الاعتذار شخص آخر غيره لإثارة البلبلة وإعطاء القضية مزيداً من الإثارة.

وحتى الآن لم يعرف من وراء هذا الإفك والتزييف، وما إذا كان شخصا أم مؤسّسة،

أي أنّ الخصم مجهول، وبالتالي فالوسائل التقليدية لمواجهته قد تدخلنا في معركة لانهاية لها ـ فالحملة المنظّمة ضدّ شخص معروف ومحدّد أو ضدّ منظّمة معيّنة تأتي بثمارها مثلما تفعل المنظّمات الإسلامية في الولايات المتحدة والغرب، أمّا على الإنترنت فالوضع مختلف.

وعدم وضوح هذه الرؤية قد ينتج عنه تبديد الجهود أو السير في الطريق الخطأ مثلما صرّح به الدكتور أحمد عمر هاشم ـ رئيس جامعة الأزهر ـ بأنّه يعدّ مذكرة قانونية ضدّ شركة «أمريكا أون لاين»، فهذه الشركة ليست صاحبة الموقع وإنّما هي تبيع مساحات على حاسباتها لملايين من الأعضاء دون النظر في المادّة التي يضعونها، وقد قامت الشركة بالاستجابة لمطالب المسلمين وأغلقت الموقع.

ومافعلته «أمريكا أون لاين» و«ترايبود» لم تفعله «جيوسيتز» كما أنّ هناك شركات أُخرى متحيّزة ضدّ الإسلام ولن تستجيب لهذه المطالب، وبالتالي فالسير في طرق إغلاق المواقع المعادية للإسلام قد يأتي بنتيجة ولكن ليس في كلّ الأحوال لطبيعة الإنترنت غير الأخلاقية وأهدافها التجارية، وعدم وجود جهة معروفة للمحاسبة.

وليس معنى هذا التقليل من أي اجتهاد في هذا المجال وإنّما هذا يدفع المسلمين للبحث عن الوسائل الملائمة للتعامل مع هذه الشبكة لصدّ الشبهات وعرض صورة الإسلام وعدم تبديد الجهود.

فمن المعروف أنّ هناك مواقع عديدة تهاجم الإسلام ومواقع لعبادة الشيطان يصعب حصرها ولن تجدي معها رسائل الاحتجاج والمصادرة، لأنّنا لسنا مالكي هذه الشبكة، كما أنّ عملية تتبّع أصحاب هذه المواقع غاية في الصعوبة لن يقدر عليها إلّا جهاز مخابرات مثل الـ«سي.أي.أيه».. بل حتى هذا الجهاز عجز عن معرفة كلّ من اخترقوا أجهزة وزارة الدفاع الأمريكية وحصلوا على معلومات سرّية خاصّة بالبنتاجون.

ليس معنى هذا أن يقف المسلمون صامتين ولايبدون أيّ مقاومة وإنّما هذا يحتّم

علينا دراسة كلّ الوسائل الممكنة لتحقيق الرسالة المنشودة والدفاع عن القرآن حتى لانستنزف في ردود أفعال غير محسوبة.

فمن المعروف أنّ إنشاء موقع على الإنترنت أمر غاية في السهولة ويمكن لأيّ إنسان أن ينشئ موقعاً في أيّ وقت يشاء ويضع عليه مايريد وإن تمّ إغلاقه ينشيء غيره، وهذا ماقام به الخبيث صاحب الموقع الذي نتحدّث عنه.

ليس إعجازاً

وليس معنى الجدل الذي أُثير حول الموضوع أنّ هذا المجرم فعل شيئا عبقريا وإنّما لأنّ ما حدث تحدّ صريح لله عزّوجلّ يغضب كلّ صاحب فطرة سليمة والسؤال الذي طرح هل تزييف وتقليد آيات القرآن يعدّ إعجازاً وتحدّياً لله؟ ثمّ كيف يتعامل المسلمون مع مثل هذا الإجرام؟

طرحنا هذا السؤال منذ الأُسبوع الماضي على لفيف من المفكرين والعلماء..

وقفة عند (الخزعبلات) المنشورة في (الإنترنت) من قبل الإستكبار الأمريكي

بقلم: السيد حسين الحيدري

اطّلعت أخيراً على صفحات أربعة نشرت عبر الإنترنيت يتحدّى كاتبها القرآن الكريم في إعجازه مدّعياً أنّها مثل القرآن، ولديّ عدّة ملاحظات ينبغي الانتباه إليها حول هذه الصفحات الأربعة التي يزعم كاتبها أنّه يعارض بها القرآن الكريم في تحدّيه للبشرية:

أولاً: إنّ كاتب هذه الصفحات قد أعلن بلسان حاله ـ لابلسان مقاله ـ عن عظمة القرآن الكريم من حيث لايدري، وذلك لأنّ هناك ملايين الكتب المؤلّفة باللغة العربية، وما أكثر الكتب الأدبية منها والنصوص البلاغية الجميلة فيها، ولكن هذا الكاتب تركها جميعاً وأعرض عنها كلّها ولم يقتبس منها شيئاً وجاء إلى كتاب واحد من بين ملايين

الكتب الأدبية وهو القرآن الكريم واقتبس منه نصوصاً كثيرة ووضعها بين كلامه كي يبدو كلامه فصيحاً بليغاً، ولو كان هناك كلام آخر يراه الكاتب أعظم بلاغة من القرآن الكريم لاقتبس منه وأخذ عنه ولكنّه وعلى الرغم من قلّة الصفحات التي كتبها لم يقتبس إلّا من القرآن الكريم وهو اعتراف صريح منه بعظمة القرآن الكريم إذ طرّز كلامه بآيات منه.

وإليك نموذج واحد وهو صفحة (التجسّد) لوحدها فانظر مقدار مافيها من السرقات القرآنيه والاقتباس بالنصّ أو ماهو قريب منه:

امّا ماسرقه بالنص:

١ ـ «سُبْحانَ الَّذي خَلَقَ»[١] ٢ ـ «إِنَّ الشَّيْطانَ كانَ لِلإِنْسانِ عَدُوّاً»[٢]

٣ ـ «عَلَّمَ الإِنْسانَ»[٣] ٤ ـ «خالِدينَ فيها أَبَداً»[٤]

٥ ـ «فَأَمّا الَّذينَ آمَنُوا بِاللهِ»[٥] ٦ ـ «رَبِّ الْعالَمينَ»[٦]

٧ ـ «اَلَّذي خَلَقَ السَّماواتِ».[٧]

وأمّا ما هو قريب من النص:

١ ـ «وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ»[٨] فقال: [لوشاء ربّكم].

٢ ـ «لَوْ أَرادَ اللهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً لاصْطَفىٰ مِمّا يَخْلُقُ مايَشاءُ»[٩] فقال: [لوشاء ربّكم لاتخذ من الحجارة أولاداً له].

٣ ـ «ماكانَ للهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحانَهُ»[١٠] فقال: [سبحانه ربّ العالمين أن يتخذ من خلائقه ولداً].

---

١ ـ يس ٣٦: ٣٦.
٢ ـ الإسراء ١٧: ٥٣.
٣ ـ العلق ٩٦: ٥.
٤ ـ النساء ٤: ٥٧.
٥ ـ النساء ٤: ١٧٥.
٦ ـ الفاتحة ١: ٢.
٧ ـ الأنعام ٦: ١.
٨ ـ الأنعام ٦: ١١٢.
٩ ـ الزمر ٣٩: ٤.
١٠ ـ مريم ١٩: ٣٥.

٤ ـ «لاتَفْتَرُوا عَلَى اللهِ كَذِباً»[١] فقال: [فافتريتم على الله كذباً].

٥ ـ «إلٰهاً واحِداً»[٢] فقال: [إلٰهاً سرمدياً واحداً].

٦ ـ «إنَّ الَّذينَ كَفَرُوا بِآياتِ اللهِ»[٣] فقال: [إنّ الذين كفروا بآياته].

٧ ـ «فَإذا قَضىٰ أَمْراً فَإنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ»[٤] فقال: [هو الذي قال للكون كن فكان].

٨ ـ «لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ»[٥] فقال: [لم يجعل لها].

٩ ـ «فَتَكُونَ لِلشَّيْطانِ وَلِيّاً»[٦] فقال: [وكنتم للشيطان سنداً].

١٠ ـ «خَلَقَ السَّماواتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ...»[٧] فقال: [خلق الأرض كوّرها].

١١ ـ «وَلايُشْرِكُ في حُكْمِهِ أَحَداً»[٨] فقال: [سبحانه أن يستشير في أمره أحداً].

١٢ ـ «إذْ بَعَثَ فيهِمْ رَسُولاً»[٩] فقال: [وإذ بعث به الأب للعالمين].

١٣ ـ «سُبْحانَ اللهِ رَبِّ الْعالَمينَ»[١٠] فقال: [سبحانه ربّ العالمين].

١٤ ـ «وَالَّذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنّاتٍ تَجْري مِنْ تَحْتِها الأَنْهارُ خالِدينَ فيها أَبَداً»[١١] فقال: [أمّا الذين آمنوا بالله ومسيحه فلهم مغفرةٌ وجنّات نعيم خالدين فيها أبداً].

ونجده أحياناً يصنع جملة من جمع آيتين وإليك مثالين:

أ ـ قوله تعالى «لَنْ يَجْعَلَ اللهُ»[١٢] و«أَمْ يَجْعَلْ لَهُ رَبِّي أَمَداً»[١٣] فقال: [لن يجعل الله لهم من أمده بدّاً] ولكنّه لم يوفّق في هذا الجمع وسيأتي التعليق عليها.

---

١ ـ طه ٢٠: ٦١.
٢ ـ البقرة ٢: ١٣٣.
٣ ـ آل‌عمران ٣: ٤.
٤ ـ غافر (المؤمن) ٤٠: ٦٨.
٥ ـ النور ٢٤: ٤٠.
٦ ـ مريم ١٩: ٤٥.
٧ ـ الزمر ٣٩: ٥.
٨ ـ الكهف ١٨: ٢٦.
٩ ـ آل‌عمران ٣: ١٦٤.
١٠ ـ النمل ٢٧: ٨.
١١ ـ النساء ٤: ١٢٢.
١٢ ـ النساء ٤: ١٤١.
١٣ ـ الجنّ ٧٢: ٢٥.

ب ـ قوله تعالى «لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ»[١] و«لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ»[٢] وقد قال: [لهم مغفرة وجنّةُ نعيم].

وبهذا ستكون النسبة المنوية لسرقاته من القرآن في صفحة (التجسد) لوحدها ٧٣٪!

ثانياً: لو أنّنا حذفنا هذه الآيات القرآنية التي طعّم كلامه بها لتبين لكلّ عاقل بشكل واضح وجلي، أنّ باقي كلامه مهلهل ركيك واه كبيت العنكبوت، وهذا الأمر يشعر به كلّ قارئ لهذه الصفحات. فبينما يشعر الإنسان حين يتلو الآيات القرآنية التي اقتبسها أنّها في أعلى درجات البلاغة فإذا وصل إلى كلام الكاتب شعر بالهبوط من تلك القمّة الشامخة في البلاغة إلى حضيض من الكلام المضطرب الركيك. ولو قارنت كلامه هو بعد حذف الآيات بكلام أُدباء العرب المشهورين لوجدته ساقطاً عن منزلة كلامهم بدرجاتٍ كثيرة جدّاً.

فمثلاً لايمكن مقارنته بخطب نهج البلاغة ذات الفصاحة العجيبة والمضامين الحكمية الراقية ولابكلام الإمام علي بن الحسين السجاد عليه السلام في أدعيته الموسومة بالصحيفة السجادية حيث تسمو بروح قارئها إلى سماء العظمة والرفعة.

ومن الواضح أنّ كلام هذا الكاتب لايبلغ عُشر معشار تلك الخطب والأدعية الرائعة ورغم ذلك فلم يدّع أحد أنّ خطب نهج البلاغة أو أدعية الصحيفة السجادية تشبه آيات القرآن الكريم بل غاية ما قيل فيها: (إنّها فوق كلام المخلوق ودون كلام الخالق). فإذا كان كلام هذا الكاتب لايرقى إلى خطب نهج البلاغة فكيف وأنّىٰ له أن يرقى إلى آيات القرآن الكريم؟!!!

«كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْواهِهِمْ».[٣]

ثالثاً: لو أنّ شاعراً نظم قصيدة وأورد فيها شطراً واحداً من قصيدة لشاعر آخر دون

---

١ ـ الحج ٢٢: ٥٠.
٢ ـ لقمان ٣١: ٨.
٣ ـ الكهف ١٨: ٥.

الإشارة لذلك ـ بأن يضعها بين قوسين أو يشير لذلك في الهامش مثلاً ـ فإنّ الأُدباء يسمّونه سارقاً ويسقط من أعينهم.

أمّا لو سرق عدّة أشطر أو أبيات من قصائد شاعر آخر، فستلحقه الفضيحة والعار أمام أُدباء الدنيا. هذا إذا لم يكن في مقام التحدّي للشاعر الذي سرق منه... أمّا لو عرض قصيدته تلك متحدّياً بها نفس الشاعر الذي سرق منه تلك الأشطر فإنّه سيكون موضعاً للسخرية والاستهزاء من قبل الأُدباء والشعراء والحكماء والعقلاء.. وهكذا بالنسبة لكاتب الصفحات الأربعة عبر (الإنترنيت) فإنّه قد سرق آيات كثيرة من القرآن الكريم ووضعها بين كلامه دون إشارة للاقتباس من القرآن الكريم بل زعم أنّها من كلامه وإنشائه فنسبها لنفسه. ثمّ جاء ليتحدّى نفس القرآن الذي سرق منه تلك الآيات متصوّراً أنّ حيلته تنطلي على الناس وكأنّه يعيش بعقلية القرون الوسطى وبهذا فقد جعل نفسه أُضحوكة ومسخرة للمنكتين والمتفكّهين، وفضح نفسه وأوضح عن جهله.

رابعاً: نحن نعلم أنّ القرآن الكريم نزل على النبيﷺ خلال ٢٣سنة حيث كانت تنزل الآيات متناسبة مع الحوادث الواقعة في ذلك الزمان وبالرغم من تطاول المدّة التي نزل فيها القرآن الكريم وتغيّر الحوادث المختلفة وكثرة الآيات التي تضمّنها القرآن الكريم فإنّا نجد القرآن الكريم على مستوى واحد من البلاغة والفصاحة والجمال والروعة أوّله كآخره ووسطه، بالإضافة إلى عدم التناقض والتعارض بين آياته. «**وَلَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فيهِ اخْتِلافاً كَثيراً**».[1]

فإنّها موافقة للعقل والعلم رغم تطوّر الزمان وتقدّم الكشوفات العلمية كما صرّح بذلك علماء الغرب أنفسهم. فقد أثبت الدكتور الفرنسي موريس بوكاي في كتابه (التوراة، الإنجيل، القرآن والعلم) بعد دراسة طويلة أنّ القرآن هو الوحيد الموافق لآخر الكشوف

١ ـ النساء ٤: ٨٢.

العلمية.

وقال الفيلسوف الإنجليزي برناردشو في المقدّمة الثالثة من كتاب Getting to Marriage: (إنّ الأُمة الإنجليزية ستضطرّ إلى اتخاذ الإسلام ديناً لها لأنّه الدين الوحيد الذي يساير التقدّم المطّرد للعلم).

أمّا كاتب الصفحات الأربعة فعلى الرغم من قلّة الصفحات التي سطّرها ورغم أنّه قد نشرها في وقتٍ واحد فإنّك تشاهد:

أ ـ التناقضات الكثيرة بين كلماته ممّا لا يصدر عن عاقل يفهم ما يقول.

ب ـ مناقضتها لصريح العقل وواضح البداهة.

ج ـ مناقضة أقواله لتعاليم إنجيله الذي يدعو إليه.

د ـ ارتكابه للأخطاء الكثيرة.

هـ ـ ضحالة الأفكار التي طرحها.

ولعلك تطالبني بالدليل على ذلك من كلامه، فأقول:

أمّا عن التناقض بين كلامه، فخذ بعض الأمثلة عليه:

مثال (١): قال في (التجسد) الفقرة (٦): [سبحانه ربّ العالمين أن يتخذ من خلائقه ولداً] والعبارة صريحة في نفي كون الله والداً لأحد بحيث يكون ذلك ولداً له، ولكنّه ناقض هذا الكلام ثلاث مرّات، ففي نفس الصفحة:

١ ـ في الفقرة (٩) حيث يقول: [وإذ بعث به الأب].

٢ ـ في الفقرة (١٢) حيث يقول: [وإلى أبيه السماوي].

٣ ـ وناقضها أيضاً في الصفحة الثانية التي سمّاها (الايمان) في الفقرة (٩) حيث قال: [أنت هو ابن الله حقّاً].

مثال (٢): قال في (التجسد) الفقرة (٧): [ليس المسيح خليفة الله إذ كان مع الله قبل البدء وهو معه أبداً] والعبارة صريحة بأنّ الله لم يخلق المسيح بل كان هناك منذ الأزل

وإلى الأبد إلهان اثنان هما الله والمسيح وأنّ المسيح كان مع الله أبداً وسيكون معه أبداً. ثمّ يضيف عبارة أُخرى في الفقرة (٨) هي: [مع روح قدسه] لتصبح الآلهة ثلاثة هم: الله والمسيح وروح القدس.

ولكنّه ناقض هذا الكلام بمناقضتين:

المناقضة الأُولى: في آخر الفقرة (٨) حيث يصف هؤلاء الآلهة الثلاثة بأنّها: [إلٰهاً سرمدياً واحداً أحداً].

فبعد أن وصفهم بأنّهم ثلاثة جاء ووصفهم بأنّهم (إلٰهاً واحداً أحداً) فهل تراه يفهم مايقول؟ وهل خفي عليه من الحساب والرياضيات مالايخفى حتى على الأطفال؟!!!

والمناقضة الثانية:

١ ـ قوله في أوّل الفقرة (٨): [فيه ومنه] وعبارة [منه] تعني أنّ المسيح صدر إلى الوجود من قبل الله وخلقه الله بينما قال سابقاً [ليس المسيح خليقة الله].

٢ ـ وكذلك يناقض قوله [أنت هو ابن الله]. فالابن متولّد عن الأب.

مثال (٣): لقد تناقض كلامه في وصف المسيح بشكل عجيب ومضحك:

١ ـ فتارة يصفه بأنّه هو (الربّ) كما في الفقرات (٢) و(٣) من (الإيمان): [... فقالوا أهو ربّنا... فجاءهم صوت المعلّم... إنّي أنا هو].

والفقرة (٨) من (الإيمان): [وسبّح الحواريون بحمده].

٢ ـ وتارة يصفه بأنّه كان مع الله ولم يخلقه الله كما في الفقرة (٦) من (التجسّد): [ليس المسيح خليقة الله إذ كان مع الله قبل البدء وهو معه أبداً].

٣ ـ وتارة وصفه بأنّه ابن الله كما في الفقرة (٩) من (الإيمان): [أنت هو ابن الله حقّاً].

٤ ـ ورابعاً يصفه بأنّه نبي أرسله الله كما أرسل موسى من قبله وأنّه خاتم الأنبياء كما في (الوصايا) الفقرة (٢): [إنّا أرسلناك للعالمين] والفقرة (٥): [إنّا أعطينا موسى من قبلك من الوصيات عشرة ونعطيك عشرات أُخرى إذ قد ختمنا بك الأنبياء].

فكيف يكون المسيح تارة مع الله أبداً ولم يخلقه الله وتارة هو الله وتارة ابن الله وأُخرى نبيّ أرسله الله كباقي الأنبياء ولكنّه خاتمهم...؟!

نبّئوني بتأويلها أيّها العقلاء... إن كنتم (للخزعبلات) شارحين!!!

وصدق الله العظيم حيث يقول في وصف القرآن الكريم:

«وَلَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فيهِ اخْتِلافاً كَثيراً».[1]

وهناك تناقضات أُخرى في كلامه ربما كانت غير واضحة للجميع نذكر بعضها على وجه السرعة:

قوله في ورقة (الإيمان) الفقرة (٢): [إذ تراءى على المياه لهم طيف المسيح يمشي].

والطيف هو خيال الشيء، أي تخيّل غير الحقيقي أنّه شيء حقيقي ولذلك سمّي المنام طيفاً. إذن كيف يكون الخيال دليل معجزة؟ ثمّ لو فرضنا أنّه معجزة فما علاقة من يمشي على الماء بكونه هو الربّ؟ فما أكثر المعاجز التي حدثت على يد الأنبياء وذكرها الإنجيل ولم يصبحوا عندكم بذلك أرباباً. ثمّ ماعلاقة ذلك بقوله [أهو ربّنا يهزأ بنا]؟ فهل رؤية المعجزة دليل على استهزائه بهم؟ أين موضع الهزء في ذلك؟

ثمّ إذا كانت شدّة الريح أغرقته وبدأ يغرق ثمّ صاح بربّه يستعين، أيستحقّ مثل هذا الإنسان الذي أغرقته شدّة الريح وهو يستعين بربّه، أن يصفه: [ياقليل الإيمان هذا جزاء الممترين] أي الشاكّين مع أنّه لم يشكّ وإنّما شدّة الريح والخوف أغرقه. فكيف يقال له هذا جزاء الممترين؟

وأمّا صفحة (المسلمون) فإنّه قال: [قل يا أيّها المسلمون إنّ الذين كفروا بالله ومسيحه].

مع أنّ المسلمين آمنوا بالله وآمنوا بالمسيح أنّه نبيّ مرسل من قبل الله وإيمانهم هذا

---

١ ـ النساء ٤: ٨٢.

موافق لما ذكره هو في (الوصايا) عن المسيح أنّه نبيّ مرسل إلى الناس كباقي الأنبياء. فكيف ادّعى بأنّهم كفروا بالله ومسيحه؟!

وقال أيضاً فيها الفقرة (٥) و(٦): [قد أنعمت على الذين من قبلكم بالهدى منزلاً في التوراة والإنجيل، فما كان لكم أن تكفروا بما أنزلت] مع أنّ القرآن يقول: «نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْراةَ وَالإِنْجيلَ مِنْ قَبْلُ هُدىً لِلنّاسِ».[1]

إذن فالمسلمون مصدّقون بالأنبياء وبالتوراة وبالإنجيل التي نزلت على موسى وعيسى. فكيف يزعم كفرهم بهما؟

أمّا عن المناقضات للعقل:

فبالإضافة للتناقض الواضح بين كلامه السابق فإنّه مناقض للعقل أيضا. فكيف يكون مثلاً الشيء واحداً حقيقةً، وثلاثةً حقيقة؟ فإنّ من بديهيات العقل والمنطق بطلان ذلك.

ثمّ إنّ قوله: [ليس المسيح خليقة الله إذ كان مع الله قبل البدء وهو معه أبداً] ثمّ قوله: [إنّه ابن الله حقّاً]، يناقض العقل، لأنّ إطلاق لفظة الابن تدلّ على أنّه كان هناك زمان ولم يكن الابن موجوداً مع الأب ثمّ وجد بواسطة الأب فكيف يقول: إنّه كان مع الله أبداً؟

وإذا كانا موجودين معاً أبداً، إذن ما معنى إطلاق الابن على أحدهما والأب على الآخر؟

ثمّ وصف المسيح تارة بأنّه الله وتارة بأنّه نبيّ الله كباقي الأنبياء أرسله الله للعالمين، لا يمكن أن يقبله عقل عاقل أبداً. لأنّ المُرْسِل لابدّ أن يكون مغايراً للرسول فلا يمكن أن يكون المُرسِل والرسول واحداً إلّا إذا أصبحنا مثل الكاتب بغير عقل.

ثمّ وصف المسيح بالتجسّد غير معقول: فقد زعم في الفقرة (٧) من (التجسّد) [إنّ المسيح كان موجوداً مع الله] فإن كان موجوداً بروحه وجسده فلا معنى إذن للتجسد، لأنّ

---

١ ـ آل عمران ٣: ٣-٤.

التفعّل يدلّ على وجود الشيء بعد عدمه والمفروض أنّ جسده كان موجوداً، وإن كـان موجوداً بروحه فقط ثمّ خلق الله جسده في بطن أُمّه مريم وخرج من بطنها جسداً فنقول أنّ كلّ الناس خلق الله أجسادهم بهذه الطريقة في أرحام أُمّهاتهم، فما ميزة المسيح من جهة خلق جسده في بطن أُمّه حتّىٰ يخصّه بفكرة التجسّد؟ وإذا كان السبب خلقته من غير أب فآدم خلقه الله من غير أب ولا أُمّ.

ثمّ لوكان في التجسّد فضل وشرف ومـجد فـلماذا اخـتصّ بـه الابـن دون الأب السماوي مع أنّه سمّاهما إلٰهاً واحداً أحَداً كما مرّ؟ ثمّ كيف يموت الإلٰه فداء عن الإنسان والموت فناء ولايعقل فناء الإلٰه؟! بالإضافة لمناقضته للفقرة (٧) [كان مع الله قبل البدء وهو معه أبداً] ولقوله [سرمدياً].

وأمّا عن مناقضتها للإنجيل فإليك نماذج منها:

أ ـ لقد وصف المسيح بأنّه (إله) مع أنّ الأناجيل تعترف بأن الله إله المسيح (كما في إنجيل يوحنا ٢٠:١٧ ومتى ٢٧:٤٦ ومرقس ١٥:٣٤) وفي يـوحنا ١٧:٣٤ اعـتراف بأنّ المسيح لايعلم مايعلمه الله ولايقدر إلّا على ماأعطاه الله إيّاه وأنّ الحياة الأبدية أن يعرفوا الله بأنّه إله حقيقي وحده وأنّ يسوع هو المسيح الذي أرسله.

ب ـ قوله [إذ قد ختمنا بك الأنبياء].

مع أنّ المسيح قال (كما في إنجيل يوحنا الإصحاح ١٤:١٦): (وأنا أطلب من الأب [أي الربّ] فيعطيكم معزياً آخر ليمكث معكم إلى الأبد). أي أنّ هناك شخص آخر سيأتي وهو خاتم الأنبياء، وذلك لقوله (ليمكث معكم إلى الأبد) وهذا يعني أنّه لايأتـي بـعده شخص آخر.

علماً بأنّ الكلمة الأصلية في الأناجيل القديمة هـي (بـيريكليتوس) اليـونانية أو (الفارقليط) والتي ترجمتها (أحمد) وليست (باركليتوس) التي تعني المعزي.

وفي الإصحاح ١٦ يوحنا سطر ٦ ـ ١٥ (لكنّي أقول لكم الحقّ أنّه خير لكم أن أنطلق

لأنّه إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزي).

وتفسير المعزي بروح القدس غير صحيح لأنّ روح القدس كان موجوداً مع المسيح أمّا هذا المعزّي فإنّه لا يأتي إلّا بعد ذهاب المسيح.

ولذلك يقول (وليم مور) في كتابه (تاريخ وليم مور) طبع عام ١٨٤٨ م ص ٥٤: إنّ المسيحيين كانوا ينتظرون الرسول المنتظر. وهناك من ادّعى أنّه هو الفارقليط وأتبعه المسيحيون مثل (منتسي) ادعى عام ١٨٧ أنّه هو الرسول الذي أخبر عنه المسيح.

إذن فأهل القرون السابقة كانوا يفهمون أنّ البارقليط إنسان ورسول وليس ملكاً.

ج ـ ويقول في صفحة (الإيمان) الفقرة ٩ مخاطباً المسيح [أنت ابن الله حقّاً... وأمامك نخر ساجدين].

والمسيح عليه السلام قد تنبّأ في الإنجيل بأنّ الناس سوف يعبدونه بالباطل. ففي إنجيل متى الإصحاح ٩:١٥ (وباطلاً يعبدونني وهم يعلمون تعاليم هي وصايا الناس).

أي أنّ عبادة المسيح ليست من تعاليم الله ووصاياه بل هي من وصايا الناس الباطلة.

وأمّا عن ارتكابه للأخطاء، فإليك نماذج منها:

أ ـ من الأخطاء النحوية:

قال في صفحة (الوصايا) الفقرة ١٥ [فاطلب إليك جبريل يأتيك ساعياً مأموراً].

وهذا خطأ والصحيح أن يقول: (يَأْتِكَ) لأنّه جواب الطلب فيكون مجزوماً بحذف حرف العلّة.

ثمّ إنّ السعي: للمشي على الأرض، وأمّا جبريل فإنّه ملك يطير.

ب ـ من الأخطاء اللغوية:

قوله في الفقرة ١٧من صفحة (المسلمون): [ماظللنا أنفسنا].

والصحيح (ماأظللنا) لأن (ضل) لازم و(أضل) هوالمتعدّي.

ج ـ من الأخطاء المعنوية:

وقال في الفقرة: ١ من (التجسّد): [خلق السماوات فلم يجعل لها حدّاً].

فإنّ السماوات التي خلقها الله وماتحويه من النجوم والكواكب محدودة مهما كانت واسعة. لأنّ كلّ شيء مخلوق في الكون لابدّ أن يكون له حدّ خلقه الله فيه فلا يتعدّى حدوده، والشيء الوحيد الموجود غير المحدود هو الله سبحانه وتعالى.

د ـ استخدامه لكلمات لامعنى لها:

١ ـ قوله في الفقرة: ٨ من (التجسّد): [فيه ومنه] مع أنّ كلمة (فيه) قد أقحمها بلامعنى.

٢ ـ قوله في الفقرتين ١٣ و ١٤ من (التجسّد):

[إنّ الذين كفروا بآياته وقالوا قولاً إدّاً (١٣) لن يجعل الله لهم من أمده بدّاً (١٤)].

فالفقرة (١٤) التي وضعنا تحتها خطّاً ليس لها معنى مطلقاً سوى ترصيف الكلمات من دون تفكير في معناها.

وأمّا عن ضحالة الأفكار التي طرحها

فقد دعا للشرك بدلاً من التوحيد بإثبات أنّ الله ثلاثة!!

ودعا لعبادة المسيح بدلاً عن عبادة الله!! وأشار إلى تجسيد الله!!

«سُبْحانَهُ وَتَعالىٰ عَمّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبيراً».[1]

وطرح فكرة (الفداء)! التي تشجّع الناس على ارتكاب الجرائم بحجّة أنّ المسيح يتحمّل خطاياهم، وفيها اتهام للعدالة الإلهية حيث يحاسب شخص بما يفعله الناس جميعاً ويجعله لعنة بدلاً عنهم كما عن بولس في ثالث غلاطية ١٣ فكيف يجعل الله المسيح ملعوناً بأمرٍ لم يقترفه هو. تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً.

ثمّ كيف يكون موته لثلاثة أيّام فداءً عن كلّ البشرية رغم أنّ هناك الملايين الذين قتلوا ظلماً لالثلاثة أيّام فقط. ثمّ كيف امتنع عفو الله ورحمته للتائبين من الخطايا ولم تنزل

١ ـ الإسراء ١٧: ٤٣.

رحمته عليهم إلّا بقتل المسيح فداءً؟!

ثمّ إنّ الانجيل في متى: ٢٦ ومرقس: ١٤ ولوقا: ٢٢ يذكر أنّ المسيح لم يكن راضياً وكان يبكي ويصرخ ويطلب من الله كي يخلّصه، فكيف يُجبَر شخص على أن يتحمّل ذنوب الآخرين قسراً وإكراهاً ويُعرَّض للإهانة والاستهزاء ثمّ نسمّيه (بالفداء)!!

سبحان الله إنّه هذيان يخجل الإنسان أن ينسب إليه فكيف بنسبته لقدس الرحمن الحنّان المنّان.

ولو تتبّعنا كلّ تُرَّهاته لطال بنا المقام ولاحتجنا إلى كتابة صفحات طويلة.

ونكتفي بهذا النموذج المضحك ـ أيها المنصفون ـ:

يقول [وإذا أرادوا انتعالاً فليبدأوا باليمين قبل الشمال وإنْ لم يفعلوا فقد اقترفوا ذنباً كبيراً] (الوصايا: ٩).

فإنّ الابتداء باليسار ليس ذنباً حتى يعتبره ذنباً كبيراً!! لافي الأديان ولافي الأعراف ولاعند العقلاء!!

وهكذا لو تأمّلت بقية الوصايا فإنّه سيطول ضحكك وتعجبك مِن هذا الجاهل وهو يحاول أن يتحدّى القرآن العظيم في قوانينه الرائعة الراقية النافعة لصلاح المجتمع والأُسرة والفرد وتنظيم العلاقات الدولية.

والآن تأمّل في مثل قوله تعالى في القرآن «**وَلايَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلىٰ أَنْ لاتَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوىٰ**».[1]

أي لايجرُّكم بغض قوم على أن لاتعدلوا معهم، وقارن ذلك مع وصايا صفحة (الوصايا)!!

و لقد قال شِبْلي شُمَّيْل (الملحد) كلمته المشهورة في وصف القرآن الذي جاء به

---

١ ـ المائدة ٥: ٨.

النبيّ محمدﷺ:

إنّي وإنْ أَكُ قد كفرتُ بدينه هل أكفُرنَّ بمحكم الآيات؟!

وأخيراً نقول للجهات المشرفة على نشر هذه الصفحات: لايوجد هناك أيّ مانع لمن يريد أنْ يُجرِّب حظّه في تحدّي القرآن، بل إنّ القرآن الكريم لازال يتحدّىٰ البشرية ويدعوهم لذلك، وليس فيه إهانة لمشاعر المسلمين.

ولكنّا نقول إنّ التحدّي يحتاج إلىٰ أُسلوب أدبي وبلاغي مع مضامين صحيحة رائعة وراقية..

أمّا التجاسر علىٰ سيّد الكائنات محمدﷺ كما في صفحة (المسلمون) الفقرات ٧ـ٩:

[قالوا ربّنا ما ضللنا أنفسنا بل أظلّنا من ادّعى أنّه من المرسلين (٧) وإذ قال الله يا محمّد أغويتَ عبادي وجعلتهم من الكافرين (٨) قال ربّي إنّما أغوانيَ الشيطان إنّه كان لبني آدم أعظم المفسدين (٩)].

فليس له تفسير سوى الحقد الأسود، والجهل الأعمىٰ... وهذا هو الذي أغضب ملايين المسلمين، فليفهم الذين لايفرّقون بين التّحدّي والتَعدّي.

قم المقدّسة ـ الحوزة العلميّة

ربيع الأغرّ: ١٤٢٠هـق

مقارنة عابرة

وأنّ مقارنة عابرة بين كلامه تعالى النازل قرآناً، وبين كلام أفصح العرب المعاصر للنزول، لتجعل الفرق بيّناً بينهما، وأن لامضاهاة هناك ولاتماثل، كما لاتناسب بين الثريّا والثرى، ذاك نجم لامع وهذه أرض هامدة، لايشبه أحدهما الآخر في شيء ومن ثمّ أذعنت العرب بأنّه ليس من كلام البشر الذي تعارفوه وكان في متناولهم يمارسونه، نعم هو كلام الله الوحي النازل على رسوله، هذا شيء كانوا قد لمسوه.

وقد مرّت عليك نماذج من خُطَب العرب وأشعارهم وكانت من النمط الأرقى المعروفة يومذاك. فإذا ماقارَنْتَها مع آي القرآن الحكيم وأُسلوبه البديع، تجد هذا الفرق بوضوح.

مثلاً، هذا «قسّ بن‌ساعدة الأيادي»[1] ما تزال العرب تفتخر بجلائل خطبه القديمة حتى اليوم، في حين أنّها لاتعدو سرد ألفاظ لافائدة في ذكرها سوى تلفيق سجع أو رعاية وزن، لاغير. وإليك من خطبه: «أيّها الناس، اجتمعوا فاسمعوا وعوا. من عاش مات، ومن مات فات، وكلّ ماهو آت آت. في هذه آيات محكمات، مطر ونبات، وآباء وأُمّهات، وذاهب وآت، نجومٌ تَمُور، وبحور لاتغور، وسقف مرفوع، ومِهاد موضوع، وليل داج، وسماء ذات أبراج. مالي أرى الناس يموتون ولايرجعون؟! أَرَضُوا فأقاموا، أمْ حُبِسوا هناك فناموا. يامعشر إياد، أين ثمود وعاد، وأين الآباء والأجداد، أين المعروف الذي لم يُشكر، والظلم الذي لم ينكر، اَقْسَمَ قُسٌّ قَسَماً بالله، أنّ لله دِيناً هو أرضى من دينكم هذا...».

❊ ❊ ❊

هذا وقد أعجب صاحب كتاب «الإعجاز في دراسات السابقين» هذا الكلامُ العربيّ القديم فقال في وصفه: إنّه ثمرة من ثمار البلاغة العربيّة الطيّبة الناضجة.! وضربه مثلاً لما كان للعرب من خطب مفحمة وحكم رائعة معجبة، يترقرق عليها ماء الحُسن والملاحة، فيها روعة آسرة وجمال أخّاذ... إلى آخرما يقول في تقريض بيان أسلافه أعراب البادية الأقحاح![2]

ولكن... ياترى، أيّة ميزة لهذا الكلام الذي يشبه كلام الكهنة في أسجاع متكلّف بها،

---

١ ـ كان أخطب العرب وكان يضرب به المثل «أخطب من قُسّ بن ساعدة». يقال شهده النبي ﷺ وهو يخطب في سوق عكاظ، وقد اعترفت العرب بفضله وبيانه. راجع البيان والتبيين للجاحظ، ج ١، ص ١٦٣.

٢ ـ الإعجاز في دراسات السابقين، ص ٥٠٣.

وأرداف متمحّل فيها، ليس فيها تلك الروعة والجمال البارع الذي نجده في قوله تعالى من سورة الفجر: «أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعادٍ. إِرَمَ ذاتِ الْعِمادِ. الَّتي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُها في الْبِلادِ. وَثَمودَ الَّذينَ جابُوا الصَّخْرَ بِالْوادِ. وَفِرْعَونَ ذي الْأَوْتادِ. الَّذينَ طَغَوْا في الْبِلادِ. فَأَكْثَروا فيها الْفَسادَ. فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذابٍ. إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصادِ...».[١]

إنّه تعالى ذكر الظالمين وأردف ذكرهم بما يهول من عظيم قدرتهم وخطير فسادهم في الأرض، وأخيراً كان مآلهم إلى سياط الجحيم. «يا أَيُّها الْإِنسانُ إِنَّكَ كادِحٌ إِلى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقيهِ».[٢] «فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ».[٣]

هذا هو أُسلوب القرآن في وعظه الحكيم، يهدّ الإنسان هدّاً، ويهزّ من مشاعره هزّاً، ثمّ يهيمن عليه بسطوة بيانه وقوّة كلامه في كلا تبشيره وإنذاره!

❊ ❊ ❊

وهذا امرؤ القيس، ألمع شعراء الجاهلية، نراه في أجود قصائده، قد ضاق به الكلام حتى لجأ إلى غرائب الألفاظ الوحشيّة غير المأنوسة ولامألوفة الاستعمال، كالعقنقل والسجنجل والكهنبل والمستشزرات وأمثالها ممّا تركها سائر العرب حتى عافتها كتب تراجم اللغة! الأمر الذي عيب على امرئ القيس.

كما عيب استعماله كلمات لاموضع لها ولا مناسبة مع مقصود شعره، قال ـ في مطلع قصيدته المعلّقة ـ:

قفا نبك من ذكر حبيب ومنزل	بسقط اللوى بين الدخول فحومل
فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها	لما نسجتها من جنوب وشمأل

لم يقتنع في وصف المنزل بقوله «بسقط اللوى» حتى أكمل بيان حدوده الأربعة، جنوباً وشمالاً وشرقاً وغرباً، كأنّما يريد بيع منزله، فيخشى أن أخلّ بحدٍّ منه أن يفسد بيعه

---

١ ـ الفجر ٨٩: ٦-١٤.

٢ ـ الانشقاق ٨٤: ٦.

٣ ـ الزلزلة ٩٩: ٧-٨.

أو يبطل شرطه، وما هذا إلّا تطويل بلاطائل، وهو من أكبر معايب الكلام.

وأيضاً فإنّه حاول إبكاء غيره ليرافقه في البكاء على فراق حبيبه، وهذا من السخف في الرأي، أن يدعو الأغيار إلى التغازل مع عشيقته فلايغار، وهل يرضى صاحب حميّة أن يتواجد صديق له على من يهواه؟!

وأخيراً فماوجه تأنيث الضمير في «لم يعف رسمها» العائد إلى المنزل، مؤوّلا إلى الديار، كمازُعم! وهكذا في «نسجتها» بتأويل الريح. وكان الأولى هو التذكير، لأنّ الحمل على المعنى في غير المبهمات (كالموصولات) ضعيف في اللغة.

وأضعف منه زيادة «من» في الإثبات، فإنّه شاذّ في اللغة.

قال ابن هشام: شرط زيادتها تقدّم نفي أو نهي أو استفهام بهل وزاد الفارسي: بعد أداة الشرط أيضاً. نعم أهمله الكوفيّون جريا على طريقتهم في اتباع الشواذ، ولايقاس عليه في الفصيح. قال ابن مالك:

وزيد في نفي وشبهه فجرّ　　　نكرة كما لباغ من مفرّ

واشتراط كون المدخول نكرة قال ابن هشام: لغرض إفادتها توكيد العموم في مثل «أحد» و «ديّار» وهما صيغتا عموم إذا وقعتا بعد النفي وشبهه. وهكذا جاء في القرآن الكريم، نحو «وَما تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَة».[1] «ماتَرىٰ في خَلْقِ الرَّحْمانِ مِنْ تَفاوُتٍ». «هَلْ تَرىٰ مِنْ فُطور».[2]

أما لفظتا «جنوب» و«شمأل» فهما اسما خاص لايفيدان العموم ولاسيّما في الإثبات.

كما أنّ من شأن الرياح أن تعفو الآثار وتمحوها محواً، لاأن تستحكمها وتنسجها نسجاً كما نسجه امرؤ القيس في عقليّته الغائرة!

---

١ ـ الأنعام ٦: ٥٩.　　٢ ـ الملك ٦٧: ٣.

قال الباقلّاني: وضرورة الشعر دلّته على هذا التعسّف![1]

❊❊❊

ذكر السيد صدرالدين المدني بشأن حسن الابتداء، أنّ من شرائطه التأنّق في الكلام فيأتي بأعذب الألفاظ وأجزلها وأرقّها، وأسلسها سبكاً وأتقنها مبنىً وأوضحها معنىً. خالياً من الحشو والركاكة والتعقيد.

قال: وقد أطبق علماء البيان على أنّ القرآن في مفتتحات سوره ومطالع مقاطع آيه، أتى بأحسن وجوه الكلام وأبلغها، وأجودها سلاسةً، وأسبكها نظماً، وأوفاها بغرض البيان، وبذلك قد فاق الأقران.

يدلّك على ذلك مقارنته مع مطالع سائر الكلام من خطب وقصائد فصحاء العرب يومذاك.

هذا امرؤ القيس تراه مجيداً في الشطر الأوّل من مطلع معلّقته، حيث وقف واستوقف، وبكى واستبكى، وذكر الحبيب والمنزل. وهو من كثير المعنى في قليل اللفظ. لكنّه هبط كلامه في الشرط الأخير، حيث أتى بألفاظ لاطائل في ذكرها، سوى الإبعاد عن مقصود الكلام. فلاتناسب بين الشطرين من بيت واحد هو مطلع قصيدة قد جَدَّ فيها جِدّه، فيمازُعم.![2]

وممّا عيب على امرئ القيس أيضاً قوله:

كأنّيَ لم أركب جواداً للذّةٍ ولم أتبطّن كاعباً ذات خلخال

ولم أسبأ الزِّقّ الرويّ، ولم أقل لخيلي كُرّي كرّةً بعد إجفال[3]

فإنّه قابل لفظتين بلفظتين مع عدم التناسب فكان فيه تكلّف.. قاله ابن رشيق.

قال: ومنهم من يقابل لفظتين بلفظتين، ويقع في الكلام حينئذ تفرقة وقلّة تكلّف،

---

١ ـ إعجاز القرآن بهامش الإتقان، ج ٢، ص ١٣-١٥.   ٢ ـ راجع: أنوار الربيع، ج ١، ص ٣٥.

٣ ـ سبأ الخمر: شراها ليشربها. والزّقّ: الخمر. والرويّ من الشّرب: التام المشبع. وإجفال الخيل: نفوره وشروده.

فمن المتناسب قول علي بن أبي طالب عليه السلام في بعض كلامه: «أين من سعى واجتهد، وجمع وعدّد، وزخرف ونجّد، وبنى وشيّد» فأتبع كلّ لفظة مايشاكلها، وقرنها بما يشبهها (وهذا من لطيف الكلام).

قال: ومن الفرق المنفصل قول امرئ القيس، وذكر البيتين...

قال: وكان قد ورد على سيف الدولة رجل بغداديّ يعرف بالمنتخب، لايكاد يسلم منه أحد من القدماء والمحدثين، ولايذكر شعرٌ بحضرته إلّا عابه، وظهر على صاحبه بالحجّة الواضحة، فأنشد يوماً هذين البيتين، فقال: قد خالف فيهما وأفسد، لوقال:

كأنّي لم أركب جوادا، ولم أقل ... لخيلي كرّي كرّة بعد إجفال

ولم أسبأ الزّق الرويّ للذّة ... ولم أتبطّن كاعبا ذات خلخال

لكان قد جمع بين الشيء وشكله، فذكر الجواد والكرّ في بيت، وذكر النساء والخمر في بيت! فالتبس الأمر بين يدي سيف الدولة، وسلّموا له ما قال!

فقال رجل ممّن حضر: ولاكرامة لهذا الرأي، الله أصدق منك حيث يقول: «إِنَّ لَكَ أَلّا تَجُوعَ فيها وَلاتَعْرىٰ. وَأَنَّكَ لاتَظْمَأُ فيها وَلا تَضْحىٰ».[1]

فأتى بالجوع مع العرى ولم يأت به مع الظمأ. فسرّ سيف الدولة، وأجازه بصلة حسنة.

هذا... وقد حاول صاحب الكتاب تبرير موقف امرئ القيس في تفرقته هذه غير المتناسبة، وأتى بتكلّف وتأويل ظاهرين...

وأمّا الآية الكريمة فقد فنّد مزعومة القائل بأنّها نظيرة البيتين، قال: وأمّا احتجاج الآخر بقول الله عزّوجلّ فليس من هذا في شيء لأنّه تعالى أجرى الخطاب على مستعمل العادة، وفيه مع ذلك تناسب، لأنّ العادة أن يقال: جائع عريان، ولم يستعمل في هذا الموضع عطشان ولاضمآن. وقوله تعالى: «تظمأ» و«تضحى» متناسب، لأنّ الضاحي

---

١ ـ طه ٢٠: ١١٨-١١٩.

هوالذي لايستره شيء عن الشمس، والظمأ من شأن من كانت هذه حاله.[١]

وأيضاً قوله:

وهــرّ تـصيد قـلوب الرجــال وأفلت منها ابـن عـمرو حُـجُر

قال ابن رشيق: وقد يأتي القدماء مـن الاسـتعارات بأشـياء يـجتنبها المـحدثون ويستهجنونها، ويعافون أمثالها ظرفا ولطافة، وإن لم تكن فاسدة ولامستحيلة، فمنها قول امرئ القيس ـ وذكرالبيت ـ قال: فكان لفظة «هرّ» واستعارة الصيد معها مضحكة هجينة، ولو أنّ أباه حُجرا من فارات بيته ما أسف على إفلاته منها هذا الأسف.

قال: وأين هذا من استعارة زهير حين قال يمدح:

ليث بــعثّر يــصطاد الرجــال إذا ماكذّب الليث عن أقرانه صـدقا

لاعلى أنّ امرأالقيس أتى بالخطأ على جهته ولكن للكلام قرائن تحسنه، وقـرائـن تقبحه كذكر الصيد في هذين البيتين.[٢]

قال: ومثل قول امرئ القيس في القبح قول مسلم بن الوليد:

وليـلة خُـلست للـعين مـن سـنة هتكت فيها الصبا عن بيضة الحجل

فاستعار للحجل ـ يعني الكلل ـ بيضة، كما استعارها امرؤ القيس للخدر في قوله:

وبـــيضة خـدر لايـرام خـباؤها تمتّعت من لهوٍ بـها غـير مـعجل

وكلاهما يعني المرأة، فاتّفق لمسلم سوء الاشتراك في اللفظ، لأنّ بيضة الحجل من الطير تشاركها، وهي لعمري حسنة المنظر كما عرفت...[٣]

ثمّ ذهب في بيان الاستعارة وأنّها من محاسن الكـلام إذا وقـعت مـوقعها فـنزلت موضعها وهي كثيرة في القرآن.[٤]

وكذا قوله في التشبيه لغرض المبالغة في التهويل:

---

١ ـ العمدة، ج ١، ص ٢٥٨-٢٥٩.

٢ ـ المصدر، ص ٢٧١.

٣ ـ المصدر، ص ٢٧٢.

٤ ـ المصدر، ص ١٧٥-٢٦٨.

أيـــقتلني والمشـــرفيّ مـضاجعي ومســـنونة زرق كأنــياب أغـوال

وقد جاء نظيره في القرآن لغرض المبالغة في التقبيح:

«طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ».[١]

غير أنّ المشبّه به وقع في القرآن معرّفا وفي البيت منكراً، وهذا من عيب الكلام، إذ لاتهويل بشيء مجهول غيرمعروف. أمّا الآية فقد جاء التشبيه فيها بما لايشك أنّه منكر قبيح...[٢]

وكذلك في كثير من أشعاره نقد كثير، ذكره أهل الصناعة عرضا وفي طيّ كلامهم عن نكات ودقائق شعريّة أو أدبيّة، وربّما أتوا بشعر امرئ القيس وأضرابه مـثلا، ولو أرادود غرضا لأصابوا منه الكثير في الكثير... هذه حالة ألمع شعراء الجـاهلية وعـظيم العـرب فصاحة وبياناً... ضربناه لك مثلاً، وعليه فقس من سواه...

أمّا القرآن الكريم فقد مضت عليه قرون متطاولة، وحاولت خصومه الكثير النيل منه بشتّى الوسائل والحيل، فهل ساعدهم التـوفيق أم بـاؤوا بـالخيبة والفشـل صـاغرين، وأصبحوا اُلعوبة إخوانهم الشياطين واُضحوكة الإنس والجنّ أجمعين!

❊ ❊ ❊

هذا... وقد تحمّس صاحب الدراسات[٣] لهكذا أشعار ساقطة وتافهة في نفس الوقت وقد أخذته الحميّة الجاهليّة الأُولى، فقام مدافعاً عن موقف شاعر مستهتر خليع قـضى حياته الكدرة في البذخ والترف والابتذال الشنيء...

إنّه صوّر من امرئ القيس شخصيّة تأريخية لامعة، قد حشّد في معلّقته الحياة العربيّة كلّها، ماتراه العين، ومايننبض به القلب، وما تقلّه الأرض، وماتسوقه السماء... وفي معلّقته مشاهد للحياة، كأنّك في مركب من مراكب الفضاء تطوف في الدنيا في مشارق الأرض

---

١ ـ الصافّات ٣٧: ٦٥. ٢ ـ العمدة، ج ١، ص ٢٨٨.

٣ ـ عبدالكريم الخطيب في كتابه (الإعجاز في دراسات السابقين)، ص ١٣٠ فمابعد.

ومغاربها في لحظات!

قال: وأقف بك عند مشهد صغير من تلك المشاهد التي تحفل بها هذه المعلّقة. في هذا المشهد يحدّث امرؤ القيس عن نفسه، حين وقف على أطلال الديار التي كانت يوماً ما تضمّ محبوبته فهاج ذلك ذكريّات كثيرة عنده، كان أشدّها يوم ارتحلت مع قومها وهم يرتحلون، فوقف كما يقف المرء على ميّت عزيز له، يقول:

كأنّي غداة البين يوم تحمّلوا لدى سمرات الحيّ ناقف حنظل.[1]

قال: إنّك تجد من كلّ كلمة من هذا البيت مطلعا من مطالع الروعة، ومدخلاً يدلف بك إلى مشهد من مشاهد الإنسان في صراعه مع عواطفه، فلا تملك من نفسك إلّا أن تعطف على تلك النفوس التي ذهب بها الوجد وأحرقها الأسى!

قلت: ولعلّ صاحبنا هذا هوناقف حنظل هواجسه، فجعل يهذو عن أبيات لاعذوبة فيها ولاروعة ولاجمال، وإنّما هي بيداء قاحلة لاغضاضة فيها ولاطراوة. والمعنى الذي أراده مفهوم عامّ يتصوّره كلّ عامّيّ مسترسل.

***

وذكر ابن رشيق بشأن المبالغة: أنّ الناس مختلفون فيها، فمنهم من يؤثرها ويقول بتفضيلها ويراها الغاية القصوى في الجودة، كما قيل: أشعر الناس من استجيد كذبه[2] ومنهم من يعيبها وينكرها ويراها عيباً وهُجنة في الكلام.

قال بعض الحذّاق بنقد الشعر: المبالغة ربما أحالت المعنى ولبّسته على السامع، فليست لذلك من أحسن الكلام ولاأفخره، لأنّها لاتقع موقع القبول كما لايقع الاقتصاد وماقاربه، لأنّه ينبغي أن يكون من أهمّ أغراض الشاعر والمتكلّم أيضاً الإبانة والإفصاح وتقريب المعنى على السامع، فإنّ العرب إنّما فضّلت بالبيان والفصاحة وحلا منطقها في

---

١ ـ البين: الفراق. والسّمرة: شجرضخم له شوك. وناقف الحنظل: هو الذي يشقّ الحنظل ليخرج ثمره المرّ.

٢ ـ نسبه ابن رشيق إلى نابغة بني ذبيان.

الصدور وقبلته النفوس لأساليب حسنة، وإشارات لطيفة، تكسبه بياناً وتصوّره في القلوب تصويراً.

فمن أحسن المبالغة وأغربها عند الحذّاق: التقصّي، وهو بلوغ الشاعر أو المتكلّم مايمكن من وصف الشيء، كقول عمروبن الأيهم التغلبيّ:

ونكرم جارنا مادام فينا ... ونتبعه الكرامة حيث كانا

ومن أغربها أيضاً ترادف الصفات، وفي ذلك تهويلٌ مع صحّة لفظ لاتحيل معنىً، كقول الله تعالى:

«أَوْ كَظُلُماتٍ في بَحْرٍ لُجّيٍّ يَغْشاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحابٌ ظُلُماتٌ بَعْضُها فَوْقَ بَعْضٍ».[1]

فأمّا الغلوّ فهو الذي ينكره من ينكر المبالغة... ويقع فيه الاختلاف، من ذلك قول امرئ القيس:

كأنّ المدامَ وصوبَ الغمام ... وريحَ الخزامى ونشرَ القُطُر

يُعَلُّ به بردُ أنيابها ... إذا غرّد الطائر المستحر

فوصف فاها بهذه الصفة سحراً عند تغيّر الأفواه بعد النوم، فكيف تظنّها في أوّل الليل؟! فقد بالغ وأتى بالمستحيل، فكان كذباً صريحاً وهجنة في الكلام. ومثل ذلك قوله يصف ناراً:

نظرت إليها والنجوم كأنّها ... مصابيح رهبان تُشَبُّ لقُفّال

وفيه من الإغراق مايلحقه بالمستحيل، يقول: نظرت إلى نار هذه المرأة تشبّ لقفّال، والنجوم كأنّها مصابيح رهبان. وقد قال:

تنوّرتها من أذرعات وأهلها ... بيثرب أدنى دارها نظر عال

---

١ ـ النور ٢٤: ٤٠.

وبين المكانين بُعد أيّام، وإنّما يرجع القُفّال من الغزو والغارات وجه الصباح، فـإذا رأوها من مسافة أيّام وجه الصباح وقد خمد سناها وكـلّ مـوقدها فكـيف كـانت أوّل الليل؟!! وشبّه النجوم بمصابيح الرهبان، لأنّها في السحر يـضعف نـورها كـما يـضعف نورالمصابيح الموقدة ليلها أجمع، لاسيّما مصابيح الرهبان، لأنّهم يكلّون من سهر الليل فربّما نعسوا ذلك الوقت.[١]

ومن أبيات الغلو قول مهلهل:

فلولا الريـح أَسْـمِع مـن بـحجر صـليل البـيض تـقرع بـالذكور

وقد قيل: إنّه أكذب بيت قالته العرب، وبين حجر ـ وهي قصبة اليمامة ـ وَبين مكان الوقعة عشرة أيّام، وهذا أشدّ غلوّا من قول امرئ القيس في النار. لأنّ حاسّة البصر أقوى من حاسّة السمع وأشدّ إدراكاً...

ومنها قول النابغة في صفة السيوف:

تَـقُدُّ السـلوقيَّ المـضاعف نسـجُه ويوقدن بالصُفّاح نـار الحـباحب[٢]

وقد عيب على امرئ القيس ـ في شعره الآنف ـ مضافاً إلى غلوّه في المبالغة، تعبيره عن أسنان حبيبته بالأنياب، لأنّها أوّلاً اسم للسنّ خلف الرباعيّة، وليست مطلق الأسنان. وثانياً أكثر استعمال الأنياب في الحيوانات الضارية المهولة، كما شبّه هوالسهام المسنونة بأنياب الأغوال في قوله:

أيقتلني والمشرفيّ مضاجعي ومسنونة زرق كأنياب أغوال

واستعار بعضهم الأنياب للشّرّ، أنشد ثعلب:

أفـرُّ حِـذار الشّـرّ، والشـرّ تـاركي وأطـعنُ فـي أنـيابه، وهـو كـالح[٣]

وهكذا قُبّح تشبيه امرئ القيس بَنان حبيبته بالديدان الحـمر الدقـاق تـعيش فـي

---

١ ـ العمدة، ج ٢، ص ٥٣-٥٦.
٢ ـ المصدر، ص ٦٢.
٣ ـ كالح وجهه: عبس وتكشّر.

الرمال، في قوله:

وتعطُو برخْص غير شَثْن كأنّه أساريعُ ظبي أو مساويك إسحِلِ[١]

شبّه بنانتها بالأُسروعة (دودة في الرمل) ليناً، وبياضاً، وطولاً، واستواءً، ودقّة، وحمرة رأس. قال ابن رشيق: كأنّه ظفر قد أصابه الحنّاء. وربّما كان رأسها أسود...

قال: إلّا أنّ نفس الحضري إذا سمع قول أبي نؤاس:

تعاطيكها كفّ كأنّ بنانها إذا اعترضتها العين صفّ مداري

أوقول الرومي:

أشار بقضبان من الدرّ قُمِّعَتْ يواقيتَ حُمراً فاستباح عفافي[٢]

أو قول ابن المعتزّ:

أشرن على خوف بأغصان فضّة مقوّمة أثمار هن عقيق

كان ذلك أنهش في نفسه وأحبّ إليها من تشبيه البنان بالدود في قول امرئ القيس...!

نعم إذا كان ذلك في الهجو كان قريباً، كقول حسّان:

وأُمّكَ سوداء نوبيّة كأنّ أناملها الحُنْظُبُ

والحنظب ـكقنفذـ بحاء مهملة: دابّة من خَشاش الأرض مثل الخنفساء.[٣] قيل: هو ضرب من الخنافس طويل.[٤]

وهل هذا التشبيه البشع في شعر امرئ القيس في وصف أنامل محبوبته وأسنانها، يشبه شيئاً من توصيفات جاءت في القرآن الكريم للحور العين؟!!

انظر إلى هذا الوصف الجميل:

---

١ ـ تعطوا: تتناول. برخص: أراد بنانا رخصاً ليناً. غير شثن: ليس بخشن. والأساريع: جمع الأُسروعة وهي دودة صغيرة تعيش في الرمال. ظبي: اسم موضع فيه رمل. أسحِل: شجر المخيطا تتخذ من عروقه مساويك كالأراك.

٢ ـ قمّعت المرأة بنانها بالحنّاء: خضّبتها.

٣ ـ الخشاش ـمثلّثةـ: حشرات الأرض. واحدتها خشاشة.

٤ ـ العمدة، ج ١، ص ٢٩٩-٣٠٠.

«وَحُورٌ عِينٌ. كَأَمثال اللُّؤْلُؤِ المَكْنُونِ».[١]

«مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطائِنُها مِن إسْتَبْرَقٍ وَجَنَىٰ الْجَنَّتَيْنِ دانٍ... فيهِنَّ قاصِراتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلاجانٌّ... كَأَنَّهُنَّ الْياقُوتُ وَالْمَرْجانُ».[٢]

«وَمِنْ دُونِهِما جَنَّتانِ... مُدْهامَّتانِ... فيهِما عَيْنانِ نَضّاخَتانِ... فيهِما فاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمّانٌ... فيهِنَّ خَيْراتٌ حِسانٌ... حُورٌ مَقْصوراتٌ في الْخِيامِ... لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلاجانٌّ... مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسانٍ».[٣]

فقد جاء وصف جمالهنّ مقروناً بوصف عفافهنّ، ممّا هو أقرب إلى النفس وأرغب في غريزة حبّ الاختصاص التي جبلت عليها طبيعة الإنسان!

وقول أبي تمّام الطائي، يرثي خالدبن زياد الشيباني في قصيدة يمدح أباه فيها:

ويصعد حتى يظنّ الجهول بأنّ له حاجة في السماء

يريد من الصعود: الرفعة في القدر والمنزلة، لكنّه بنى على تناسي التشبيه فزعم أنّه يحاول الصعود إلى السماء على حقيقته... وهذا التشبيه والتناسي خاليان من أيّ لطف وظرافة!

وقايس بينه وبين قوله تعالى: «إلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصّالِحُ يَرْفَعُهُ»[٤] انظر إلى جرس لفظه ولطف تعبيره...

وقوله تعالى: «رَفيعُ الدَّرَجاتِ، ذُوالْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ».[٥]

كلام خال من التشبيه، لكن ملؤه الأُبّهة والجلال والكبرياء، في حسن النظم وجودة التعبير...

قال ابن رشيق: واستبشع قوم قول الآخر يصف روضاً:

---

١ ـ الواقعة ٥٦: ٢٢-٢٣.

٢ ـ الرحمان ٥٥: ٥٤-٥٨.

٣ ـ الرحمان ٥٥: ٦٢-٧٦.

٤ ـ فاطر ٣٥: ١٠.

٥ ـ غافر ٤٠: ١٥.

كأنّ شقائق النعمان فيه ثياب قد روين من الدماء

فهذا وإن كان تشبيهاً مصيباً، فإنّ فيه بشاعة ذكر الدماء، ولوقال من العصفر [١] مثلاً أو ما شاكله لكان أوقع في النفس وأقرب إلى الأُنس.

وكذلك صفتهم الخمر في حبابها بسلخ الشجاع [٢] وماجرى هذا المجرى من التشبيه فإنّه وإن كان مصيباً لعين الشبه فإنّه غير طيّب في النفس، ولامستقرّ على القلب، ومن ذلك قول أبي عون الكاتب:

تلاعبها كفّ المزاج محبّة لها، وليجري ذات بينهما الأُنس

فتزبد من تيه عليها كأنّها غريرة خِدر قد تخبّطها المسّ [٣]

فلو أنّ في هذا كلّ بديع لكان مقيتاً بشعاً، ومن ذا يطيب له أن يشرب شيئاً يشبَّه بزبد المصروع وقد تخبّطه الشيطان من المسّ...

قال: وكأنّي أرى بعض من لايحسن إلّا الاعتراض بلاحجّة، قد نعى عليّ هذا المذهب، وقال: ردّ على امرئ القيس، ولم أفعل، ولكنّي بيّنت أنّ طريق العرب القدماء في كثير من الشعر قد خولفت إلى ماهو أليق بالوقت وأشكل بأهله...

وقد عاب الأصمعي بين يدي الرشيد قول النابغة:

نظرت إليك بحاجة لم تقضها نظر السقيم إلى وجوه العوّد [٤]

على أنّه تشبيه لايلحق، ولايشقّ غبار صاحبه. ولم يجد فيه المطعن إلّا بذكر السقيم، فإنّه رغب عن تشبيه المحبوبة به، وفضّل عليه قول عدي بن الرقاع العاملي:

وكأنّها وسط النساء أعارها عينيه أحورُ من جآذر جاسم [٥]

---

١ ـ العصفر ـ كقنفذ ـ صبغ أصفر اللون.

٢ ـ الشجاع ـ مثلّث الشين ـ: ضرب من الحيّات. وسلخها: كشط جلدها.

٣ ـ الغرير والغريرة: الشابّ والشابة في مطلع شبابهما لاتجربة لهما في الحياة.

٤ ـ العود: جمع العائدة التي تعود المريض المترقّب لها. ٥ ـ الجآذر: جمع الجوذر، ولد البقرة الوحشيّة.

وسنانُ أقْصَدَه النعاس فـرنّقت ... فـي عـينه سِـنةٌ وليس بـنائم[١]

وأجرى الناس هذا المجرى قول صريع الغواني[٢] على أنّه لم يقع لأحد مثله وهو:

فـلطّت بأيـديها ثـمار نـحورها ... كأيدي الأسارى أثقلتها الجوامع[٣]

فهذا تشبيه مصيب جداً، إلّا أنّهم عابوه بما بيّنت، وإنّما أشار إلى قول النابغة:

ويَخْطِطْن بـالعيدان فـي كـلّ مـنزل ... ويَـخْبَأْن رمّـانَ الثُّـديِّ النـواهِـدِ[٤]

ومثله قول أبي محجن الثقفي في وصف قَيْنَةٍ:

وتـرفع الصـوت أحـيانا وتـخفضه ... كـما يـطنّ ذُبـابُ الروضـة الغـرِدُ[٥]

فأيّ قينةٍ تحبّ أن تُشبَّه بالذباب؟ وقد سرق بيت عنترة وقَلبَه فأفسده.[٦]

* * *

قال ابن رشيق في باب الاعتذار: وأجلّ ما وقع في الاعتذار من مشهورات العرب قصائد النابغة الثلاث، يقول في إحداهنّ:

نُبّئتُ أنّ أبا قابوس أوعـدني ... ولا قرار على زأر من الأسد[٧]

ويقول في الثانية:

فـلا تـتركنّي بـالوعيد كأنّـني ... إلى الناس مطليّ به القار أجرب[٨]

ويقول في الثالثة ـ وهي أجودهن وأبرعهنّ ـ:

فـإنّك كـالليل الذي هـو مـدركي ... وإن خلت أن المُنتأى عنك واسعٌ[٩]

قال: ومن ثمّ تعلّق بهذا المعنى جماعة من الشعراء منهم سلم الخـاسر يـعتذر إلى

---

١ ـ وسنان: من غلبه النعاس. أقصده: طعنه فلم يخطئه. رنّق بالمكان: أقام فيه واحتبس به.

٢ ـ صريع الغواني: مجنونهنّ. كناية عن امرئ القيس.

٣ ـ لطّ الشيء: ستره. وثمار النحور كناية عن الثديين.

٤ ـ نهد الثدي: كعب وانتبر وأشرف. والثّديّ جمع الثدي.

٥ ـ غرّد الطائر: رفع صوته.

٦ ـ العمدة، ج ١، ص ٣٠١-٣٠٢.

٧ ـ زأر الأسد: صات من صدره.

٨ ـ القار: القير.

٩ ـ المنتأى: المبتعد.

المهدي:

وأنت كالدهر مبثوثاً حبائله والدهر لاملجأ منه ولاهرب

قال ابن طاهر:

لأنّك لي مثل المكان المحيط بي من الأرض أنّي استنهَضَتْني المذاهب

قال ابن رشيق: وإلى هذه الناحية أشار أبوالطيّب بقوله:

ولكنّك الدنيا إليّ حبيبة فما عنك لي إلاّ إليك ذهاب

قال: إلاّ أنّه حرّف الكلم عن مواضعه.

قال: واختار العلماء لهذا الشأن قول علي بن جَبَلة:

ومالامرئ حاولته عنك مهرب ولو رفعته في السماء المطالع

بلى هارب لايهتدي لمكانه ظلام ولاضوء من الصبح ساطع

قال: لأنّه قد أجاد، مع معارضته النابغة، وزاد عليه ذكر الصبح. قال: وأظنّه اقتدى بقول الأصمعي في بيت النابغة: ليس الليل أولى بهذا المثل من النهار...[1]

قال: وأفضل من هذا كلّه قول الله تعالى:

«يا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطارِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لاتَنْفُذُونَ إِلاّ بِسُلْطانٍ».[2]

وقال من اعتذر للنابغة: إنّما قدّم الليل في كلامه لأنّه أهول، ولأنّه أوّل، ولأنّ أكثر أعمالهم إنّما كانت فيه، لشدّة حرّ بلدهم، فصار ذلك عندهم متعارفاً...[3]

وعقد ابن رشيق باباً في أغاليط الشعراء والرواة، ذكر فيه مآخذ علماء الأدب على كثير من أشعار القدماء والمحدثين، فكان من ذلك ما أخذوه على قول زهير يصف ضفادع (شربات):

---

١ ـ العمدة، ج ٢، ص ١٧٧-١٧٩.

٢ ـ الرحمان ٥٥: ٣٣.

٣ ـ العمدة، ج ٢، ص ٢٥١.

يخرجن من شربات مـاؤُها طـحلٌ　　　على الجذوع يَخَفْنَ الغمر والغرقا[١]

إذ لاتخاف الضفدعة من الغرق مهما كان غمر الماء! فقد غلط في هذا التوصيف...

واعتذر عنه بأنّه لم يرد خوف الغرق على الحقيقة، ولكنّها عادة من هرب من الحيوان من الماء، فكأنّه مبالغة في التشبيه، كما قال تعالى:

«وَإن كانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبالُ».[٢]

وقال: «وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَناجِرَ».[٣]

والقول فيهما محمول على «كاد». هكذا ذكر الحُذّاق من المفسّرين. مع أنّـا نـجد الأماكن البعيدة القعر من البحار لاتقربها دابّة، خوفاً على نفسها من الهلكة، فكأنّـه أراد المبالغة في كثرة ماء هذه الشربات...[٤]

قلت: فعلى هذا كان كلامه وصفاً للماء لاللضفادع، وعلى أيّ حال فإنّ استهداف هكذا أهداف حقيرة وهابطة كانت حصيلة تضايق آفاق الحياة العربيّة حينذاك، وأين ذلك من سعة آفاق مطالب القرآن ومقاصده العليّة في أوصافه وتشبيهاته و تـمثيلاته. وهـل تناسبٌ بين قول زهير في هذا البيت، والآيـتين الكـريمتين؟!! وإنّـما يـتفاخم الكـلام ويتصاغر، بضخم موضوعه وصغره، وعلوّ مقصوده وسفله. الأمر الذي نجده فرقاً بيّناً بين مقصود الآيتين ومقصود زهير في البيت، بل بين القرآن كلّه وأشعار العرب الجاهلي كلّها!

قال الأصمعي: وأخطأ زهير في قوله ـ في ذمّ الحرب والقتال ـ:

فـتنتج لكـم غـلمان أشأم كـلُّهم　　　كأحمر عاد، ثمّ تـرضع فـتفطم[٥]

حيث شبّه الغلمان المشائيم بعاقر ناقة صالح، الموصوف بالأحمر، واسمه قدار. لكن

---

١ ـ شربات: موضع قرب مكة. طحل الماء: فسد. والجذع: ساق النخلة. الغمر: الماء الكثير. وغمره الماء غمراً: علاه وغطّاه.

٢ ـ إبراهيم ١٤: ٤٦.　　　٣ ـ الأحزاب ٣٣: ١٠.

٤ ـ العمدة، ج ٢، ص ٢٥١.

٥ ـ أشام: مبالغة المشؤوم. وأراد بأحمر عاد: أحمر ثمود، وهو عاقر الناقة، واسمه قداربن سالف يقول: فتولد لكم أبناء في أثناء تلك الحروب كلّ واحد منهم يضاهي في الشؤم عاقر الناقة...

نَسَبَهُ إلى عاد، وهو خطأ، وإنّما هو ثمود.

واعتذر عنه بأنّ ثمود هي عاد الثانية، كماجاء في قوله تعالى:

«وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عاداً الأُولىٰ».[١]

فهل قال تعالى هذا إلّا وثمّ عادٌ أُخرى؟ وهي هلكت بالنمل، من ولد قحطان..

لكن أنصار الأصمعي لا يقرّون هذا الجواب، إذ لا يصادق عليه العارفون بالأنساب والتأريخ ووصف «الأُولى» في الآية معناه السابقة التي كانت قبل ثمود، وليس يدلّ على أنّ هناك عادين. والوصف إنّما أتى به للإيضاح لاللاحتراز.[٢]

وضمّن ابن رشيق باب أغاليط الشعراء باباً ذكر فيه منازل القمر، وعلّل ذلك بأنّه رأى العرب ـ وهم أولع الناس بهذه المنازل وأنوائها ـ قد غلطوا فيها، فقال أحدهم: من الأنجم العزل والرامحة... وقال امرؤ القيس:

إذا ما الثّريّا في السماء تعرّضت   تعرّض أثناء الوشاح المـفصّل[٣]

فأتى بتعرّض الجوزاء، وهكذا كلّ من عُني بالنجوم من المحدثين واستوفى جميع المنازل مخطئ، لاشك في خلافه، لأنّه إنّما يصف نجوم ليلة سهرها، والنجوم كلّها لاتظهر في ليلة واحدة.[٤]

قال الزوزني: يقول: أتيتها عند رؤية نواحي كواكب الثّريا في الأُفق الشرقي... ومنهم من زعم أنّه أراد الجوزاء فغلط وقال الثّريا، لأنّ التعرّض للجوزاء دون الثّريا. وهذا قول محمدبن سلام الجمحي.[٥]

لكن إشكال ابن رشيق متوجّه إلى أُولئك الشعراء الذين ذكروا مواقع النجوم دلائل

---

١ ـ النجم ٥٣: ٥٠.

٢ ـ هامش العمدة، ج ٢، ص ٢٤٦.

٣ ـ التعرّض: الاستقبال وإبداء العرض. والمفصّل: الذي فصل بين خرزه بالذهب أو غيره. يقول: تجاوزت إليها في وقت إبداء الثريّا عرضها في السماء كإبداء الوشاح ـ وهي الجواهر للزينة ـ الذي فصل بين جواهره وخرزه بالذهب أو غيره عرضة.

٤ ـ العمدة، ج ٢، ص ٢٥٢.

٥ ـ شرح المعلّقات للزوزني، ص ١٨.

على أوقات لقائهم للغواني أو سهرهم الليالي على طول الزمان وفي كلّ ليلة باستمرار. الأمر الذي يخالف مطالع النجوم الفصليّة غير المستديمة...

وإذا كان العرب المعنيّون بمطالع النجوم ومغاربها قد أخطؤوا في تمثّلاتهم الشعريّة هكذا أخطاءً فادحة، فما ظنّك بسائر الشعراء وغيرهم من المحدثين؟!

الأمر الذي تحاشا عنه القرآن الكريم، في حين كثرة تعرّضه لمواقع النجوم...

وهذا أيضاً شاهد صدق من آلاف الشواهد على امتياز القرآن عن سائر الكلام وارتفاعه عن نمط كلام العرب الأوائل والأواخر جميعاً.

وذكر ابن الأثير للاعتراض ضروباً ثلاثة:

أحدها: أن تكون فيه فائدة والغالب هو توكيد الكلام وترصينه. وقد ورد في القرآن كثيراً، وذلك في كلّ مورد يتعلّق بنوع من خصوصيّته المبالغة في المعنى المقصود. من ذلك قوله تعالى: «فَلا أُقْسِمُ بِمَواقِعِ النُّجُومِ. وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ. إِنَّهُ لَقرآنٌ كَرِيمٌ»[١] وذلك اعتراض بين القسم وجوابه. وفي نفس هذا الاعتراض اعتراض آخر بين الموصوف وصفته وهو قوله «لَوْ تَعْلَمُون». فذانك اعتراضان كما ترى.

ومثله قوله تعالى: «وَيَجْعَلُونَ لِلّهِ البَناتِ سبْحانَهُ وَلَهُمْ ما يَشْتَهُونَ».[٢]

وهكذا غيرهما من آيات كثيرة في القرآن، كلّها من القسم المفيد فائدة التوكيد.

والضرب الثاني: ما لافائدة فيه كما لا مفسدة فيه أيضاً. من ذلك قول النابغة:

يقول رجال يجهلون خليقتي　　　لعلّ زيادا ـ لا أباً لك ـ غافل[٣]

فقوله «لا أباً لك» ممّا لافائدة فيه ولاحسن ولاقبح.

وهكذا قول زهير:

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش　　　ثمانين حولا ـ لا أباً لك ـ يسأم

---

١ ـ الواقعة ٥٦: ٧٥-٧٧.　　٢ ـ النحل ١٦: ٥٧.

٣ ـ الخليقة: السجيّة.

لكن وردت هذه اللفظة في قول أبي همام حسنة:

«عتابك عنّي ـ لا أباً لك ـ واقصدي».

فإنّه لمّا كره عتابها اعترض بين الأمر والمعطوف عليه بهذه اللفظة على طريق الذمّ.

الضرب الثالث: الاعتراض المفسد وهو المذموم المخلّ بفهم المقصود فيعقّده تعقيداً، وأمثلة ذلك في باب تقديم ما حقّه التأخير وتأخير ماحقّه التقديم كثيرة، وقد أولع بها الشعراء المتكلّفون، فمن ذلك قول بعضهم:

فقد ـ والشك ـ بيّن لي ـ عناء بوشك فراقهم، صرد يصيح[1]

قال ابن الأثير: فإنّ هذا البيت من رديء الاعتراض ما أذكره لك، وهو الفصل بين قد والفعل الذي هو «بيّن لي» وذلك قبيح لقوّة اتّصال «قد» بالفعل المدخول عليه، بحيث يعدّ جزءً متّصلا به.

وأيضا فصل بين المبتدأ الذي هو الشك وبين الخبر الذي هو عناء بقوله «بيّن لي». وفصل بين الفعل الذي هو «بيّن» وبين فاعله الذي هو «صرد» بخبر المبتدأ الذي هو عناء، فجاء معنى البيت كما تراه مشوّها ومشوّشاً، كأنّه صورة مشوّهة قد نقلت أعضاؤها بعضها إلى مكان بعض.[2]

وجعل أيضا يمثّل بأبيات شعريّة من العرب القديم، لعلّنا نأتي عليها وعلى أمثالها في سائر أبواب البلاغة والبديع في قسم الدلائل على إعجاز القرآن، وهو القسم الثاني من الكتاب إن شاء الله تعالى.

ولعلّني في هذا العرض العريض قد أسهبت وخرجت عن حدّ الاعتدال المتناسب مع وضع الكتاب... غير أن تحمّسات قوميّة، وأُخرى سفاسف كلاميّة، ربّما كانت تحاول رفع منزلة كلام العرب الأوائل بما يضاهي سبك القرآن ونظمه البديع... فكان هذا وذاك من

---

١ ـ أصل تركيب الكلام: فقد بيّن لي صردٌ يصيح بوشك فراقهم، والشك عناء.

٢ ـ المثل السائر لابن الأثير، ج ٣، ص ٤٠-٤٨، و ج ٢، ص ٢٢٧.

أخطر الأساليب لوهن موضع إعجاز هذا الكلام الإلهي وخرقه للمعتاد! والعياذ بالله.

هذا مادعاني إلى التكثير من شواهد الباب، وإلّا فلا داعي للتعرّض لأشعار لامحتوى لها ولاوزن في عالم الكلام والاعتبار! والله الهادي.

أجواء مفعمة بالأدب الرفيع أحاطت بعهد نزول القرآن

شعراء مخضرمون

ولعلّنا لم نبالغ إذا قلنا بأنّ العرب الأُول قد حُظُوا من رفعة الأدب وسموّ البلاغة وطلاقة اللسان مالم يُحظَوا فيما بعد من أدوار التأريخ، مهما توسّعوا في الاضطلاع بقواعده والإشادة بمبانيه ومبادئه، إنّهم ـ على بداوتهم ـ كانوا خلصاء وكانوا يعتمدون قرائحهم الضافية وأذواقهم السليمة الصافية، لاتعمّل فيها ولاتكلّف ممّا صنعه المتأخّرون.

كانت البلاغة حينذاك هي بضاعة العرب الوحيدة وصناعتهم الفريدة، ومن ثمّ كانوا قد أحكموا من مبانيها وأتقنوا من أُصولها وفروعها قريحة وسليقةً لادراسةً وتعلّماً، فكانت بالذاتيات الراسخة أشبه منها بالعرضيات الزائلة.

وفي هذا الجوّ المفعم بالأدب الرفيع نزل القرآن الكريم، فبدلاً من أن يسطو عليه المحيط الغالب، نراه قد تغلّب على البلاد، واستولى على معالمها، وهزم أبطالها، وأباد عساكرها، وتسنّم العرش وسيطر على الآفاق.

ونحن في هذا العرض نقتصر على جانب من هذا الجو السائد، جانب الشعر والشعراء ممّن أدركوا الجاهليّة والإسلام، وكانوا على مستوى عال، أصحاب طلاقة بيان وذلاقة لسان، سواء منهم من آمن ومن بقي على جهله القديم، وهم الأقلّ.

وقد عمدنا إلى ألمع شعراء العرب المخضرمين، وفيهم أصحاب المعلّقات والمذهّبات، والشعراء الفرسان، والحكماء، والوصّافون، والهجّاؤون، ومن شاكلهم ممّن كانت القبائل تهاب موقفهم وتخشى ألسنتهم الحداد، وكانوا على قدرة من تصريف الكلام.

نعم كان للشعر والشاعرية مكانة سامية عند العرب، كانوا يهتمّون بشعرائهم كما يهتمّون بقادتهم وزعمائهم في السلم وفي ميادين القتال. كان الشعراء قادة الفكر وقادة السياسة والحرب، كانوا حماة أعراضهم وحفظة آثارهم ونقلة أخبارهم. وكان شاعر القبيلة لسانها الناطق وكاتبها الرسمي (كالصحفي اليوم) في كلّ ما يتعاطونه من تبادل ثقافات وتعرّف حضارات وتدخّلات سياسية وغيرها من شؤون الحياة العامّة. والخلاصة: كان الشاعر يومذاك دعامة الحياة العربيّة في تلك الصحراء الجرداء.

هذا... وقد نزل القرآن مجابهاً بهذا النمط من الأوساط الرفيعة المقام، العالية الشأن، أصحاب حول وقوّة وبيان، فعارضهم فلم يكن منهم سوى استسلام وانقياد أو انهزام وصغار! وإليك من كبرائهم:

١ ـ أعشى بني قيس بن ثعلبة

اسمه ميمون بن قيس بن جندل بن بكربن وائل من ربيعة.

هو أحد الأعلام من شعراء الجاهليّة وفحولهم والبعض يقدّمونه على سائرهم إذا طرب كما يتقدّم امرؤ القيس إذا غضب، والنابغة إذا رَهب، وزهير إذا رغب.[١] ويحتجّ المقدِّمون له بكثرة طواله الجياد وتصرّفه في المديح والهجاء وسائر فنون الشعر والكلام ممّا ليس لسواه. ولم يكن يمدح قوماً إلّا رفعهم ولم يَهْجُ قوماً إلّا وضعهم، لأنّه من أسير الناس شعراً وأعظمهم فيه حظّاً.[٢]

وهو صاحب معلّقة مطلعها:

ما بكاء الكبير في الأطلال وسؤالي ومارَدّ سؤالي[٣]

وله ديوان مخطوط.

---

١ ـ الأغاني، ج ٩، ص ١٢٧.
٢ ـ العمدة، ج ٢، ص ١٨١.
٣ ـ الأطلال: جمع طلل ـ بفتحتين ـ بمعنى الموضع المرتفع والشاخص من الآثار.

وقد سمع الأعشى بمبعث النبيّ ﷺ فقصده بقصيدة يمدحه فيها يريد الإسلام مطلعها:

ألم تغتمض عيناك ليلة أرمدا ... وبتّ كما بات السليم مسهّدا[١]

وماذاك من عشق النساء وإنّما ... تناسيت قبل اليوم صحبة مَهْدَدا[٢]

إلى أن يقول ـ موجّهاً خطابه إلى ناقته ـ:

وآليت لاآوي لهـا من كـلالة ... ولا من حَفىً حتى تلاقي محمداً[٣]

متى تُناخي عند باب ابن هاشم ... تُراحي وتَلْقى من فواضله ندى[٤]

نبيّاً يرى مالاترون وذكرُه ... أغار لعمري في البلاد وأنجدا[٥]

له صدقات ما تغبّ ونائل ... وليس عطاء اليوم مانعه غدا[٦]

أجدك لم تسمع وصاة محمد ... نبيّ الاله حيث أوصى وأشهدا

إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى ... ولاقيت بعد الموت من قد تزوّدا[٧]

ندمت على أن لاتكون كمثله ... فترصد للأمر الذي كان أُرصدا[٨]

وذا النصب المنصوب لاتنسكنّه ... ولاتعبد الأوثان والله فاعبدا[٩]

وسبّح على حين العشيّات والضحى ... ولاتحمد الشيطان والله فاحمدا

وجعل يعدّد من فضائل الأخلاق ومحاسن السلوك...

فلمّا كان بمكة أو قريباً منها اعترضه نفر من قريش فيهم أبوسفيان وكان قد حرّضهم

---

١ ـ الأرمد: الذي يشتكي عينيه من الرمد. والسليم: الملدوغ. والمسهّد: الذي حرم من النوم.

٢ ـ مهدد: اسم امرأة بفتح الميم على وزان دحرج.

٣ ـ لاآوي: لاأشفق ولاأرحم. ويروى: لاأرثي، وهو بمعناه. والكلالة: الإعياء. أي حلفت أن لاأشفق على نفسي تعبها حتى... والحفى: تورّم القدم من كثرة المشي، ومشي بلاخفّ ولانعل.

٤ ـ أناخ الجمل: أبركه. وتناخي من باب القلب أصله: تناوخ. وتراحي أيضا مقلوب تراوح بمعنى تجد الراحة. والندى: الخير.

٥ ـ أنجده: أعانه.

٦ ـ غبّ: بعدَ.

٧ ـ تزوّد: اتخذ زاداً.

٨ ـ أرصد له: أعدّ له.

٩ ـ النسك: العبادة والطاعة.

على إرضائه بالرجوع، خوفاً من أن يسلم على يدي رسول الله ﷺ فيشيع إسلامه، فينصر رسول الله ﷺ على قريش بشعره. فحاولوا ردّه أوّلا بكلام فلم ينفعه، ثمّ جعلوا له مائة من الإبل فأخذها ورجع، قائلاً: لكنّي منصرف فأتروّى منها عامي هذا ثمّ آتيه فأُسلم. قال ابن هشام: فانصرف فمات في عامه ذلك ولم يعد إلى رسول الله ﷺ.[١]

٢ ـ لبيد بن ربيعة العامري

هو أبو عقيل لبيد بن ربيعة من هوازن قيس. قال الزوزني: كان من الشعراء المعدودين في الجاهلية. ومعلّقته هي الرابعة من المعلّقات السبع. وهو يتفوّق على زملائه أصحاب المعلّقات بإثارة تذكارات الديار القديمة وتحديد المحلّات في أثناء السفر، حتّى ليمكن دارس شعره أنّ يعيّن بالاستناد إلى بعض قصائده دليل رحلة من قلب بادية العرب إلى الخليج الفارسي.[٢]

يقال: إنّه عمّر (١٤٥) سنة عاش معظمها ـ (٩٠) سنة ـ في الجاهلية. كان من أشراف الشعراء والفرسان المجيدين. وقد أدرك الإسلام وهاجر وحسن إسلامه، ونزل الكوفة أيّام عمر بن الخطاب فأقام بها حتى مات في أوائل خلافة معاوية.

وكانت الشاعريّة بادية على محيّاه منذ صباه... ذكروا أنّ النابغة الذبياني رآه وهو غلام مع أعمامه وفدوا على النعمان بن المنذر، فتوسّم فيه الشاعريّة، فسأل عنه فنسبوه، فقال له: يا غلام، إنّ عينيك لعينا شاعر، أفتُقرض[٣] من الشعر شيئاً؟ قال: نعم يا عم، قال: فأنشدني، فأنشده «ألم ترجع إلى الدمن الخوالي... الخ». فقال له: يا غلام، أنت أشعر بني عامر، زدني، فأنشده: «طلل حولة في الرسيس قديم... الخ». فضرب بيده على جبينه، وقال: اذهب فأنت أشعر من قيس كلّها.

---

١ ـ سيرة ابن هشام، ج ٢، ص ٢٨؛ وراجع: تأريخ آداب اللغة العربية، ج ١، ص ١١٩.

٢ ـ شرح المعلّقات، ص ٩٠.

٣ ـ قرض الشعر يقرضه ـ من باب ضرب يضرب ـ: قاله.

وأكثر شعره في الجاهلية، فقد شغله القرآن عن الشعر بعد الإسلام. ذكروا أنّ عمر بعث إلى المغيرة بن شعبة وهو على الكوفة، يقول له: استنشد من قبلك من شعراء مصرك ماقالوا في الإسلام. فأرسل إلى الأغلب الراجز العجلي، فقال له: أنشدني، فقال:

أَرجزاً تريد أم قصيداً   لقد طلبت هيّنا موجوداً

ثمّ أرسل إلى لبيد، فقال: أنشدني ما قلته في الإسلام، فكتب سورة من القرآن في صحيفة ثمّ أتى بها وقال: أبدلني الله هذا في الإسلام، مكان الشعر.

فكتب المغيرة بذلك إلى عمر، فنقص من عطاء الأغلب وزاد في عطاء لبيد خمسمائة.

وكان لبيد من أجواد العرب، يقال أنّه آلى على نفسه في الجاهلية أن لاتهبّ صبا إلا أطعم. وكان قد أدامه في الإسلام، كانت له جفنتان يغدو بهما ويروح في كلّ يوم على مسجد قومه فيطعمهم، حتى كان أيّام الوليد بن عقبة، فقرب مهبّ الصبا وهو مملق لايستطيع الوفاء بنذره. فبلغ ذلك الوليد، فبعث إليه مائة بكرة من الإبل، وكتب إليه بأبيات مطلعها:

أرى الجزّار يشحذ شفرتيه   إذا هبّت رياح أبي عقيل... الخ

فلمّا بلغت أبياته لبيداً، قال لابنته: أجيبيه، فلعمري لقد عشت برهة وما أعيي بجواب شاعر، فقالت:

إذا هبّت رياح أبي عقيل   دعونا عند هبّتها الوليدا

إلى أن تقول:

أباوهب جزاك الله خيراً   نحرناها فاطعمنا الثريدا

فعد إنّ الكريم له معاد   وظنّي ـ لا أباً لك ـ أن تعودا

فقال لها لبيد: قد أحسنت، لولا أن استطعمتيه! فقالت: إنّ الملوك لايستحى من مسألتهم. فقال: وأنت يابنيّة في هذه أشعر.

وممّا يستجاد من شعره، قصيدة مطلعها:

ألا كـلّ شـيء مـا خـلا الله بـاطل   وكـــلّ نـعيم لامـحالة زائـل

وكلّ امـرىءٍ يـوماً سـيعلم سـعيه   إذا كشــف عـند الإله المـماصل[1]

قال ابن حجر: وقد ثبت أنّ النبيﷺ قال: أصدق كلمة قالها شاعر، كلمة لبيد هذه.

قال المرزباني في معجم الشعراء: قالها النبيﷺ على المنبر.[2]

ويقال: إنّه لم يقل في الإسلام إلّا بيتاً واحداً، هو:

الحـــمد لله أن لم يأتـــني أجــلي   حتى اكتسيت من الإسلام سروالا

ولكن استهشد ابن هشام في تفسير كلمة «ندّ» بشعر لبيد:

أحـــمد الله فـــلا نِـدَّ له   بيديه الخير ماشاء فعل

قال: وهذا البيت في قصيدة له.[3] ونفي المثل ممّا لا يقول به مشرك.

وله ديوان، مطبوع.

أمّا معلّقته فمطلعها:

عـــفت الديّـار مـحلّها فـمقامها   بـــمنىً تأبّـد غـولها فَـرِجامُها[4]

وهي تشتمل على تصوير قصصي جميل، وكان في تشبيهاته القصصيّة صادقا في عاطفته، وقد أظهر في وصفه مقدرة نادرة في دقّته وإسهابه والإحاطة بجميع صور الموصوف.[5]

ولبيد لم يزل معادياً للإسلام معانداً، فكان ممّن تأخّر في إسلامه، حتّى اضطرّت به الظروف، كسائر كبراء قريش.

---

١ ـ المعصل: وعاء للمَصْل وهو من اللّبن ونحوه ليستخرج ماؤه.

٢ ـ الإصابة، ج ٣، ص ٣٢٧.   ٣ ـ سيرة ابن هشام، ج ٢، ص ١٨١.

٤ ـ عفت أي ذهبت آثارها. المحل من الديار: ما حلّ فيه لأيّام معدودة. والمقام منها: ما طالت الإقامة به. ومنى: موضع غير منى الحرم. تأبّد: توحش. الغول والرجام: جبلان معروفان.

٥ ـ شرح المعلقات، ص ٩٠.

وهو الذي عارضه عثمان‌بن مظعون وهو ينشد في مجلس من قريش، وذلك بعد أن تخلّى عثمان من جوار الوليدبن المغيرة كراهة أن يُذِمَّه مشرك. فصادف في منصرفه لبيداً ينشد هذا الشعر: «ألا كلّ شيء ماخلا الله باطل». فقال عثمان: صدقت. ثمّ قال: «وكلّ نعيم لامحالة زائل». فقال عثمان: كذبت، نعيم الجنة لايزول.

قال لبيد: يامعشر قريش، والله ماكان يؤذي جليسكم، فمتى حدث هذا فيكم؟ فقال رجل من القوم: إنّ هذا سفيه في سفهاء معه، قد فارقوا ديننا، فلا تجدنّ في نفسك من قوله! فردّ عليه عثمان حتى شرى أمرهما[1] فقام إليه الرجل فلطم عينه فخضّرها.[2]

ولمّا كانت سنة التسع وهي سنة الوفود، وقد افتتح رسول الله ﷺ مكة، وفرغ من تبوك، وأسلمت ثقيف وبايعت، أتته وفود العرب مستسلمة من كلّ وجه، لأنّ العرب كانت تربّص بالإسلام أمر قريش، فلمّا دانت له قريش ودوّخها الإسلام وعرفت العرب أن لاطاقة لهم بحرب رسول‌الله ﷺ ولاالبقاء على عداوته، هرعوا يدخلون في دين الله أفواجاً، يضربون إليه من كلّ صوب ومكان.

ومن جملة الوفود وفد بني عامر، وفيهم عامربن الطفيل، وأربدبن قيس، وجبّاربن سلمى. وكان هؤلاء الثلاثة رؤساء القوم وشياطينهم.

فقدم عامر، عدوّ الله، يريد الغدر برسول‌الله ﷺ وقد قال له قومه: ياعامر، أسلم فإنّ الناس قد أسلموا. قال: لقد كنت آليت أن لا أنتهي حتى تتبع العرب عقبي، أفأنا أتبع عقب هذا الفتى من قريش.

فتواطأ عامر مع أربد في قتله ﷺ غيلة، لكنّه لم يوفّق، فقد أصّر على رسول‌الله ﷺ أن يخلو به ليغدر به، لكنّه ﷺ أبى إلّا أن يؤمن بالله أوّلا. فأبى عامر وهدّد رسول‌الله ﷺ قائلا: لأملأنّ المدينة عليك خيلاً ورجالاً، وولّى لوجهه.

---

١ ـ أي اشتد وعظم الجدال.
٢ ـ أي جعل عينه خضراء من شدّة اللطمة.

فلمّا خرجوا من عندهﷺ راجعين إلى بلادهم، حتى إذا كانوا ببعض الطريق، بعث الله على عامر الطاعون في عنقه، فهلك في بيت امرأة من بني سلول. فجعل يقول: أغدّة كغدّة الإبل، وموتاً في بيت سلولية؟!

وأمّا أربد، فلمّا قدم على قومه، قالوا: ما وراءك ياأربد؟ قال: لاشيء، لقد دعانا إلى عبادة لوددت أنّه عندي الآن فأرميه بالنبل. فخرج بعد مقالته هذه بيوم أو يومين معه جمل له يتبعه، فأرسل الله تعالى عليه وعلى جمله صاعقة فأحرقتهما.

وكان أربد بن قيس هذا أخاً للبيدبن ربيعة لأُمّه.

ولمّا بلغ لبيداً ماأصاب أربد من عذاب الله وسخطه، رثاه وبكى عليه في قصائد مطنطنة، وأبيات شعر كثير، يكبر من قدره و يعظّم من شأنه، ممّا يكشف عن خصومته للإسلام الذي أذلّ أعزّة الجاهلية من أهل الشرك والإلحاد.[1]

هذا لبيد، مع شدّة خصومته مع الإسلام وطول معارضته مع المسلمين في أكثر من عشرين عاماً، ومع قدرته الفائقة في نظم الشعر والقريض والإيفاء بكلام فصيح، أنّه لم يستطع بل لم يفكّر يوماً في معارضة القرآن بالبيان.

وأما إسلامه فكان على أثر جدب أصاب مضر، بدعوة النبيﷺ عليهم. فوفد عليه وفد قيس، وفيهم لبيد، فأنشده:

أتيناك يا خير البريّة كلّها لترحمنا ممّا لقينا من الأزل[2]

أتيناك والعذراء تدمي لبانها وقد ذهلت أُم الصبي عن الطفل[3]

فإن تدع بالسقيا وبالعفو ترسل السماء لنا، والأمر يبقى على الأصل[4]

---

١ ـ راجع: سيرة ابن‌هشام، ج ٤، ص ٢١٣-٢١٩.

٢ ـ الأزل ـ بفتحتين ـ: القدم ومالا نهاية له. كناية عن التقدير فيما كان تعتقده العرب في مسألة القدر.

٣ ـ اللبان ـ بفتح الأوّل ـ: الصدر أو خصوص مابين الثديين.

٤ ـ يبقى على الأصل، أي يرجع إلى أصلها قبل الجدب.

وألقــى لكــنيته الشــجاع استكانة　　　مـن الجـوع صـمتا بـالمرء ولانـحل[١]

وروى ابن هشام بإسناده إلى ابن عباس، قـال: بـايع رسـول‌الله ﷺ مـن قـريش وغيرهم، فأعطاهم يوم الجعرانة من غنائم حنين.[٢]

قال ابن‌اسحاق: وأعطى المؤلّفة قلوبهم، وكانوا أشراف الناس، يتألّف بـهم قـومهم. فأعطى من بني قيس جماعة منهم: لبيدبن ربيعة.[٣]

٣ ـ عبدالله‌بن الزبعرى

عبدالله بن‌الزبعرى بن قيس القرشي السهمي. قال ابن حجر: كان من أشعر قريش، وكان شديداً على المسلمين، ومواقفه في الحروب ضدّ الإسلام مشهورة، وكان ذا حنكة ورأي عند قريش. قال المرزباني: كان شاعر قريش.[٤]

قال ابن‌الأثير: وكان من أشدّ الناس على رسول‌الله ﷺ في الجاهلية وعلى أصحابه، وكان يناضل عن قريش ويهاجي المسلمين وكان من أشعر قريش.[٥] وله سـابقة شـعر قديمة، وهو القائل في وقعة الفيل:

تـنكّلوا عـن بـطن مكـة إنّـها　　　كانت قـديما لايـرام حـريمها

لم تخلق الشعرى ليالي حرّمت　　　إذ لاعزيز مـن الأنـام يـرومها

سائل أمير الجيش عنها ما رأى　　　ولسوف ينبي الجاهلين عليمها

---

١ ـ الإصابة، ج ٣، ص ٣٢٧. والاستكانة هي: الذلّ. يريد: أنّ الشجاع يتخلّى عن كنيته، لأنّ التكنية تعظيم. وحال يحول: تحوّل وتحرّك.

٢ ـ الجعرانة: موضع قرب مكة. قال ياقوت: ماء بين الطائف ومكة وهي إلى مكة أقرب. نزلها النبي ﷺ لمّا قسّم غنائم هوازن، مرجعه من غزاة حنين. وأحرم منها. وله فيها مسجد (معجم البلدان، ج ٢، ص ١٤٢). ثمّ جمعت إلى رسول‌الله سبايا حنين وأموالها. وأمر رسول‌الله ﷺ بالسبايا والأموال إلى الجعرانة فحبست بها. أيّام العرب في الإسلام لجرجي زيدان، ص ١١١؛ وراجع: سيرة ابن هشام، ج ٤، ص ١٣٠-١٣١.

٣ ـ سيرة ابن هشام، ج ٤، ص ١٣٥ و ١٣٧ و ١٣٨؛ والإصابة، ج ٣، ص ٣٢٧.

٤ ـ الإصابة، ج ٢، ص ٣٠٨.

٥ ـ أسد الغابة، ج ٣، ص ١٥٩.

ستّون ألفا لم يؤوبوا أرضهم بل لم يعش بعد الإياب سقيمها
كانت بها عاد وجرهم قبلهم والله من فوق العباد يقيمها[١]

وهو القائل يبكي قتلى المشركين ببدر:

ماذا على بدر وماذا حوله من فتية بيض الوجوه كرام

إلى آخر أبياته يرثيهم بأسمائهم.[٢]

وقال في وقعة اُحد:

يا غراب البين أسمعت فقل إنّما تنطق شيئاً قد فُعِل
إنّ للخير وللشرّ مدى وكلا ذلك وجه وقبل
كم قتلنا من كريم سيّد ماجد الجدّين مقدام بطل
ليت أشياخي ببدر شهدوا جزع الخزرج من وقع الأسل
فقتلنا الضِّعف من أشرافهم وعدلنا ميل بدر فاعتدل[٣]

... إلى آخر الأبيات. وهي التي تمثّل بها يزيد بن معاوية حينما أتته رؤوس شهداء الطفّ واُسارى أهل البيت عليهم السلام.

وقال يرثي قتلاهم في قصيدة طويلة مطلعها:

ألا ذرفت من مقلتيك دموع وقد بان من حبل الشباب قطوع[٤]

وقال في يوم الخندق:

حيِّ الديار محا معارفَ رسمها طولُ البلا وتراوح الأحقاب

إلى أن يقول:

جيش عيينة قاصد بلوائه فيه وصخر قائد الأحزاب
لولا الخنادق غادروا من جمعهم قتلى لطير سغّب وذئاب[٥]

---

١ ـ سيرة ابن هشام، ج ١، ص ٥٩.
٢ ـ المصدر، ج ٣، ص ١٦.
٣ ـ المصدر، ص ١٤٣.
٤ ـ المصدر، ص ١٤٨.
٥ ـ المصدر، ص ٢٦٩.

وهكذا لم يدع مناسبة إلّا حمل على المسلمين آخذاً بجانب المشركين.

قال ابن إسحاق: لمّا فتح رسول‌الله ﷺ مكّة، هرب هبيرة بن أبي‌وهب، وعبدالله بن‌الزبعرى، إلى نجران[1] قال: رمى حسّان بن‌ثابت، عبدالله بن‌الزبعرى ـ وهو بنجران ـ ببيت واحد، مازاده عليه:

لاتَعْدَ مَنْ رجلا أحلّك بُغضُه   نجران في عيش أحذّ لئيم[2]

وفي رسالة بجير إلى أخيه كعب يحذّره غضب الرسول ﷺ «إنّ رسول‌الله ﷺ قتل رجالاً بمكة ممّن كانوا يهجونه ويؤذونه، وإن بقي من شعراء قريش كابن الزبعرى وهبيرة بن أبي وهب، قد هربوا في كلّ وجه...».[3]

قال ابن اسحاق: فلمّا بلغ ذلك ابن الزبعرى، خرج إلى رسول‌الله ﷺ فأسلم، وقال حين أسلم:

يا رسول المليك إنّ لساني   راتق مافتقت إذ أنا بور[4]

إذاً أباري الشيطان في سنن   الغيّ ومَن مال ميله مثبور[5]

آمن اللحم والعظام لربّي   ثمّ قلبي الشهيد أنت النذير

إنّني عنك زاجرٌ ثُمَّ حيّاً   من لؤيّ وكلّهم مغرور

وله قصيدة أُخرى أطول منها أيضا قالها حينما أسلم، مطلعها:

منع الرقادَ بلابلٌ وهمومُ   والليل معتلج الرواق بهيم[6]

ممّا أتاني أنّ أحمد لامني   فيه فبتُّ كأنّني محموم

ياخير من حملت على أوصالها   عَيْرانَةٌ سُرُحُ اليدين غَشُوم[7]

---

١ ـ الإصابة، ج ٢، ص ٣٠٨.

٢ ـ يريد: لايفوتنّك عطف من أبغضته أي محمداً رسول‌الله ﷺ يعني: أدرك رحمته إن عدت تائباً ومسلماً.

٣ ـ سيرة ابن هشام، ج ٤، ص ١٤٤.

٤ ـ الراتق: السادّ. والفتق: التمزيق. والبور: الهالك.

٥ ـ المباراة: المجاراة. والسنن ـ بالتحريك ـ: وسط الطريق. والمثبور: الهالك.

٦ ـ البلابل: الوساوس والأحزان. والمعتلج: المضطرب. والبهيم: الذي لاضياء له.

٧ ـ العيرانة: الناقة النشطة. وسرح اليدين: خفيفتهما. والغشوم: التي لاترد عن وجهها.

إنّـــي لمـــعتذر إليك مـــن الذي ‏ ‏ أسديت إذ أنـا فـي الضـلال أهـيم[١]

٤ ـ هبيرة بن أبي وهب

قال ابن إسحاق: وأمّا هبيرة بن أبي وهب المخزومي فأقام بها حتى مـات كـافراً، وكانت زوجته أُمّ هاني بنت أبي طالب، واسمها هند. فلمّا بلغه أنّها أسلمت فيمن أسلمن من نساء قريش، قال مغضباً ومتغيّراً:

أشاقتك هند أم أتاك سـؤالهـا ‏ ‏ كذاك النوى أسبابها وانفتالها

إلى أن يقول:

فـإن كـنتِ قـد تـابعتِ ديـن مـحمد ‏ ‏ وعـــطّفت الأرحـــامَ مـــنك حـــبالُها

فكـوني عـلى أعـلى سـحيق بـهضبة ‏ ‏ مـــــلملةٍ غـــــبراء يـــبسٍ بـــلالُها[٢]

٥ ـ فروة بن مسيك المرادي

كان من وجوه قومه ومن الشعراء الفرسان وأصله من اليمن، وفد سنة تسع أو عشر على رسول الله ﷺ مفارقاً لملوك كندة ومباعداً لهم، رغبة في الإسلام، وقد كانت قبيل الإسلام بين مراد وهمدان وقعة، أصابت فيها همدان من مراد ما أرادوا حتّى أثخنوهم[٣] في يوم يقال له «يوم الردم».

قال ابن إسحاق: وفي ذلك اليوم يقول فروة بن مسيك:

مررن عـلى لفـات وهـنّ خـوص ‏ ‏ يـــنازعن الأعـــنّة يـنتحينا[٤]

فـــإن نـــغلب فـــغلّابون قِـــدما ‏ ‏ وإن نـــغْلَب فـــغير مُـــغلَّبينا

---

١ ـ أسديت: صنعت. وأهيم: أذهب في وجهي متحيّراً.

٢ ـ سيرة ابن هشام، ج ٤، ص ٦١-٦٣. والسحيق: البعيد. والهضبة: الكدية العالية. والململمة: المستديرة. والغبراء: التي عليها الغبار.

٣ ـ أي أكثروا فيهم القتل والجراحات.

٤ ـ لفات: من ديار مراد. وخوص: غائرات العيون. والانتحاء: التعرّض.

ومـــا أنْ طــبّنا جــبن ولكــن ... مــــنايانا وطُـــعمة آخــرينا[١]

كــذاك الدهــر دولتــه ســجال ... تكــرّ صــروفه حــينا فــحينا[٢]

فــبينا مــانُسَرُّ بــه ونــرضى ... ولو لبست غـــضارته ســنينا[٣]

إذا انــقلبت بــه كــرّاتُ دهــر ... فألفــيت الأُلىٰ غُــبِطوا طــحينا[٤]

فــمن يـغبط بـريب الدهـر مـنهم ... يــجد ريب الزمـــان له خــؤونا

فــلوخلد المــلوك إذن خــلدنا ... ولو بـــقي الكـــرام إذن بــقينا

فأفــنى ذلكــم سَــرَوات قــومي ... كــما أفــنى القــرون الأوّليــنا[٥]

وقد تمثّل بهذه الأبيات، شهيد الطّف الإمام أبو عبدالله الحسين بن علي عليه السلام عندما تألّبت عليه كلاب بني أُميّة وبني مروان في وقعة كربلاء.

ولمّا توجّه فروة إلى رسول‌الله صلى الله عليه وآله قال:

لمّـا رأيت مـلوك كـندة أعـرضت ... كالرِّجْل خان الرجلَ عرقُ نَسـائها

قـــرّبت راحــلتي أؤمّ مــحمداً ... أرجوا فـواضـلها وحسـن ثـرائـها

وفي رواية أبي عبيدة: حسن ثنائها.

قال ابن اسحاق: فلمّا انتهى إلى رسول‌الله صلى الله عليه وآله قال له: يا فروة، هل ساءك ما أصاب قومك يوم الرّدم؟ قال: يا رسول‌الله، من ذا يصيب قومه مثل ما أصاب قومي يوم الردم، لايسوؤه ذلك؟! فقال رسول‌الله صلى الله عليه وآله: أما أنّ ذلك لم يزد قـومك فـي الإسـلام إلّا خـيراً. واستعمله النبيّ صلى الله عليه وآله على قبائل مراد وزبيد ومذحج كلّها، وبعث معه خـالدبن سـعيدبن العاص على الصدقة. وأيضاً قال له النبيّ صلى الله عليه وآله ادع النـاس وتألّـفهم، فـإذا رأيت الغـفلة

---

١ ـ طبّنا: أي عادتنا وشيمتنا.

٢ ـ السجال: التداول والمعاودة مرّة بعد أُخرى.

٣ ـ غضارة الشيء: طراوته.

٤ ـ غبطوا: استحسنت أحوالهم. ويقال: طحنت المنيّة القوم: أهلكتهم.

٥ ـ سروات القوم: أشرافهم.

فاغتنمها واغز.

وكان من الصحابة الذين سكنوا الكوفة بعد فتح العراق.[١]

٦ـ عمرو بن معدي كرب

من الشعراء الفرسان. قال جرجي زيدان: هم أكثر شعراء الجاهليّة، لأنّ الفروسيّة والحرب من طبائع أهل البادية، وقلّ من الشعراء من لم يركب أولم يغز. وشاعرنا فارس من فرسان اليمن أو هو فارس اليمن.[٢]

قال ابن حجر: هو فحل في الشجاعة والشعر. قال أبوعمروبن العلاء: لايفضّل عليه فارس في العرب. وكان شاعراً محسناً، وممّا يستحسن من شعره قصديته التي أوّلها:

أمن ريحانة الداعي السميع ... يؤرّقني وأصحابي هجوع

يقول فيها:

إذا لم تستطع شيئاً فدعه ... وجاوزه إلى ما تستطيع

وصله بالزّماع فكلّ أمر ... سَمَا لك أوسَمَوْت له ولوع[٣]

وبعد أن ذاع صيت الإسلام وملأ أرجاء الجزيرة، قصد رسول الله ﷺ في أُناس من بني زبيد، وكان قد قال لقيس بن مكشوح المرادي، حين انتهى إليهم أمر رسول الله ﷺ: يا قيس، إنّك سيّد قومك، وقد ذكر لنا أنّ رجلاً من قريش، يقال له محمد قد خرج بالحجاز، يقول: إنّه نبيّ، فانطلق بنا إليه حتى نعلم علمه، فإن كان نبيّاً كما يقول، فإنّه لن يخفى عليك، وإذا لَقيناه اتّبعناه. وإن كان غير ذلك علمنا علمه. فأبى قيس ذلك، وسفّه رأيه. فركب عمروبن معدي كرب حتى قدم على رسول الله ﷺ فأسلم وصدّقه وآمن به، فرجع

١ ـ سيرة ابن هشام، ج ٤، ص ٢٢٨؛ والإصابة، ج ٣، ص ٢٠٥.

٢ ـ تأريخ آداب اللغة العربية، ج ١، ص ١٤٢ و١٤٧.

٣ ـ الزّماع: المضاء في الأمر والعزم عليه، من أزمع إذا عزم وجزم بالأمر.

إلى قومه فأقام فيهم مسلماً مطيعاً، فلمّا بلغ ذلك قيس بن مكشوح أوعد عمرواً وتحطّم عليه[١] وقال: خالفني وترك رأيي! فقال عمرو في ذلك:

أمرتك يوم ذي صنعاء أمــراً بــادياً رشــده
أمــرتك بــاتقاء الله و المــعروف تــتّعده
خرجتُ من المنى مثل الحُـميّر غـرّه وتـده

... إلى آخر الابيات.

وقال فيه أيضاً:

أعــاذل عـدّتي بـدني ورمـحي وكــلّ مــقلّص سـلسل القـياد

إلى أن يقول:

تــمنّى أن يـلاقيني قُـييسٌ وددت وأيــنما مــنّي ودادي
فـمن ذا عـاذري مـن ذي سـفاه يـرود بـنفسه مـنّي المـرادي
أُريــد حــياته ويـريد قـتلي عذيرك من خـليلك مـن مـراد[٢]

وذكر المفيد في الإرشاد: ولمّا عاد رسول الله صلى الله عليه وآله من تبوك، قدم إليه عمروبن معدي كرب فقال له النبي صلى الله عليه وآله: أسلم يا عمرو، يؤْمنك الله من الفزع الأكبر. قال: يا محمد، وما الفزع الأكبر، فإنّي لاأفزع. فقال: يا عمرو إنّه ليس كما تظنّ وتحسب، إنّ الناس يصاح بهم صيحة واحدة، فلايبقى ميّت إلّا نشر، ولاحيّ إلّا مات، إلّا ماشاء الله. ثمّ يصاح بهم صيحةً أُخرى فينشر من مات، ويصفّون جميعاً وتنشقّ السماء وتهدّ الأرض وتخرّ الجبال هدّاً، وترمي النار بمثل الجبال شرراً، فلايبقى ذوروح إلّا انخلع قلبه وذكر ذنبه وشغل بنفسه، إلّا ماشاء الله، فأين أنت يا عمرو من هذا؟!

---

١ ـ أي اشتدّ عليه.

٢ ـ المقلّص: الطويل القوائم من الفرس والنوق. راد بنفسه: خدعها وعرضها للهلاك. وهذا البيت ممّا تمثّل به أميرالمؤمنين علي عليه السلام بسأن ابن ملجم المرادي لعنه الله لمّا أحسّ منه الغدر.

وعندئذٍ قال عمرو: ألا أنّي أسمع أمراً عظيماً، فآمن بالله ورسوله، وآمن معه من قومه ناس ورجعوا إلى قومهم.[١]

يقال: إنّه ارتدّ بعد رسول الله ﷺ وكان على قومه حينذاك فروة بن مسيك فقال فيه:

وجدنا ملك فروة شرّ ملك حماراً ساف منخره بثفر[٢]

وكنت إذا رأيت أبا عمير ترى الحَوَلاء من خبث وغدر[٣]

وكان ذلك ـ على ما قيل ـ على عهد أبي بكر، فبعث إليه المهاجر بن أبي أُميّة، فأسر عمرواً وأرسله إلى أبي بكر، فعاود الإسلام. وحضر القادسية وأبلى فيها. قال قيس بن أبي حازم: شهدت القادسيّة فكان عمرو بن معدي كرب يمرّ على الصفوف ويقول: يا معشر المهاجرين كونوا أُسوداً أشدّاء، وكان إذا حمل أخذ الفارس ويرميه على الأرض ويقول: اصنعوا هكذا. وهو القائل بشأن تلك الوقعة:

والقادسيّة حين زاحم رستم كنّا الكماة نهزّ كالأسطان[٤]

ومضى ربيع بالجنود مشرقاً ينوي الجهاد وطاعة الرحمان

وفي سنة ٢١ كانت وقعة نهاوند وفيها انهزم المسلمون، وقاتل عمرو بن معدي كرب يومئذ حتى كان الفتح، فأثخنته الجراحة فمات بقرية «روذة» وقد تجاوز المائة. وقيل: إنّه عاش بعد ذلك وشهد صفّين، فكان من المعمّرين الذين تجاوزوا المائة والخمسين. وكان شيخاً عظيم الخلقة، أعظم ما يكون من الرجال، أخشن الصوت، إذا التفت التفت بجميع جسده.[٥]

---

١ ـ كتاب الإرشاد، ص ٨٤، ط نجف و ص ١٥٨، ط قم. ٢ ـ ساف: شمّ. والثفر من البهائم بمنزلة الرحم من الإنسان.

٣ ـ الحولاء ـ بضم الحاء وكسرها وفتح الواو ـ: جلدة ماؤها أخضر تخرج مع الولد.

٤ ـ رستم بن فرّخزاد: قائد جيوش الفرس. وكماة: جمع كمّي بمعنى الشجاع. والأسطان: آنية الصفر. قال الفيروزآبادي: وكأنّ النون بدل اللام من السطل بمعنى الطست. ٥ ـ سيرة ابن هشام، ج ٤، ص ٢٣٠؛ والإصابة، ج ٣، ص ١٩.

٧ ـ معاوية بن زهير بن قيس

كان شاعراً مجيداً، وله قصائد مطوّلة ورنّانة، كان من أحلاف بني مخزوم مشركاً صلباً. وهو الذي مرّ بهبيرة بن أبي‌وهب، وهم منهزمون يوم بدر، وقد أعيا هبيرة، فقام وألقى عنه درعه وحمله فمضى به.

قال ابن هشام: وأصحّ أشعار أهل بدر ماقاله أبوأُسامة معاوية بن زهير:

ولمّا أن رأيت القوم خَفُّوا ... وقد شالت نعامتهم لنفر[١]

وإن تركت سراة القوم صرعى ... كأنّ خيارهم أذباح عِتْر[٢]

إلى أكثر من ثلاثين بيتاً.

وقال أيضاً:

ألا من مبلغ عنّي رسولاً ... مغلغلة يثبّتها لطيف[٣]

ألم تعلم مردّي يوم بدر ... وقد برقت بجنبيك الكفوف[٤]

وقد تركت سراة القوم صرعى ... كأنّ رؤوسهم حدج نقيف[٥]

إلى ما يقرب من عشرين بيتا.

قال ابن هشام: تركت قصيدة لأبي أُسامة على اللام، ليس فيها ذكر بدر إلّا في أوّل بيت فيها والثاني، كراهية الإكثار.[٦]

٨ ـ عامر بن الطفيل العامري

هو ابن عم لبيد الشاعر، وكان فارس قيس وسيّدهم، وكان عقيماً لايولد له. وكان شاعراً فخوراً مستكبراً لايرى لغيره ولالغير قومه ولالغير أرضه وبلاده من وزن. وقد ذكر

---

١ ـ قال السهيلي: العرب تضرب زوال النعامة مثلاً للفرار. تقول: شالت نعامة القوم، إذا فرّوا والنعامة: باطن القدم، ومن مات، شالت نعامته.

٢ ـ سراة القوم: أشرافهم. والعتر: الصنم الذي يذبح له قربان.

٣ ـ المغلغلة: الرسالة تغلغل من بلد إلى بلد. واللطيف: الرفيق الحاذق.

٤ ـ برقت: لمعت.

٥ ـ الحدج: الحنظل. والنقيف: المكسور.

٦ ـ سيرة ابن هشام، ج ٣، ص ٣٥-٤٠.

جرجي زيدان بعض شعره بهذا الشأن، وله ديوان أقدم على طبعه المستشرقون.

وهوالذي تواطأ مع أربدبن قيس ليغتال رسول اللهﷺ فعصمه الله من شرّهما، وخرجا من عنده كافرين وماتا على الكفر لعنهما الله.[١]

٩ ـ الأغلب بن عمرو العجلي الراجز

هو أحد المعمّرين في الجاهلية وأدرك الإسلام وأسلم، وكان في جملة من توجّه إلى الكوفة مع سعد، ومات في واقعة نهاوند سنة ٢١.

وهو أوّل من رجز الأراجيز الطوال. إذ كانت العرب ينشدون الرجز في الحرب والحداء والمفاخرة فيأتون منه بأبيات يسيرة. ثمّ جاء الأغلب فكان أوّل من قصد الرجز وأطاله ثمّ سلك الناس طريقته. ومن ثمّ سمّي بالراجز.[٢]

وذكرنا في ترجمة لبيد: استنشاد المغيرة له وللبيد، فأبى لبيد ولكن الأغلب جاء إليه وقال:

أرجزاً تريد أم قصيداً   لقد طلبت هيّناً موجودا

فكتب المغيرة بذلك إلى عمر فأمره أن ينقص من عطائه خمسمائة يزيدها في عطاء لبيد.[٣]

١٠ ـ أُميّة بن أبي الصلت

كان شاعرا فحلا من شعراء الجاهلية وأدرك الإسلام كافرا.

فمن شعره:

---

١ ـ أُسدالغابة، ج ٣، ص ٨٤؛ وتأريخ آداب اللغة العربية، ج ١، ص ١٣٨.

٢ ـ أُسدالغابة، ج ١، ص ١٠٥؛ وتأريخ آداب اللغة العربية، ج ١، ص ١٤٣.

٣ ـ الإصابة، ج ١، ص ٥٧.

حَـوْل شـياطينهم أبـابيلُ رِبِّـ ـيونَ شـدُّوا سـنَوّرا مَـدْسورا

في قصيدة له. ذكره ابن هشام.[١]

وهو القائل يوم بدر يرثي من أُصيب من قريش في قصيدة مطلعِها:

ألا بكـــيت عـلى الكـرا م بني الكـرام أُولي المـمادح

كـبكا الحـمام عـلى فـرو عِ الأيك في الغصن الجوانح[٢]

وقال ـ أيضاً ـ يبكي زمعة بن الأسود وقتلى بني أسد في قصيدة مطلعها:

عـين بكـيّ بـالمسبلات أبـا الحـا رث لاتـذخري عـلى زمـعة[٣]

١١ ـ شدّاد بن الأسود بن شعوب الليثي

كان ممّن أسلم ثمّ ارتدّ[٤] وهو الذي قتل حنظلة بن أبي عامر غسيل الملائكة، لمّا رآه علا بسيفه أبا سفيان، فأدركه شدّاد فقتله دون أبي سفيان فقال في قتله حنظلة:

لأحمينّ صـاحبي ونـفسي بطعنة مثل شعاع الشـمس[٥]

وقال أيضاً يذكر يده عند أبي سفيان:

ولولا دفـاعي يـابن حـرب ومشـهدي لألفـيت يـوم النـعف غـير مـجيب[٦]

ولولا مكـرّي المـهر بـالنعف قـرقرت ضِـباع عـليه أوضِـراء كـليب[٧]

ولعلّ ذلك ثَقُلَ على أبي سفيان، فقال وهو يذكره في أبيات مطلعها:

---

١ ـ سيرة ابن هشام، ج ٣، ص ١١٩. وأبابيل: الفرق. والربّيون: الجماعة. والسِنوَّر: السلاح الحديدي والملبوس أيضاً. والمدسور: المشدود بالدّسار وهو شيء يشبه الليف تشدّ به الألواح.

٢ ـ سيرة ابن هشام، ج ٣، ص ٣١. والأيك: الشجر الملتفّ، واحدته: أيكة. والجوانح: الموائل، يقال: جنح إذا مال.

٣ ـ المصدر، ص ٣٤. والمسبلات: الدموع. وأبوالحارث كنيته زمعة.

٤ ـ المصدر، ص ٣١.

٥ ـ المصدر، ص ٧٩-٨١ و ١٣٠.

٦ ـ النعف: أسفل الجبل، يريد جبل أُحد.

٧ ـ قرقرت: أسرعت. الصباغ: ما يصبغ به، يريد به الدم. ضراء: تطعّم الكلب بلحم الصيد.

ولو شئت نَجَّتني كُمَيْتٌ طِمِرّةٌ   ولم أحمل النعماء لابن شُعوب[١]

١٢ ـ أبو محجن الثقفي

فارس شجاع وكان مستهتراً مولعاً بالشراب وقد أدرك الإسلام، لكنّه لم ينخلع من سقطاته، ذكروا أنّه هوى امرأة من الأنصار على عهد عمربن الخطاب، يقال لها شموس، فحاول النظر إليها فلم يقدر، فآجر نفسه من بنّاء يبني بيتاً بجانب منزلها، فأشرف عليها من كوّة، فأنشد:

ولقد نظرت إلى الشموس ودونها   حرج من الرحمان غيرقليل... الخ

فاستعدى زوجها إلى عمر، فنفاه وبعث معه رجلاً يقال له أبوجهراء كان من أعوان أبي‌بكر يستعمله في حوائجه.

وكان لايزال يجلد في الخمر. وأنّ عمر جلده في الخمر سبع مرّات. وهو الذي يقول:

إذا متّ فادفنّي إلى جنب كرمة   تروّي عظامي بعد موتي عروقها

ولاتدفنّي في الفلاة فإنّني   أخاف إذا ما متّ أن لاأذوقها

وكان في منفاه بالبصرة أيضاً يتعاطى الخمر ولا يتورّعها، ومن ثمّ أمر به عمر أن يحمل إلى البحر، ولكنّه هرب ولجأ إلى معسكر سعدبن أبي وقّاص بالكوفة. ولمّا كان يوم القادسيّة حمله سعد معه، لكنّه أُتي به يوما وهو سكران من الخمر فأمر به فقيّد وحبسه في بيته. وكان بسعد جراحة، فاستعمل على الخيل خالدبن عرفطة، وصعد سعد فوق البيت لينظر ما يصنع الناس، واتفق أنّ المسلمين أصابهم جهد، فهاجت حماسة أبي محجن وهو يسمع الغوغاء فجعل يتمثّل:

كفى حزناً أن تطعن الخيل بالقنا   وأُترك مشدوداً عليّ وثاقيا

---

١ ـ الطِمرّة: الفرس السريعة الوثب. والنعماء: اليد البيضاء الصالحة.

إلى أن يقول:

هـلمّ سـلاحي لا أباً لك إنّـني أرى الحرب لاتزداد إلّا تماديا

ثمّ قال لامرأة سعد ـ واسمها سلمى ـ وكانت في البيت: ويلك خلّيني فلك لله عليّ إن سلمت أن أجيء حتى أضع رجلي في القيد، وإن قتلت استرحتم منّي. فاحتالت في إطلاق سراحه.

فوثب أبومحجن على فرس سعد بباب البيت وكانت من أجياد الأفراس يقال لها: البلقاء، فأخذ الرمح وانطلق حتى أتى الناس وحمل على الأعداء، فجعل لايحمل في ناحية إلّا هزمهم بإذن الله، فتحيّر الناس من وجود هذا الفارس وجعلوا يقولون: إنّ هذا ملك! وسعد ينظر إلى جموع العسكر ويقول في نفسه: «الضبر ضبر البلقاء[١] والطفر طفر أبي محجن، وأبومحجن في القيد!» فلمّا انهزم العدوّ ورجع أبومحجن ووضع القيد في رجله، جاءت سلمى إلى سعد وأخبرته الخبر.

فقال سعد: لاوالله لاأحدّ اليوم رجلاً أبلى الله المسلمين على يديه ما أبلاهم، فخلّى سبيله فقال أبومحجن عند ذلك: لقد كنت أشربها إذ كان يقام عليّ الحدّ، أطّهّر منها، فأمّا إذا بهرجتني[٢] فوالله لاأشربها أبداً.[٣]

١٣ ـ الحارث بن هشام المخزومي

هو أخو أبي جهل لأبويه وابن عمّ خالدبن الوليد وابن عمّ حنتمة أُمّ عمربن الخطاب، وقيل: أخوها، وشهد بدرا كافرا فانهزم وعيّر بفراره[٤] فاعتذر بقوله:

---

١ ـ الضبر ـ بالضاد المعجمة والباء الموحدة ـ: عدو الفرس.

٢ ـ يقال: بهرج الدم أي أهدره. وبهرج المكان: لم يجعله حمى. كناية عن عدم إقامة الحدّ عليه.

٣ ـ الإصابة، ج ٤، ص ١٧٤.

٤ ـ يقال أنّ حسان بن ثابت عيّره ببيتين:

←

الله أعــلم مـا تـركت قـتالهم | حتى حبوا مُهري بأشقر مُـزبِد[١]
وعرفت أنّي إن أُقـاتل واحـداً | أُقتل ولايَنكي عدوّي مشهدي[٢]
فصددت عنهم والأحـبّة فـيهم | طمعا لهم بعقاب يـوم مـفسد[٣]

قال الأصمعي: لم أسمع اعتذاراً في الفرار أحسن من هذا![٤]

وهكذا لمّا بلغه شعر أبي‌سفيان في واقعة أُحد:

ولو شـئت نـجّتني كُـمَيْتٌ طِـمِرَّةٌ | ولم أحـمل النـعماء لابـن شـعوب[٥]
ومازال مـهري مـزجـر الكـلب مـنهم | لدن غـدوة حـتى دنت لغـروب[٦]

فظنّه تعريضاً بفراره يوم بدر، فقال مجيباً:

جــزيتهم يـوما بـبدر كـمثله | عـلى سـابح ذي مـيعة وشـبيب[٧]
لدى صحن بـدرٍ أو أقـمت نـوائـحاً | عـليك ولم تـحفل مـصاب حـبيب
وإنّك لوعـاينت مـاكـان مـنهم | لأبت بـقلب مـابقيت نـخيب[٨]

وكان الحارث بن هشام من أعيان قريش، وله في كلّ واقعة يد. وكـانت قـريحته الشعريّة تعمل في خدمة الكفر ومعارضة الإسلام. وله قصائد كثيرة في وقائع دامية كانت بين المشركين وجيوش الإسلام.

منها قصيدته في يوم بدر، مطلعها:

← إن كنت كاذبةً بما حدّثتني | فنجوت منجى الحارث بن هشام
ترك الأحـبّة أن يـقاتل دونـهم | ونـجا بـرأس طِـمرّة ولجـام

راجع: أُسدالغابة، ج ١، ص ٣٥١.

١ ـ حبوا: أعطوا. والمهر: ولد الفرس. والأشقر: كناية عن الدم. والمُزبد: الذي علاه الزبد.

٢ ـ أي لم يؤلم قتاي عدوّا لي.

٣ ـ سيرة ابن هشام، ج ٣، ص ١٩.

٤ ـ أُسد الغابة، ج ١، ص ٣٥١.

٥ ـ الكميت من الخيل: ماكان لونه بين الأسود والأحمر. والطمرّة ـ بكسرتين وتشديد الراء المفتوحة ـ : الفرس السريعة الوثب.

٦ ـ سيرة ابن هشام، ج ٣، ص ٨٠. ومزجر الكلب: كناية عن القرب.

٧ ـ الميعة: الخفة والنشاط.

٨ ـ المصدر، ص ٨٢. وأبت: رجعت. والنخيب: الجبان.

ألا يـــالقومي للـــصّبابة والهَـــجْر ... ولَلْحزن منّي والحرارةُ في الصدر[١]

وقصيدة أُخرى يعرّض بها علي بن أبي طالب عليه السلام مطلعها:

عـــجبت لأقـــوام تـغنّى سـفيههم ... بأمرِ سفاهٍ ذي اعتراض وذي بطل[٢]

وقال يبكي أخاه أباجهل في قتلى بدر:

ألا يـالهف نـفسي بـعد عـمرو ... وهل يغني التلهّف مـن قـتيل[٣]

إلى غيرهنّ من قصائد وأشعار عارض فيها الإسلام والمسلمين.

وأسلم يوم الفتح مرغما، وقد استجار يومئذ بأُمّ هاني بنت أبي طالب، فذكرت ذلك للنبيّ صلى الله عليه وآله فقال: قد أجرنا من أجرت. وأعطاه رسول الله صلى الله عليه وآله من غنائم حنين كما أعـطى المؤلّفة قلوبهم. ومات في طاعون عمواس سنة ١٧، أيّام عمربن الخطاب، فتزوّج عـمر بامرأته فاطمة بنت الوليد، أُخت خالدبن الوليد.[٤]

١٤ ـ ضرار بن الخطّاب الفهري

كان من فرسان قريش وشجعانهم وشعرائهم المطبوعين المُجودين. وهو أحد الأربعة الذين وثبوا الخندق. قال ابن بكّار: لم يكن في قريش أشعر منه ومن ابن الزبعرى. وبعضهم يفضّله على ابن الزبعرى. قال ابن بكّار: تقول رواة العشر أنّ ابن الزبعرى كان أشعر قريش، وأمّا ما سقط إلينا من شعره وشعر ضراربن الخطّاب، فضرار عندي أشعر منه وأقلّ سقطا.[٥]

وكان ضرارُ ضراراً على المسلمين بسيفه وشعره حتى كان يوم الفتح وسقوط قريش فاستسلم مع من استسلم من قريش، فجاء مسترحما ومستعطفا، خائفا ممّا أوعده سعدبن عبادة من استحلال الحرمة بشأن قريش، قال:

---

١ ـ الصبابة: رقة الشوق.

٢ ـ المصدر، ص ١٠ و ١٢.

٣ ـ المصدر، ص ٢٩.

٤ ـ أُسدالغابة، ج ١، ص ٣٥٢.

٥ ـ المصدر، ج ٣، ص ٤٠ و ١٥٩.

يــا نــبيّ الهــدى إليك لجا | حيُّ قـريش وأنت خـير لجـاءٍ
حين ضاقت عـليهم سـعة الأر | ض وعــاداهــم إله الســماء
والتقت حلقتا البطان على القوم | ونــودوا بــالصيلم الصـلعاء[١]
إن سعداً يـريد قـاصمة الظـهر | بأهــل الحــجون والبـطحاء[٢]

ومن شعره يوم بدر، في قصيدة مطلعها:

عـجبت لفـخر الأوس والحـيْن دائـر | عــليهم غــداً والدهـر فـيه بـصائر[٣]

ويقول فيها:

فإن تك قـتلى غـودرت مـن رجـالنا | فــإنّا رجــالاً بــعدهم ســنغادر[٤]

وقال ـ أيضاً ـ في رثاء أبي جهل، في قصيدة يقول فيها:

فــبلّغ قــريشا أنّ خــير نــديّها | وأكرم من يمشي بسـاق عـلى قـدم[٥]
ثوى يوم بـدر رهـنَ خـوصاء رهـنها | كريم المسـاعي غـير وغـد ولابـرم[٦]
فآليت لاتــنهلّ عــيني بــعبرة | على هالك بعد الرئيس أبـي الحكـم[٧]

وقال ردّاً على شعر كعب بن مالك كان يرثي حمزة بن عبدالمطلب وقتلى أُحد، في قصيدة مطلعها:

أيــجزع كــعب لأشـياعه | ويبكي من الزمن الأعوج[٨]

ولضرار في وقعة أُحد قصائد عديدة يتشفّى بها عن قتلاهم ببدر ويشمت الأنصار في لهجة قاسية، منها قوله:

إنّـي وجـدّك لولا مَـقْدَميْ فـرسي | إذ جالت الخيل بين الجزع والقاع[٩]

---

١ ـ الصيلم: السيف الصارم. والصلعاء: الجرداء.
٢ ـ المصدر، ص ٤٠.
٣ ـ الحين ـ بفتح الحاء المهملة ـ: الهلاك والموت.
٤ ـ سيرة ابن هشام، ج ٣، ص ١٣-١٤.
٥ ـ النديّ: المجلس.
٦ ـ الخوصاء: البئر الضيّقة. والوغد: الدنيء. والبرم: البخيل.
٧ ـ المصدر، ص ٢٨. والنهل: سال.
٨ ـ المصدر، ص ١٤٧.
٩ ـ الجزع: منعطف الوادي. والقاع: المنخفض من الأرض.

مازال منكم بجنب الجزع من أُحد | أصواتُ هامٍ تزاقي أمرها شاع[1]

... إلى آخرها.[2]

وقوله:

لمّا أتت من بني كعب مزيّنة | والخزرجيّة فيها البيض تأتلق[3]

وجرّدوا مشرفيّات مهنّدة | وراية كجناح النسر تختفق[4]

فقلت يوم بأيّام ومعركة | تُنبي لما خلفها ماهُزْهِزَ الورق[5]

... الخ[6]

وقوله ـ معرضاً بما أُصيب المسلمون يوم أُحد ـ:

مابال عينك قد أزرى بها السُّهد | كأنّما جال في أجفانه الرمد[7]

أمن فراق حبيب كنت تألفه | قد حال من دونه الأعداء والبعد[8]

... في أبيات كثيرة.

وله في يوم الخندق قصيدة مطنطنة يقول فيها:

بأيدينا صوارم مرهفاتٌ | نقدّ بها المفارق والشئونا[9]

كأنّ وميضُهنّ معرّياتٍ | إذا لاحت بأيدي مصلتينا[10]

وميضُ عقيقةٍ لمعت بليل | ترى فيها العقائق مستبينا[11]

فلولا خندق كانوا لَدَيه | لدمّرنا عليهم أجمعينا

---

١ ـ الهام: جمع هامة، وهي الطائر الذي يزعم العرب أنّه يخرج من رأس القتيل فيصيح. وتزاقي: تصيح. وشاعي: مقلوب شائع.

٢ ـ المصدر، ص ١٥٢.

٣ ـ مزيّنة: كتيبة فيها أنواع من السلاح. تأتلق: تلمع وتضيء.

٤ ـ المشرفيّات: السيوف المنسوبة إلى المشارف من قرى الشام.

٥ ـ هزهز: حرّك.

٦ ـ المصدر، ص ١٥٣.

٧ ـ السّهد: عدم النوم. وأزرى: قصر. والرمد: وجع العين.

٨ ـ المصدر، ص ١٧٢.

٩ ـ المرهف: الدقيق. والشأن: موصل قبائل الرأس.

١٠ ـ الوميض: لمعان البرق. وأصلت السيف: جرّده.

١١ ـ العقيقة: واحدة العقيق، الجوهرة المعروفة. وأيضاً: الوادي وكلّ مسيل ماء شقّه السيل.

ولكــن حــال دونـهم وكــانوا ... بــه مــن خــوفنا مــتعوّذينا

... الخ.[١]

ولقد صدق ابن بكّار، أنّ شاعريّة ضرار لقويّة.

وله مطايبات مع أبناء جلدته من قريش، قال يوماً لأبي بكر: نحن كنّا لقريش خيراً منكم، أدخلناهم الجنة، وأوردتموهم النار! يعني أنّه قتل المسلمين فدخلوا الجنة. وأنّ المسلمين قتلوا الكفّار فأدخلوهم النار.

واختلف الأوس والخزرج فيمن كان أشجع يوم أُحد، فمرّ بهم ضرار. فقالوا: هذا شهدها وهو عالم بها فاسألوه عن ذلك. فقال: لاأدري ما أوسكم وماخزرجكم. لكنّي زوّجت منكم يوم أُحد أحد عشر رجلاً من الحورالعين!

ومن الطريف أنّ ابن الأثير يذكر أنّ عمربن الخطاب روى عنه.[٢]

وروى الذهلي عن السائب بن يزيد، قال: بينا نحن مع عبدالرحمان بن عوف في طريق مكّة إذ قال عبدالرحمان لرياح بن‌المعترف: غنّنا، فقال له عمربن الخطاب: إن كنت آخذاً، فعليك بشعر ضراربن الخطاب![٣]

١٥ ـ الحُطيئَة العبسي

هو جرول بن أوس من بني عبس، قال أبوالفرج: كان من فحول الشعراء ومقدّميهم وفصحائهم. متين الشعر، شرود القافية، متصرّف في جميع الفنون من المديح والهجاء والفخر والنسيب، ويجيد في ذلك كلّه.

قال الأصمعي: وما تشاء أن تقول في شعر شاعر أنّه عيب إلّا وجدته إلّا الحُطيئة فقلّما تجد ذلك في شعره. وقال إسحاق الموصلي: ما أزعم أنّ أحداً من الشعراء بعد زهير

---

١ ـ المصدر، ص ٢٦٦.

٢ ـ أُسدالغابة، ج ٣، ص ٤٠.

٣ ـ الإصابة، ج ٢، ص ٢٠٩.

أشْعر من الحُطَيئة[١] ولكنّه كان دنيء النفس ذا شرٍّ وسفهٍ لارأي له، من الشعراء الذين في كلّ وادٍ يهيمون. كانت العرب تخاف لسانه، كانوا يسترضونه بالمال خوفاً من شرّه، فقد كان يستدرّ الناس بتهديدهم بالهجو.

ذكروا أنّه نزل المدينة فجمعوا له من كلّ أهل بيت من قريش والأنصار العشرة والعشرين حتى كانت أربعمائة، وظنّوا أنّهم قد أغنوه، وما أن صارت الجمعة إلّا وهو يستقبل الإمام ماثلاً يُنادي: من يحملني على نعلين...[٢] هكذا كان يفعل مع كلّ قوم ينزل فيهم وإلّا سلقهم بهجوه.

قال جرجي زيدان: وأكثر هجوه ـ بعد الإسلام ـ الذي وصل إلينا، في الزبرقان وبغيض. كان الزبرقان من عمّال عمربن الخطاب، وقد عرف شدّة وطأة الحُطيئة فأحبّ أن يقرّبه فأنزله في قومه وضمن له مؤونة عياله على أن يستصفي له مدحه. وكان بغيض وإخوته ينافسون الزبرقان. فاغتنموا استهانة «أُمّ شذرة» أُمّ الزبرقان مرّة بالحُطيئة فدعوه إليهم وأكرموه وبالغوا في إكرامه، فمدحهم بالبيت المشهور الذي رفع رؤوسهم به وهو:

قوم هم الأنف، والأذناب غيرهم ... ومن يسوّي بأنف الناقة الذنبا؟

وكان من هجوه للزبرقان بهذه المناسبة:

والله ما معشر لاموا امرئاً جنباً ... في آل لأيٍ بن شمّاسٍ بأكياس

إلى أن يقول:

ملّوا قراه وهرّته كلابهم ... وجرّحوه بأنياب وأضراس

دع المكارم لاترحل لبغيتها ... واقعد فإنّك أنت الطاعم الكاسي

من يفعل الخير لايُعدَم جوازيه ... لايذهب العرف بين الله والناس

فشكاه الزبرقان إلى عمر، فدعا عمر حسانَبن ثابت، فقال: أتراه هجاه؟ قال: نعم،

---

١ ـ المصدر، ج ١، ص ٣٧٨.

٢ ـ وفي رواية: على بغلين. تأريخ آداب اللغة العربية، ج ١، ص ١٦٨-١٦٩.

وسلح عليه، فسجنه. فكتب إليه من السجن:

ماذا تقول لأفـراخ بـذي مـرخ حمر الحواصل لاماء ولاشـجر

ألقيت كاسبهم في قـعر مـظلمة فاغفر عليك سـلام الله يـاعمر

فأخرجه من السجن وهدّده بقطع لسانه وأُذنيه، فتوسّط له عمروبن العاص فأطلق سراحه وأوصاه أن يكفّ عن الهجو.[١]

وبلغ من شغف الحُطيئة بالهجو أنّه هجا والديه وهجا نفسه.[٢]

وهو من أصحاب المشوبات، ومطلع مشوبته:

نَأتك أُمـامة إلّا سـؤالاً وأبصرت منها بعين خيالاً

قال ابن الأثير: إنّه أسلم في حياة الرسولﷺ ثمّ ارتدّ بعده ثمّ أسلم، ولم تكـن له صحبة. وإنّ وفد بني عبس لمّا وفدوا على النبيﷺ كانوا تسعة، وأسـماؤهم مـعروفة، وليس الحطيئة منهم. وذلك لأنّ الوفود من القبائل كانوا أعيانها ورؤسـاءها، والحـطيئة مازال مهيناً خسيساً لم يبلغ محلّه أن يكون مع الوفد.[٣]

قال ابن الأثير: هو مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام، وكان أسلم في عهد النبيﷺ ثمّ ارتدّ، ثمّ أُسِر وعاد إلى الإسلام.

وعن حمّاد الراوية: حُطيئة ـ مصغّرةً ـ لقّب بذلك لأنّه ضرط ضرطة بين قوم، فقيل له: ما هذا؟ قال: هي حطأة.[٤] وهي المدفوع من الأُست، يقال: حطأ إذا ضرط. وحطأ بها: حبق. وحطأ بسلحته: رمى بها. قال الفيروزآبادي: حطأ: جعس أي تغوّط. قال الزبيدي: وبذلك سمّي الحطيئة.

والحطيئة: الرجل الدميم القصير. قال الفيروزآبادي: وهو لقب جَرْوَل الشاعر، قـال

---

١ ـ راجع الإصابة، ج ١، ص ٣٧٨-٣٧٩.

٢ ـ راجع في ذلك: تأريخ آداب اللغة العربية، ج ١، ص ١٦٩-١٧٠.

٣ ـ أُسد الغابة، ج ٢، ص ٣٠.

٤ ـ الإصابة، ج ١، ص ٣٨٧.

الجوهري: لدمامته. وقيل: كان يلعب مع الصبيان فسمع منه صوت فضحكوا، فقال: مالكم إنّما كانت حُطيئة. فلزمته نبزاً.

١٦ ـ الخنساء السلميّة[1]

اسمها تماضر بنت عمروبن الشريد من سراة سليم (قيس) من أهل نجد. وقد أجمع رواة الشعر على أنّه لم تقم امرأة في العرب قبلها ولابعدها أشعر منها[2] وقد أنشدت شعرها للنابغة في سوق عكاظ فأعجب به وقال لها: لولا أنّ هذاالأعمى (يعني الأعشى) أنشدني قبلك لفضّلتك على شعراء هذا الموسم.

وأكثر شعرها في رثاء أخيها صخر، كان قد قتل في وقعة يوم الكلاب كان غزا بني أسد فطعنه أبوثور الأسدي طعنة مرض منها حولا ثمّ مات، وكان حليماً جواداً محبوباً لدى قومه.

ومن شعرها في رثاء أخيها صخر:

أعــينيّ جــودا ولاتــجمدا ... ألا تــبكيان لصــخر النــدى

---

١ ـ الخنس: تأخّر الأنف إلى الرأس وارتفاعه عن الشفة وليس بـ لويل ولامشرف. فهو أخنس وهي خنساء. وأصل الخنس في الضباء والبقر وهي كلّها خُنْس. وأنف البقر أخنس، لايكون إلّا هكذا قيل: وبه سمّيت المرأة خنساء، تشبيها بالظباء والبقر الوحش كما جاء في شعر لبيد. تاج العروس، ج ٤، ص ١٤٣.

٢ ـ ويدلّك على ذلك شاهداً قصة نقدها في عكاظ على حسان بن ثابت، حين أنشدها قوله:

لنا الجفنات الغرّ يلمعن بالضحى ... وأسيافنا يقطرن من نـجدة دمـا

ولدنا بني العـنقاء وابـن مـحرق ... فأكرم بنا خالا وأكرم بـنا ابـنما

فقالت الخنساء: ضعّفت افتخارك وأبرزته في ثمانية مواضع. قال: وكيف؟ قالت: قلت «لنا الجفنات» والجفنات مادون العشر. فقللت العدد. ولو قلت «الجفان» لكان أكثر. وقلت «الغرّ» والغرّة البياض في الجبهة ولو قلت «البيض» لكان أكثر اتساعاً. وقلت «يلمعن» واللمع شيء يأتي بعد الشيء، ولو قلت «يشرقن» لكان أكثر. لأنّ الإشراق أدوم في اللمعان. وقلت «بالضحى» ولو قلت «بالعشيّة» لكان أبلغ في المديح. لأنّ الضيف بالليل أكثر طروقاً. وقلت «أسيافنا» والأسياف دون العشر. ولو قلت «سيوفنا» كان أكثر. وقلت «يقطرن» فدللت على قلّة القتل. ولو قلت «يجرين» لكان أكثر. لانصباب الدم. وقلت «دماً» والدماء أكثر من الدم. وفخرت بمن ولدت ولم تفتخر بمن ولدوك! هامش إعجاز القرآن للرافعي، ص ٢٢٥.

ألا تبكيان الجريّ الجميل | ألا تبكيان الفتى السيّدا
طويل النجاد عظيم الرماد | وساد عشيرته أمرداً

ومن قولها فيه:

وأنّ صخراً لمولانا وسيّدنا | وأنّ صخراً إذا نَشْتُوا لَنحّار
أشمّ أبلج يأتمّ الهداة به | كأنّه علم في رأسه نار

قَدُمت على رسول الله صلى الله عليه وآله في وفد بني سليم، فذكروا أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان يستنشدها ويعجبه شعرها. فكانت تنشده وهو صلى الله عليه وآله يقول: هيه ياخُناس[1] ويؤمي بيده.

يقال: إنّها حضرت القادسيّة مع أولادها الأربعة، فجعلت تحرّضهم على الثبات في القتال فتقول لهم: يا بَنيّ إنّكم أسلمتم وهاجرتم مختارين، وإنّكم لبنو رجل واحد وبنو امرأة واحدة، ما خنت أباكم ولافضحت خالكم ولاهجنت حسبكم ولاغيّرت نسبكم. وقد تعلمون ما أعدّ الله للمسلمين من الثواب الجزيل في حرب الكافرين. واعلموا أنّ الدار الباقية خير من الدار الفانية يقول الله عزّوجل: «**يا أَيُّها الَّذينَ آمَنوا اصْبِروا وَصابِروا وَرابِطُوا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحونَ**»[2] فإذا أصبحتم غداً إن شاء الله سالمين، فاغدوا إلى قتال عدوّكم مستبصرين، وبالله على أعدائه مستنصرين. وإذا رأيتم الحرب قد شمّرت عن ساقها واضطرمت لظىً على سياقها، وحللت ناراً على أرواقها، فتيمّموا وطيسها، وجالدوا رئيسها عند احتدام خميسها، تظفروا بالغُنم والكرامة في دار الخلد والمقامة!

فخرج بنوها، قابلين نصحها، فتقدّموا وقاتلوا وهم يرتجزون، وأبلوا بلاء حسناً واستشهدوا رحمهم الله، فلمّا بلغها الخبر قالت: «الحمد لله الذي شرّفني بقتلهم وأرجوا من ربّي أن يجمعني بهم في مستقرّ رحمته».

---

١ ـ خناس كغراب اسم خنساء مخفّفاً. قال الفيروزآبادي: ويقال لها خناس. كما ورد في شعر دريدبن الصمّة:

أخناس قد هام الفؤاد بكم | وأصابه تبل من الحب

٢ ـ آل عمران ٣: ٢٠٠.

وكان عمربن الخطاب يعطي الخنساء أرزاق أولادها الأربعة المقتولين.[١]

١٧ ـ مالك بن عوف

كان رئيس المشركين يوم حنين، وهو الذي جمع الجموع، وانقضّ على رسول الله ﷺ وأصحابه، فكانت الهزيمة أوّلاً لجيوش المسلمين ثمّ عادت على المشركين، فلحق مالك بالطائف فقال رسول الله ﷺ: لو أتاني لرددت عليه أهله وماله. فبلغ ذلك مالكا فلحق به وأسلم فأعطاه النبي ﷺ كما أعطى المؤلّفة قلوبهم. فأنشد مالك يخاطب رسول الله ﷺ:

ما أن رأيت ولاسمعت بواحد ... في الناس كلّهم كمثل محمد

أوفى فأعطى للجزيل إذا اُجْتُدي[٢] ... ومتى تشاء يخبرك عمّا في غد

وإذا الكتيبة عرّدت أنيابها ... بالسمهري وضرب كلّ مهنّد[٣]

فكأنّه ليث على أشباله ... وسط الهباءة خادر في مرصد[٤]

وكان قبل إسلامه وتأليفه قلبه شديداً على المسلمين يحرّض العرب عليهم، وهو الشاعر المفلّق.

من ذلك قوله يوم حنين يرتجز بفرسه:

أقدم محاجٌ إنّه يوم نُكُر ... مثلي على مثلك يحمي ويكرّ

في أكثر من ثمانية أبيات، ومحاجّ اسم فرسه.[٥]

وقال عند منهزمة الناس من الهوازن وغيرهم:

---

١ ـ اُسد الغابة، ج ٥، ص ٤٤٢؛ والإصابة، ج ٤، ص ٢٨٨؛ وتأريخ آداب اللغة العربية، ج ١، ص ١٦٦.

٢ ـ الاجتداء ـ بالدال المهملة ـ: سؤال الحاجة، وطلب الجدوى أي الكفاية والغنى.

٣ ـ عرّدت أنيابها: قويت واشتدّت. والسمهري: الرمح. والمهنّد: السيف.

٤ ـ الهباءة: غبار يثور عند اشتباك الحرب. والخادر: الأسد في عرينه. والمرصد: المكمن.

٥ ـ سيرة ابن هشام، ج ٤، ص ٨٩.

ولولا كـرّتان عـلى مـحاج　　　لضاق على العضاريط الطريق

إلى آخر الأبيات.[١]

وقال ـ معتذراً فراره يومئذ ـ:

منع الرقـاد فـما أُغـمّض سـاعةً　　　نـعَمٌ بأجـزاع الطـريق مـخضرم[٢]

في قصيدة طويلة.[٣]

الأمر الذي يدلّنا على طول باعه في الشعر وإنشاد القريض لولا أن أفحمته روعة القرآن!

١٨ ـ مالك بن نمط ذوالمشعار

قال ابن هشام: قدم وفد همدان على رسول الله ﷺ منهم مالك بن نمط أبو ثور، وهو ذوالمشعار وكان شاعراً مجيدا[٤] ـ ومعه أشراف قومه ـ قال الحسن بن يعقوب الهمداني في كتاب «نسب همدان»: إنّهم كانوا مائة وعشرين نفساً[٥] قال ابن هشام فلقوا رسول الله ﷺ مرجعه من تبوك، قال: وعليهم مقطّعات الحبرات،[٦] والعمائم المدنيّة برحال المَيْس[٧] على المَهْريّة[٨] والأرحبيّة.[٩] وكان مالك بن نمط ورجل آخر يرتجزان بالقوم، يقول أحدهما:

همدان خـير سُـوقة وأقـيال　　　ليس لها في العالمين أمثال[١٠]

محلّها الهضب ومنها الأبـطال　　　لهـا إطـابات بـها وآكـال[١١]

---

١ ـ المصدر، ص ٩٨.

٢ ـ النعم: الإبل. وأجزاع الطريق: معطفاته. ومخضرم: مقطوع الأُذن علامةً.

٣ ـ المصدر، ص ١١٧.

٤ ـ السيرة الحلبية، ج ٣، ص ٢٣٠.

٥ ـ الإصابة، ج ٣، ص ٣٥٧.

٦ ـ المقطعات: ثياب مخيطة. والحبرات. برود يمنيّة.

٧ ـ الميس ـ بفتح الميم ـ: خشب تصنع منه الرحال التي تكون على ظهر الإبل.

٨ ـ المَهرية: الإبل النجيبة، تنسب الى مَهرة، قبيلة باليمن. ٩ ـ الأرحبية: إبل تنسب إلى أرحب، قبيلة من همدان أوفحل.

١٠ ـ السوقة: مَنْ دون الملوك والرؤساء. والأقيال: الملوك دون الملك الأكبر، واحده قيل.

١١ ـ الهضب: ما ارتفع من الأرض ترتوي من الأمطار أكثر. والواحدة: هضبة. والإطابات: الأموال الطيّبة. والآكال: ما يأخذ الملك من رعيّته وظيفةً له عليهم.

ويقول الآخر ـ قال ابن الأثير: هو ابن نمط ـ:[١]

إليك جاوزن سواد الريف   في هبوات الصيف والخريف[٢]

مخطّماتٍ بحبال اللّيف[٣]

فقام مالك بن نمط بين يدي رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ﷺ نصيّة[٤] من همدان، من كلّ حاضر وباد، أتوك على قلص نواج،[٥] متّصلة بحبائل الإسلام، لا تأخذهم في الله لومة لائم، من مخلاف[٦] خارف، ويام وشاكر[٧] أهل السود والقود،[٨] أجابوا دعوة الرسول، وفارقوا آلهات الأنصاب،[٩] عهدهم لا ينقض ما أقامت لعلع، وماجرى اليعفور بصلع.[١٠]

فأكرمهم رسول الله ﷺ وكتب لهم كتابا أقطعهم فيه ما سألوه وأمّرَ عليهم مالكاً في من أسلم من قومه. وهذا نصّ الكتاب:

«بسم الله الرحمان الرحيم. هذا كتاب من رسول الله محمد ﷺ لمخلاف خارف وأهل جناب الهضب وحقاف الرمل[١١] مع وافدها ذي المشعار مالك بن نمط، ومن أسلم من قومه، على أنّ لهم فراعها ووهاطها[١٢] ما أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة، يأكلون علافها ويرعون عافِيَها[١٣] لهم بذلك عهد الله وذمام رسوله، وشاهدهم المهاجرون والأنصار...».

---

١ ـ أُسد الغابة، ج ٤، ص ٢٩٤.

٢ ـ السواد هنا: القرى الكثيرة الشجر والنخل. والريف: الأرض التي تقرب من الأنهار والمياه الغزيرة. والهبوات: جمع هبوة وهي الغبرة.

٣ ـ مخطّمات: الإبل تجعل لها خطم، وهي الحبال التي تشدّ على آناف الإبل.

٤ ـ النصيّة: خيار القوم.

٥ ـ القلص ككتب: الإبل الفتيّة. الواحد: قلوص كرسول. ونواج: مسرعة.

٦ ـ المخلاف: بمعنى المدينة، بلغة اليمن.

٧ ـ خارف، ويام، وشاكر: قبائل يمنيّة.

٨ ـ السود: الإبل تساود نبات الأرض. والقود: الخيل التي تقاد من غير ركوب.

٩ ـ آلهات: جمع آلهة. والأنصاب: حجارة تذبح عليها القرابين.

١٠ ـ لعلع: جبل. واليعفور: ولد الظبية. وصلع: اسم موضع.

١١ ـ الحقاف: جمع حقف وهو مستدير الرمل.

١٢ ـ الفراع: أعالي الأرض. والوهاط: المنخفض المطمئن من الأرض.

١٣ ـ العلاف: ثمر الطلح. والعافي: كثير النبات.

فقال في ذلك مالك بن نمط:

ذكرت رسول الله في فحمة الدجى ونحن بأعلا رحرحان وصلدد[١]

وهنّ بنا خوص طلائح تغتلي بركبانها في لاحب متمدّد[٢]

على كلّ فتلاء الذراعين جسرة تمرّ بنا مرّ الهِجَفّ الخَفَيْدَدِ[٣]

حلفت بربّ الراقصات إلى منى صوادر بالركبان من هَضْب قَرْدَدِ[٤]

بأنّ رسول الله فينا مصدَّق رسول أتى من عند ذي العرش مهتد

فما حملت من ناقة فوق رحلها أشدّ على أعدائه من محمّد

وأعطى إذا ما طالبُ العرف جاءه وأمضى بحدّ المشرفيّ المهنّد[٥]

١٩ ـ فروة بن عامر الجذامي

كان عاملاً للروم على من يليهم من العرب، وكان منزله معان (قرب عمان عاصمة الأردن) وماحولها من أرض الشام. وكان شاعراً مجيداً عارفاً بفنون الكلام.

ولمّا بلغه خبر النبيّ ﷺ وخضوع العرب له، بعث إليه ﷺ رسولاً بإسلامه، وأهدى له بغلة بيضاء.

ولمّا سمعت الروم بإسلامه طلبوه حتّى أخذوه فحبسوه عندهم. فكان ممّا قال في محبسه ذلك:

طرقتْ سُلَيمى مَوْهناً أصحابي والروم بين الباب والقروان[٦]

---

١ ـ الفحمة: السواد. والدجى: الظلمة جمع دجية. ورحرحان وصلدد: موضعان.

٢ ـ الخوص: الغائرة العيون، جمع خوصاء. وطلائح: معيبة. وتغتلي: تشتدّ في سيرها. واللاحب: الطريق البيّن.

٣ ـ الجسرة: الناقة القويّة على السير. والهجف: الذكر الضخم من النعام. والخفيدد: بمعنى الهجف.

٤ ـ الراقصات: الإبل، والرقص ضرب من سيرها فيه حركة. وصوادر: رواجع. والقردد: ما ارتفع من الأرض، بمعنى الهضب.

٥ ـ سيرة ابن هشام، ج ٤، ص ٢٤٤-٢٤٦.

٦ ـ الموهن: بعد ساعة من الليل. و القروان ـ جمع قرو بالكسر ـ حويض من خشب تسقى فيه الدواب.

إلى آخر أبياته التي نقلها ابن هشام.[١]

وأجمعت الروم على قتله، فصلبوه على ماء لهم يقال لها عفرى بفلسطين، قال:

ألاهـل أتـى سلمى بأنّ حـليلها | على ماء عفرى فوق إحدى الرواحل
على نـاقة لم يـضرب الفـحل أمّـها | مشـذّبة أطـرافـها بـالمناجل[٢]

وقال ـ أيضاً ـ خطاباً إلى المسلمين:

بـلّغ سـراةَ المسـلمين بأنّـني | سَـلْمٌ لربّـي أَعْـظُمي ومـقامي

٢٠ ـ كعب بن زهير المزني

كان كعب من أهل بيت الشعر في الجاهلية والإسلام. قال ابن حجر: وكـان زهـير وولداه: بجير وكعب، وولدا كعب: عقبة والعوّام، شعراء. قال الحطيئة لكعب: أنتم أهل بيت ينظر إليكم في الشعر، فاذكرني في شعرك، ففعل.

وروي عن الشعبي قال: أنشد النابغة الذبياني النعمان بن المنذر:

تـراك الأرض إمّـا متّ حـقّا | وتحيى مـا حـييت بـها ثـقيلاً

فقال له النعمان: هذا البيت إن لم تأت بعده ببيت يوضّح معناه، وإلّا كان إلى الهجاء أقرب. فتعسّر على النابغة النظم. فقال له النعمان: قد أجّلتك ثلاثاً، فإن قلت فلك كذا من الإبل العصافير[٣] وإلّا فضربة بالسيف بالغة مابلغت!

فخرج النابغة وهو وَجِلٌ وأتى زهير بن أبي سلمى والد كعب، وكان زميله في الشعر والقريض فنحر له وأكرمه وقصّ عليه الخبر، فجلسا يفكّران لا يصفران شيئاً، وكان كعب حينذاك صبيّاً يلعب بالتراب مع الصبيان. فأقبل فرأى كلّا منهما واضعا ذقنه على صدره

---

١ ـ المصدر، ص ٢٣٨؛ وأُسد الغابة، ج ٤، ص ١٧٨.

٢ ـ شذّب الشجر: قشّر لحاه. والمنجل: آلة حديديّة يقضب بها الزرع ونحوه.

٣ ـ العصفور: السيّد والمقصود هنا: النجائب.

يفكّر! فقال: ياأبت مالي أراك قد اغتممت؟ فقال: تنحّ! فدعاه النابغة ووضعه على فخذه، وأنشده البيت.

فقال كعب للنابغة: يا عمّ ما يمنعك أن تقول:

وذلك إن فـلـلت الغـي عـنها   فـتمنع جـانبيها أن تـميلا

فضمّه أبوه إليه وقال: ابني وربّ الكعبة. وأعجب النابغة، فغدا على النعمان وأنشده، وساق الإبل إلى كعب فأبى أن يقبلها منه.

مات أبوه زهير كافراً قبل المبعث، وبقي كعب وأخوه بجير كافرين، حتى فتح الله مكة على يد رسول الله ﷺ فاتفق أنّ كعبا وبجير خرجا في غنم لهما حتى أتيا أبرق وذلك عند منصرف رسول الله ﷺ عن الطائف سنة تسع من الهجرة، فقال بجير لكعب: اثبت في غنمنا حتى آتي هذا الرجل فأسمع ما يقول. فجاء بجير رسول الله ﷺ فأسلم، فبلغ ذلك كـعبا، فقال:

ألا أبـلغا عـنّي بـجيراً رسـالة   على أيّ شيء ويبَ غيرك دلّكا؟

في أبيات.. يهجو بها رسول الله ﷺ![1]

فبلغت أبياتُه رسول الله ﷺ فأهدر دمه، وقال: من لقى كعباً فليقتله. فكتب بجير إليه يخبره أنّ رسول الله ﷺ قتل رجالا بمكة ممّن كانوا يهجونه ويؤذونه، وإن بقي من شعراء قريش كابن الزبعرى وهبيرة بن أبي‌وهب، قد هربوا في كلّ وجه. فإن كانت لك في نفسك حاجة، فَطِرْ إلى رسول الله فإنّه لايقتل أحداً جاءه تائباً، وإن أنت لم تفعل فانج إلى نجائك من الأرض.[2]

ويقال: إنّ بجير أجابه في أبيات شعر أيضاً، منها:

---

١ ـ اختلاف نقل الأبيات، كذا نقلها ابن هشام، ج ٤، ص ١٤٥.

قوله: «ويب غيرك». ويب بالواو: كلمة مثل ويل لفظاً ومعناً، منصوب على إضمار فعل، وهو دعاء بالهلاك أي ليهلك غيرك، مقصوداً به النبيّ ﷺ وقبله: «وخالفت أسباب الهدى واتّبعته» فيما سجّله ابن هشام، فراجع.

٢ ـ سيرة ابن هشام، ج ٤، ص ١٤٤.

مَـــنْ مُـــبْلغ كـعباً: فـهل لك فـي التـي
تـلوم عـليها بـاطلاً وهـي أحـزم
إلى الله ـ لا العـزّى ولااللّات ـ وحـده
فـتنجوا إذا كـان النـجاء وتسـلم.. الخ

قال ابن إسحاق:

فلمّا بلغ كعباً الكتاب ضاقت به الأرض، وأشفق على نفسه، وأرجف به من كان في حاضره من عدوّه، فقالوا: هو مقتول. فلمّا لم يجد بدّاً قال قصيدته التي يمدح فيها رسول‌الله ﷺ ثمّ خرج حتى قدم المدينة، فنزل على رجل من جهينة كانت بينهما معرفة، فغدا إلى رسول‌الله ﷺ حين صلّى الصبح، فصلّى مع رسول‌الله ﷺ ثمّ أشار به إلى رسول‌الله ﷺ فقال: هذا رسول‌الله فقم إليه فاستأمنه، فقام اليه حتى جلس عنده متنكّرا ووضع يده في يد رسول‌الله ﷺ ورسول الله لايعرفه، فقال: يا رسول‌الله، إن كعب بن‌زهير قد جاء ليستأمن منك تائباً مسلماً، فهل أنت قابل منه إن أنا جئتك به؟ قال ﷺ: هو آمن، فحسر كعب عن وجهه، وقال: بأبي أنت وأُمّي يا رسول‌الله ﷺ هذا مكان العائذ بك، أنا كعب بن‌زهير، فأمنه رسول‌الله ﷺ.

فأنشد كعب قصيدته التي كان أعدّها قريضاً في رسول‌الله ﷺ مطلعها:

بانت سعاد فـقلبي اليـوم مـتبول ... مـتيّم إثـرها لم يُـفْدَ مكـبول[١]
وما سـعادُ غـداة البـين إذ رحـلوا ... إلّا أغنُّ غضيض الطرف مكـحول[٢]
هـيفاءُ مـقبلةً عـجزاء مـدبرةً ... لايُشـتكى قـصر مـنها ولاطـول[٣]

إلى أن يقول:

١ ـ بانت بمعنى فارقت. المتبول: الذي أسقمه الحب وأضناه. والمتيَّم: المستذلّ من شدّة الحبّ. لم يفد: أي لم يفك من الأسر. والمراد: أسر الحب. والمكبول: المقيّد.

٢ ـ الأغن: الظبي الصغير الذي في صوته غنّة. غضيض الطرف: فاتره. المكحول: المكتحل.

٣ ـ هيفاء: من الهيف بمعنى ضمور البطن ودقّة الخاصرة. عجزاء: كبيرة العجز وهو الردف.

كــلّ ابـن أُنـثى وإن طـالت سـلامته ... يــوماً عــلى آلة حــدباء مـحمول[١]

نــبّئت أنّ رســولالله أوعــدني ... والعــفو عــند رســولالله مأمــول[٢]

مــهلاً هــداك الذي أعــطاك ... نافلة القرآن فيها مـواعـيظ وتـفصيل[٣]

لاتأخــذنّي بأقــوال الوشــاة ولم ... أُذنِب ولو كــثرت فــيّ الأقــاويل[٤]

لقــد أقــوم مــقاما لو يــقوم بــه ... أرى وأســمع مــا لو يـسمع الفـيل[٥]

لظــلّ يــرعد إلّا أن يكــون له ... مــن الرســول بــإذن الله تـنويل[٦]

حــتى وضــعت يـميني مـا أُنـازعه ... فــي كـفّ ذي نـقمات قـيلة القـيل[٧]

فَــلَهوَ أخــوف عــندي إذ أُكــلّمه ... وقــيل إنّك مــنسوب ومســؤول[٨]

مــن ضـيغم بـضراء الأرض مُـخْدَرُهُ ... فــي بــطن عَـثَّر غـيل دونـه غـيل[٩]

فجعل ينشدها حتى بلغ قوله:

إنَّ الرســول لنــور يســتضاء بــه ... مــهنّد مــن سـيوف الله مسـلول[١٠]

في فـتية مـن قـريش قـال قـائلهم ... بــبطن مكــة لمّـا أسـلموا زولوا[١١]

زالوا فــما زال أنكــاس ولا كُشُـف ... عــند اللــقاء ولامــيل مـعازيل[١٢]

---

١ ـ الآلة الحدباء: النعش الذي يحمل عليه الميّت.
٢ ـ نبّئت: أُخبرت. أوعدني: تهدّدني بالقتل.
٣ ـ النافلة: العطاء الممنوحة فوق التوقّع والانتظار.
٤ ـ الواشي: النمام.
٥ ـ يريد حضور النبيصلى‌الله‌عليه‌وآله وفي ظلّ عنايته المهابة.
٦ ـ يرعد: تأخذه الرعدة والرجفة. والتنويل: التأمين.
٧ ـ ما أُنازعه: أي أُطاوعه. ذونقمات: أي ذوسطوة وغلظة على أعدائه. وقيله: قوله.
٨ ـ أخوف: أي أرهبه عن لقائه.
٩ ـ الضيغم: الأسد. وضراء الأرض: مشجّرتها. ومخدر الأسد: مخبوه. وعَثَّر: مكان مشهور بكثرة السباع. والغيل: الشجر الكثير الملتفّ. وغيل دونه غيل. أي غابة قربها غابة أو أجمّة بقربها أجمّة.
١٠ ـ المهنّد: السيف المطبوع في الهند، ويقال: السيف الهنديّة. والمسلول: المخرج من غمده.
١١ ـ العصبة: الجماعة. وزولوا: أي تحوّلوا وانتقلوا.
١٢ ـ الإنكاس: جمع نكس ـ بالكسر ـ وهو الرجل الضعيف. والكُشُف: جمع أكشف وهو الذي لاتُرسَ له، كناية عن الرجل الشجاع. والميل: جمع أميل وهو الذي لاسيف معه ولايُحسن الركوب فيميل عن الفرس. والمعازيل: الذين لاسلاح لهم، واحده المعزال بكسر الميم.

فأشار رسول‌الله‌ﷺ إلى الناس، أن استمعوا إلى ما يقول...

ولمّا فرغ من إنشاده، حباه رسول‌الله‌ﷺ وأكرمه، وخلع عليه بردته المعروفة؛ التي كان الخلفاء الأمويّون والعباسيّون يتداولون لبسها في الأعياد تشريفاً بانتسابها إلى رسول‌الله‌ﷺ فكانت من شعارات الخلافة. يقال: إنّ معاوية اشتراها من ولد كعب بأربعين ألف درهم. وذكر أبوالفداء: أنّها انتقلت من العباسيّين إلى التتر. قال جرجي زيدان: لكنّها الآن في جملة المخلّفات النبويّة في السراي القديمة في الآستانة[١] أمّا القصيدة فطبعت مرّات وشرحها الكثيرون.

ولكعب مدائح أُخر بشأنه‌ﷺ قال ابن رشيق: أجمع الناس على تقديم قول كعب بن زهير حين يمتدح رسول‌الله‌ﷺ منها قوله:

تحمله الناقة الأدماء معتجراً ... بالبرد كالبدر جلّى ليلة الظلم[٢]

وفي عطافَيْه أو أثناء ريطته[٣] ... ما يعلم الله من دين ومن كرم[٤]

٢١ ـ حسّان بن ثابت الخزرجي

كان من الشعراء الهجّائين، عاصر الجاهليّة والإسلام، واشتهر في الجاهلية بمدح ملوك غسّان وملوك الحيرة، وله مع النابغة الذبياني أحاديث. وكان شديد الهجاء حتى قيل: لو مزج البحر بشعره لمزجه. ومن شعره في الجاهلية قوله يمدح جبلّة بن الأيهم الغساني:

أولاد جَفْنَة عند قبر أبيهم ... قبر ابن مارية الكريم المفضل

---

١ ـ قال الدكتور حسين مؤنس ـ بهامش تأريخ التمدن الإسلامي، ج ١، ص ١٣٦ ـ: من المشكوك فيه أن تكون البردة التي كان سلاطين آل‌عثمان يحتفظون بها هي بردة الرسول‌ﷺ.

٢ ـ الأدماء: السمراء. المعتجر: من لبس المعجر وهو ثوب تلفّه المرأة على رأسها.

٣ ـ العطافان: الرداء والإزار. والريطة، بالفتح: الملاءة تشبه الملحفة.

٤ ـ الإصابة، ج ٣، ص ٢٩٥؛ وسيرة ابن‌هشام، ج ٤، ص ١٤٤؛ والعمدة، ج ١، ص ٢٣ و ج ٢، ص ١٣٦.

يسقون من ورد البريص عليهم ... بردى يصفّق بالرحيق السلسل
يُفشون حتى ماتهرّ كلابهم ... لايسألون عن السواد المقبل
بيض الوجوه كريمة أحسابهم ... شمّ الأُنوف من الطراز الأوّل

واختصّ بعد الإسلام بمدح النبيّ ﷺ حتى قيل: إنّه شاعر رسول‌الله ﷺ ومن مدحه له قوله:

متى يبدُ في الداجي البهيم جبينه ... يَلُحْ مثلَ مصباح الدجى المتوقّد
فمن كان أو من قد يكون كأحمد؟ ... نظام لحقّ أو نكال لملحد

وكان الذين يهجون رسول‌الله ﷺ من مشركي قريش، أباسفيان وابن الزبعرى وعمروبن العاص وضراربن الخطّاب. فقال قائل لعلي بن أبي طالب: لوتهجُ القوم الذين يهجوننا؟ فقال: إن أذن رسول‌الله ﷺ !فقيل لرسول‌الله ﷺ فقال: ليس من عنده يراد ذلك. ثمّ قال: مايمنع الذين نصروا رسول‌الله ﷺ بأسيافهم أن ينصروه بألسنتهم؟ فقال حسان: أنا لها، يا رسول‌الله ﷺ فجاء حسان إلى أبي‌بكر ـ وهو يعرف أنساب قريش ومساوئ أُمّهاتهم ـ فتعرّف منه ما هداه إلى هجوهم بما أعجزهم وأداخ قريشا، فعرفوا أنّ ذلك من دلالة ابن أبي قحافة. فمن ذلك قوله في أبي سفيان:

وأنّ سنام المجد من آل هاشم ... بنو بنت مخزوم ووالدك العبد
ومن ولدت أبناء زهرة منهم ... كرام ولم يقرب عجائزك المجد
ولست كعباس ولاكابن أُمّه ... ولكن لئيم لاتقام له زند
وأنّ امرئاً كانت سُميّة أُمّه ... وسمراء مغمور إذا بلغ الجهد

فلمّا بلغ ذلك أبا سفيان قال: هذا شعر لم يغب عن ابن أبي قحافة.

قال ابن‌سيرين: انتدب لهجو رسول‌الله ﷺ أربعة (ذكرناهم) وانتدب لهجو المشركين ثلاثة: حسان وكعب بن مالك وعبدالله بن رواحة. فكان حسان وكعب يعارضانهم مثل قولهم في الوقائع والأيّام والمآثر ويذكرون مثالبهم. أمّا ابن رواحة فكان يعيّرشم بكفرهم

وعبادة مالا يسمع ولا ينفع، فكان قوله أهون عليهم.

قال الأصمعي: الشعر نكد، يقوى في الشّرّ ويسهل، فإذا دخل في الخير يَضْعُف فقد كان حسّان من فحول شعراء الجاهلية، فلمّا جاء الإسلام سقط شعره.

وقيل لحسان: لان شعرك وهرم يا أباحسام (لأنّ حسانا دخل الإسلام وقد تجاوز عمره الستّين) فقال: يا ابن أخي إنّ الإسلام يحجز عن الكذب، وذلك لأنّ الإجادة في الشعر إنّما هي في الإفراط، وهو كذب يمنعه الإسلام.

وكان حسان من أجبن الناس، حتى أنّ النبيّ ﷺ جعله مع النساء في الآطام[1] يوم الخندق وكانت صفيّة عمّة النبي ﷺ بنت عبدالمطلب في فارع[2] حصن حسان بن ثابت. قالت: وكان حسان معنا فيه مع النساء والصبيان، فمرّ بنا يهوديّ فجعل يطوف بالحصن حيث خندق النبيّ ﷺ فقلت لحسان: هذا اليهودي يطيف بالحصن كماترى ولا آمنه أن يدلّ على عورتنا من وراءنا من يهود، وقد شغل رسول الله ﷺ وأصحابه، فانزل إليه فاقتله! قال: يغفر الله لك يا بنت عبدالمطّلب، لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا. قالت صفيّة: فلمّا قال ذلك، أخذت عموداً فنزلت من الحصن إليه فضربته بالعمود حتّى قتلته ثمّ رجعت إلى الحصن، فقلت: يا حسان، انزل فاسلبه، فقال: مالي بسلبه من حاجة يابنت عبدالمطلب.

قال ابن الأثير: ولم يشهد مع النبيّ ﷺ شيئاً من مشاهده لجبنه.

عاش ستين سنة في الجاهلية وستين في الإسلام وكذلك عاش أبوه ثابت وجدّه المنذر وأبوجدّه حرام. ولا يعرف في العرب أربعة تناسلوا في مثل هذا العمر غيرهم.[3]

آل عبدالمطلب كلّهم شعراء

---

١ ـ جمع الأُطم ـ بضمّتين ـ بمعنى الحصن. ٢ ـ الفارع: المكان المرتفع.

٣ ـ أُسدالغابة، ج ٢، ص ٤ـ٧؛ وتأريخ آداب اللغة العربية، ج ١، ص ١٧١.

ولو قلنا: إنّ العرب كلّهم شعراء في ذلك العهد لما بالغنا، ولاسيّما قريشاً كانوا أَفذاذ العرب وخالصتها، وخصوصاً بني عبدالمطلب، إذ ليس منهم رجالاً ونساءً من لم يقل شعراً، حاشا النبيّ ﷺ فما كان ينبغي له الشعر... قاله ابن رشيق.[1]

فمن شعر حمزة بن عبدالمطلب يذكر لقاءه أباجهل وأصحابه في قصيدة منها:

عشـيّة صاروا حاشدين وكلّنا ... مراجله من غيظ أصحابه تغلي

فلمّا تراءينا أناخوا فعقّلوا ... مطايا وعقّلنا مدى غرض النبل

وقلنا لهم: حبل الإله نصيرنا ... ومالكم إلّا الضلالة من حبل

فثار أبوجهل هنالك باغياً ... فخاب وردّ الله كيد أبي جهل

وما نحن إلّا في ثلاثين راكباً ... وهم مائتان بعد واحدة فضل

❊ ❊ ❊

وأمّا العباس فكان شاعراً مفلّقاً حسن التهدّي، من ذلك قوله يوم حنين يفتخر بثبوته مع رسول الله ﷺ:

ألا هل أتى عرسي مكرّي وموقفي ... بوادي حنين والأسنّة تشرع

وقولي إذا ماالنفس جاشت لها قَدِي ... وهام تدهدى والسواعد تقطع

وكيف رددت الخيل وهي مغيرة ... بزوراء تعطى باليدين وتمنع

نصرنا رسول‌الله في الحرب سبعة ... وقد فرّ من قد فرّ عنه فأقشعوا

❊ ❊ ❊

ومن شعر الزبيربن عبدالمطلب بعد رفع بنيان الكعبة:

أعزّ به المليك بني لؤيّ ... فليس لأصله منهم ذهاب

وقد حشدت هناك بنو عدي ... ومرّة قد تقدّمها كلاب

فبوّأنا المليك بذاك عزّاً ... وعند الله يلتمس الثواب[2]

---

١ ـ العمدة، ج ١، ص ٣٦.

٢ ـ سيرة ابن هشام، ج ١، ص ٢١١.

وأمّا أبوالطالب ـ واسمه عبدمناف عند المشهور وقيل عمران ـ فحدّث عن غزارة شعره ولاحرج. كان شاعراً مجيداً، له في مديح الرسول صلى الله عليه وآله قصائد وروائع، منها: قصيدته العصماء تبلغ المائة بيت، قالها عندما خشي دهماء العرب وتألّبهم عليه في حمايته لرسول‌الله، متعوّذاً بحرم مكة وبمكانه منها، مهدّداً أنّه لايُسلم رسولَ‌الله ولاتاركه لشيء أبداً. وفيها إلماع بتصديقه للدعوة وإيمانه بصدق رسالة ابن أخيه، قال فيها:

أعوذ بربّ الناس من كلّ طاعن ... علينا بسوء أو ملحّ بباطل

ومن كاشح يسعى لنا بمعيبة ... ومن ملحق في الدين مالم نحاول

إلى أن يقول:

كذبتم وبيت الله نترك مكة ... ونظعن إلّا أمركم في بلابل

كذبتم وبيت الله نبزى محمداً ... ولمّا نطاعن دونه ونناضل[1]

إلى قوله في وصف الرسول صلى الله عليه وآله:

وما ترك قوم ـ لا أباً لك ـ سيّداً ... يحوط الذمار غير ذرب مواكل[2]

وأبيض يُسْتَسْقى الغمامُ بوجهه ... ثمال اليتامى عصمة للأرامل[3]

يلوذ به الهلّاك من آل‌هاشم ... فهم عنده في رحمة وفواضل[4]

إلى قوله ـ متنبّئاً بظهور الإسلام وغلبته ـ:

فابلغ قصيّاً أن سَيُنْشَر أمرنا ... وبشّر قصيّاً بعدنا بالتخاذل

إلى أن يقول:

لعمري لقد كُلّفت وجداً بأحمد ... وإخوته دأب المحبّ المواصل[5]

---

١ ـ البلابل: تشويش الخاطر. نُبْزى محمداً أي نُسْلَبُه ونُغْلَب عليه. والمناضلة: مراماة السهام.

٢ ـ الذمار: الحماية والذمام. والذرب: الفاحش اللسان. والمواكل: الذي يكل أُموره إلى غيره إذ ليس له جِدّ في الأُمور.

٣ ـ الثمال: الملجأ والمأوى ومن يقوم بأمر غيره.

٤ ـ أراد بالهلّاك الضلّال. وهو من لطيف التعريض بأُولئك الذين لم يهتدوا بهديه الرشيد.

٥ ـ المراد بالإخوة هنا ذو قرابته الأحداث ممّن آمنوا به وصادقوه.

فلازال في الدنيا جمالا لأهلها ... وزينا لمن والاه ربّ المشاكل
فمن مثله في الناس أيّ مؤمَّل ... إذا قاسه الحُكّام عند التفاضل
حليم رشيد عادل غير طائش ... يوالي إلهاً ليس عنه بغافل
لقد علموا أنّ ابننا لامكذَّب ... لدينا ولايُعْنى بقول الأباطل[١]
فأصبح فينا أحمد في أرومة ... تقصّر عنه سورة المتطاول
حدبتُ بنفسي دونه وحميته ... ودافعت عنه بالذرا والكلاكل[٢]
فأيّده ربّ العباد بنصره ... وأظهر دينا حقّه غير باطل

قال ابن‌هشام بعد ذكر القصيدة بتمامها: هذا ماصحّ لي من هذه القصيدة...[٣]

قال السهيلي: فإن قيل: كيف قال أبوطالب: وأبيض يستسقى الغمام بوجهه... الخ، ولم يره قط استسقى، وإنّما كانت استسقاءاته صلى الله عليه وآله في أسفاره وحضره بعد الهجرة...؟ فالجواب: أنّ أباطالب قد شاهد من ذلك أيضاً في حياة عبدالمطلب مادلّه على ماقال.

روى أبوسليمان حمدبن محمدبن إبراهيم الخطابي البستي النيسابوري[٤] أنّ رقيقة بنت أبي صيفي بن هاشم قالت: تتابعت على قريش سنو جدب قد أُقحلت الظلف[٥] وأرقت العظم، فبينا أنا راقدة للهمّ أو مهدّمة ومعي صنوي،[٦] إذا أنا بهاتف صيّت يصرخ بصوت صحل[٧] يقول يامعشر قريش، إنّ هذا النبيّ المبعوث منكم، هذا إبّان نجومه، فحيّهلا بالحيا والخصب،[٨] ألا فانظروا منكم رجلاً طوالاً عظاما أبيض أشمّ العرنين له فخر يكظم عليه...[٩]

---

١ ـ لامكذَّب: هو المصدّق في قومه وعشيرته الأقربين. وإذا كانت عقيدة أبي طالب فيه ذلك، فهو ممّا يدلّ صريحاً على تصديقه إيّاه وإيمانه برسالته.

٢ ـ السَّورة: الشدّة والبطش. والحدب: الحنان والعطف. والذرا: جمع ذروة: هي أعلى ظهر البعير. والكلاكل: جمع كلكل، عظم الصدر.

٣ ـ سيرة ابن هشام، ج ١، ص ٢٩٩.

٤ ـ صاحب الرسالة الأُولى في الإعجاز المتوفى سنة ٣٨٨ تقدّم الكلام عنه.

٥ ـ أقحل الشيء: أيبسه. الظلف للبعير بمنزلة الحافر للفرس.

٦ ـ الصنو: الأخ الشقيق.

٧ ـ صحل صوته: بحّ وخشن.

٨ ـ الحيا: المطر. الخصب: النبات.

قالت: فأصبحت مذعورة... فاقتصصت رؤياي. فوا لحرمة والحرم، إن بقي أبطحي إلّا قال: هذا شيبة الحمد (يريدون عبدالمطلب شيخ الأباطح) وتتامّت[١٠] عنده قريش وانقضّ إليه الناس من كلّ بطن فشنّوا ومسّوا واستلموا وطوفوا ثمّ ارتقوا أبـاقبيس، وطـفق النـاس يدفّون حوله ما أن يدرك سعيهم مهلة حتى قرّوا بذروة الجبل واستكفوا جنابيه.[١١]

فقام عبدالمطلب فاعتضد ابن ابنه محمداًصلى الله عليه وآله فرفعه على عاتقه وهو يومئذ غلام قد أيفع أو قد كرب.[١٢] ثمّ قال:

«اللهمّ سادّ الخلّة، وكاشف الكربة، أنت عالم غير معلّم، ومسؤول غيرمبخّل، وهذه عبداؤك وإماؤك بعذرات حرمك،[١٣] يشكون إليك سنتهم، فاسمعن اللهمّ وأمطرن عـلينا غيثاً مريعاً مغدقاً» فماراموا ـ والبـيت ـ حـتّى انـفجرت السـماء بـمائها وكـظّ الوادي بثجيجه.[١٤]

قال ابن‌هشام: وحدّثني من أثق به، قال:

أقحط أهل المدينة فأتوا رسول‌اللهصلى الله عليه وآله فشكوا ذلك إليه. فـصعد رسـول‌الله المـنبر فاستسقى، فما لبث أن جاء من المطرما أتاه أهل الضواحي[١٥] يشكون منه الغرق. فـقال رسول‌اللهصلى الله عليه وآله: «اللهمّ حوالينا ولاعلينا»،[١٦] فانجاب السحاب عن المدينة، فصار حواليها كالإكليل. فقال رسول‌اللهصلى الله عليه وآله لوأدرك أبوطالب هذا اليوم لسرّه. فقال له بعض أصـحابه: كأنّك يا رسول‌الله أردت قوله:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ... ثمال اليتامى عـصمة للأرامـل

---

٩ ـ العرنين: السيّد الشريف، وهو اسم لما صلب من الأنف. وأشمّ العرنين: الرافع رأسه عند المشي.

١٠ ـ تتامّ القوم: اجتمعوا كلّهم.

١١ ـ استكفوا جنابيه: أي ملؤوا طرفيه.

١٢ ـ أيفع الغلام: ترعرع وناهز البلوغ.

١٣ ـ عذرة الدار ـ بكسر الذال ـ: فناؤها.

١٤ ـ الروض الأُنف، ج ٢، ص ٢٩؛ وهامش سيرة ابن‌هشام، ج ١، ص ٣٠٠. والثجيج: السيل الغزير.

١٥ ـ الضواحي: جمع ضاحية هي الأرض البراز ليس فيها ما يكنّ من المطر. وضاحية كلّ بلد: خارجه ونواحيه.

١٦ ـ هو من حسن الأدب في الدعاء، لأنّ المطر رحمة ونعمة، فكيف يطلب رفع نعمته وكشف رحمته.

قال ﷺ: أجل.[١]

وممّا يستدلّ على إسلامه وقبوله للدعوة قوله ـ مخاطباً لرسول الله ﷺ ـ:

ودعوتني وعلمتُ أنّك صادق ... ولقد صدقتَ فكنتَ قبلُ أمينا

ولقد علمتُ بأنّ دين محمد ... من خير أديان البريّة دينا

ذكرهما ابن حجر في الإصابة.[٢]

وذكر أيضاً قوله من قصيدة:

وشقّ له من اسمه ليجلّه ... فذوالعرش محمود وهذا محمّد

وذكر ابن هشام ـ في السيرة ـ أبياتا وقصائد كثيرة قالها أبوطالب في مديح رسول الله ﷺ والإشادة بموضعه الكريم، منها قوله عند مارأى من قومه ما سرّه جهدهم معه وحدبهم عليه، جعل يمدحهم ويذكر قديمهم ويذكر فضل رسول الله ﷺ فيهم ومكانه منهم ليشدّ لهم رأيهم وليحدبوا على أمره أكثر، قال فيها:

إذا اجتمعت يوماً قريش لمفخر ... فعبد مناف سرّها وصميمها

وإن حصّلت أشراف عبد منافها ... ففي هاشم أشرافها وقديمها

وإن فخرت يوماً فإنّ محمداً ... هوالمصطفى من سرّها وكريمها

... إلى آخر مايقول...[٣]

❊ ❊ ❊

ومن شعر جعفربن أبي طالب ذي الجناحين قوله يوم مؤتة ـ وفيه قتل (رحمة الله عليه):

ياحبّذا الجنّة واقترابها ... طيّبة وبارد شرابها

والروم روم قد دنا عذابها ... عليّ إذ لاقيتها ضرابها

---

١ ـ سيرة ابن هشام، ج ١، ص ٣٠٠.

٢ ـ الإصابة، ج ٤، ص ١١٥-١١٦.

٣ ـ المصدر، ج ١، ص ٢٨٨.

ومن شعر عبدالله بن عباس:

إذا طارقات الهم ضاجعت الفتى — وأعمل فكر الليل والليل عاكر

وباكرني في حاجة لم يجد بها — سواي ولامِن نكبة الدهر ناصر

فرجت بمالي همّه من مقامه — وزايله همّ طروق مسامر

وكان له فضل عليّ بظنّه — بي الخير أنّي للذي ظنّ شاكر

❊ ❊ ❊

ومن شعر مولانا أميرالمؤمنين عليّ بن أبيطالب (عليه صلوات المصلّين) وكان مجوّداً ما قاله يوم صفّين يذكر همدان ونصرهم إيّاه:

ولمّا رأيت الخيل ترجم بالقنا — نواصيّها حمر النحور دوامي

وأعرض نقع في السماء كأنّه — عجاجة دجن ملبس بقتام

ونادى ابن هند في الكلاع وحمير — وكندة في لخم وحيّ جذام

تيمّمت همدان الذين هم هم — ـإذ ناب دهر ـ جنّتي وسهامي

فجاوبني من خيل همدان عصبة — فوارس من همدان غير لئام

فخاضوا لظاها واستطاروا شرارها — وكانوا لدى الهيجا كشرب مدام

فلو كنت بوّابا على باب جنّة — لقلت لهمدان ادخلوا بسلام

ومن شعره عليه السلام أيضاً يوم صفّين:

لمن راية حمراء يخفق ظلّها — إذا قلت قدّمها حضين تقدّما

فيوردها في الصّف حتّى يرد بها — حياض المنايا تقطر الموت والدما

❊ ❊ ❊

ومن شعر الحسن بن علي عليهما السلام وقد خرج على أصحابه مختضباً:

نسوّد أعلاها وتأبى أُصولها — فليت الذي يسودّ منها هو الأصل

ومن شعر الحسين بن عليّ عليه السلام وقد عوتب في امرأته:

لعمرك إنّني لأحبّ داراً — تحلّ بها سكينة والرباب

أُحبّهما وأبذل جلّ مالي — وليس للائمي عندي عتاب[1]

❊ ❊ ❊

وبنات عبدالمطلب كلّهن شاعرات:

فمن شعر صفيّة في قصيدة ترثي بها أباها عبدالمطلب:

أرقت لصوت نائحة بليل — على رجل بقارعة الصعيد

ففاضت عند ذلكم دموعي — على خدّي كمنحدر الفريد[2]

إلى أن تقول:

فلو خلد امرؤ لِقَديْمِ مجدٍ — ولكن لاسبيل إلى الخلود

❊ ❊ ❊

وقالت برّة بنت عبدالمطب تبكي أباها:

أعينيّ جودا بدمع درر — على طيّب الخيم والمعتصر

على ماجد الجدّ وار الزناد — جميل المحيّى عظيم الخُصر

إلى أن تقول:

أتته المنايا فلم تشوه — بصرف الليالي وريب القدر[3]

❊ ❊ ❊

وقالت عاتكة تبكي أباها عبدالمطّلب:

أعينيّ جوداً ولاتبخلا — بدمعكما بعد نوم النيام

أعينيّ واسحنفرا واسكبا — وشوبا بكاء كما بِالْتِداء[4]

---

١ ـ العمدة، ج ١، ص ٣٤-٣٧. ٢ ـ الفريد: الدرّ.

٣ ـ الشوى: الأطراف. ولم تشوه أي لم تصب الشوىٰ بل اصابت المقتل.

٤ ـ اسحنفر المطر ونحوه: غزر وكثر صبّه. والالتدام: ضرب الوجه في النياحة.

إلى أن تقول:

تبنّك في باذخ بيته ‏ ‏ ‏ ‏ رفيع الذؤابة صعب المرام[١]

❊ ❊ ❊

وقالت أُمّ حكيم البيضاء ترثي أباها عبدالمطلب:

ألا يا عين جودي واستهلّي ‏ ‏ ‏ ‏ وبكّي ذا الندى والمكرمات

أَلا ياعين ويحك أَسعفيني ‏ ‏ ‏ ‏ بدمع من دموعٍ هاطلات

إلى أن تقول:

فبكّيه ولاتسمي بحزن ‏ ‏ ‏ ‏ وبكّي، مابقيت، الباكيات

❊ ❊ ❊

وقالت أُميمة بنت عبدالمطلب تبكي أباها:

ألا هلك الرّاعي العشيرة ذوالفقد ‏ ‏ ‏ ‏ وساقي الحجيج والمحامي عن المجد

إلى أن تقول:

فقد كان زينا للعشيرة كلّها ‏ ‏ ‏ ‏ وكان حميداً حيث ما كان من حمد

❊ ❊ ❊

وقالت أروى بنت عبدالمطلب تبكي أباها:

بكت عيني وحُقّ لها البكاء ‏ ‏ ‏ ‏ على سمح سجيّته الحياء

إلى أن تقول:

مضى قُدُما بذي رُبَدٍ خشيب ‏ ‏ ‏ ‏ عليه حين تبصره البهاء[٢]

وذكر محمد بن‌سعيد بن‌المسيّب أنّ عبدالمطلب أشار برأسه وقد أصْمَت أضْمَت: أن هكذا فابكيني.[٣]

---

١ ـ تبنّك: تأصّل من البنك ـبضم الباء ـ وهو أصل الشيء وخالصه.

٢ ـ الربد ـكصرد ـ: الفرند. والخشيب: الصقيل. ويروى مكان البهاء. الهباء، وهو مايظهر على السيف المجوهر من الغبار.

٣ ـ سيرة ابن هشام، ج ١، ص ١٧٩-١٨٣.

فهرس الآيات

الفاتحة

البقرة

آل عمران

النساء

المائدة

الأنعام

الأعراف

الأنفال

التوبة

إبراهيم

الحجر

النحل

الإسراء

الكهف

مريم

طه

الأنبياء

الحج

النور

الفرقان

الشعراء

النمل

القصص

العنكبوت

الصافات

الزمر

غافر

فصلت

الشورى

الزخرف

الدخان

الجاثية

الأحقاف

محمد

الفتح

ق

الطور

النجم

القمر

الرحمان

الواقعة

المجادلة

الحشر

الصف

الجمعة

الملك

القلم

العصر

الهمزة

الكافرون

الكوثر

المسد

الإخلاص